

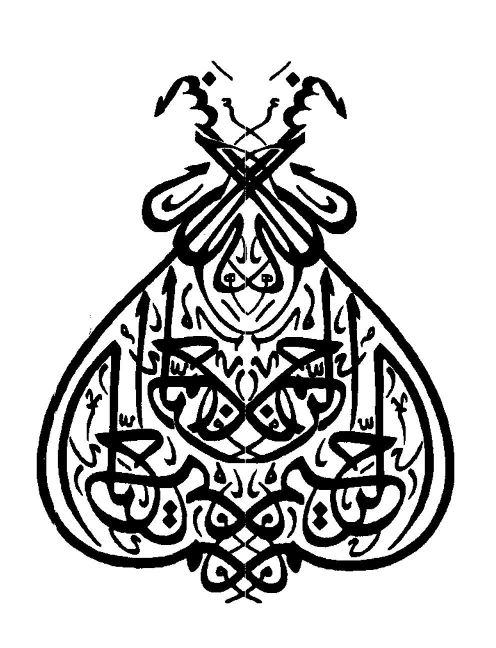
تأليف

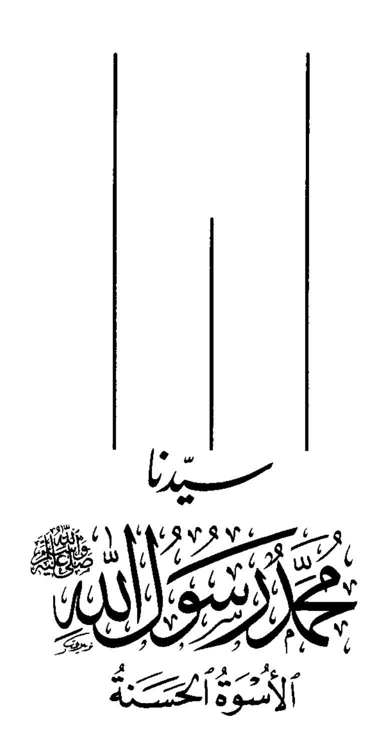
الشيخ أسعد محمد سعيد الصاغرجي
« خادم السنة النبوية والعلم الشريف »

وقف البركة الخيري

الجزء الأول

دار الكلم الطيب
للطباعة والنشر والتوزيع




سيّدنا
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم
الأسوة الحسنة

الطّبعَة الثالِثة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

طبعَة مُصحّحَة ومُنقّحَة



دمشق - حلبوني - شارع مسلم البارودي - هاتف ٢١٢٩٨٨٦ ص.ب ٣٠٥٥٢
بيروت. ص.ب : ١١٣/٦٣١٨

مقدّمة المؤلِّف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيِّين، وعلى آله وأصحابه الطاهرين، أما بعد:

فإن سيدنا محمداً ﷺ ذو قدر عظيم، ورتبة رفيعة عند الله سبحانه وتعالى، وقد أثنى عليه ربّه سبحانه وتعالى ثناءً لم يحظ به نبيٌّ مرسل، ولا ملك مقرّب، ولن يحظى به أحد.

فربنا تبارك وتعالى يثني على عبده ورسوله من حيث لا أوّل إلى حيث لا نهاية، قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٧] وقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور: ٥٢/ ٤٨]. وأثنى الله على نبيّه، فأناله المقامَ المحمود في الآخرة، والشفاعةَ العظمى التي تشعر بعظيم قدره ﷺ. روى الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح غريب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أوّل من تنشقّ عنه الأرض، فأُكسى الحُلّة من حلل الجنّة، ثم أقوم عن يمين العرش، ليس أحدٌ من الخلائق يقومُ ذلك المقام غيري»[1].

وروى أيضاً، وقال: حديث حسن غريب، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أوّلُ الناس خروجاً إذا بُعِثوا، وأنا خطيبُهم إذا وَفَدوا، وأنا مُبَشِّرهم إذا أَيِسوا، لواءُ الحمدِ يومئذٍ بيدي، وأنا أكرَمُ وَلَدِ آدمَ على ربّي ولا فخر»[2].

وأخبر عليه الصلاة والسلام بنعمة جليلة تفضَّل اللهُ بها عليه، وامتنّ،

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٢٤٦).

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٢٤٥).

ولم يَحْظَ بها أحدٌ من الأنبياء والرسل، وهي إيجابُ النُّبُوَّةِ له قبل خلق أبيه آدم عليه السلام، وهي ما رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح غريب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله! متى وجبت لك النُّبُوَّةُ؟ قال: «وآدمُ بينَ الرُّوحِ والجسد»[١].

وروى الإمام أحمد عن ميسرة الضَّبِّيِّ، قال: قلتُ: يا رسول الله! متى كنت نبياً؟ قال: «وآدمُ بين الرُّوح والجسد»[٢].

وروى ابن رجب الحنبلي عن ميسرة الضَّبِّيِّ، قال: قلتُ: يا رسول الله! متى كُتبتَ نبيّاً؟ قال: «كتبتُ نبياً وآدمُ بين الرُّوح والجسد»[٣].

إيضاح: جاء في الكتاب والسنة: أن الله تعالى خلقَ الأرواحَ قبلَ خلق الأجساد، والإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «كنت نبياً» قد تكون إلى روحه الشريفة ﷺ، أو إلى حقيقة من الحقائق التي تَقْصرُ العقولُ عن معرفتها وإدراكها، والله سبحانه وتعالى يُؤتي كلَّ حقيقة منها من يشاء، وفي الوقت الذي يشاء، وحقيقتُه ﷺ قد تكون من قبل نفخ الرُّوح في آدم عليه السلام، مُتهيِّئةً للنبوّة منذ ذلك الوقت، فصار نبيّاً، وكتب الله اسمَه ﷺ على العرش، وأخبرَ عنه بالرسالة ليعلمَ ملائكتَه وغيرهم رفعةَ رتبته، وعظيم قدره ﷺ، فحقيقتُه موجودة منذ ذلك الوقت، وإن تأخّر جسدُه الشريف المتّصف بها.

فاتصاف حقيقتِه بالأوصاف المفاضة عليه من الحضرة الإلهية حاصلٌ وآدمُ عليه السلام بين الروح والجسد، أما ظهوره بجسده، وابتعاثه لهداية الخلق، ودلالتهم على الله، وتبليغهم رسالة ربّه، فمتأخر.

ومن فسّرَ الحديث بأن محمداً ﷺ سيصير نبياً لم يصل إلى هذا المعنى؛ لأن علم الله تعالى محيطٌ بجميع الأشياء، وَوَصْفُ النبي ﷺ بالنبوّة في ذلك

---

(١) المصدر السابق.
(٢) الزرقاني على المواهب (١/ ٣٢).
(٣) المصدر السابق.

الوقت، ينبغي أن يفهم منه أنه أمرٌ ثابتٌ له في ذلك الوقت، ولو كان مجرّدَ العلم بما سيصير في المستقبل؛ لم يكن له عليه الصلاة والسلام خصوصية بأنه نبيٌّ وآدم بينِ الروح والجسد. فجميع الأنبياء يعلم الله تعالى نبوّتهم في ذلك الوقت وقبلَه، فلا بُدَّ من خصوصية للنبي ﷺ لأجلها أخبرَ بهذا الخبر إعلاماً لأمته؛ ليعرفوا قدرَه عند الله تعالى.

وقال الصالحي: روى ابن الجوزي بسند جيّد لا بأس به عن ميسرة رضي الله عنه، قال: قلتُ: يا رسولَ الله! متى كنت نبياً؟ قال: «لما خلقَ الله الأرضَ، واستوى إلى السماء فسوّاهُنَّ سبع سموات، وخلق العرش، كتبَ على ساق العرش: محمَّد رسولُ الله خاتم الأنبياء، وخلق الله الجنَّةَ التي أسكنها آدم وحوّاء، فكتب اسمي على الأوراق، والقباب، والخيام، وآدم بين الروح والجسد، فلما أحياه الله تعالى نظرَ إلى العرش فرأى اسمي، فأخبرَه الله تعالى أنَّه سيِّدُ ولدك، فلما غرَّهما الشيطان تابا، واستشفعا باسمي إليه».

وقد دَلّت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٠] على رفيع رتبته ﷺ وعظيم قدره، فقد أمر ﷺ بالاقتداء بهدي الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام. وهديُ الأنبياء: ما جاؤوا به من توحيد الله، وتنزيهه عن كل ما لا يليق في الذات، والصفات، والأفعال، وكذا فيما حازوه من خصال الكمال، وصفات الشرف التي كانت متفرقة فيهم، فامتنَّ الله تعالى عليه، وجمعها فيه، فكان إمامهم.

فكان له ﷺ شكرُ داود، وسليمان، وصبرُ أيوب، وزهدُ زكريا، ويحيى، وعيسى، وصدق إسماعيل، وتضرُّع يونس، ومعجزات موسى، وهارون، فلما أن حوى علومَهم، وأخلاقَهم، ومعجزاتهم أوجبَ على الأنبياء والرسل جميعاً اتباعه. قال النبي ﷺ: «لو نزلَ موسى فاتَّبعتمُوه،

وتركتُموني لضللتم، أنا حظُّكم من النبيين، وأنتم حَظِّي من الأمم»[١].

وروي عنه عليه الصلاة والسلام قوله: «لو كانَ موسى حيّاً ما وسعَه إلا اتِّباعي».

وسيدنا عيسى عليه السلام بعد هبوطه إلى الأرض يحكم بشريعة سيدنا محمد ﷺ.

أخذ الميثاق على النبيين:

ولرفيع رتبة سيدنا محمد ﷺ، وعظيم قدره؛ أخذ الله تعالى ميثاقَ النبيين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٨١].

وروى ابن جرير عن عليٍّ رضي الله عنه قال: لم يبعثِ الله عز وجل نبيّاً آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمّد ﷺ وهو حيٌّ ليؤمننَّ به، ولينصرنَّه، ويأمره فيأخذ العهدَ على قومه[٢].

وروى أيضاً عن قتادة في تفسير الآية قال: هذا ميثاقٌ أخذَه الله على النبيين أن يصدّق بعضُهم بعضاً، وأن يُبلِّغوا كتابَ الله ورسالاته، فبلَّغت الأنبياء كتابَ الله ورسالاتِه إلى قومهم، وأخذ عليهم فيما بلّغتهم رُسُلُهم أن يُؤمنوا بمحمد ﷺ، ويصدِّقوه، وينصروه[٣].

وهذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن جميعَ الأنبياء والمرسلين تحت لوائه ﷺ. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيِّدُ ولد آدم يومَ القيامة، وأوّلُ من ينشقُّ عنه القبرُ،

---

(١) جامع الأحاديث (٥/ ٣٩٧).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٢٣٦).

(٣) المصدر السابق.

وأوّلُ شافع وأوّل مشفّع»(١).

سيدنا رسول الله الأسوة الحسنة:

ولرفيع رتبته ﷺ، وعظيم قدره؛ أرشدَ الله تعالى الخلقَ إلى الاقتداء به في جميع أفعاله؛ التي ليست خصوصية له صلوات الله وسلامه عليه، إذا كانوا يرجون لقاء الله تعالى بالإيمان، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢١] والآية وإن نزلت في عتاب من تخلّفَ بالمدينة، ولم يخرج معه يومَ الأحزاب، كما أورده ابن الجوزي في «زاد المسير» فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي عامة داعية إلى الائتساء به ﷺ.

قال الحكيم الترمذي: الأسوة في الرسول: الاقتداء به، والاتّباع لسنته، وترك مخالفته في قول، أو فعل. فمتابعة الرسول ﷺ تجب على كل مؤمن حتى يتحقّقَ رجاؤه، ويثمر عملُه في الأعمال، والأخلاق، والمجاهدات بالنفس والمال، فإذا أحكم المؤمن ذلك في ابتداء أمره أفلح في نهايته. ثم إذا تزكّت نفسه، وتجرّد عن صفاتها الذّميمة، فعليه متابعته ﷺ فيما يرد على قلبه من الصدق، والإخلاص، والتسليم، والتوكل، فيثمر ذلك كلّه بركة متابعته بالمواهب والأحوال السنيّة. ولا يكونُ ذلك إلا بالوقوف على سيرته ﷺ بداية ونهاية.

ولذا فإني أقدّم بين يدي القارىء هذه السِّيرة العطرة، راجياً من الله تعالى أن يجعَلني أول العاملين المؤتسين على وجه الإخلاص، إنه خيرُ مسؤول وأكرمُ مجيب، وسمَّيتها «محمد رسول الله ﷺ: الأسوة الحسنة» ولا أدّعي أنني ابتكرت الطريقة ابتكاراً لم يسبقني إليه أحد، بل كلُّ ما كتبته في السيرة النبوية كان إمامي في كتابتي كتاب: سبل الهدى والرشاد؛ للصالحي، ودلائل النبوة؛ للبيهقي، والزرقاني على المواهب، وصحيح البخاري

---

(١) مسلم (٤/ ١٧٨٣).

ومسلم. وأما ترتيب الوقائع التاريخية، والتنسيق بينها فمما يسّره الله تعالى لي، فإن وُفّقت فبفضل الله تعالى، وإن كانت الأخرى فهذه شيمتي، وإلى الله تعالى أتوب ابتداءً من كل خطيئة وزلّة.

ولا أكتم أني كنت أكتب وأقرأ على الأستاذ الفاضل، الداعية إلى الله تعالى الشيخ: عبيد الله أمين كردي، وحاله معي كحال اليدين تُنَظِّفُ إحداهُما الأخرى، فلكم نبَّهني، وأرشدني، جزاه الله خيراً، وأطالَ في عمره في طاعة الله تعالى.

وفي الختام: أضرعُ إلى الله تعالى بالدعاء لمن كان سبباً في انخراطي في سلك أهل الكتابة، وهم كثيرون، مشائخي الكرام، الذين تَربَّيتُ على أيديهم، ونهلتُ من معينهم الثَّرِّ الصَّافي، وكلُّ كلمة قلتها أو كتبتها في الخير في صحائفهم إن شاء الله تعالى، وهم: الشيخ سعيد البرهاني، والشيخ عبد الوهّاب الحافظ الشهير بـدبس وزيت، والسيد محمد الهاشمي، والشيخ حسين خطاب، والشيخ حسن حبنكة الميداني، والشيخ إبراهيم اليعقوبي، وكلّهم دمشقيّون.

وكذلك الشيخ سليمان فخري حجازي المدني الذي كان سبباً في ارتقائي المنبر في مدينة سيدنا رسول الله ﷺ. رحمهم الله تعالى الرحمة الواسعة، وجمعني وإياهم تحت لواء سيدنا رسول الله ﷺ.

كما أخصُّ بالذِّكر من شجَّعني على إبراز هذا العمل: فضيلة الشيخ عبد العزيز عمر مكوار، والسيد حسن كتبي، مدّ الله في عمريْهما، وأطالَ باعيْهما في البرِّ والإحسان، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

المدينة المنورة في١٢/ ربيع الأول/ ١٤١٧هـ

٢٧/ تموز/ ١٩٩٦م

الشيخ أسعد محمد سعيد الصاغرجي

«خادم السنة النبوية والعلم الشريف»




الباب الأول

من سبق ذكره الشريف

في الكتب السابقة إلى بعثته ﷺ

الفصل الأول: في سبق ذكره في التوراة والإنجيل والزبور، وأخبار الأحبار والكهان، وصفاته المميزة له ﷺ.

الفصل الثاني: أسماؤه الشريفة مشفوعة بالأدلة.

الفصل الثالث: في فضل مسقط رأسه الشريف، وحمايته ممن أراد به السوء، وفضل قومه، وطهارة أصله، ونسبه الزكي، مع ترجمة رجاله، وهم: آباؤه ﷺ. ثم ولادته، وما وقع من الآيات ليلة مولده، ورضاعه، ومراضعه ﷺ.

الفصل الرابع: نشأته ﷺ، وكفالة جدّه عبد المطلب، وعمه أبي طالب، وسفره إلى الشام مرتين، وعصمته ﷺ في فتوّته وشبابه، وزواجه من خديجة رضي الله عنها، وعمله في بناء الكعبة المشرفة.





الفصل الأول

في سبق ذكره في التوراة والإنجيل والزبور وأخبار الأحبار والكهان، وصفاته المميزة ﷺ

تقدم ذكره ﷺ في الكتب السماوية السابقة:

لم يكن سيدنا محمد بن عبد الله أحدَ العباقرة، ولا أحدَ الزّعماء العالميين السِّياسيين العظام، ولا الرجل الوحيد في التاريخ؛ الذي كان ناجحاً في تأسيس أعظم امبراطورية في العالم، ونشر أحد أعظم الأديان في العالم كما يزعم الكثير، ويرون أنهم قد أنصفوه. كلا إنّ من يريدُ تعظيمَه، وتوقيره، ويمنحه حقّه، فعليه أن يشهدَ أنه رسولٌ من عند الله، بعثه الله تعالى إلى الناس كافّةً بشيراً ونذيراً، وعليه أن يتخذه قدوةً حسنة، ومتبوعاً يوصل أتباعه إلى سعادة الدنيا والآخرة جميعاً.

والمسلم يتخذ سيدنا محمداً رسول الله أسوةً حسنة؛ لما حباه الله تعالى من صفات جليلة، يفخر بها التابع بمتبوعه، وإليك بعضها، فمنها:

دعاء إبراهيم عليه السلام به:

سيدنا إبراهيم الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، دعا الله تعالى به. قال الله سبحانه وتعالى حاكياً عن إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٢/١٢٩]. فأجاب الله تعالى دعوته. روى ابن جرير عن الربيع: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ هو محمد ﷺ، فقيل له: قد استجيب ذلك، وهو في آخر الزمان[١].

وآخر من بشّر به من الأنبياء والمرسلين: عيسى ابن مريم، فقد روى

---

(١) ابن جرير (١/ ٤٣٥).

الصالحي في السُّبُل عن ابن عساكر بروايته عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك، قال: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وكان آخر من بَشّر بي: عيسى ابن مريم»[١].

ومنها:

ورود اسمه ﷺ في التوراة والإنجيل والزبور:

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧].

وروى البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أَخبِرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أَجَلْ، واللهِ! إنه لَموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النَّبيّ إنّا أرسلناكَ شاهداً ومُبَشِّراً ونذيراً، وحِرْزاً للأمِّيِّين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتُكَ المتوكِّل، ليس بفظٍّ، ولا غليظ، ولا سخّابٍ[٢] في الأسواق، ولا يدفع بالسّيِّئةِ السّيِّئةَ، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به المِلّةَ العَوْجاءَ بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتَح به أَعيُناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً[٣].

وروى الإمام أحمد، وقال ابن كثير: إسناده جيّد، عن رجل من الأعراب قال: جَلَبْتُ جَلوبَةً إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلمّا فرغت من بَيْعتي قلت: لأَلقَيَنَّ هذا الرجلَ فلأسمعنَّ منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم في أقفائهم حتى أتوا على رجلٍ من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها، يُعَزّي بها نفسه على ابنٍ له في الموت كأحسن الفتيان، وأجمله، فقال رسول الله ﷺ: «أَنشُدُك بالذي أنزل

---

(١) جامع الأحاديث (٢/ ١٨٨) وسبل الهدى والرشاد (١/ ١١٢).

(٢) الصَّيّاح.

(٣) بخاري (٣/ ٨٣).

التوراة، هل تجد في كتابك ذا صفتي ومخرجي؟» فقال برأسه هكذا، أي: لا. فقال ابنه: إي والذي أنزل التوراة! إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: أقيموا اليهودي عن أخيكم، ثم ولي كفنه، وحنّطه، وصلّى عليه[١].

وروى الترمذي، وقال: حديث حسن غريب، عن عبد الله بن سلام قال: مكتوبٌ في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم يدفن معه، قال: فقال أبو مودود: قد بقي في البيت موضع قبر[٢].

وأما ذكره في الإنجيل فجاء على لسان النجاشي ملك الحبشة:

روى أبو داود عن أبي بردة، عن أبيه أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننطلقَ إلى أرض النجاشي، فذكر حديثه، قال النجاشي: أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأنه الذي بشّر به عيسى ابن مريم، ولولا أنا ما فيه من الملك لأتيته حتى أحملَ نعليه[٣].

وأما ذكره في الزبور:

فعند البيهقي عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى: أوحى اللهُ في الزبور إلى داود: يا داود! إنه سيأتي من بعدك نبيٌّ يسمّى أحمد ومحمداً، صادقاً، لا أغضب عليه أبداً، ولا يغضبني أبداً، وقد غفرتُ له قبل أن يعصيني ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر[٤].

ومنها:

ما أخبر به الأحبار والرهبان بأنه النبي المبعوث في آخر الزّمان:

روى الصالحي في السُّبل عن سلمان رضي الله عنه قال: كنتُ رجلاً من أهل فارس، وفي رواية: من أهل جَيّ (وجَيّ مدينة أصبهان)، وكان

---

(١) الفتح الرباني (٢٠/ ٢٠٢).

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٢٤٨).

(٣) سنن أبي داود (٣/ ٢١٢).

(٤) دلائل النبوة للبيهقي (١/ ٣٨٠).

أبي دِهقان رَامَهُرْمَز (والدهقان: رئيس القرية، العارف بالفلاحة وما يُصلح الأرض) أي: رئيسها، وكان يحبّني حباً شديداً، حتى حبسني في البيت كما تُحبَس الجارية، واجتهدتُ في المجوسيّة حتى كنت قَطَن النار، أي: خازنَها وخادمَها، وكان أهلُ قريتي يعبدون الخَيْل البُلْقَ، فكنت كذلك لا أعلمُ من أمر الناس شيئاً إلا ما أنا فيه، وأعرف أنهم ليسوا على شيء، وكان لي أخٌ أكبر مني، فكان إذا قام من مجلسه خرج، فتقنّع بثوبه، ثم صعد الجبل، وكان يفعلُ ذلك غيرَ مرةٍ متنكراً، فقلت: أما إنّك تفعل كذا وكذا، فلم لا تذهبُ بي معك؟ قال: إنك غلامٌ، وأخافُ أن يظهرَ منك شيءٌ، قلت: لا تخف. قال: فإن في هذا الجبل قوماً في بِرطيلٍ (حجر عظيم مستطيل) لهم عبادةٌ وصلاح، يذكرون الله تعالى، ويذكرون الآخرة، يزعمون أنّا عَبَدَةُ أوثان، وعَبَدَةُ النِّيران، وأنّا على غير دين. قلتُ: فاذهب بي معك، قال: حتى أستأمِرهم، وأنا أخافُ أن يظهرَ منك شيءٌ فيعلمَ أبي فيقتلَهم، فيجريَ هلاكُهم على يدي. قال: قلتُ لا يظهرُ مني ذلك. فاستأمَرَهم، فقالوا: جِىءْ به، فذهبتُ معه، فانتبهتُ إليهم فإذا هم سِتَّةٌ، أو سبعة، وكأن الرّوحَ خرجتْ منهم من العبادة، يصومون النّهار، ويقومون الليل، يأكلون الشّجر وما وجدوا، فقعدنا إليهم، فحمدوا الله، وأثنَوْا عليه، وذكروا مَن مضى من الرُّسل والأنبياء، حتى خلصوا إلى عيسى ابن مريم، فقالوا: بعثه الله، وَوُلِدَ بغير ذَكَرٍ، بعثه رسولًا، وسخّر له ما كان يفعل من إحياء الموتى، وخَلْقِ الطير، وإبراء الأكمه والأبرص، فكفر به قومٌ، وتَبِعَهُ قوم، وإنما كان عبْدَ الله ورسوله، ابتلى به خلقه. ثم قالوا: يا غلام! إنّ لك ربّاً، وإنّ لك معاداً، وإن بين يديك جنّةً وناراً إليها تصير، وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون النيران أهلُ كفرٍ وضلالة، لا يرضى الله بما يصنعون، وليسوا على دين.

ثم انصرفنا، ثم عدنا إليهم، فقالوا مثل ذلك وأحسن، فَلَزِمْتُهم، فقالوا لي: يا سلمان! إنك غلام، وإنك لا تستطيع أن تصنع ما نصنع،

فصلِّ، ونم، وكُلْ، واشرب.

قال: فاطّلع الملك على صنيع ابنه، فركب في الخيل حتى أتاهم في برطيلهم، فقال: يا هؤلاء! قد جاورتموني فأحسنتُ جواركم، ولم تروا مني سوءاً، فعمدتم إلى ابني فأفسدتموه عليّ، قد أجَّلتكمْ ثلاثاً، فإن قدرتُ عليكم بعد ثلاث أحرقت عليكم برطيلكم هذا، فالحقوا ببلادكم، فإنّي أكرهُ أن يكون مني إليكم سوء، قالوا: نعم ما تعمّدنا مساءتك، وما أردنا إلا الخير، فكفّ ابنَه عَنْ إتيانهم، فقلت له: اتق الله، فإنك تعرف أنَّ الدينَ دينُ الله، وأن أباك ونحن على غير دين، إنما هم عبدةُ النِّيران لا يعرفون الله، فلا تبعْ آخرتك بدنيا غيرك. قال: يا سلمان! هو كما تقول، وإنما أتخلفُ عن القوم بُقْياً عليهم، إن تبعتُ القوم طلبني أبي في الجَبل، وقد جزع من إتياني إيّاهم حتى طردهم، وقد أعرف أن الحقَّ في أيديهم. فأتيتهم في اليوم الذي أرادوا أن يرتحلوا فيه، فقالوا: يا سلمان! قد كنا نحذرُ، فكان ما رأيت، فاتّق الله، واعلم أنَّ الدِّين ما أوصيناك به، وأنَّ هؤلاء عبدةُ النِّيران، لا يعرفون الله، ولا يذكرونه، ولا يخدعنَّك أحدٌ عن دينك، فقلت: ما أنا بمفارقكم، قالوا: أنت لا تقدرُ أن تكونَ معنا، نحن نصومُ النهار، ونقوم الليل، ونأكل عند السَّحَر ما أصبنا، وأنت لا تستطيعُ ذلك، قال: فقلتُ: لا أفارقكم. قالوا: أنت أعلم، وقد أعلمناك حالنا، فإذا أبيت خُذْ مقدارَ حمل يكون معك شيء تأكله، فإنك لا تستطيع ما نستطيع بحق، قال: ففعلت، ولقينا أخي، فعرضت عليه، ثم أتيتهم يمشون، وأمشي معهم، فرزق الله السلامة حتى قدمنا المَوْصل، فأتينا بيعةً بالموصل، فلما دخلوا احتفُّوا بهم، وقالوا: أين كنتم؟ قالوا: كنا في بلادٍ لا يذكرون الله تعالى، فيها عبدةُ النِّيران، وكنّا نعبد الله فَطَردونا، فقالوا: ما هذا الغلام؟ فطفقوا يُثنونَ عليّ، وقالوا: صَحِبَنَا من تلك البلاد، فلم نَرَ منه إلا خيراً. قال سلمان: فوالله! إنهم لكذلك إذ طلع عليهم رَجُلٌ من كهف جبل، قال: فجاء حتى سلّم

وجلس، فحفّوا به، وعظّمه أصحابي الذين كنت معهم، وأحدقوا به، فقال: أين كنتم؟ فأخبروه، فقال: ما هذا الغلامُ معكُم، فأثنَوْا عليّ خيراً، وأخبروه باتباعي إياهم، ولم أر مثل إعظامهم إياه، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ذكر من أُرسل من رسله وأنبيائه، وما لقوا، وما صُنع بهم، وذكر مولد عيسى ابن مريم عليه السلام، وأنه وُلد بغير ذَكَر، فبعثه الله عز وجل رسولاً، وأحيا على يديه الموتى، وأنه يَخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأَنزل عليه الإنجيل، وعلّمه التوراة، وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، فكفر به قومٌ، وآمن به قوم، وذَكر بعض ما لقي عيسى ابن مريم، وأنه كان عبداً لله أنعم اللهُ عليه، فشكر ذلك له، ورضي الله عنه، حتى قبضه الله عز وجل، وهو يعظهم ويقول: اتقوا الله، والزموا ما جاء به عيسى عليه الصلاة والسلام، ولا تخالفوا فيخالف بكم.

ثم قال: من أراد أن يأخذ من هذا شيئاً فليأخذ، فجعل الرجل يقوم فيأخذ الجرّة من الماء والطعام، فقام أصحابي الذين جئت معهم فسلّموا عليه، وعظّموه، وقال لهم: الزموا هذا الدين، وإياكم أن تَفرّقوا، واستوصوا بهذا الغلام خيراً، وقال لي: يا غلام! هذا دينُ الله الذي تسمعني أقوله وما سواه الكفر، قال: قلتُ: ما أنا بمفارقك، قال: إنك لا تستطيع أن تكون معي، إني لا أخرجُ من كهفي هذا إلا كلَّ يوم أحد، ولا تقدر على الكينونة معي، قال: وأقبل عليّ أصحابه، فقالوا: يا غلام! إنك لا تستطيعُ أن تكون معه، قلت: ما أنا بمفارقك، قال له أصحابه: يا فلان! إنّ هذا غلام، ويُخاف عليه، فقال لي: أنت أعلم، قلت: فإني لا أفارقُك، فبكى أصحابي الأوّلون الذين كنتُ معهم عند فراقهم إياي، فقال: يا غلام! خُذْ هذا الطعام ما ترى أنه يكفيك إلى الأحد الآخَر، وخُذْ من الماء ما تكتفي به، ففعلت، فما رأيته نائماً، ولا طاعماً إلا راكعاً وساجداً إلى الأحد الآخر، فلما أصبحنا قال لي: خذ

جَرّتَك هذه، وانطلق، فخرجت معه أتبعه حتى انتهينا إلى الصخرة، وإذا هم قد خرجوا من تلك الجبال ينتظرون خروجَه، فقعدوا، وعاد في حديثه نحوَ المرة الأولى، فقال: الزموا هذا الدِّينَ، ولا تفرّقوا، واذكروا الله، واعلموا أنَّ عيسى ابن مريم عليهما السلام كان عبداً لله تعالى، أنعم الله عليه، ثم ذكرني فقالوا: يا فلان! كيف وجدت هذا الغلام؟ فأثنى عليّ، وقال خيراً، فحمدوا الله تعالى، وإذا خبزٌ كثير، وماءٌ كثير، فأخذوا، وجعل الرجل يأخذ ما يكتفي به، وفعلت، فتفرّقوا في تلك الجبال، ورجع إلى كهفه، ورجعت معه، فلبثنا ما شاء الله، يخرجُ في كلِّ يوم أحد، ويخرجون معه، ويحفّون به، ويوصيهم بما كان يُوصيهم به، فخرج في أَحدٍ، فلما اجتمعوا حمد الله تعالى، ووَعَظَهم، وقال مثل ما كان يقول لهم، ثم قال لهم آخِر ذلك: يا هؤلاء! إنه قد كبر سنّي، ورقّ عظمي، وقَرُبَ أجلي، وأنه لا عهد لي بهذا البيت منذ كذا وكذا، أي: بيت المقدس، ولا بدّ من إتيانه، فاستوصوا بهذا الغلام خيراً، فإنّي رأيتُه لا بأس به، قال: فجزع القومُ، فما رأيت مثل جزعهم، وقالوا: يا فلان! أنت كبيرٌ فأنت وحدك، ولا نأمَن أن يصيبك شيء، قال: لا تراجعوني، لا بدّ من إتيانه، ولكن استوصوا بهذا الغلام خيراً، وافعلوا، وافعلوا، قال: فقلت: ما أنا بمفارقك، قال: يا سلمان! قد رأيت حالي وما كنتُ عليه، وليس هذا كذلك، أنا أمشي، أصوم النهار، وأقوم الليل، ولا أستطيع أن أحملَ معي زاداً ولا غيرَه، وأنت لا تقدرُ على هذا، قلت: ما أنا بمفارقك. قال: أنت أعلم. قال: فقالوا: يا فلان! إنّا نخاف على هذا الغلام، قال: فهو أعلم، قد أعلمتُه الحال، وقد رأى ما كان قبل هذا. قلت: لا أفارقك. قال: فبكَوْا، وودّعوه، وقال لهم: اتقوا الله، وكونوا على ما أوصيتكم به، فإن أعش فعلّي أرجع إليكم، وإن مِتُّ فاللهُ حيٌّ لا يموت، فسلّم عليهم، وخرج، وخرجتُ معه، وقال لي: احملْ معك من هذا الخبز شيئاً تأكله، فخرج وخرجتُ

معه يمشي، واتبعته يذكر الله تعالى، ولا يلتفت، ولا يقف على شيء، حتى إذا أمسينا قال: يا سلمان! صلِّ أنت، ونم، وكُلْ، واشرب، ثم قام هو يصلّي حتى انتهينا إلى بيت المقدس، وكان لا يرفعُ طرفَه إلى السماء، حتى أتينا إلى باب المسجد، وإذا على الباب مُقعَدٌ، فقال: يا عبد الله! قد ترى حالي، فتصدّقْ عليّ بشيء، فلم يلتفت إليه، ودخل المسجد ودخلت معه، فجعل يتبعُ أمكنةً من المسجد فصلّى فيها، فقال: يا سلمان! إنّي لم أنم منذ كذا وكذا، ولم أجدْ طعمَ النوم، فإن فعلت أن توقظني إذا بلغ الظلُّ مكان كذا وكذا نمتُ، فإني أحبُّ أن أنام في هذا المسجد، وإلا لم أنم. قال: قلتُ فإني أفعل. قال: فإذا بلغ الظلُّ مكان كذا وكذا فأيقِظني إذا غلبتني عيني، فنام. فقلتُ في نفسي: هذا لم ينم مذ كذا وكذا، وقد رأيت بعض ذلك لأدعنّه ينام حتى يشتفي من النّوم، قال: وكان فيما يمشي وأنا معه يُقبِلُ عليّ فيعظني، ويخبرني أنّ لي ربّاً، وأنّ بين يديّ جنّةً وناراً وحساباً، ويعلمني، ويذكّرني نحوَ ما يُذَكِّر القوم يوم الأحد، حتى قال فيما يقول: يا سلمان! إنَّ الله عزّ وجل سوف يبعث رسولاً اسمُه أحمد يخرج بتهامة، وكان رجلاً عجمياً لا يُحسِن القول، علامته: أنّه يأكل الهديّةَ، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم، وهذا زمانُه الذي يخرج فيه قد تقارب، فأمّا أنا فإنِّي شيخٌ كبير، ولا أحسِبني أُدرِكُه، فإن أدركتَه أنت فصدّقه واتّبعه، قال: قلتُ: وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه؟ قال: اتركه فإنَّ الحقَّ فيما يأمرُ به، ورضا الرحمنِ فيما قال.

فلم يمض إلا يسيراً حتى استيقظ فَزِعاً يذكر الله تعالى، فقال لي: يا سلمان! مضى الفيءُ من المكان ولم أُذَكَّر، أين ما كنتَ جعلتَ على نفسك؟ قلت: أَخبرتني أنك لم تنمْ منذ كذا وكذا، وقد رأيتُ بعض ذلك فأحببتُ أن تشتفيَ من النّوم، فحمد الله تعالى، وقام، فخرج، وتبعتُه، فمر بالمُقْعَد، فقال المقعَد: يا عبد الله! دخلتَ فسألتك فلم تُعطِني،

وخرجتَ فسألتك فلم تُعطِني، فقام ينظر هل يرى أحداً فلم يره، فدنا منه، فقال له: ناوِلْني يدك، فناوله، فقال: بسم الله، فقام فكأنه أُنشِطَ من عقال صحيحاً لا عيب بِه، فخلّى عن يده، فانطلق ذاهباً فكان لا يلوي على أحد، ولا يقوم عليه، فقال لي المقعد: يا غلام! احمل عليّ ثيابي حتى أنطلق، فأسير إلى أهلي، فحملتُ عليه ثيابه، وانطلق لا يلوي عليّ، فخرجت في أثره أطلبه، فكلّما سألتُ عنه قالوا: أمامك، حتى لقيني ركبٌ من كَلْبٍ (قبيلة) فسألتهم، فلما سمعوا الفتى أناخ رجل منهم لي بعيره، فحملني خلفه حتى أتوا بلادهم، فباعوني، فاشترتني امرأة من الأنصار، فجعلتني في حائط لَها، وقدم رسولُ الله ﷺ فأُخبرت به، فأخذتُ شيئاً من تمر حائطي فجعلته على شيء، ثم أتيته، فوجدتُ عنده ناساً، وإذا أبو بكر أقربُ الناس إليه، فوضعتُه بين يديه، وقال: «ما هذا؟» قلت: صدقة، قال للقوم: «كلوا» ولم يأكل، ثم لبثت ما شاء الله، ثم أخذتُ مثل ذلك فجعلته على شيء، ثم أتيته، فوجدتُ عنده ناساً، وإذا أبو بكر أقرب القوم منه، فوضعته بين يديه فقال لي: «ما هذا؟» قلت: هديّة، قال: «بسم الله» وأكل، وأكل القوم.

قلتُ في نفسي: هذه من آياته، كان صاحبي رجلاً أعجمياً لم يحسن أن يقول تهامة، فقال: تهمة، وقال: اسمه أحمد، فدرتُ خلفه ففطِنَ بي، فأرخى ثوباً، فإذا الخاتم في ناحية كتفه الأيسر، فتبيّنته، ثم دُرتُ حتى جلست بين يديه، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: «من أنت؟» قلتُ: مملوك، فحدّثته حديثي وحديث الرجل الذي كنت معه وما أمرني به، قال: «لمن أنت؟» قلتُ: لامرأة من الأنصار جعلتني في حائطٍ لها، قال: «يا أبا بكر!» قال: لبيك، قال: «اشترِه». فاشتراني أبو بكر رضي الله عنه فأعتقني، فلبثت ما شاء الله أن ألبث، فسلّمت عليه، وقعدتُ بين يديه، فقلت: يا رسول الله! ما تقول في دين النّصارى؟ قال: «لا خير فيهم، ولا في دينهم» فدخلني أمرٌ عظيم، فقلت

في نفسي: هذا الذي كنتُ معه ورأيت ما رأيته، ثم رأيتهُ أخذ بيد المقعَد فأقامه الله على يديه، وقال: لا خير في هؤلاء ولا في دينهم، فانصرفت وفي نفسي ما شاء الله، فأنزل الله عز وجل على النبي ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٢] إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: «عليّ بسلمان» فأتى الرسولُ وأنا خائف، فجئت حتى قعدتُ بين يديه، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٢] إلى آخر الآية«يا سلمان! إنّ أولئك الذين كنتَ معهم وصاحبك لم يكونوا نصارى، إنما كانوا مسلمين» فقلت: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق! لهو الذي أمرني باتباعك، فقلت له: وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه؟! قال: فاتركه، فإن الحق وما يجب فيما يأمرك به[1].

قلت: وقد جاء في إسلام سلمان رضي الله عنه روايات عديدة، وقد اخترت هذه الروايةَ لما فيها من الوقوف على أحوال مَن لقيهم من الصبر على العبادة، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والصِّدق في طلب أهل الحق، وأنَّ من قَصَد إلى شيء بصدقٍ فإنه يناله.

وروايات إسلام سلمان على اختلافها متفقة على صفات النبي ﷺ، وهي: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة ﷺ، وهي موجودة في كتب الأحبار، والقساوسة.

ومنها:

صورة نبينا محمد ﷺ مقرونة بصور الأنبياء قبله بالشام:

روى البيهقي في الدلائل، وابن كثير في البداية والنهاية، عن هشام ابن العاص الأموي، ورواه البخاري في التاريخ عن جبير بن مطعم،

---

(١) المستدرك (٣/ ٥٩٩).

وهذه رواية هشام قال:

بُعِثت أنا ورجل آخر من قريش إلى هرقل صاحبِ الرّوم ندعوه إلى الإسلام، فخرجنا حتى قدمنا الغوطة ـ يعني: دمشق ـ فنزلنا على جَبَلَةَ ابن الأيهم الغسّاني، فدخلنا عليه، وإذا هو على سريرٍ له، فأرسل إلينا برسولٍ نكلِّمه، فقلنا له: والله لا نكلِّم رسولاً، إنما بُعثنا إلى الملك، فإن أذن لنا كلّمناه، وإلا لم نُكلِّم الرسول، فرجع إليه الرسولُ فأخبره بذلك، قال: فأذِن لنا، فقال: تكلّموا. فكلّمه هشام بن العاص، ودعاه إلى الإسلام، وإذا عليه ثيابُ سواد، فقال له هشام: ما هذه التي عليك؟ فقال: لبستُها وحلفتُ ألا أنزعها حتى أُخرجَكم من الشام. قلنا: ومجلسك هذا، فوالله لنأخذنّه منك، ولنأخذنّ مُلْكَ الملك الأعظم إن شاء الله تعالى، أخبرنا بذلك نبيّنا ﷺ، قال: لستم بهم، بل هم قومٌ يصومون النهار، ويفطرون بالليل، فكيف صومُكُم؟ فأخبرناه، فملىء وجهه سواداً، فقال: قوموا، وبعث معنا رسولاً إلى الملك، فخرجنا حتى إذا كنّا قريباً من المدينة قال لنا الذي معنا: إنّ دوابّكُم هذه لا تدخلُ مدينةَ الملك، فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال، قلنا: والله! لا ندخل إلا عليها. فأرسَلوا إلى الملك: إنهم يأبَوْن. فدخلنا على رواحلنا متقلِّدين سيوفنا، حتى انتهينا إلى غُرفةٍ له، فأنخنا في أصلها، وهو ينظرُ إلينا، فقلنا: لا إله إلا الله والله أكبر، والله يعلم لقد تنفّضت الغرفة حتى صارت كأنّها عِذقٌ تصفّقه الرياح.

فأرسل إلينا: ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم، وأرسل إلينا: أن ادخلوا. فدخلنا عليه وهو على فراشٍ له، وعنده بطارقتُه من الرّوم، وكلُّ شيء في مجلسه أحمر، وما حوله حمرةٌ، وعليه ثيابٌ من الحمرة، فدنوا منه فضحك، وقال: ماذا عليكم لو حيّيتموني بتحيّتكم فيما بينكم، فإذا عنده رجل فصيحٌ بالعربيّة، كثيرُ الكلام. فقلنا: إن تحيَّتنا فيما بيننا لا تَحِلّ لك، وتحيّتُك التي تُحيَّا بها لا يحلّ لنا أن نحيّيك بها، قال:

كيف تحيّتكم فيما بينكم؟ فقلنا: السلام عليك. قال: فكيف تحيّون مَلِككم؟ قلنا: بها. قال: وكيف يَرُدُّ عليكم؟ قلنا: بها. قال: فما أعظمُ كلامكُم؟ قلنا: لا إله إلا الله والله أكبر. فلمّا تكلّمنا بها قال: والله لقد تنفّضت الغرفة حتى رفع رأسَه إليها. قال: فهذه الكلمة التي قُلتُموها حيث تنفّضت الغرفة كلما قلتموها في بيوتكم تَنَفَّضُ بيوتكم عليكم؟ قلنا: لا، ما رأيناها فعلت هذا قطُّ إلا عندك. قال: لَوَدِدْتُ أنّكم كلّما قلتم تنفّضَ كل شيء عليكم، وأنّي خرجت من نصف ملكي، قلنا: لم؟ قال: لأنه كان أيسَر لشأنها، وأجدَرَ ألا يكون من أمر النّبوّة، وأن يكونَ من حِيَلِ النّاس.

ثمّ سألنا عمّا أراد، فأخبرناه، ثم قال: كيف صلاتُكم وصومُكُم؟ فأخبرناه. فقال: قوموا فَقُمنا، فأمر لنا بمنزل حَسَن، ونُزُلٍ كثير، فأقمنا ثلاثاً، فأرسَلَ إلينا ليلاً، فدخلنا عليه، فاستعاد قولنا، فأعدناه، ثم دعا بشيء كهيئة الرَّبعةِ العظيمة مُذَهَّبَةً، فيها بيوتٌ صغار، عليها أبوابٌ، ففتح بيتاً وقُفلاً، واستخرج حريرةً سوداءَ فنشرها، فإذا فيها صورةٌ حمراءُ، وإذا فيها رَجُلٌ ضخم العينين، عظيمُ الألْيَتَيْنِ، لم أر مثلَ طولِ عُنُقِه، وإذا ليست له لحيةٌ، وإذا له ضفيرتان أحسنَ ما خلقَ اللهُ قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا آدمُ عليه السلام، وإذا هو أكثرُ الناس شعراً.

ثم فتح لنا باباً آخر، فاستخرج منه حريرةً سوداء، وإذا فيها صورةٌ بيضاء، وإذا فيها رجلٌ له شَعَرٌ كشعر القِطَط، أحمر العينين، ضخم الهامة، حَسَنُ اللحية فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا نوحٌ عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرةً سوداء، وإذا فيها رجلٌ شديد البياض، حَسَن العينين، صلتُ الجبين، طويل الخدِّ، أبيض اللحية، كأنه

يتبسّم، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إبراهيم عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فإذا فيها صورةٌ بيضاء، وإذا والله رسولُ الله، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، مُحَمّدٌ رسولُ الله ﷺ، قال: وبكينا، قال: والله يعلم أنه قام قائماً، ثم جلس وقال: والله: إنّه لهو؟ قلنا: نعم، إنّه لهو، كأنّما ننظر إليه، فأمسك ساعةً ينظر إليها، ثم قال: أما إنّه كان آخرَ البيوت، ولكنّي عَجّلتُه لكم لأنظرَ ما عندكم.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرجِ منه حريرةً سوداء، فإذا فيها صورةٌ أدماء سحماء، وإذا رَجُلٌ جَعْدٌ، قَطَطٌ، غائرٌ العينين، حديدُ النّظر، عابسٌ، متراكبُ الأسنان، مُقلَّص الشَّفَةِ، كأنّه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا موسى عليه السلام، وإلى جنبه صورةٌ تُشبِهُهُ إلا أنه مِدْهانُ الرأس، عريضُ الجبين، في عينيه قَبَلٌ[1]، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا هارونُ بنُ عمران.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرةً بيضاء، فإذا فيها صورةُ رجلٍ آدَم، سَبْطٍ، رَبْعَةٍ، كأنه غضبانُ، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا لوطٌ عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرجَ منه حريرةً بيضاء، فإذا فيها صورةُ رجل أبيضَ، مشربٍ حُمْرةً، أقنى، خفيف العارِضَيْنِ، حَسَن الوجْهِ، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسحاق عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرةً بيضاءَ، فإذا فيها صورةٌ تشبه إسحاق إلا إنّه على شفته السُّفلى خالٌ، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يعقوب عليه السّلام.

---

(١) إقبال إحدى الحدقتين على الأخرى.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرةً سوداء، فيها صورةُ رجلٍ أبيض حسنِ الوَجه، أقنى الأنف، حَسَن القامة، يعلو وَجْهَهُ نورٌ، يُعرَف في وجهه الخشوع، يَضرِبُ إلى الحُمرة، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا إسماعيل جدُّ نَبِيِّكُم.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرجَ حريرةً بيضاءَ، فيها صورةٌ كأنّها صورة آدَم، كأنّ وَجهَهُ الشمس، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يوسُفُ عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرةً بيضاء، فيها صورةُ رَجُلٍ أحمرَ، حمشِ السّاقين، أخفشِ العَيْنَين، ضخمِ البطن، رَبْعةٍ، مُتَقَلِّدٍ سيفاً، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا داودُ عليه السّلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرة بيضاءَ، فيها صورةُ رجلٍ ضخمِ الأليتينِ، طويلِ الرّجلين، راكبِ فرسٍ، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان بن داود عليهما السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرجِ منه حريرةً سوداء، فيها صورةٌ بيضاءُ، وإذا رجلٌ شابٌّ شديدُ سوادِ اللّحية، كثيرُ الشَّعَر، حَسَنُ العينين، حسنُ الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا عيسى ابن مريم عليه السلام.

قلنا: مِن أين لكم هذه الصُّوَر؛ لأنّا نعلم أنّها على ما صُوِّرَت عليه الأنبياء عليهم السلام؛ لأنّا رأينا صورة نبيّنا عليه السلام مِثْلَهُ؟

فقال: إنّ آدمَ عليه السلام سأل ربَّهُ أن يُرِيَهُ الأنبياءَ مِن وَلَدِه، فأنزل عليه صُوَرَهم، وكان في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنَيْنِ مِن مَغْرِبِ الشمس، فدفعها إلى دانيال. ثم قال (أي هرقل): أما والله! إنّ نفسي طابت بالخروج من ملكي، وإن كنتُ

عبداً لا يَترُك ملكَه حتى أموت. ثمّ أجازنا، فأحسن جائزتنا، وسَرَّحَنا، فلمّا أتينا أبا بكر الصّدِّيق رضي الله عنه حدّثناه بما رأينا، وما قال لنا، وما أجازنا قال: فبكى أبو بكر، وقال: مسكينٌ، لو أراد الله عزّ وجلّ به خيراً لفعل.

ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ أنّهم واليهود يجدون نعت محمّد عليه السلام عندهم.

وروى البيهقي في «الدلائل» عن مطرّف بن مالك أنه قال: شهدتُ فتح تُسترَ مع الأشعري (أبي موسى) فأصبنا قبر دانيال بالسوس، وكانوا إذا استسقوا خرجوا فاستسقوا به، فذكر الحديث فيما وجدوا فيه، وكان فيما وجدوا فيه رَبْعَة فيها كتاب، فذكر الحديث في أجير نصرانيٍّ يسمَى «نُعَيْماً» وُهِبَ له الكتاب، ثمّ في إسلامه، ثم في قراءة ذلك الكتاب. وإذا فيه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٨٥] فأسلم منهم يومئذ اثنان وأربعون حَبراً، وذلك في خلافة «معاوية» فأتحفهم، وأعطاهم(١).

* * *

(١) دلائل النبوة للبيهقي (١/ ٣٨٦).

الفصل الثاني

أسماؤه الشريفة مشفوعة بالأدلة

سيدنا محمد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم النبي، القرشي، الأبطحي، التهامي، المكي، المدني، أكرم خلق الله على الله تعالى، المبعوث رحمة للعالمين للإنس والجن تكليفاً، وللملائكة وغيرهم تشريفاً.

أبو القاسم، وأبو إبراهيم، وأبو المؤمنين لقراءة أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه: (النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبٌ لهم).

ولسيدنا محمد ﷺ أسماء كثيرة، وقد قيل: كثرة الأسماء تدلُّ على شرف المسمّى، ولا شك أن سيدنا محمداً سيّد ولد آدم، وفخرهم، وعزّهم، وغالب أسمائه ﷺ صفات مدح، فله من كل وصف اسم، وإطلاق الاسم عليها مجاز.

وأشهر أسمائه ﷺ، وأجلّها «مُحَمّد» قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٩].

قال ابن القيّم رحمه الله تعالى: هو عَلَمٌ، وصفةٌ، اجتمع فيه الأمران في حقّه ﷺ، وإن كان عَلَماً محضاً في حق كثيرٍ ممّن يسمى به غيره ﷺ.

وهذا شأنُ أسماء الرب تبارك وتعالى، وأسماء نبيه ﷺ هي أعلام دالّة على معان، وهي أوصاف مدح، فلا تُضَادُّ فيها العَلَمِيَّةُ الوصفيّة بخلاف غيرها من أسماء المخلوقين.

١ـ **محمد**: اسم مفعول، منقول من صفة الحمد بمعنى محمود. والحمد: الثناء على المحمود، ومحبته، وإجلاله، وتعظيمه. ومحمد معناه: كثر حمد الحامدين له مرة بعد مرة، أو: الذي يستحقّ له الحمد استحقاقاً لتكامل الخصال المحمودة فيه.

وهو الاسم الذي لا يصحُّ إسلامُ الكافر حتى يتلفّظ به، وهو الاسمُ المكوّن من أربعة أحرف، وفيه حرف خفي مُدْغم موافق لاسم الله عز وجل المكوّن من أربعة أحرف، «الله».

وهو الاسم الذي قرنه اللهُ تعالى مع اسمه في كتابة اسمه على العرش، وهو الاسم المشتق من اسمه تعالى المحمود، كما قال حسان ابن ثابت:

وضمّ الإلهُ اسم النبيّ إلى اسمه   إذا قال في الخمسِ المؤذنُ أشهدُ
وشقّ له من اسمه ليجلّه   فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمد

وهو الاسم الذي صوّرت الخلائق على صورته.

وهو الاسم الذي سيتكنّى به آدم في الجنة دون سائر بنيه؛ لما روى ابنُ عَدِيّ وأبو الشيخ وابن عساكر عن جابر بن عبد الله وابن عدي والبيهقي وابن عساكر عن علي رضي الله عنه وابن عساكر عن كعب، وابن عساكر عن غالب بن عبد الله العقيلي، وأبو الشيخ عن بكر بن عبد الله المزني: أنه ليس أحد من أهل الجنة إلا يدعى باسمه إلا آدم ﷺ، فإنه يدعى: أبامحمد تعظيماً، وتوقيراً للنبي ﷺ[1] ـ زاده الله تعالى شرفاً وفضلاً ـ.

٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **أحمد**، قال تعالى حاكياً عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦١/٦].

قال العلماء: لم يُسَمَّ به أحد قبل نبينا ﷺ منذ خلق الله الدنيا، ولا تسمّى به أحدٌ في حياته ﷺ.

وأحمد بمعنى فاعل، أي: حمد الله أكثر من حمد غيره له، أو: بمعنى مفعول، أي: أحق الناس وأولاهم بأن يحمد، فيكون كمحمد

(١) السيرة الشامية (١/٥٠٧).

بالمعنى، إلا أن الفرقَ بينهما أن محمداً هو المحمود حمداً بعد حمد، فهو دالّ على كثرة الحامدين له لكثرة الخصال التي يُحمد عليها، وأحمد هو الذي يحمد أفضل مما يحمده غيره، فمحمد بالكم، وأحمد بالكيف.

قال ابن القيّم: سُمّي النبي ﷺ بمحمد؛ وأحمد لما اشتمل عليه من مسماهما، وهو الحمد، فإنه ﷺ محمودٌ عند الله، ومحمود عند الملائكة، ومحمود عند الأنبياء، ومحمود عند أهل الأرض كلهم، وإن كذبه بعضُهم، فإن ما فيه من صفات الكمال محمودةٌ عند كل عاقل، وإن كابر عقله جحوداً وعناداً، أو جهلاً باتصافه به، ولو علم اتصافه بها لحمده، فإنه من يَحمد من اتصف بصفات الكمال، ويجهل وجودها فيه، فهو في الحقيقة حامد له.

وقال السهيلي: واختُصَّ ﷺ من مسمّى الحمد بما لم يُجمَع لغيره، فإن اسمه ﷺ: أحمد ومحمد، وأمته: الحمّادون، يحمدون الله تعالى على السرّاء والضرّاء، وصلاته وصلاتهم مُفتتحة بالحمد، والخُطَب المنبرية مفتتحة بالحمد، والقرآن مفتتح بالحمد.

وشُرِع له الحمد بعد الأكل والشرب، وبعد الدعاء، وبعد القدوم من السّفر. وبيده ﷺ لواءُ الحمد يوم القيامة، ولما يسجد بين يدي ربه عز وجل للشفاعة، ويؤذن له فيها يحمد ربه بمحامد يفتحها عليه حينئذ، وهو صاحبُ المقام المحمود الذي يغبطه فيه الأولون والآخرون، وإذا قام في ذلك المقام حمده حينئذ أهلُ الموقف كلُّهم مسلمهم وكافرهم، أولهم وآخرهم، إلى غير ذلك.

تنبيه:

لم يصحّ في فضل التسمية بمحمد حديث، وأما ما تتناقله بعضُ الكتب والألسنة من أنه: «يُوقَف عبدان بين يدي الله فيؤمر بهما إلى الجنة،

فيقولان: ربنا بِمَ استأهَلْنا الجنة، ولم نعمل عملاً تجازينا به الجنة؟ فيقول الله تعالى: عَبْدَيَّ ادخلا الجنة فإني آليت على نفسي ألا يدخلَ النّار من اسمه أحمد ولا محمد» فهو حديث باطل كما قال الذهبي، وراويه كذّاب.

٣ـ ومن أسمائه ﷺ: أُجير لأنه يُجير أمته من النار، ذكره العزفي نقلاً عن بعض الكتب المنزلة، أو هو أُحيد ذكره القاضي في الشفا، وقال: اسمه في التوراة أُحيد، أي: يحيد أمته عن نار جهنم.

٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأَبَرّ**، فهو ﷺ حريٌّ بأن يكون أبرّ الناس لما جمع فيه من الخصال الجميلة، التي لم تجمع في مخلوق كالصدق، والإحسان. والبر: اسم جامع للخير.

قال الحاتمي رحمه الله: اتفق أهل الأدب على أن أصدق بيت قالته العرب قول أبي إياس الدُّؤلي:

وما حملت من ناقةٍ فوق رَحْلها   أبـــرَّ وأَوْفـــى ذِمّـــةً مـــن محمـــدِ

والبرّ: اسم من أسماء الله الحسنى، وهو في حقه تعالى المحسِن، أو الصادق الوعد، أو خالق البِرّ، ويسمى النبي ﷺ بالمحسن، والصادق الوعد فحسب.

٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأبطحي**، نسبة إلى الأبطح، وهو مسيل الماء، والمراد هنا: أبطح مكة.

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه يمدح النبي ﷺ:

وأكرَمُ صِيتاً في البيوت إذا انتمى   وأكـــرَم جَـــدّاً أبطحيّـــاً يُسَـــوَّدُ

٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأبلج**، وهو الطلق الوجه، مُشرِقُه، أو ذو الكرم والسماحة، من: انبلج الفجر وتبلّج: أنار ووضح. روى مسلم عن كعب حديث توبته، وفيه: «وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار

وجهه، كأن وجهه قطعة قمر. . .» الحديث[(١)].

٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأبيض** ضد السواد، أو الجود والسخاء.

لما روى مسلم عن أبي الطفيل في صفة رسول الله ﷺ قال: كان أبيض مليح الوجه[(٢)]، ومن قول أبي طالب:

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه   ثِمالُ اليتامى عِصْمةٌ للأراملِ

وللجود والسخاء قول ذي الرّمّة:

وأبيضَ مُرْتاح النحيزة[(٣)] للندى   له نائلٌ بالمكرُمات يفيضُ

٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الثّمال** وهو العماد، والملجأ، والمغيث.

٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **العصمة** بمعنى عاصم، يلوذ العصاة بحمى شفاعته يوم القيامة، والعصمة يمنع عما يَضُرّ.

١٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأتقى والأصدق والأبرّ.**

لما روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قام النبي ﷺ فينا فقال: «قد علمتم أني أتقاكم لله، وأصدقكم، وأبرّكم»[(٤)].

١٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأجود.**

لما روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ أجودَ الناس بالخير، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل. . .[(٥)] الحديث.

١٤ـ ١٥ ومن أسمائه ﷺ: **الأحسن والأحسن قولاً.**

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢١٢٧).
(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٨٢٠).
(٣) النحيزة: الطبيعة.
(٤) صحيح مسلم (٢/ ٨٨٣).
(٥) صحيح البخاري (٣/ ٣٢).

لما روى مسلم عن البراء في صفة رسول الله ﷺ... وفيه: عليه حُلَّةٌ حمراء، ما رأيت قطّ أحسنَ منه[١]. ولقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٤١/٣٣].

١٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **الآخذ بالحجزات**.

لما روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يَذُبُّهنَّ عنها، وأنا آخذٌ بِحُجَزِكُم من النّار، وأنتم تفلّتون من يدي[٢]».

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا آخذٌ بحجزكم عن النار: هلُمّ عن النار، هلُمّ عن النار، فتغلبوني تقحّمون فيها[٣]».

١٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **الآخذ الصدقات**.

لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ٩/١٠٣].

١٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأخشى لله والأعلم**.

لما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «والله! إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتّقي»[٤].

٢٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأدعج**، والدّعَج: شدة سواد العينين.

لما روى الترمذي عن علي بن أبي طالب في وصف رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح مسلم (٢/١٨١٨).
(٢) صحيح مسلم (٤/١٧٩٠).
(٣) صحيح مسلم (٤/١٧٩٠).
(٤) صحيح مسلم (٢/٧٨١).

قال: وكان في وجهه تدوير أبيض مشرب، أدعج العينين[١].

٢١ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأدْوَم** بمعنى: الأكثر مواظبة على العمل.

لما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت في فضيلة المداومة على العمل: وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه. وقالت مجيبة لعلقمة وقد سألها: كيف كان عمل رسول الله ﷺ؟ هل كان يخص شيئاً من الأيام؟ قالت: لا، كان عمله ديمة[٢]. ومعنى ديمة: يدوم عليه، ولا يقطعه.

٢٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **أُذُنُ خير**.

لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ٦١/٩].

٢٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأرجح عقلاً**.

لما روى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما حديث شق الصدر أيام الرضاع، وفيه: «قال الملَك: زِنوه بعشرة من أمته فوزنوني فرجحتهم، ثم قال: دعوه، فلو وزنتموه بأمّته كلها لرَجح بهم...» الحديث[٣].

٢٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأرحم**.

لما روى مسلم عن أنس بن مالك قال: ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ[٤]. ولما روى الشيخان واللفظ لمسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأدخل الصلاة أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأخفّف من شدة وجد أمه

---

(١) الشمائل للترمذي (٢٠).
(٢) صحيح مسلم (١/ ٢٤١).
(٣) الدلائل (٢/ ١٤١).
(٤) صحيح مسلم (٤/ ١٨٠٨).

به»[١].

٢٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأزجّ**، وهو تقويس الحاجبين، ووفرة شعرهما.
لما روى الترمذي في الشمائل عن هند بن أبي هالة في وصف رسول الله ﷺ الحديث وفيه: كان أزهر اللون، واسع الجبين، أزجّ الحواجب، سوابغُ في غير قرن[٢].

٢٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأزهر**، وهو البياض مع استنارة. للحديث السابق.

٢٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأزكى**، من الزكاة، وهي الطهارة، فهو ﷺ أزكى العالمين، أي: أطهرهم.

٢٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأسَدّ**، أي: الأكثر سداداً، واستقامة.
لأن جميع ما يصدر منه ﷺ ولو على سبيل الاجتهاد مستند إلى الوحي.

٢٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **أشجع الناس**.
لما روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس[٣].

٣٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأشد حياءً من العذراء في خدرها**. العذراء: البِكر، الخدر: ستر يجعل للبكر في جنب البيت.

لما روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أشدّ حياءً من العذراء في خدرها[٤].

٣١ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأشنب**، والشّنب: رونق الأسنان، ورقة مائها،

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٤٣).
(٢) الشمائل للترمذي (٢٠).
(٣) مسلم (٤/ ١٨٠٢).
(٤) مسلم (٤/ ١٨٠٩).

وبياضها، وبريقها، والتحديد فيها، وتفليجها.

لما في الترمذي عن هند بن أبي هالة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ ضليع الفم، مفلّج الأسنان. وفي لسان العرب في صفته ﷺ: ضليع الفم، أشنب[١].

٣٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأصدق**.

لما روى الترمذي عن علي رضي الله عنه في وصف رسول الله ﷺ: وأصدق الناس لهجة[٢].

٣٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأطيب**.

لما روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: ما شممت عنبراً قطّ ولا مسكاً، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ[٣].

٣٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأغرّ**.

لقول حسّان بن ثابت رضي الله عنه:

أَغَـرّ عليـه للنبـوّة خـاتـم   مـن الله مشهـود يلـوحُ ويشهـد

٣٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **أفصح الناطقين بالضاد**.

معناه صحيح، كما قال ابن كثير في المقاصد الحسنة، لكن ليس له دليل. قال شوقي مخاطباً رسول الله ﷺ:

يا أفصح الناطقين الضادّ قاطبةً   ....

٣٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **أكثر الأنبياء تبعاً**.

لما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أُعطِيَ على ما مِثلِه آمن عليه البشر، وإنما

---

(١) الشمائل (٢٢).
(٢) الشمائل (٢٠).
(٣) مسلم (٤/ ١٨١٤).

كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[١].

٣٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **الإكليل**.

نقله العزفي، وقال في الزبور: إن الله أظهر نبياً من مكة إكليلاً محموداً، والإكليل: التاج، وهو ﷺ تاج الأنبياء[٢].

٣٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأكرم**.

لما روى الدارمي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ ينتظرونه... الحديث، وفيه: قال رسول الله ﷺ: «وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر»[٣].

٤٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **الآمر الناهي**.

لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧].

٤١ـ ومن أسمائه ﷺ: **الإمام**.

سمي به ﷺ لاقتداء الخلق به، ورجوعهم إلى قوله وفعله، ولقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

إمامٌ لهم يهديهمُ الحقَّ جاهداً مُعَلِّم صِدْقٍ إن يطيعوه يهتدوا

٤٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **إمام الخير، إمام المتقين**.

لما روى ابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك

---

(١) بخاري (٦/ ٢٢٤).

(٢) الحجة (ص١١٣).

(٣) سنن الدارمي (١/ ٢٦).

يُعرَض عليه. قالوا له: علِّمنا. قال: قولوا: اللهم اجعل صلواتِك ورحمتك وبركاتِك على سيّد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين محمدٍ عبدِك ورسولِك إمامِ الخير، وقائدِ الخير، ورسولِ الرحمة، اللهم ابعثه المقام المحمود الَذي يغبطه فيه الأولون والآخِرون[١].

وفي حديث الإسراء الذي رواه أبو هريرة: وأعطي ثلاثاً أنه سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين[٢].

٤٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **إمام العاملين**، جمع عامل، أي: العُبّاد.

لما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها، عن علقمة، قال: سألت أمّ المؤمنين عائشة قال: قلت: يا أمّ المؤمنين! كيف كان عمل رسول الله ﷺ؟ هل كان يخص شيئاً من الأيام؟ قالت: لا، كان عمله ديمةً. وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع[٣].

٤٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **إمام النبيين**.

لما روى البيهقي عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي، وذكر إبراهيم وعيسى، ووصفهم ثم قال: فجاءت الصلاة فأممتهم»[٤].

ومن أسمائه ﷺ: **إمام الناس**.

لما روى أحمد عن أُبيٍّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يومُ القيامة كنت إمام الناس، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم ولا فخر»[٥].

---

(١) سبل الهدى والرشاد (١/ ٥٣٢).
(٢) سبل الهدى والرشاد (٣/ ١٣٠).
(٣) صحيح مسلم (١/ ٥٤١).
(٤) الدلائل (٢/ ٣٨٧).
(٥) مسند أحمد (٥/ ١٣٧).

٤٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأمان** (أمان المؤمنين من العذاب، والكافرين من الخسف والعقاب).

لما روى الترمذي، وقال: حديث غريب، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله عليّ أمانَيْن لأمتي: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٣]. فإذا مضيتُ تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»[١].

٤٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأَمَنَةُ** (الوافر الأمانة).

لما روى مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال: صلّينا المغرب مع رسول الله ﷺ... الحديث، وفيه: «وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعَدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»[٢].

قلت: ما دامت سنته ﷺ معمولاً بها، فهي الأمنة للأمة، فإذا ماتت السنة أتى هذه الأمة ما توعد من البلاء والفتن.

٤٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأُمّة** (لأنه اجتمع فيه من الأوصاف الحميدة، والخصال الجميلة، ما لم يجتمع في أمّة كثيرةٍ من النّاس) كما سمي به إبراهيم عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٠].

٤٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **الآمِن**، سُمِّيَ به لتأمين الله تعالى إيّاه يومَ القيامة، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ [التحريم: ٦٦/ ٨].

---

(١) سنن الترمذي (٤/ ٣٣٤).

(٢) مسلم (٤/ ١٩٦١).

٥٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأمين** (الذي يوثق بأمانته قويٌّ حافظٌ).
ولما روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بعثَ عليٌّ بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ... الحديث، وفيه فقال رسول الله ﷺ: «ألا تأمنوني؟! وأنا أمين مَن في السماء»[1].

٥١ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأمّيّ** (الذي لا يحسن الكتابة) نسبة إلى الأمّ، كأنه على الحالة التي ولدته أمه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧].

تنبيه:
وَصْفُ النبي ﷺ بالأمّيّة إن قُصِد به التعظيم، والدلالة على النبوة فهو حسن، وإن علم منه سوء قصده، وأراد بتسميته غير وجهه، فإنه يُقتَل، أو يؤدّب بحسب حاله. وإن قصد به المقصد فهو عليه الصلاة والسلام مقصد الناس جميعاً، والناس يؤمّونه في أفعالهم وشرعِهم، فعلى هذا يكون اسماً آخر.

٥٢ـ ومن أسمائه ﷺ: أوفى الناس ذماماً. والذّمام: الحقُّ والحرمة، وكل حرمة تلزمك إذا ضيّعتها المَذَمّة، والذمام: العهد، والأمان، والضّمان.

ولقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وما حملت من ناقة فوق رَحْلها أبرّ وأوفى ذِمّةً من مُحَمّدِ

٥٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأنور المُتَجَرّد**.
لما روى الترمذي في الشمائل حديث هند بن أبي هالة في وصف رسول الله ﷺ، وفيه: «كان أنور المتجرَّد»[2] أي: نيّر العضو المتجرّد عن الشعر، أو عن الثوب.

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ٧٤٢).
(٢) الشمائل (٢٢).

٥٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأوّاه**.

لما روى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه حديث: كان ﷺ يدعو: «رب أعني. . .» الحديث، وفيه: «رب اجعلني لك أوّاهاً منيباً»[١].

٥٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأوسط** (العادل، أو الخيار من كل شيء).

ويرحم الله القائل:

يا أوسط الناس طرّاً في مفاخرهم وأكـرمَ النـاس أمّـاً بَـرَّةً وأبـا

فأمته أمّةٌ وسط، وهو ﷺ إمامُهم، وأوسطُهم.

٥٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **الأول، والآخر**، ومعناه: السابق الذي يتقدم على غيره، أو الذي يقتدى به. والآخر من التأخر ضد التقدّم.

لما روى البيهقي عن أنس حديث الإسراءِ وفيه: قال: فلقيه خلق من الخلق فقالوا: السلام عليك يا أوّل، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد السلام يا محمد. . . الحديث[٢]. والأول والآخر اسمان من أسماء الله تعالى، ومعناهما: أنه ليس له أوّل، وليس له آخر.

٥٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **أوّل شافع** (طالب للشفاعة).

٥٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **أول مشفّع** (الذي يَشفع فتقبل شفاعته، وهي السؤال في التجاوز عن المذنبين.

لما روى مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة. . .» الحديث، وفيه: قال: قال رسول الله

---

(١) مسند أحمد (١/ ٢٢٧).

(٢) الدلائل (٢/ ٣٦٢).

ﷺ: «فيأتوني، فأستأذن على ربي، فيؤذَن لي، فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً، فيدَعُني ما شاء الله، فيقال: يا محمد! ارفعْ رأسك، قُل تُسمع، سل تُعطه، اشفع تشفّع، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يُعَلِّمُنيهِ ربي، ثم أشفع...» الحديث[١].

٦٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **أوّل المسلمين** (أي: المقتدى به في الإسلام).

ولقوله تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٣].

٦١ـ ومن أسمائه ﷺ: **أوّل من تنشقّ عنه الأرض.**

لما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأوّل من يَنشق عنه القبر»[٢].

٦٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **البرهان.**

لما روى ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ٤/ ١٧٤]. قال: هو محمد ﷺ، وجزم به ابن عطية[٣].

٦٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **البَشَر.**

لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[الكهف: ١٨/ ١١٠].

٦٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **بشرى عيسى.**

لقوله تعالى حاكياً عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦١/ ٦].

وفي المستدرك، وقال: صحيح الإسناد، وصححه الذهبي، عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله!

---

(١) صحيح مسلم (١/ ١٨١).
(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٢).
(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٣١٩).

أخبرنا عن نفسك قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له بُصرى، وبُصرى من أرض الشام»[(١)].

فائدة:

الأنبياء المبشَّر بهم خمسة: محمد، وعيسى، وإسحاق، ويعقوب، ويحيى صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

٦٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **البشير**، وهو المبشر بالخبر السارّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٤].

٦٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **البيّنة**.

لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾... [البينة: ٩٨/ ١ـ٢].

٦٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **البيان**، وهو الفصاحة، واللّسن، وإظهار المقصود بأبلغ لفظ، والبيّن من الرجال الفصيح، وقال النضر بن شُميل: البيّن من الرجال: السمح اللسان الفصيح، الظريف، العالي الكلام، القليل الرّتَج، ورسول الله ﷺ سيّدهم.

٦٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **التالي**، المتّبع لمن تقدّمه، أو من التلاوة.

لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٣]. ولقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [البقرة: ٢/ ١٥١].

٦٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **التّهامي**. وتهامة: ما نزل من نجد من بلاد

(١) المستدرك (٢/ ٦٠٠).

الحجاز، وتهامة من أسماء مكة، سميت بذلك لتغيّر هوائها، يقال: تَهِمَ الدُّهن: إذا تغيّر.

٧٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **ثاني اثنين**، أي: أحد اثنين، وهما رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق.

٧١ـ **ومن أسمائه** ﷺ: **الجَدّ**. معناه: العظيم الحظّ الجليل القدر.

لحديث الهجرة، وفيه: فكان أوّلَ من رآه رجلٌ من اليهود، وقد رأى ما كنا نصنع، وأنا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قَيْلة! هذا جَدُّكم قد جاء[١].

٧٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **الجَهْضَم**.

هو العظيم الهامة، المستديرُ الوجه، الرحب الجبين، الواسع الصدر، وهذه الأوصاف مجتمعة فيه ﷺ.

٧٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **الجوّاد**. صيغة مبالغة في الجَواد، وهو الذي لا يصعب عليه البذل، وأول مراتب الكرم السخاء، ثم الجود، ثم الإيثار. فمن أعطى البعض وأبقى البعض فهو السخيّ، ومن بذل الأكثر، وأبقى شيئاً فهو الجواد، ومن قاسى الضرّ وآثر غيره بالإسعاد، فهو مؤثر.

٧٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **الجَواد** وهو الكريم السخيّ.

لما روى الترمذي عن جابر رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قطّ فقال: لا[٢].

٧٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحاشر**.

لما روى أحمد عن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ قال: «وأنا الحاشر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٩٢).

(٢) الشمائل للترمذي.

الذي يحشر الناس على قدمي»[(١)].

«على قدمي» يحتمل معاني، قيل: على زماني وعهدي، وقيل: بمشاهدتي، وقيل: على أثري، أي: أنه يقدمهم وهم خلفه.

٧٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحافظ**.

وهو اسم مشترك بينه تعالى وبين عباده، والحافظ اسم من أسماء الله تعالى معناه: صيانة جميع الموجودات عن العدم، وصيانة المضادات بعضها من بعض. والحافظ من العباد: من يحفظ جوارحه، وقلبه، ويحفظ دينه.

٧٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحاكم**.

لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٤/ ١٠٥].

٧٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحامد**. وهو أحد معنيي أحمد، ومعناه: حمد الله أكثر من حمد غيره له.

٧٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **حامل لواء الحمد**.

لما روى الدارمي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جلس ناس من أصحاب النبي ينتظرونه... الحديث، وفيه: «وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه، ولا فخر»[(٢)].

٨١ـ ومن أسمائه ﷺ: **حبيب الله، حبيب الرحمن**.

للحديث السابق نفسه، وفيه: «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر»[(٣)] والله يشمل الرحمن.

---

(١) مسند أحمد بشرح البنا (٢٠/ ١٨٨).

(٢) سنن الدارمي (١/ ٢٦).

(٣) المصدر السابق.

٨٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **حُجّة الله على الخلائق** بمعنى البرهان، وقد سبق.

٨٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **حرز الأمّيين**.

لما في البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أجل، والله! إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً، وحرزاً للأمّيين، أنت عبدي ورسولي... الحديث[١].

٨٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحَرَميّ** نسبة إلى الحرم المكّي، فهو نظير: المكّيّ، التّهامي، الأبطحي.

٨٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحجازي** نسبة إلى الحجاز الذي يحجب بين تهامة ونجد.

٨٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحريص على المؤمنين**.

لقوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ٩/١٢٨] أي: على إيمانكم وهدايتكم.

٨٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحسيب**، الشريف الكريم من الحَسَب، وهو ما يعد من مفاخر الآباء، أو الدين، أو الكريم.

لما روى مسلم عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[٢].

٨٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحَكَم**، وهو اسم مشترك، ومعناه: الحاكم، أو

---

(١) البخاري (٣/ ٨٣).
(٢) مسلم (٤/ ١٧٨٢).

المانع. لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٠٥].

٨٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحكيم**، وهو المتقن للأمور، أو بمعنى حاكم، وهو المنع للإصلاح، وهو أعم من الحكمة. أو ذو الحكمة، وهي إصابة الحق بالعلم والعقل.

والحكيم اسم مشترك، والمراد به في حقه تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، وفي حق الإنسان معرفة الموجودات، وفعل الخيرات.

٩٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحليم**. الحِلْمُ: الأناة في الأمور، وقد اتصف به ﷺ، وهو صفته في التوراة، ففي قصة إسلام زيد بن سعنة: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً(١).

٩١ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحُلاحِل**. ومعناه السيد الشجاع، أو: كثير المروءة، أو السيد الرّزين.

وقدجمع رسول الله ﷺ بين ذلك: قال بعضهم يمدحه:

وَعَرْبَةُ أرضٌ ما يُحِلُّ حَرامَها ... من الناس إلا اللَّوْذَعيُّ الحُلاحِلُ

والعَربة: ناحيةٌ قرب المدينة. هـ قاموس. والمراد بها: مكة.

٩٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحمّاد**. وهو أحد معنيي أحمد، أي الحامد، كثير الحمد.

١٠٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **مؤُذماذ** في التوراة، وماذماذ، وموذموذ في صحف إبراهيم، ومعناه: طيب طيب، وميذميذ وطاب طاب في التوراة، ومعناه طيّب. وحاط حاط: اسمه في الزبور. والبارقليط

(١) الدلائل لأبي نُعيم (١/ ٢٣).

في الإنجيل، ومعناه روح الحق، أو الذي يفرّق بين الحق والباطل، أو المخلص، والبرقليطس: بالروميّة، والسرخليطس: بالسريانية. هو محمد ﷺ. والمنحمنّى، والمُشَقّح: المحمّد ومحمّطايا: معناه حامي الحرم، أو حامي الحُرَم. وحُبَيطى: معناه في الإنجيل يفرّق الله به بين الحق والباطل. وكنديدة: اسمه في الزبور، وأخوناخ: في صحف شيث، ومعناه: صحيح الإسلام. وقِدْمايا: اسمه ﷺ في التوراة، ومعناه: السابق الأوّل. وآخرايا: اسمه ﷺ في الإنجيل، ومعناه: آخر الأنبياء.

ذكر ذلك الحافظ السيوطي(١).

١٠٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحميد**، بمعنى حامد، أو محمود الذي حُمدت أخلاقه، ورُضيت أفعاله، أو الحامد لله تعالى بما لم يحمده به حامد، فهو بمعنى أحمد.

١٠٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحنيف**، وهو المائل إلى دين الإسلام، الثابت عليه.

لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٣].

١١٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحَيِيّ** بمعنى: كثير الحياء، وهو انقباض النفس وانكفافها عن القبائح.

لما روى الدارمي عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ حَيِيّاً، لا يُسأل شيئاً إلا أعطاه(٢).

١١١ـ ومن أسمائه ﷺ: **الحيّ** بمعنى: الباقي المتلذذ المتنعّم في قبره،

---

(١) الحجة (١١٢).

(٢) سنن الدارمي (١/ ٣٤).

وقد أخبر الله تعالى عن الشهداء بحياتهم بعد استشهادهم، قال عز وجل: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٩] ورسول الله ﷺ مات مسموماً.

روى البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة! ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوان وجدتُ انقطاع أبهري من ذلك السُّمُّ»[١].

وروى أحمد والحاكم، وصححه، وأقرّه الذهبي عن عبد الله بن مسعود قال: لأن أحلف تسعاً أن رسول الله ﷺ قتل قتلاً، أحبُّ إليّ من أن أحلف واحدةً أنه ﷺ لم يقتل، وذلك بأن الله جعله نبياً، واتخذه شهيداً[٢].

والشهيد: من قتله أهل الحرب مباشرة أو تسبباً بأي آلة كانت ولو بماء أرسلوه، فأغرق المسلمين، أو ألقوا أحجاراً في طريق المسلمين، وأهل خيبر أهل حرب حين وضعوا السم في الشاة لقتل المسلمين، فكانوا متسببين في قتل النبي ﷺ.

وروى أحمد والحاكم، وصححه، وأقرّه الذهبي عن أم مبشر، ويقال لها أم بشر رضي الله عنهما قالت: دخلتُ على رسول الله ﷺ في وجعه الذي قبض فيه، فقلت: بأبي أنت يا رسول الله ما تتهم بنفسك؟ فإني لا أتّهم بابني إلا الطعام الذي أكله معك بخيبر، وكان ابنها بشر بن البراء بن معرور مات قبل النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «وأنا لا أتهم غيرها، هذا أوان انقطاع أبهري»[٣].

---

(١) البخاري (٦/ ١١).
(٢) مسند أحمد بشرح البنا (١٤/ ٣٩).
(٣) المستدرك (٣/ ٢١٩).

وروى الحاكم، وصححه، وأقرّه الذهبي عن الشعبي، قال: والله لقد سُمّ رسول الله ﷺ، وسمّ أبو بكر الصديق، وقتل عمر بن الخطاب صبراً، وقتل عثمان بن عفان صبراً، وقتل عليّ بن أبي طالب صبراً، وسُمّ الحسنُ بن عليّ، وقتل الحسين بن علي صبراً رضي الله عنهم، فما نرجو بعدهم[1]؟!.

١١٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **خاتَم النبيين**، معناه: أحسن الأنبياء خَلْقاً وخُلُقاً، ولأنه ﷺ جمال الأنبياء كالخاتَم الذي يتجمل به. لقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٠].

١١٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **خاتِم النبيّين** معناه: آخرهم.

لما روى البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضعَ لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجّبون ويقولون: لولا موضع اللبنة» زاد في رواية أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «فأنا اللبنة، وأنا خاتِم النبيّين»[2].

١١٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **الخاتم**. لحديث البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة حديث الإسراء، وفيه: «وجعلني فاتحاً خاتماً»[3].

١١٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **الخازن** «لمال الله».

لما روى البخاري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا قاسم وخازن والله يعطي»[4]. وروى مسلم عن معاوية قال: سمعت رسول الله

---

(١) المستدرك (٣/ ٥٩).

(٢) البخاري (٤/ ٢٢٦).

(٣) الدلائل للبيهقي (٢/ ١٣٠).

(٤) فتح الباري (٦/ ١٦٤).

ﷺ يقول: «إنما أنا خازن..»[١] الحديث.

١١٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **الخاشع**. من الخشوع، وهو الخوف الدائم الملازم للعبد، وهو قريب من الخضوع. وكان ﷺ أخشع الناس في صلاته، والخشوع في البدن، والصوت، والبصر.

١١٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **الخبير**، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٥٩].

قال القاضي بكر بن العلاء: المأمور بالسؤال غير النبي ﷺ، والمسؤول الخبير هو النبي ﷺ، والخبير في حقه تعالى: المطّلع بكنه الشيء، العالم بحقيقته، وقيل: المخبِر.

والنبي ﷺ مطّلع على شيء من العلم، أذن الله تعالى له به من مكنون علمه، وعظيم معرفته، ومخبر أمته بما أذن الله تعالى في إعلامهم به.

١١٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **خطيب النبيّين**.

لما روى الإمام أحمد عن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامة كنت إمامَ النبيّين، وخطيبَهم، وصاحبَ شفاعتهم غير فخر»[٢].

١١٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **خطيب الناس**.

لما روى الإمام أحمد عن أبيّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام الناس، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم»[٣].

---

(١) مسلم (٢/٧١٨).
(٢) مسند أحمد (٥/١٣٧).
(٣) المصدر السابق.

١٢١ـ ومن أسمائه ﷺ: **خليل الرحمن ـ خليل الله** من الخلّة، وهي الصداقة، والمحبّة.

لما روى مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أبرأ إلى كلِّ خِلٍّ من خِلِّه, ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، إن صاحبكم خليل الله»(١) وفي رواية: «إني أبرأ إلى كل خِلٍّ من خلته.

١٢٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **خليفة الله**، أي: في الأرض في تنفيذ أحكامه فيما بين خلقه.

لذكره في حديث الإسراء: فنعم الأخ، ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء، وحيّاه الله من أخ، ومن خليفة(٢).

١٢٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **خير الأنبياء**، أي: أفضلهم.

١٢٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **خيرة الله**، أي: مختاره، ومصطفاه. وخِيَرَة معناه: المختار.

١٢٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **خير البريّة**، أي: الخلق.

وهي معلومة من الأحاديث، والآثار المشهورة.

١٢٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **خير هذه الأمة**.

لما روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: قال لي ابن عباس: هل تزوّجت؟ قلت: لا، قال: فتزوّج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساءً(٣).

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: والذي يظهر أن مراد ابن عباس

---

(١) مسلم (٤/ ١٨٥٦).

(٢) الدلائل للبيهقي (٢/ ٤٠١).

(٣) صحيح البخاري (٧/ ٤).

من قوله: النبيُّ ﷺ.

١٢٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **دار الحكمة**.

لما روى السخاوي في المقاصد الحسنة عن علي رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «أنا دار الحكمة، وعليٌّ بابها»[(١)].

١٢٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الداعي إلى الله**.

لما روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: جاءت ملائكةٌ إلى النبي ﷺ وهو نائم.. الحديث، وفيه فقالوا: «مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أوِّلوها له يَفقهْها، فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ»[(٢)].

١٢٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **الدامغ**.

لما في الحديث عن علي رضي الله عنه في الصلاة على النبي ﷺ وفيه «دامغ جيشات الأباطيل» والجيشات: جمع جيشة بمعنى المرة، من جاش: إذا ارتفع، وهو من دمغته؛ إذا أصبت دماغه.

١٣٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **دعوة إبراهيم**، وتقدم الدليل في بشرى عيسى.

١٣١ـ ومن أسمائه ﷺ: **الذاكر**.

لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٥].

١٣٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **الذُّخر**، وهو الشيء النفيس تعدّه للعاقبة، والأمة المحمدية تعد النبي ﷺ ذخراً يوم القيامة؛ لتنال شفاعته بإذن الله.

---

(١) المقاصد الحسنة (٩٧).

(٢) بخاري (٩/ ١١٤).

١٣٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **الذِّكْر**، لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا رَّسُولٗا﴾ [الطلاق: ٦٥/ ١٠].

ومن أسمائهﷺ **الذّكّار**، لقوله ﷺ: «رب اجعلني لك شكّاراً، لك ذكّاراً»[(١)].

١٣٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **ذو الحوض المورود**.

١٣٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **ذو الخلق العظيم**؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/ ٤].

١٣٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **ذو المقام المحمود**، وهو الشفاعة العظمى.

١٣٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **ذو الوسيلة**، وهي درجة في الجنة.
لما روى البخاري عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم! ربّ هذه الدعوة التّامّة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً؛ الذي وعدته، حلّت له شفاعتي يوم القيامة»[(٢)].

١٣٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **ذو الفضيلة**؛ للحديث السابق.

١٣٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **الرّاجي**، من الرجاء ضد الخوف، أو الثقة بالجود من الكريم الموجود.

لما روى مسلم عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ ذُكر عنده عمه أبو طالب فقال: «لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة..» الحديث[(٣)].

---

(١) مسند أحمد (١/ ٢٢٧).
(٢) بخاري (١/ ١٥٠).
(٣) مسلم (١/ ١٩٥).

١٤٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **الرّاضي**.

لما روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٦] وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٨] فرفع يديه، وقال: «اللهم أمتي أمتي» وبكى، فقال الله عزل وجل: يا جبريل! اذهب إلى محمّد ـ وربك أعلم ـ فسله: ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله: يا جبريل! اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوءُك»(١).

١٤١ـ ومن أسمائه ﷺ: **الراغب** (المبتهل، المتضرع) والمريد، الحريص على الشيء، السائل، لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٩٤/ ٩] يعني: تضرّع إليه راغباً في الجنة، راهباً من النّار.

١٤٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **الرافع**. وهو من أسمائه تعالى، ومعناه: الذي يرفع المؤمنين بالإسعاد، ويخفض الكافرين بالإبعاد.

١٤٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **راكب البُراق**.

لما في مسلم عن أنس بن مالك: أنّ رسول الله ﷺ قال: «أُتيت بالبراق، وهو دابّةٌ أبيض، طويل، فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه» قال: «فركبته»(٢). . . الحديث.

١٤٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **راكب الجمل، راكب البعير، راكب الناقة، راكب النجيب**.

---

(١) مسلم (١/ ١٩١).

(٢) مسلم (١/ ١٤٥).

لما ورد في كتاب نبوّة شعيا ـ وهو ذو الكفل ـ أنه قال: قيل لي: قم نظّاراً فانظر ما ترى، فأخبِر عنه، فقال: رأيت راكِبَيْنِ مقبلَيْنِ أحدهما على حمار والآخر على جمل، فنزل يقول أحدهما لصاحبه: سقطت بابلُ وأصنامُها، قال: فراكب الحمار عيسى، وراكب الجمل محمد ﷺ؛ لأن ملك بابل إنما ذهب بنبوّته وسيفه على يد أصحابه كما وعدهم به؛ ولهذا قال النجاشي لما جاءه كتاب رسول الله ﷺ، وآمن به: أشهد أنّه بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل.

قال ابن عساكر: إن قيل: لِم خُصّ بركوب الجمل وقد كان يركب الفرس، والحمار، وبالهراوة وهي العصا، وقد كان غيره من الأنبياء يمسكها؟

والجواب: أن المعنِيّ بهما النبي ﷺ، فإنه من العرب، لا من غيرهم؛ لأن الجمل مركب للعرب، مختص بهم، لا ينسب لغيرهم من الأمم، والهراوة كثيراً ما تستعمل في ضرب الإبل، فهما كنايتان عن كونه ﷺ عربيّاً[١].

١٤٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الرَّجِل**. وفي حديث عليّ في وصف النبي ﷺ: لم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط، كان جعداً رَجِلاً[٢].

١٤٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **الرّجيح**، يعني: الزائد على غيره في الفضل، وقد مرّ الدليل في اسمه الأرجح.

١٥٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **رحب الراحة**.

لما في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة في وصف النبي ﷺ:

(١) الحجة للنبهاني (١١٤).
(٢) الشمائل للترمذي (٢٠).

طويل الزَّنديْنِ، رحب الراحة[١].

١٥١ـ ومن أسمائه ﷺ: **رحمة العالمين.**

لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٧] فهو ﷺ رحمة لجميع الخلق، المؤمن بالهداية، والمنافق بالأمان من القتل، والكافر بتأخير العذاب عنه.

١٥٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **رحمة مهداة.**

لما روى الحاكم عن أبي صالح مرسلاً عنه ﷺ قال: «إنما أنا رحمةٌ مُهداةٌ»[٢].

١٥٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **الرؤوف الرحيم.**

لقوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٨] والرأفة: شدة الرحمة، وأبلغها.

١٥٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الرسول، رسول الله، رسول الرّحمة.**

لقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧] وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٩].

ولما روى ابن أبي عاصم بسند فيه المسعودي، وهو ثقة قد اختلط، عن عبد الله بن مسعود قال: قلنا: يا رسول الله! قد عرفنا السلام عليك، فكيف نصلّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمد عبدك ورسولك، إمام الخير، وقائد الخير، ورسولِ الرحمة»[٣].

---

(١) الترمذي (٢٣).
(٢) جامع الأحاديث (٢/ ٥٠٠).
(٣) سبل الهدى والرشاد (١٢/ ٤٣٤).

١٥٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **الرَّشيد**، بمعنى الراشد: المستقيم، أو بمعنى المرشِد: الهادي، وهو من أسمائه تعالى بمعنى: أرشد الخلق إلى مصالحهم.

قال أبو طالب يصفه ﷺ:

حليم رشيد عادل غير طائش يـوالـي إلهـاً ليس عنـه بغـافِـل

١٦٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **الرَّفيق**، من: الرّفق، وهو اللطف، وكان ﷺ منه بمكان؛ لقوله ﷺ فيما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «يا عائشة! إن الله يحب الرفق في الأمر كله»[1].

١٦١ـ ومن أسمائه ﷺ: **الرفيع الذكر**.
لقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٩٤/ ٤].

١٦٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **ركن المتواضعين، نور الله الذي لا يُطفأ**.
ورد في كتاب شعيا النبي قال في وصفه ﷺ من جملة كلام: يُقَوّي الصّدّيقين، وهو ركن المتواضعين، هو نور الله الذي لا يُطفأ. أثر سلطانه على كتفه[2].

١٦٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **الرَّهّاب**، من الرَّهْب، وهو الخوف، لا من الترهُّب؛ لنهيه ﷺ عن الرهبانية، فلا يتصف بها، ولما في حديث أحمد عن ابن عباس من دعائه ﷺ: «رب! اجعلني لك شكّاراً، لك ذكّاراً، لك رهّاباً. . . الحديث»[3].

١٦٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **الزَّاجر**، بمعنى الناهي عن ما نهى الله عنه، والزاجر عنها. قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ

---

(١) بخاري (٨/ ١٤).
(٢) الحجة (١١٣).
(٣) مسند أحمد (١/ ٢٢٧).

ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧].

١٦٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **الزَّاهد**، من الزهد، وهو ترك الحرام.

لما روى الترمذي، وقال: حديث غريب، عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «الزَّهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزّهادة في الدنيا ألا تكون بما في يديك أوثق مما في يد الله. . .» الحديث(١).

١٦٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **الزَّعيم**، ومعناه: الكفيل، والضمين.

لما روى أبو داود عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنّة لمن ترك المراء وإن كان مُحِقّاً، وبيتٍ في وسط الجنّة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيتٍ في أعلى الجنّة لمن حَسَّن خُلُقه»(٢).

١٦٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **السَّاجد** من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٢٦].

١٧٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **السِّراج المنير**.

لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٥ـ٤٦].

وسمّي سراجاً لإضاءة الدنيا بنوره، ومحو الكفر وظلامه بظهوره.

١٧٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **سيد الناس، سيد ولد آدم، سيد المرسلين، سيّد الثقلين**.

لما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه حديث الشفاعة، وفيه: قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيامة. . .»

---

(١) سنن الترمذي (٣/ ٣).

(٢) سنن أبي داود (٤/ ٢٥٣).

الحديث[١]. وقيّد السيد بيوم القيامة؛ لأنه يظهر فيه سؤدده لكل أحد، ولا يبقى له منازع ولا معاند، بخلاف الدنيا، فقد نازعه ملوك الكفار وزعماؤهم.

ولما روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر. . . الحديث»[٢]. والجن دون ولد آدم في الفضل، فكان سيد الإنس والجن، وهما الثقلان.

ولما روى صاحب سبل الهدى من حديث الإسراء، وفيه: «وأعطي ثلاثاً: أنه سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغرّ المحجّلين»[٣].

١٧٥- ومن أسمائه ﷺ: **السيّد**، وهو الرئيس الذي يُتّبع وينتهى إلى قوله، وهو من أسمائه تعالى، ومعناه: الذي يلجأ الناس إليه في حوائجهم، وقيل في معنى السيد: الفقيه، العالم؛ الذي سار في العلم، والعبادة، والورع، فلا تعارض مع قوله ﷺ على ما رواه أحمد عن مطرّف بن عبد الله الشّخّير، قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: أنت سيّد قريش، قال: «السيد الله».

فإنه قاله إما تواضعاً أو أدباً، أو قبل أن يُعْلِمه ربه أنه سيد الناس، فلما أعلمه بذلك قاله لوجهين، أحدهما امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ٩٣/ ١١] والثاني: إنه من البيان الذي يجب أن يبلّغ لأمته ليعرفوه، ويعتقدوه.

١٧٧- ومن أسمائه ﷺ: **السيف، سيف الله**.

---

(١) مسلم (١/ ١٨٤).
(٢) سنن الترمذي (٥/ ٢٤٧).
(٣) سبل الهدى والرشاد (٣/ ١٣٠).

لما روى الحاكم عن موسى بن عقبة قال: أنشد النبيَّ ﷺ كعبُ بن زهير بانت سعاد في مسجده بالمدينة، فلما بلغ قوله:

إن الرسولَ لسيفٌ يُستضاء به وصارمٌ من سيوف الله مسلولُ
في فتية من قريشٍ قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

أشار رسول الله ﷺ بكمّه إلى الخلق ليسمعوا منه[1]. وجاء في رواية:

إن الرسولَ لنورٌ يستضاء به وصارمٌ من سيوف الله مسلولُ

١٧٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الشارع**؛ لأنه شرع الدين والأحكام، وقد وصف الله تعالى به نفسه، فقال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الشورى: ٤٢/١٣]..

١٨٠ـ **ومن أسمائه** ﷺ: **الشافع ـ المُشَفَّع**، والأول: طالب الشفاعة، والثاني: مقبول الشفاعة[2].

١٨١ـ ومن أسمائه ﷺ: **الشّفيع**، لقوله ﷺ: «إنما أنا أشفع»[3].

١٨٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **الشاكر والشّكّار والشّكور**، والشكور أبلغ من الشاكر، والشكّار أبلغ من الشكور.

لما روى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يدعو: «رب اجعلني لك شكّاراً»[4].

ولما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت لرسول الله ﷺ لما تفطّرت رجلاه من طول القيام: يا رسول الله! أتصنع هذا وقد

---

(١) المستدرك (٣/ ٥٨٢).
(٢) صحيح مسلم (١/ ١٨١).
(٣) بخاري (٧/ ٦٢).
(٤) مسند أحمد (١/ ٢٢٧).

غُفِر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «يا عائشة! أفلا أكون عبداً شكوراً»[١].

١٨٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **الشاهد**، يعني: العالم، أو المطّلع الحاضر.
لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٥].

١٨٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **شَثْن الكَفَّين والقدمين**، ومعنى: شثن: عظيم، والعرب تمدح بذلك؛ لأنه أشد وأمكن للقبض.

لما روى الترمذي عن هند بن أبي هالة في وصف النبي ﷺ: طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين[٢].

١٨٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **الشديد**، أي: البيّن القوّة.
لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٧].

١٨٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الشهيد**، وهو: العدل المزكّي.
لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣].

١٨٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **الصابر**، من الصبر، والصبر: حبس النفس عن الجزع، وإمساكها في الضيق والفزع، وهو أيضاً: الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

لقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٢٥/ ٨٤] وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٧].

١٩٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **الصاحب**، من الصحبة، هي: المعاشرة والملازمة.
لقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٣٥/ ٢] وقوله تعالى:

---

(١) مسلم (٤/ ٢١٧٢).
(٢) الشمائل للترمذي (٢٣).

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٨١/ ٢٢]. والصحبة على ثلاثة أقسام: صحبة مَن فوقك، وصحبة من دونك، وصحبة المساوي.

فصحبة من فوقك: خدمة، وصحبة من دونك: تقضي على المتبوع بالإشفاق، وعلى التابع بالوقار، وصحبة المساوي: تنبني على الفتوة والإيثار. والصاحب من أسمائه تعالى، وفي الحديث: «اللهم أنت الصاحب في السفر».

١٩٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **صاحب الآيات، صاحب المعجزات، صاحب الأزواج الطاهرات.**

١٩٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **صاحب البرهان، صاحب البيان، صاحب الخير، صاحب الدرجة العالية الرفيعة (الشفاعة).**

١٩٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **صاحب التاج (العمامة)** وسيأتي دليلها، **وصاحب البرهان والبيان**، أي: صاحب المعجزة، والحجة، والقرآن.

٢٠٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **صاحب الكوثر، صاحب التوحيد.**

لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١٠٨/ ١]، ولأنه جاء بكلمة التوحيد لا إله إلا الله.

٢٠٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **صاحب زمزم**، والزمزميّ: منسوب إلى زمزم، وهي سقاية الله جدَّه إسماعيل ﷺ، فهو أولى من نُسب إليها.

٢٠٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **صاحب الحوض المورود.**

لما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»[١].

---

(١) بخاري (٨/ ١٥١).

وروى أيضاً عن ابن عمروٍ قال: قال النبي ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه فلا يظمأ أبداً»[١].

وروى البخاري عن أنس عن النبي ﷺ قال: «ليردنّ عليّ ناسٌ من أصحابي الحوض... الحديث»[٢].

٢٠٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **صاحب السلطان**، والسلطان: الحجة. لأنه ﷺ حجة الله على عباده في الآخرة.

٢٠٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **صاحب الشفاعة العظمى، صاحب شفاعة النبيين، صاحب شفاعة الناس**.

لما روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم، غير فخر»[٣].

وفي رواية لأحمد: «كنت إمام الناس وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم، ولا فخر»[٤].

٢٠٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **صاحب المحشر**، أي: صاحب الكلمة في المحشر. لأن فيه الشفاعة، ولواء الحمد، والمقام المحمود، والكوثر، وكلّها له ﷺ.

٢٠٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **صاحب المعراج**.

٢١٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **صاحب المقام المحمود**، وهو الشفاعة كما مرّ، **وصاحب المِدرعة، وصاحب النعلين، وصاحب الهراوة**.

---

(١) بخاري (٨/ ١٤٩).
(٢) المصدر السابق.
(٣) مسند أحمد (٥/ ١٣٧).
(٤) المصدر السابق.

لما روى البيهقي عن مقاتل بن حيان قال: أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم: جِدَّ في أمري ولا تهزِل، واسمع وأطع، يا بن الطاهر البكر البتول، إني خلقتك من غير فحل، فجعلتك آية للعالمين، فإياي فاعبد، وعليّ فتوكّل، فَسِّر لأهل سوران بالسريانية، بلّغ مَن بينَ يديك: أني أنا الله الحيُّ القيوم الذي لا أزول. صدّقوا النبي الأمّي العربيّ، صاحبَ الجمل والمِدْرعة (الدرع) والعمامة، وهي التاج، والنّعلين، والهِراوة، وهي القضيب. الجَعْدُ الرأس، الصّلْتُ الجبين، المفروقُ الحاجبين، الأنجل العينين، الأهدب الأشفار، الأدعج العينين، الأقنى الأنف، الواضح الجبين، الكثّ اللحية، عَرَقه في وجهه كأنه اللؤلؤ، ريح المسك ينفح منه، كأن عنقه إبريق فضة، وكأن الذهب يجري في تراقيه، له شعرات من لَبَّته إلى سُرّته تجري كالقضيب، ليس على صدره ولا على بطنه شعرٌ غيره، شثن الكفّ والقدم، إذا جاء مع الناس غمرهم، وإذا مشى كأنما يتقلّع من الصَّخر، وينحدر في صبب، ذو النَّسل القليل. وكأنه أراد الذكور من صلبه(١).

٢١٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **الصادع**، مِن صدع بالحجة: إذا تكلّم بها جهاراً؛ لقوله تعالى ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٤].

٢١٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **الصادق المصدوق**، وهو عَلَم واضح عليه الصلاة والسلام.

لما روى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق(٢).

٢١٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **الصّالح**، وهو الذي يؤدي إلى الله ما افترضه عليه

(١) الدلائل (١/ ٣٧٨).
(٢) مسلم (٤/ ٢٠٣٦).

وإلى الناس حقوقهم، لقول الأنبياء له ليلة الإسراء والمعراج: مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح.

٢١٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الصبور**، مبالغة من الصبر، وهو الذي لا تحمله العجلة على المؤاخذة؛ لحلمه على كفار مكة حين كسروا رباعيته، وجرحوا شفته السفلى، وشجّوا وجهه، وجرحوا وَجْنته، فقيل له: ادع عليهم، فدعا لهم بالهداية امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٥]. والصبور من أسمائه تعالى، وهو الذي لا تحمله العجلة على مؤاخذة العصاة.

٢١٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **الصبيح**، ومعناه: الجميل.

لما روى مسلم عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس وجهاً، وأحسنهم خَلْقاً[١].

٢٢٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **الصّدوق** وهو الذي يتكرر منه الصدق.

٢٢١ـ ومن أسمائه ﷺ: **الصّدّيق**.

لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣٣]. يعني: جبريل، ورسول الله ﷺ.

٢٢٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **الصراط المستقيم**.

لما روى ابن جرير الطبري عن أبي العالية رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ١/ ٦] قال: هو رسول الله ﷺ وصاحباه من بعده: أبو بكر وعمر. قال: فذكرت ذلك للحسن، فقال: صدق أبو العالية، ونصح. وسُمِّيَ به لأنه الطريق الموصل إليه[٢].

---

(١) مسلم (٤/ ١٨١٩).

(٢) تفسير ابن جرير (١/ ٥٨).

٢٢٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **صفوة الله** لحديث عمر رضي الله عنه: فقلت: أنت نبي الله وصفوته، وكسرى وقيصر على سرر الذهب، وفُرُش الديباج والحرير. . . الحديث، رواه ابن ماجه بإسناد صحيح[١].

٢٢٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **الصفوح**، وهو من صفاته في التوراة، وفي الشمائل: ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح[٢]. وقال تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٨٥]. وهو ﷺ القائم بأمر الله.

٢٢٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **الضارع**، من التضرّع والابتهال، ولكثرة تضرعه وابتهاله إلى الله سُمّي به، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٥].

٢٢٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الضحّاك، الضحوك**.

وفي التوراة: اسمه ﷺ أحمد الضحوك، قتال، يركب الحمار، ويلبس الشملة، ويجتزىء بالكسرة، سيفه على عاتقه[٣]. وقيل: اسمه الضحوك؛ لأنه كان طيب النفس، لا يراه أحد ذا ضجر، ولا قلق، ولكن لطيفاً في النطق، رفيقاً في المسألة.

٢٢٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **الضّمين**.

لما روى البخاري عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لَحييه وما بين رجليه أضمنْ له الجنة»[٤].

٢٣٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **الضياء**؛ لأنه يهتدى به كما يهتدى بالضوء في ظلمات الدّجى. قال عمرو بن معد يكرب رضي الله عنه يمدح النبي ﷺ:

---

(١) الترغيب والترهيب (٤/ ٢٠٠).

(٢) الشمائل للترمذي (١٩٧).

(٣) الحجة(١١٤).

(٤) بخاري (٨/ ١٢٥).

حِكمــة بعــد حِكمــةٍ وضيــاء قد هُدِينا بنورها مِنْ عَمانا

وقال كعب بن زهير رضي الله عنه يمدح النبي ﷺ:

إن الـرسـولَ لنـورٌ يستضـاء بـه وصارمٌ من سيوف الله مسلول[١]

٢٣٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **الطاهر، الطهور**.

سُمّي به لأنه ﷺ سالم من الذنوب، خالص من العيوب، مطهّر لأمته من الأرجاس والأنجاس، فهو الذي سنّ لأمته الطهارة الحسية، وطهره الله تعالى من الأدناس المعنوية، كما قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٧٤/ ٤] وقال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢].

٢٣٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **الطيّب**.

لما روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: ما شممت عَنبراً قطّ، ولا مسكاً، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ[٢]، وهو من أسمائه تعالى، ففي الحديث: «إن الله تعالى طيِّب لا يقبل إلا طيِّباً».

٢٣٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **العابد**؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٩].

٢٣٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **العادل**، ومعناه: المستقيم؛ الذي لا جَوْر في حكمه ولا مَيْل. ولقول أبي طالب:

حليـم رشيـد عـادل غيـر طـائـش يـوالـي إلهـاً ليـس عنـه بغـافِـل

٢٣٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **العاقب**، وهو من لا نبي بعده، لقوله ﷺ: «وأنا العاقب» والعاقب الذي ليس بعده نبي[٣].

(١) المستدرك (٢/ ٥٨٢).

(٢) مسلم (٤/ ١٨١٤).

(٣) مسند أحمد بشرح البنا (٢٠/ ١٨٨).

٢٣٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **العالم ـ العليم**.

لقوله ﷺ فيما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «والله! إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي»(١).

٢٣٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **العامل**، لعله مأخوذ من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٥].

لما روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها تصف عمل رسول الله ﷺ: كان عملُه ديمةً، وأيكم يستطيع ما كان النبي ﷺ يستطيع؟!(٢).

٢٤٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **العبد**.

لما روى أبو داود في كتاب الأطعمة، عن عبد الله بن بسر قال: كان للنبي ﷺ قصعةٌ... الحديث، وفيه: فلما كثروا جثا رسول الله ﷺ، فقال أعرابي: ما هذه الجلسة؟ قال النبي ﷺ: «إن الله جعلني عبداً كريماً، ولم يجعلني جباراً عنيداً»(٣).

٢٤١ـ ومن أسمائه ﷺ: **عبد الله**.

لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ٧٢/ ١٩] ولقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١].

٢٤٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **العُدّة**.

وسمّي به ﷺ؛ لأنه ذخر أمته في القيامة، فهو صاحب الشفاعة العظمى، والذي يسأل الله لأمته، كما مرّ في اسمه الرّاضي.

٢٤٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **العربي**.

لما روى البيهقي عن مقاتل بن حيان: أوحى الله إلى عيسى ابن

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ١٨٨).
(٢) بخاري (٨/ ١٢٢).
(٣) سنن أبي داود (٣/ ٣٤٨).

مريم... الحديث وفيه: صدّقوا النبي الأمي العربي[١]. والعرب أقسام: عاربة، ومتعرّبة، ومستعربة.

فالعاربة: هم العرب الخلّص، وهم تسع قبائل من ولد إرم، ومن ولد سام بن نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وهي: عاد، وثمود، وأُميم، وَعُبيد، وطَسْم، وجَديس، وعمليق، وجُرْهُم. ومنهم تعلّم إسماعيل عليه الصلاة والسلام العربية.

قال عبد الملك بن حبيب رحمه الله: كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربياً، إلى أن بَعُدَ وطال العهد حُرِّف، وصار سُريانياً (نسبة إلى أرض سورنة، وهي الجزيرة) وبها كان نوح قبل الغرق، وهو كاللسان العربي إلا أنه محرّف، وبقي اللسان السرياني إلى أن وصل إلى قحطان من ذرية أرفخشذ بن سام، وكان باليمن، فنزل هناك بنو إسماعيل فتسلّم مِنْهم بنو قحطان اللسان العربي.

والمتعرّبة: هم بنو قحطان، وهم الذين ليسوا بِخُلَّص، ويعرب بن قحطان أول من تكلم العربية من أهل اللسان السرياني.

والمستعربة: هم بنو إسماعيل ولد معدّ بن عدنان.

قال النحاس: عربية إسماعيل هي التي نزل بها القرآن، وعربية حمير، وبقايا جرهم، فغير هذه العربية وليست فصيحة[٢].

٢٤٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **العزيز**، أي: القوي، وهي الحالة المانعة للإنسان من أن يغلب، أو يقهر.

---

(١) الدلائل للبيهقي (١/ ٣٧٨).

(٢) سبل الهدى والرشاد (١/ ٦٠٤).

ولما قال عبد الله بن أُبَيّ: إن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ، قال أسيد بن حضير: فأنت والله يا رسول الله! تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز[١].

٢٤٥ـ ومن أسمائه ﷺ **العصمة**، بمعنى: عاصم.

حين تتابعت على قريش السنون خرج أبو طالب به ﷺ إلى أبي قبيس، وطلب السُّقيا بوجهه، فسقوا، فقال يمدح رسول الله ﷺ:

وأبيض يُستسقى الغمامُ بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأراملِ[٢]

٢٤٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **العطوف**، ومعناه: الشفوق بأمته الرؤوف بهم.

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه يرثي النبي ﷺ:

عطوفٌ عليهم لا يُثَنّي جناحه إلى كَنَفٍ يحنو عليهم ويَمْهَدُ

٢٤٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **العظيم**، وهو الجليل الكبير.

وإذا كان خلقه عظيماً عليه الصلاة والسلام كما وصفه سبحانه وتعالى به، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/ ٤]. فلأن يكون عظيماً في نفسه بالأولى.

٢٤٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **العفوّ**، يتجاوز عن الذنب، ويمحوه، وقد لا يستره.

لما روى البخاري عن ابن عمرو بن العاص في وصف أخلاق رسول الله ﷺ في التوراة، وفيه:

ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سخّابٍ في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر... الحديث[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٢).

(٢) سبل الهدى والرشاد (١/ ٦٠٦)

(٣) بخاري (٣/ ٨٣).

٢٤٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **العفيف**، وهو الذي كفّ نفسه عن المكروهات، ومنعها عن اقتحام الشهوات، يقال: عفّ وكفّ، فهو عفٌّ وعفيف.

قال كعب بن مالك رضي الله عنه يمدح رسول الله ﷺ:

لنا حُرْمَةٌ لا تستطاعُ يقودها نبي أتى بالحق عفٌّ مصدَّقُ[1]

٢٥٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **الغفور**، وهو الذي يتجاوز عن الذنب، ويمحوه، ويستره.

لما روى البخاري عن عمرو بن العاص في وصف رسول الله ﷺ في التوراة وفيه: ليس بفظٍّ، ولا غليظ، ولا سخّابٍ في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو، ويغفر[2].

٢٥١ـ ومن أسمائه ﷺ: **الغنيّ**، وهو الذي لا حاجة له إلا إلى الله تعالى.

لقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٩٣/٨]. والغنى على ثلاثة أضرب:

١ـ ارتفاع الحاجات وليس ذلك إلا لله تعالى.

٢ـ قلّة الحاجات، وقد أشار عليه الصلاة والسلام إليه بقوله: «ولكن الغنى غنى النفس».

٣ـ كثرة المال وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: ٤/٦].

والغنيّ من أسمائه تعالى، ومعناه: الذي لا يحتاج إلى شيء، ويحتاج إليه كل شيء.

٢٥٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **الفاتح**، الحاكم في الخلق بحكم الله.

---

(١) سبل الهدى والرشاد (١/٦٠٦).

(٢) بخاري (٣/ ٨٣).

لما روى البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة رضي الله عنه حديث الإسراء وفيه: «وجعلني فاتحاً خاتماً»[١].

ومن أسمائه تعالى: **الفتاح**، ومعناه الحاكم بين عباده.

٢٥٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **الفاضل**، وهو الحسن الكامل العلم والفضل، يأتي بمعنى العلم. كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٠] علماً، أو معناه: كثير الفضيلة.

وقال إبراهيم عليه السلام للأنبياء ليلة الإسراء: بهذا فضلكم محمّد[٢].

٢٥٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **الفتاح**، وهو بمعنى الفاتح، إلا أنه أبلغ منه.

٢٥٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **الفَرَط**، وهو الذي يسبق إلى الماء، يهيىء للواردة الحوض، ويستقي لهم ومعناه: أنا أمامكم وأنتم ورائي يتقدم أمته، شافعاً لهم.

لما روى البخاري عن جندب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «أنا فرطكم على الحوض»[٣].

٢٥٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **الفلاح**. قال النووي: ليس في كلام العرب كلمة أجمع للخير من لفظ الفلاح. والفلاح اسمه ﷺ في الزبور، قاله العزفي[٤].

٢٥٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **فئة المسلمين**.

لما روى أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان في سريّةٍ من

(١) الدلائل (٢/ ٤٠١).
(٢) الدلائل (٢/ ٤٠١).
(٣) بخاري (٨/ ١٥١).
(٤) السبل (١/ ٦١٣).

سرايا رسول الله ﷺ، قال: فحاص الناس حَيْصَةً... الحديث، وفيه: فقال: «أنا فئةُ المسلمين»[١].

٢٥٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **القاري**، من القِرى، وهو: البذل للأضياف.

لما في البخاري من حديث عائشة في بدء الوحي، وفيه: فقالت خديجة: كلا، والله! ما يخزيك الله أبداً، إنك لَتَصِلُ الرَّحم، وتحمل الكلَّ، وَتكسِبُ المعدوم، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[٢].

٢٥٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **القاسم**، وهو الذي يقسم الأمور في جهاتها.

لما روى مسلم عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يُرِدِ الله به خيراً يفقّهه في الدِّين، وإنما أنا قاسمٌ، والمعطي الله»[٣].

٢٦٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **القانت**، وهو من لازم الطاعة مع الخضوع لله، أو الخاشع لله، أو طويل القيام في صلاته، وكلها صفاته ﷺ.

٢٦١ـ ومن أسمائه ﷺ: **القائد، قائد المرسلين**، وهو الذي يقدم الناس، فيسلك بهم سبيل الهدى، ويعدل بهم عن سبيل الردى.

لما روى الدارمي عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «وأنا قائدهم إذا وَفدوا»[٤].

وفي رواية له عن جابر: «وأنا قائد المرسلين، ولا فخر»[٥].

---

(١) سنن أبي داود (٣/ ٤٦).
(٢) بخاري (١/ ٥).
(٣) مسلم (٢/ ٧١٩).
(٤) سنن الدارمي (١/ ٢٦).
(٥) المصدر السابق.

٢٦٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **قائد الغر المحجلين**. والغُرّ: جمع: أغَرّ، وهو من الخيل من له غرّة (بياض) في جبهته، والمحجّل: الذي به التحجيل، وهو بياض في القوائم، والمراد بهم: أمته، وهو قائدهم إلى الجنة.

لما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: إني سمعت النبيّ ﷺ يقول: «إنّ أمتي يدعون يوم القيامة غرّاً محجلين من آثار الوضوء. . .»[١] الحديث.

٢٦٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **القتّال**، وهو الحريص على الجهاد، ومسارعته إلى القِراع. واسمه في التوراة: أحمد الضحُوك، قتّال[٢].

٢٦٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **قُثَم**، وهو المعطي، سمّي به لجوده وعطائه، أو لجمعه خصال الخير والفضائل.

نقل الصالحي عن إبراهيم الحربي: أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني مَلَك، فقال: أنت قُثَم، وخُلقُك قيّم ونفسك طيبة»[٣].

٢٦٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **قدمُ صدق**.

لما روى ابن جرير الطبري عن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ١٠/ ٢]، قال: محمد ﷺ[٤]، واسمه في التوراة: قَدمايا.

٢٦٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **القَيّم**، وهو المنصور.

لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٢].

٢٦٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **الكريم**.

---

(١) بخاري (١/ ٤٥).

(٢) الحجة (١١٤).

(٣) سبل الهدى والرشاد (١/ ٦١٦).

(٤) تفسير الطبري (١١/ ٥٩).

لما روى الترمذي عن جابر قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قطّ فقال: لا[١].

ولما روى أبو داود عن ابن بسر قال النبي ﷺ: «إن الله جعلني عبداً كريماً»[٢].

٢٦٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **المؤمن**، وهو المصدّق المتصف بالإيمان.

لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٨].

٢٦٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **الماجد والمجيد**، وهو المفضال الكثير الجود، أو الشريف، أو السمح الحسن الخلق؛ لقول إياس بن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه يمدح النبي ﷺ:

سمح الخليقة ماجدٌ وكلامه حـقٌّ وفيـه رحمـةٌ ونكـالُ

والماجد من أسمائه تعالى، وهو الشريف لذاته، والحميد فَعاله، الجزيل عطاؤه.

٢٧٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **الماحي**، وهو الذي محا الله تعالى به الكفر، ولقوله ﷺ: «وأنا الماحي الذي يُمحى بي الكفر»[٣].

٢٧١ـ ومن أسمائه ﷺ: **المبارك**، والبركة لفظ جامع لأنواع الخير.

ولقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

صلّى الإلهُ ومن يَحُفُّ بعرشه والطّيّبون على المبارك أحمد

٢٧٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُبرّأ**، وهو المُنزَّه، المُبْعَد عن كل وصف ذميم.

وقد قال لله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/ ٤].

---

(١) الشمائل للترمذي (٢٠٠).

(٢) سنن أبي داود (٣/ ٣٤٨).

(٣) مسند أحمدبشرح البنا (٢٠/ ١٨٨).

٢٧٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُبْتَهِل**، وهو المتضرع المتذلّل، والبَهلةُ: اللعنة.
لقوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦١].

٢٧٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُبَشِّر**، من البشارة، وهي الخبر السار، وقد تستعمل في باب التَّهكُّم.
قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٥].

٢٧٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُبَلِّغ**، وهو الذي يؤدّي الرسالة كما أُمر.
قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧] وروى الطبراني عن معاوية رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إنما أنا مبلِّغ»[1].

٢٧٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **المتبتّل**، وهو المخلص المنقطع إلى الله تعالى بالعبادة.
لقوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٧٣/ ٨] والتبتل المنهي عنه: الانقطاع، والرغبة عن النكاح، ومنه: السيدة مريم البتول.

٢٧٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُتبَع**، وهو الذي يتبعه غيره، ويقتدي به في أقواله وأفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٨].

٢٧٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **المتربّص**، المنتظر لما وُعِدَ به.
لقوله تعالى آمراً أن يقول للكفار: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ

---

(١) جامع الأحاديث (٣/ ١١٢).

ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٥٢/ ٣١].

٢٧٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **المتقن**، من الإتقان، وهو إحكام الأمور، أو الحاذق الفَطِن الأريب.

لقوله ﷺ فيما رواه البيهقي عن عائشة: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[1].

٢٨٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **المتمم لمكارم الأخلاق**.

لما روى البيهقي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق»[2].

٢٨٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **المتهجّد، والهجود**، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٩].

٢٨٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **المتوكل**، لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٨] وما روى البخاري عن ابن عمرو بن العاص في صفة رسول الله ﷺ في التوراة، وفيه: «سميتك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ...»[3] الحديث.

٢٨٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُثبِّت**، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [لإسراء: ١٧/ ٧٤] وهو من الثبات، وهو التمكّن والاستقرار.

٢٨٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **المجادِل**، وهو المحكِم المتقن للأمور، أو المعارض في القول على سبيل المنازعة والمغالبة لإظهار الحجّة، قال تعالى: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥].

---

(١) جامع الأحاديث (٢/ ٣٤٣).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٩٤).

(٣) بخاري (٣/ ٨٣).

٢٨٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **المجاهد**، من الجهاد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٧٣].

٢٨٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **المجتبى**، من الاجتباء، وهو: الاصطفاء.

٢٨٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **المحرّض على القتال**، وهو المُحِضّ على القتال، أو الجهاد، أو العبادة، أو المُحِثّ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٥].

٢٨٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **المحفوظ**، أي: من الشيطان، لما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه صلى صلاة فقال: «إن الشيطان عرض لي، فشدّ عليّ يقطع الصلاة عليّ فأمكنني الله منه»[١] ففيه دليل على حفظه.

٢٩٠ـ ومن أسمائه ﷺ **المُحَكَّم**، وهو القاضي، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٤/ ٦٥].

٢٩١ـ ومن أسمائه ﷺ: **المحرِّم ـ المحلِّل** لقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧] فالخبيث ما نهى الله عنه، ولم يرخّص فيه، والطيّب ما أذن في تناوله.

٢٩٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **المحمود**، وهو المستحق أن يحمد لكثرة خصاله الحميدة.

لقول حسان بن ثابت يرثيه:

فأصبح محموداً إلى الله راجعاً يبكّيه جفْنُ المُرسَلات وَيُحمَد

(١) بخاري (٤/ ١٥١).

والمرسلات: الملائكة. وقال ابن دحية رحمه الله تعالى: اسمه في الزبور: محمود.

٢٩٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُخْبت**، والإخبات: الخشوع، والتواضع.

٢٩٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **المختار** .

لما روى الدارمي عن كعب في السِّفْر الأول: محمد رسول الله عبدي المختار لافظ[1].

٢٩٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **المخلِص**، وهو الصادق في عبادته، الذي ترك الرياء في طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٤].

٢٩٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **المدَّثر**، وهو المتلفف بالدّثار، وهو الثوب؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ٧٤/ ١] وأصلها: المتدثّر.

٢٩٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **المدنيّ**، نسبة إلى المدينة الشريفة.

٢٩٩ـ ومن أسمائه ﷺ: المرء، وهو الرجل الكامل المروءة، وهي: الإنسانية. وسمّي ﷺ بذلك لأنه في المروءة بمكان. قال زهير بن صرد للنبي ﷺ في حنين:

امننْ عليّ رسولَ الله في كرم فإنك المرءُ نرجوه وندّخر

٣٠١ـ ومن أسمائه ﷺ: **المرتجى والمُدّخر** للبيت السابق، ولأنه صاحب الشفاعة العظمى التي يرتجيها الخلائق يوم القيامة.

٣٠٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **المرتَضى**، أي: الذي رضيه مولاه، وأحبّه، واصطفاه.

٣٠٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **المرتِّل**، أي: الذي يقرأ القرآن بتؤدة، وترسّل.

---

(١) سنن الدارمي (١/ ٥).

٣٠٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **المرسَل**، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٤٣].

٣٠٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **المرشِد**، وهوالهادي إلى طريق الهدى.

٣٠٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُرَغِّب**، وهو الذي يحث الخلق على طاعة الحق، ويرغبهم فيما عنده من الخير.

٣٠٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **المزكّي**، لقوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٤].

٣٠٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **المزّمّل**، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ٧٣/ ١].

٣٠٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **المزَمزم**؛ لأن صدره ﷺ شُقّ، وغسل بماء زمزم. ففي البخاري من حديث أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قال: «فُرِجَ عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم»[1] . . . الحديث.

٣١٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **المسبّح**؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [النصر: ١١٠/ ٣] والمسبّح: المهلل الممجد. والتسبيح: تنزيه الحق عن أوصاف الخلق.

٣١١ـ ومن أسمائه ﷺ: **المستعيذ**، والاستعاذة: الالتجاء إلى الله تعالى، والاستجارة به، والانحياز إليه، والاستعانة به. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٨].

٣١٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **المستغفر من غير مأثم**؛ لقوله تعالى:

---

(١) بخاري (١/ ٩٢).

﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ١١٠/ ٣] وهو سبحانه غفر له ما تقدّم من ذنبه، وما تأخر.

٣١٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **المستغني بالله**، وتقدّم معناه في الغنيّ.

٣١٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **المستقيم**، والاستقامة درجة بها كمال الأمور، وتمامها. قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١/ ١١٢].

٣١٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُسَدَّد**، ورد أن الله تعالى أوحى إلى شعيا في وصف سيدنا محمد ﷺ، أُسَدِّدُهُ لِكُلِّ جميل.

٣١٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **المشاوِر**؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩].

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ[١].

٣١٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **المشرِّد**، اسم فاعل من التشريد بالعدو، وهو التنكيل والتسميع بعيوبه، قال تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٧] أي: فرّقهم عن محاربتك بقتلهم شرَّ قتلةٍ، واجعلهم نكالاً.

ومن أسمائه ﷺ: **المُشَقَّح** كـ (محمد) وزناً ومعنى، من الشقح في اللغة: الحمد.

٣١٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **المصدّق**؛ لأنه صدّق ما جاء به جبريل.

ولقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ٨١].

٣١٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **المصطفى**، مأخوذ من الصفوة، وهي: الخلوص. ولما روى مسلم عن واثلة حديث الاصطفاء، وفيه: «واصطفاني من بني هاشم»[٢].

---

(١) سبل الهدى والرشاد (١/ ٦٣٦).

(٢) مسلم (٤/ ١٧٨٢).

٣٢٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **المصلح**، وهو ﷺ مصلح للدين بإزالة الشرك والطغيان، مصلح للخلق بالهداية.

٣٢١ـ ومن أسمائه ﷺ **المُصَلَّى عليه**؛ لأنه لا تخلو لحظة من صلاة عليه في شتى أنحاء المعمورة.

٣٢٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **المطاع**، وهو المُتَّبَع الذي يُذعَنُ له، ويُنقاد له، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٥/ ٩٢].

٣٢٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُطَهِّر**، وهو الذي طهّر الجزيرة العربية من دنس الشرك، أو المُطَهَّر؛ الذي طهرت ذاته، ومعناه.

٣٢٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُطيع**، فما على وجه الأرض أحد مطيع لربه كطاعة رسول الله ﷺ لربه.

٣٢٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُظَفَّر**، المنصور على من عاداه.

٣٢٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُعزَّر**، وهو المُوَقَّر، قال تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٩] ومعنى تُعَزِّروه: تُجِلُّوه، وقيل: تبالغوا في تعظيمه.

٣٢٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **المعصوم**، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧].

٣٢٨ـ ومن أسمائه ﷺ **المعطي**.

لما روى الترمذي عن جابر رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قطّ فقال: لا[1].

٣٢٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُعَقِّب**، بمعنى العاقب؛ لأنه عقّب الأنبياء، أي: جاء بعدهم.

٣٣٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **المعلِّم**، أي: المرشد للخير والدال عليه.

---

(١) الشمائل للترمذي (٢٠٠).

لما روى مسلم حديث عائشة، وفيه: «ولكن بعثني معلِّماً ميسراً»[(١)].

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في رثائه:

مُعَلِّم صدق إن يطيعوه يهتدوا ....

٣٣١ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُعَمَّم**، أي: صاحب العمامة، وهو من أسمائه ﷺ في الكتب السالفة.

٣٣٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُعين**، وهو الناصر الكثير المعونة، والمساعدة.

قالت خديجة رضي الله عنها: وتعين على نوائب الحق، أي: تعين على خصال الخير، وتساعد عليها.

٣٣٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **المغني**، وهو المحسن المتفضل. قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [التوبة: ٩/ ٧٤].

وفي هذه الآية ما فيها من تشريف النبي ﷺ، وتعظيمه، والتنبيه على علوّ مقامه، وعظم شأنه، حيث ذكره معه في إيصال الصنع إلى عباده، وجعله مُغنياً لهم بما فتح على يديه، وأفاءه من المغانم.

٣٣٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **مفتاح الجنة**.

لما روى الدارمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي».

وروى الدارمي أيضاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «وأنا أوّل من يحرّك بحلق الجنة، ولا فخر، فيفتح الله فيدخلنيها»[(٢)].

٣٣٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُفَضَّل ـ المفضال**، وهي صيغة مبالغة من الإفضال، وهو الجود والكرَم، وأما المفضّل فهو المشرّف على جميع العالمين، حيث جعل رحمة لهم، فالله تعالى فضّله على سائر البرية، وأحل له ما لم يحلّ لغيره.

---

(١) مسلم (٢/ ١١٠٥).

(٢) سنن الدارمي (١/ ٢٦).

٣٣٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُقَدَّم**، فقدّمه ربّه على سائر الأنبياء. وفي الحديث: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»[١].

٣٣٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **المقرِىء**، الذي يُقرِىء غيره القرآن، إما بقراءته على الطالب، وإما بقراءة الطالب عليه.

روى مسلم عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال لأُبيّ بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك. . . »[٢] الحديث.

٣٣٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **المقفّي**، ومعناه: الذي ليس بعده نبيّ.

لما روى أحمد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سمّى لنا رسولُ الله ﷺ نفسه أسماءً منها ما حفظنا، فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفّي، والحاشر، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة» وفي رواية حذيفة: «نبي الملاحم»[٣].

٣٤٠ـ ومن أسمائه ﷺ في التوراة والزبور: **مقيم السنّة**.

ففي البخاري عن ابن عمرو في صفة النبي ﷺ في التوراة: ولن يقبضه حتى يقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله[٤].

٣٤١ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُكْرِم**، فقد كان ﷺ أكرم الناس لجليسه.

٣٤٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **المكّي**، نسبة إلى مكة المكرّمة أشرف بلاد الله تعالى.

٣٤٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **الملاذ**، وهو المجير.

قال أبو طالب يمدحه:

يلوذ به الهُلاّكُ من آل هاشم ... فهم عنده في نعمةٍ وفواضل

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٢٤٥).

(٢) مسلم (٤/ ١٩١٥).

(٣) مسند أحمد بشرح البنا (٢٠/ ١٨٨).

(٤) بخاري (٣/ ٨٣).

٣٤٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **الملقّى القرآن**، أي: على لسان جبريل عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النحل: ٢٧/ ٦].

٣٤٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **المنادي**، أي: الداعي إلى الله تعالى وإلى توحيده، قال الله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَـٰنِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٣] قال ابن جُرَيج رحمه الله: هو سيدنا رسول الله ﷺ.

٣٤٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **المنادى**، أي: المدعو إلى الله تعالى على لسان جبريل عليه السلام ليلة الإسراء والمعراج.

٣٤٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **المنتخب والمنتجب**، كلاهما بمعنى المختار، والمصطفى، وقد مرّ.

٣٥٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **المنتصر والمنصور**، ومعناه: المؤيّد، قال تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٤٨/ ٣].

٣٥١ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُنجِد**، وهو المعين الناصر، أو المرتفع القدر، من: أنجد؛ إذا ارتفع. فحين نقضت قريش عهد الحديبية، وظاهرت بكراً على خزاعة، خرج عمرو بن سالم الخزاعي أحد بني كعب إلى المدينة يستنجد برسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «نُصِرت ياعمرو ابن سالم» ثم نظر إلى السماء فقال: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب»[(١)].

٣٥٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **الموصل**، هو اسمه في التوراة، ومعناه: مرحوم.

٣٥٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **المنذر**، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد: ١٣/ ٧].

٣٥٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **المنصف**، بمعنى العادل.

عدّل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قِدْح يُعدّل به،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٥).

فمرَ بسواد بن غزيّة مستنتلاً (متقدّماً) من الصفّ، فطعن في بطنه بالقِدح، وقال: «استو يا سواد» فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقِدْني (اقتصّ لي من نفسك) فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: «استقد» قال: فاعتنقه فقبّله.. القصة[١].

٣٥٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **المنقذ**، المخلّص من ورطة الشدائد، وسمي بذلك لأنه ينقذنا بالشفاعة يوم القيامة. قال حسان رضي الله عنه في مرثيته:

يَدُلُّ على الرحمن من يقتدي به ... وينقِذ من هولِ الخزايا ويرشد

وأما قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٣٩/١٩] معناه: أنك لا تقدر على إنقاذ من يستحق العذاب، وإن اجتهدت في دعائه إلى الإيمان.

٣٥٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **مِنّةُ الله**، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٤].

٣٥٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **المنيب**، تقدّم في الأوّاه من الإنابة، وهي الإقبال على الطاعة.

٣٥٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **المنير**، من: أنار؛ إذا أضاء، قال تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٦].

٣٥٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُهاب**، وهو من خصائصه ﷺ.

روى الترمذي عن علي رضي الله عنه في وصف رسول الله ﷺ قال: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفةً أحبّه[٢].

٣٦٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **المهاجر** ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام هاجر من مكة إلى المدينة.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٦).
(٢) الشمائل (٢٠).

٣٦١ـ ومن أسمائه ﷺ: **المَهديّ**، لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢].

٣٦٢ـ ومن أسمائه ﷺ: **الموحى إليه**، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الجن: ٧٢/ ١] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١٨/ ١١٠].

٣٦٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **المولى**، لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦].

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن مات وعليه ديْن ولم يترك وفاءً، فعلينا قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته»(١).

ومعناه هنا: السيد، والمنعم، والناصر، والمحب، وله ستة عشر معنى. تتمتها: الأقرب، والمالك، والمعتق، والتابع، والخال، وابن العم، والحليف، والعقيل، والصهر، والعبد، والمُنْعَمُ عليه، والمعتَق، وكل من ولي أمراً فقام به، فهو مولاه، ووليّه، وأكثر هذه المعاني جاءت في الأحاديث، فيضاف كل معنى إلى ما يليق به.

والمولى من أسمائه تعالى، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [محمد: ٤٧/ ١١].

ومن أسمائه ﷺ: **الموقِن**، من يتقن الأمر إذا فهمه، وثبت في ذهنه، وارتفع عنه الشك، وهو أعلى من المعرفة والدراية، ولأنه من صفات العلم قال تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ١٠٢/ ٥]. وسُمِّي به ﷺ لأنه عقد قلبه بتوحيد الله تعالى، والعلم به، وبصفاته، والإيمان بذلك، وبما أوحي إليه على غاية المعرفة واليقين، وانتفاء الشك والريب في كل شيء من ذلك.

---

(١) بخاري (٨/ ١٨٧).

٣٦٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **المُيَسّر** .

لما روى مسلم عن عمر رضي الله عنه حديث الطلاق، وفيه قال: «يا عائشة! إن الله لم يبعثني مُعَنِّتاً ولا متعنّتاً، ولكن بعثني معلّماً مُيَسِّراً»(١) .

ومن أسمائه ﷺ: **النّاجِز**، من نجز الوعد؛ إذا وفى به، ولم يخلفه، وكان ﷺ من ذلك بمكان.

ومن أسمائه ﷺ: **النّاس**، في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٤/ ٥٤]. رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، ومجاهد والضحّاك، والسدّي، ومقاتل. وقول آخر: المقصود بالناس في الآية: النبي ﷺ وأبو بكر وعمر. وسُمِّي ﷺ بذلك من تسمية الخاص باسم العامّ؛ لأنه ﷺ أعظمهم، وأجلّهم(٢) .

٣٦٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **النّاسخ**، والنسخ: رفع الحكم الشرعي بخطاب، وسُمّي به ﷺ؛ لأن شريعته نسخت كل الشرائع، ومن قال: شرع من قبلنا شرعٌ لنا إذا لم يرد ناسخ، فمعناه: أنه شرع لنا بتقرير شرعنا له.

وهو من أسمائه تعالى، قال عز وجل: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٦].

٣٦٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **النّاصب**، ومعناه: المبيّن لأحكام الدين، من: النُّصُب، أي: العلامات التي في الطريق يهتدى بها، أو المقيم لدين الإسلام، من: نصبت الشيء، إذا أقمته. ويحتمل أن يكون مأخوذاً من قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [الشرح: ٩٤/ ٧]. أي: اتعب في الدعاء، وتضرع، فالمجتهد في العبادة والدعاء ناصب.

٣٦٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **النبيّ**، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٦].

---

(١) مسلم (٢/ ١١٠٥).

(٢) زاد المسير (٢/ ١١٠).

٣٧١ـ ومن أسمائه ﷺ: **نبي التوبة، نبي الملاحم، أو نبي الملحمة، نبي الرحمة.**

لما روى أحمد عن أبي موسى الأشعري قال: سمّى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماءً منها ما حفظنا، فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفّي، والحاشر، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة» وفي رواية حذيفة: «ونبيّ الملاحم»(١).

٣٧٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **نبيّ الأحمر ـ نبيّ الأسود.**

لما روى ابن عساكر عن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله بعثني إلى كل أحمر وأسود»(٢).

٣٧٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **نجيّ الله تعالى.** قال تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٥٢]. والذي حدث لموسى ﷺ من المناجاة حصل لنبينا ﷺ ما هو أتمّ منه، إذ جمعت له المناجاة والرؤية على أحد القولين.

٣٧٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **النذير**، لقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ٢/ ١١٩] وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٥].

٣٧٦ـ ومن أسمائه ﷺ: **نعمة الله**؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٨]. روى البخاري في التفسير قال في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ ...﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٨] الآية، قال: هم كفار أهل مكة، وهي رواية عطاء، عن ابن عباس(٣).

وقال ابن جرير في تفسيرها: كفروا في نبي الله محمد ﷺ أنعم الله به على قريش(٤).

٣٧٧ـ ومن أسمائه ﷺ: **النور.**

قال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٥] جاء ابن

---

(١) مسند أحمد بشرح البنا.

(٢) جامع الأحاديث (٢/ ٢٩٣).

(٣) بخاري (٦/ ١٠٠).

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ١٤٥).

عباس إلى كعب الأحبار، فقال له: حدّثني عن قول الله عز وجل: ﴿ ۞اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٥]. فقال كعب: الله نور السموات والأرض، مثل نوره مثل محمد ﷺ كمشكاة[1].

٣٧٨ـ ومن أسمائه ﷺ: **الهادي**، من الهداية، وهي الدلالة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥٢]. وهي من شأن النبي ﷺ، وأما الهداية بمعنى خلق التوفيق والاهتداء، فهي لله تعالى وحده. وتطلق الهداية على الدعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ١٣/ ٧].

٣٧٩ـ ومن أسمائه ﷺ: **الهاشمي**، نسبة إلى جد أبيه هاشم بن عبد مناف.

٣٨٠ـ ومن أسمائه ﷺ: **الواضع**، لقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧].

٣٨١ـ ومن أسمائه ﷺ: **الواعظ**، لقوله تعالى: ﴿ ۞قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤٦] والوعظ: التخويف.

وقال الخليل: هو التذكير بالخير، وبما ترقّ له القلوب.

٣٨٣ـ ومن أسمائه ﷺ: **الوافي**، **والوفي**، أي: التامّ، وسُمّي ﷺ بذلك لكماله خَلْقاً وخُلُقاً، ورجحانه على غيره عقلاً. قال حسان بن ثابت رضي الله عنه يمدحه:

وافٍ وماضٍ شهابٌ يُستضاءُ به   بدرٌ أنار على كلِّ الأناجيلِ

٣٨٤ـ ومن أسمائه ﷺ: **الوجيه**، ذو الوجاهة والجاه عند الله تعالى.

٣٨٥ـ ومن أسمائه ﷺ: **الوليّ**، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٥].

* * *

---

(١) تفسير الطبري (١٨/ ١٠٦).

الفصل الثالث

في فضل مسقط رأسه الشريف وحمايته ممن أراد به السوء وفضل قومه، وطهارة أصله، ونسبه الزكي، مع ترجمة رجاله، وهم آباؤه ﷺ ثم ولادته وما وقع من الآيات ليلة مولده، ورضاعه، ومراضعه ﷺ

فضل مسقط رأسه ﷺ على سائر بقاع الدنيا:

حوى رسول الله ﷺ الفضائل كلَّها، ومنها كون بلده ﷺ أفضل من غيرها، وأحبّ بلاد الله إلى الله تعالى.

روى الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح غريب، عن عبد الله بن عديّ بن حمراء قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحَزْوَرَة، فقال: «والله! إنكِ لخير أرضِ الله، وأحبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أنّي أُخرِجتُ منكِ ما خرجت»[١].

ومن فضلها: جعلها الله تعالى حرماً آمناً، لا يعضد شجرها، ولا يختلى شوكها، ومن اعتدى على حرمتها حلَّ به سخط الله تعالى، وباء بغضبه، ولَعْنَتِه.

روى البخاري عن أبي شُريح رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ مكة حرّمها الله، ولم يحرّمها الناس، فلا يحلُّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يَعْضِد بها شجرة[٢]... الحديث».

وروى البيهقي في الشُّعَب عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «سِتّةٌ لعنتُهم وكلُّ نبيٍّ مجاب: المكذّب بقدر الله، والزّائد في كتاب

(١) الترمذي (٥/ ٣٨٠).
(٢) بخاري (١/ ٣٧).

الله، والمتسلِّط بالجبروت يذلُّ من أعزّ الله، ويعزُّ من أذلَّ الله، والمستحلُّ لِحَرَم الله، والمستحِلُّ من عِترتي ما حرّم الله، والتارك لسُنَّتي»[١].

ومن فضلها: أن أوّل بقعة وُضعت في الأرض موضعُ البيت، ثم مُدّت الأرض منها مدّاً، وإن أوّل الجبال وضعه الله عز وجل على وجه الأرض: أبو قُبَيْس، ثم مدّت منه الجبال.

روى البيهقي في الشُّعَب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أوّلُ بقعة وضعت في الأرض موضعُ البيت، ثمّ مُدّت منه الأرض، وإن أولَ جبلٍ وضعه الله عز وجل على وجه الأرض: أبو قُبَيْس، ثم مُدّت منه الجبال»[٢].

وحسبك أن تعلمَ أن أصحابَ الفيل هلكوا بسبب اجترائهم على قدسيّة البيت الحرام موطن الرسول عليه الصلاة والسّلام، فجعل اللهُ تعالى إهلاكَ أصحاب الفيل إرهاصاً لنبوّة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

قصة إهلاك أصحاب الفيل:

وذلك عام ولادته ﷺ على الصحيح الذي عليه أكثر العلماء. وكان إهلاكُهم تشريفاً له ﷺ ولبلده، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهُم إذ ذاك أقربَ حالاً مما كان عليه أهل مكّة؛ لأنّ أهل مكة كانوا عُبّاد أوثانٍ، فنصرهم اللهُ تعالى نصراً لا صُنْعَ للبشر فيه، ولسان حال القَدَر يقول: لم ننصرْكُم يا معشر قريش! على الحبشة لخيريَّتِكُم عليهم، ولكنْ صيانةً للبيت العتيق؛ الذي نشرّفه، ونوقّره ببعثة النّبيّ الأمّيّ، خاتم الأنبياء محمدٍ ﷺ.

قال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ

(١) الشعب (٣/ ٤٤٣).
(٢) الشعب (٣/ ٤٣٢).

ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١٠٥/ ١] أي: ألم تعلم قدره على وجود علمه بما يُذكر ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ في هدم الكعبة ﴿فِى تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ١٠٥/ ٣] خسارٍ وهلاك ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ١٠٥/ ٣] جماعات ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ فوق العدسة ودون الحِمِّصة، مكتوب على كل حجر اسم مَرميِّه، يحمل كلُّ طائر ثلاثةَ أحجار، واحداً بمنقاره، وحجرين برجليه، ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ١٠٥/ ٤] طين مطبوخ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١٠٥/ ٥] كورق زرع أكلته الدواب وراثَتْهُ، فيبس، وتفرّقت أجزاؤه. شبّه تَفَرُّقَ أجزائهم بتفرق أجزاء الرَّوْث.

قصة إهلاك أصحاب الفيل باختصار:

كان ذو نُوَاسٍ آخرُ ملوك اليمن مشركاً، وهو الذي قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى، قريباً من عشرين ألفاً، فنجا منهم دوْس، فذهب، فاستغاث بقيصر ملكِ الرّوم، وكان نصرانيّاً، فكتب له إلى النّجاشي ملك الحبشة لكونه أقرب إليهم، فبعث معه أميريْنِ: أرياط وأبرهة في جيش كثيف، فدخلوا اليمن، فجاسوا خلال الدّيار، واستلبوا المُلْكَ مِن حِمْيَر، وهلك ذو نواس غريقاً في البحر.

واستقلّ الحبشةُ بملك اليَمَن، وعليهم هذان الأميران: أرياط وأبرهة، فاختلفا في أمرهما، وتصاولا، وتقاتلا، وتصافّا، فقال أبرهة لأرياط: إنه لا حاجة بنا إلى اصطلام الجيش بيننا، ولكن ابْرُزْ إليّ وأبرزُ إليك، فأيّنا قتل الآخر استقلّ بالملك بعده، فأجابه إلى ذلك، فتبارزا وخلْف كل واحد منهما فتاه، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف فشرم أنفه، وشق وجهه، وحمل فتى أبرهة على أرياط فقتله، ورجع أبرهة جريحاً، فداوى جرحه، فبرىء، واستقلَّ بملك الحبشة باليمن.

فكتب إليه النّجاشي يلومه على ما كان منه، ويتوعّده، وحلف لَيَطأنّ بلاده، وَلَيَجُزَّنَّ ناصيته، فأرسل إليه أبرهةُ يترفّق له، ويصانعه، وبعث مع

رسوله بهدايا، وتُحَف، وبجراب فيه من تراب اليمن، وجزَّ ناصيته، وأرسلها معه، ويقول في كتابه: لِيَطَأِ الملك على هذا التراب فيبرّ قسمه، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك، وأنا عبد الملك. فلمّا وصل ذلك إليه أعجبه، ورضي عنه، وأقرّه.

ثم إنّ أبرهة رأى الناس يتجهّزون أيام الموسم للحجّ إلى بيت الله الحرام، فسأل: أين يذهب الناس؟ فقيل له: يحجّون إلى بيت الله بمكة. قال: ما هو؟ قالوا: مِن حجارة. قال: فما كُسوتُه؟ قالوا: ما يأتي من ها هنا من الوصائل. قال: والمسيح! لأبنينَّ لكم خيراً منه.

فبنى لهم كنيسةً هائلة بصنعاء، رفيعة البناء، مزخرفة الأرجاء، فسمّتها العربُ: القُلَيْس لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه لارتفاع بنائها، ونقل من قصر بلقيس ما تحتاج إليه، واستذَلَّ أهْلَ اليمن في بنيان هذه الكنيسة، وبناها بالرّخام المجزَّع، والأبيض، والأحمر، والأصفر، والأسود، وحلاّه بالذهب والفضّة، وفصل بينهما بالجواهر، وجعل فيها ياقوتة حمراء عظيمة، ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والآبنوس، وكان يوقد فيها بالمَندل (العود) ويلطخ جُدُرها بالمسك، وكان حكمه في العامل إذا طلعت عليه الشمس قبل أن يأخذ في عمله أن يقطع يده، فنام رجلٌ منهم ذات يوم حتى طلعت الشمس، فجاءت معه أمّه وهي امرأةٌ عجوز، فتضرّعت إليه تشفع لابنها، فأبى إلا أن يقطع يده، فقالت: اضرب بمعولك، اليوم لك وغداً لغيرك. فقال: ويحك ما قلتِ؟ قالت: نعم، صار هذا الملكُ من غيرك إليك، وكذلك يصيرُ إلى غيرك، فأخذته موعظتُها، وأعفى الناسَ من ذلك.

ثم كتب إلى النجاشي: إني قد بنيتُ لك أيّها الملك! كنيسةً لم يُبْنَ مثلها لملكٍ قبلك، ولستُ بِمُنْتَهٍ حتى أصرفَ حجَّ العرب إليها، فأمر الناسَ فحجّوها. فحجّه كثيرٌ من قبائل العرب سنين، ومكث فيها رجالٌ يتعبّدون

ويتألّهون، ونسكوا له.

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى: فلما تحدّثت العربُ بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي، غضب رجل من النّسأة[١] أحد بني فُقَيم، فخرج إلى القُلَيْس، فقعد فيها (أحدث) ثم خرج فلحق بأرضه.

وقال ابن سعد رحمه الله تعالى: وكان نُفَيل بن حبيب الخثعمي يُوَرِّض (يُبيِّت) له (للقلّيس) ما يكره، حتى إذا كان ليلة من الليالي لم ير أحداً يتحرّك، فقام فجاء بِعَذِرَةٍ فلطّخ بها قِبلته، وجمع جِيَفاً فألقاها فيه.

فأُخبر بذلك أبرهة، فقال: مَن صنع هذا؟ قيل: صنعه رجلٌ من أهل هذا البيت الذي يَحجُّه العرب، يعني: أنها ليست لذلك بأهل.

فغضب غضباً شديداً، وحلف ليسيرنَّ حتى يهدم الكعبة، وينقضها حجراً حجراً، وكتب إلى النجاشي يخبره بذلك، ويسأله أن يبعث إليه بفيله، وكان له فيل يقال له: محمود، وكان فيلاً عظيماً، لم يُرَ مثلُه في الأرض عِظَماً وقوّةً، فبعث به إليه، فأمر الحبشة فتجهّزت في ستين ألفاً، ثم سار نحو أرضِ مكة.

فلما سمعت العربُ ذلك أعظموه، وفظعوا به، ورأوا جهاده حقّاً عليهم حين سمعوا أنه يريدُ هدمَ الكعبة.

فخرج له من أشراف اليمن رجلٌ يقال له: ذو نَفْر، فدعا قومه ومَن أطاعه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله تعالى، وما يريد من هدمه، وخرابه، فأجابه مَن أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله، فهُزِمَ ذو نَفْر وأصحابُه، وأُخِذ له ذو نفر، فأُتي به إليه أسيراً، فلما أراد قتله قال له ذو نَفْر: أيها الملك! لا تقتلْني، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من القتل، فتركه، وحبسه عنده في وَثاق.

---

(١) النسأة: جمع ناسىء، وهم الذين يؤخرون الأشهر الحرم من أجل الغارة، وهم من كنانة.

ثم سار أبرهة يريدُ ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خَثْعَم عرض له نُفَيل ابن حبيب الخثعمي في قومه، ومَن أطاعه من قبائل العرب، فقاتله، فهزمه أبرهة، وأُخِذَ له نُفَيل أسيراً، فأُتي به، فلما همّ بقتله قال له نفيل: أيها الملك! لا تقتلني فإني دليلُك بأرض العرب، فخلّى سبيله.

وخرج أبرهةُ يريد مكة حتى مرّ بالطّائف، فخرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجالٍ من ثقيف، فقالوا: أيها الملك! إنما نحن عبيدُك، سامعون لك، مطيعون، وليس لك عندنا خلاف، وليس بَيْتُنا البيتَ الذي تريد، يعنون: اللات، وهو بيتُ الطائف كانوا يعظّمونه نحو تعظيم الكعبة، إنما تريد البيتَ الذي بمكة، ونحن نبعث معك مَن يَدُلُّك عليه، فتجاوَزَ عنهم، فبعثوا معه أبا رِغال يَدُلُّه على الطريق إلى مكّة، فخرج أبرهةُ ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمُغَمِّس(١)، فلما أنزله به مات أبو رغال، فرجمت العربُ قبره، فهو القبرُ الذي يرجم الناس في المُغَمِّس.

فلما نزل أبرهةُ بالمغمّس بعث رجلاً من الحبشة يقال له: الأسود بن مقصود على خيل له، حتى انتهى إلى مكة، فساق أموالَ تهامة من قريش وغيرها، وأصاب فيها مئتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبيرُ قريش وسيِّدها، فهمّت قريش، وكنانة، وهُذَيل، ومَن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنه لا طاقةَ لهم بحربه.

وبعث أبرهةُ حُناطَة الحميريَّ إلى مكة، وقال له: سَلْ عن سيّد أهل البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول: إني لم آتِ لحربكم، إنما جئتُ لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحربٍ فلا حاجةَ لي بدمائكم، فإن هو لم يُرِد حربي فأتني به.

فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيّد قريشٍ وشريفها، فقيل: عبد

---

(١) موضع في طرف الحرم.

المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال عبد المطلب: والله! ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيتُ الله الحرام، وبيتُ خليله إبراهيم ـ ﷺ ـ فإن لم يمنعْه فهو بيته وحَرَمُه، وإن يُخَلِّ بينه وبينه فوالله! ما عندنا دَفْعٌ عنه. قال حناطةُ: فانطلِقْ إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك. فانطلق معه عبد المطلب، ومعه بعض بنيه، حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نفْر، وكان صديقاً له، فدخل عليه، وهو في مجلسه، فقال له: يا ذا نفر! هل عندك غَنَاءٌ من شيء مما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: ما غناء رجل أسير بيد ملك ينتظر قتله غدوّاً وعشيّاً، والله! ما عندي غَنَاء من شيءٍ ممّا نزل بكم، إلا أن أُنَيْساً سائسَ الفيل صديق لي، فأرسِلُ إليه، فأوصيه بك، وأعظّم عليه حقَّك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك، فتكلّمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخيرٍ إن قدر عليه. فقال: حسبي.

فبعث ذو نَفْر إلى أُنَيْس فجاء، فقال: هذا عبد المطّلب سيّد قريش، وصاحبُ عين مكة، يطعم الناسَ بالسّهل والوحوشَ في رؤوس الجبال، قد أصاب الملك له مئتي بعير، فاستأذِن له عليه، وانفعه عنده بما استطعتَ. قال: أفعل.

فكلّم أُنَيس أبرهةَ فقال: أيها الملك! هذا سيّد قريشٍ ببابك يستأذن عليك، وهو صاحبُ عَيْن مكة، يطعم الناسَ بالسهل والوحوشَ في رؤوس الجبال، فائذن له عليك، فليكلّمك في حاجته. فأذن له أبرهة.

وكان عبد المطلب أوسمَ الناس، وأجمَلهم، وأعظمَهم، فلما رآه أبرهةُ أَجَلَّهُ، وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشةُ يجلسه معه على سريره، فجلس على بساطه، وأجلس عبد المطلب معه إلى جنبه.

ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتُك؟ ففعل الترجمان، فقال: حاجتي أن يَرُدَّ عليّ الملك مئتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدتُ فيك حين

كلّمتني في مئتي بعير أصبتُها لك، وتترك بيتاً هو دينُك، ودين آبائك، جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟!

قال عبد المطلب: أنا ربُّ الإبل، وإن للبيت ربّاً سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك.

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرُّز في شَعَفِ الجبال والشعاب؛ خوفاً عليهم من معرّة الجيش.

ثم قام عبد المطّلب فأخذ بحلْقة باب الكعبة، ومعه نفر من قريش يدعون الله تعالى، ويستنصرونه على أبرهة وجندِه، فقال عبد المطلب:

لَاهُمَّ إنَّ المرءَ يمـ ـنع رحلَه فامنعْ حِلالك
انصرْ على آل الصليـ ـبِ وعابديه اليومَ آلك
لا يَغلِبَنّ صليبُهم ومِحالُهم غدواً مِحالك
إن كنت تاركهم وكعبتـ ـنا فأمرٌ ما بدا لك

الحِلال: القوم الحالّون في المكان، والحَلال: مركب من مراكب النساء، والحلال: متاع البيت. المِحال: القوة والشدّة، غدواً: اليوم الذي يأتي بعد يومك.

ثم إنّ عبد المطّلب انطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال، فتحرّزوا فيها ينظرون ما أبرهة فاعلٌ بمكة إذا دخلها.

فلمّا أصبح أبرهةُ استعدّ لدخول مكة، وهيّأَ فيله، وعبّأ جيشه، وهو مُجمِعٌ لهدم البيت، وجعل الفيل مقابل الكعبة ليجعل السلاسل في أركان الكعبة، وتوضع في عنق الفيل، ثم يُزْجَر لِيُلْقِيَ الحائط جملةً واحدة.

فلمّا وجّهوا الفيل نحو الكعبة برك الفيل، فضربوه بالطَّبَرْزين[1] ليقوم،

(١) آلة معوجّة من حديد.

فأبى، فأدخلوا محاجِن[١] لهم في مراقّه[٢] فبزّغوه[٣] بها ليقوم، فأبى، فوجّهوه جهة اليمن فقام يُهَروِل، ووجّهوه نحو الشام ففعل مثلَ ذلك، ووجّهوه نحو المشرق ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى جهة مكة فبرك، وألقى جرانه إلى الأرض، وجعل يعجّ عجّاً.

فلم يزالوا يعالجون الفيل حتى غشيهم الليل، فلما كان السّحر أرسل اللهُ الطيرَ الأبابيل من البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طير منها ثلاثة أحجار يحملها، حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال العدس، والحمّص، ثم جاءت حتى صفّت على رؤوسهم، فلما رأوها أشفقوا منها، وَسُقِطَ في أيديهم، فصاحت، وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما من حجر وقع على جنب رجل إلا خرج من الجنب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج من دُبُره، ولا تصيب شيئاً إلا هشمته، وإلا سقط ذلك الموضع، فكان أول ما رئي الجدري، والحَصْبة، وبعث الله تعالى ريحاً شديدة، فضربت بأرجلها، فزادتها قوّة.

قال ابن إسحاق: وليس كلّهم أصيب، فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي جاؤوا منه يسألون عن نُفَيْل بن حبيب ليدلّهم على الطريق، وخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كلّ منهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط منه أنملة أنملة، كلما سقطت أنملةٌ أتبعتها مِدَّة، ودمٌ، وقيحٌ، حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع قلبه.

وأرسل الله سبحانه وتعالى سَيْلاً عظيماً، فاحتمل جثث الحبشة، فألقاهم في البحر.

---

(١) جمع محجن: عصا معوجة، وقد يجعل في طرفها حديد.

(٢) مراقّه: أسفل بطنه.

(٣) بزّغوه: شرطوه بالحديد.

ولما أهلك الله تعالى الحبشة عظّمت العرب قريشاً، وقالوا: أهل الله تعالى، قاتل عنهم، وكفاهم مؤنة عدوّهم، وقالوا في ذلك أشعاراً كثيرة.

فضل قريش:

رفع النبيُّ ﷺ مكانةَ قريش، ونهى الناس عن ذمّها، ودعا لها، وجعل الأمر إليهم، وما دام كذلك فالناس بخير.

روى مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الناسُ تبعٌ لقريش في الخير والشر»(١).

وروى أيضاً بسنده إلى أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «الناسُ تبعٌ لقريش في هذا الشأن (الخلافة) مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم»(٢).

وروى الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح غريب، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم أذقتَ أول قريش نكالاً، فأَذِق آخرهم نوالاً»(٣).

وروى الإمام أحمد، والطبراني، والبزار، وصحح العراقي إسناده، عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه: أنه وقع بقريش، فقال له رسول الله ﷺ: «يا قتادة! لا تَسُبَّنّ قريشاً، فإنه لعلّك أن ترى منهم رجالاً تزدري عملك مع أعمالهم، وفعلك مع أفعالهم، وتغبطهم إذا رأيتهم، لولا أن تطغى قريشٌ لأخبرتهم الذي لهم عند الله»(٤).

وروى الطبراني عن أم هانىء رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) مسلم (٣/ ١٤٥١).
(٢) المصدر السابق.
(٣) الترمذي (٥/ ٣٧٤).
(٤) سبل الهدى والرشاد (١/ ٢٧٢).

«فضّل اللهُ قريشاً بسبع خصال، لم يعطها أحداً قبلهم، ولا يعطيها أحداً بعدهم: فضّل الله قريشاً بأنّي منهم، وأن النبوّة فيهم، وأنّ الحجابةَ فيهم، وأنّ السّقايةَ فيهم، ونصرهم على الفيل، وعبدوا الله عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأنزل فيهم سورةً من القرآن لم تنزل في أحد من غيرهم»(١).

طهارة أصله ﷺ:

قريش ـ كما علمت ـ أشرفُ العرب نسباً، وأزكاهم حسباً، وبنو هاشم ابن عبد مناف المصطفون من قريش، ومحمد ﷺ نخبة بني هاشم.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنتُ فيه»(٢).

وروى مسلم عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(٣).

فأشرف القوم قومُه، وأشرف القبائل قبيلته، وأشرف الأفخاذ فخذه ﷺ، وهو ﷺ نخبَة بني هاشم، وسلالة قريش، وأشرف العرب، وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمّه، ومن أهل مكة أكرم بلاد الله تعالى على الله، وعلى عباده.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٤].

وروى عبد الرزاق بسنده إلى محمد الباقر، في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٨] قال: لم يصبه شيء

---

(١) المصدر السابق.
(٢) بخاري (٤/ ٢٢٩).
(٣) مسلم (٤/ ١٧٨٢).

من ولادة الجاهلية، قال: وقال رسول الله ﷺ: «إني خرجتُ من نكاح، ولم أخرج من سفاح» وهو مرسل جيّد[١].

وروى ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدتني بَغِيٌّ قطّ منذ خرجت من صلب آدم، ولم تزل تنازعني الأممُ كابراً عن كابر حتى خرجت من أفضلِ حيّين من العرب: هاشم، وزهرة»[٢].

ويرحم الله القائل:

حفظ الإلهُ كرامةً لمحمد	آباءه الأمجادَ صوناً لاسمه
تركوا السِّفاحَ فلم يصبهم عارُه	من آدم وإلى أبيه وأمّه

نسبه الشريف ﷺ من جهة أبيه وأمّه:

هو سيِّدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب (حكيم)، وأمّه ﷺ: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب(حكيم)بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدرِكة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

هذا هو النَّسبُ الصَّحيحُ المتفق عليه في نسب سيدنا رسول الله ﷺ، وما فوق ذلك مختلفٌ فيه، ولا خلافَ أنَّ عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليهما وسلم، إنما الخلافُ في عدد مَن بين عدنان وإسماعيل عليه السلام من الآباء فَمُقِلٌّ وَمُكثِر، وكذلك من إبراهيم إلى آدم صلى الله عليهما وسلّم، لا يعلم ذلك على حقيقته إلا الله تعالى.

وهذه روايةُ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وعليها استقرَّ رأيُ أكثرِ أهل العلم.

---

(١) البداية والنهاية (٢/ ٢٣٨).
(٢) السبل (١/ ٢٧٧).

ترجمة آبائه ﷺ:

عبد الله والد النبي ﷺ، كنيته: أبو قُثَم، والقثم: الإعطاء، ولقبه الذبيح.

لما روى البيهقي في «الدلائل» عن الزهري قال: أُتِيَ عبد المطّلب في المنام، فقيل له: احفرْ زمزم ـ وَدُلّ على مكانها بعلامة ـ فقام عبد المطلب، فحفر هنالك هو وابنه الحارث، وليس له يومئذ ولدٌ غيره، فتسفّه عليهما ناسٌ من قريش، فنازعوهما، وقاتلوهما، وتناهى عنه أناسٌ من قريش لما يعلمون من عِتْقِ نسبه، حتى إذا أمكن الحفر، واشتد عليه الأذى، نذر إن وفى له عشرةٌ من الولد أن ينحرَ أحدهم، فحفر حتى أنبط الماء، فخرقها في القرار، ثم بحّر عليها حتى لا تُنزِف، ثم بنى عليها حوضاً، فطفق هو وابنه ينزعان، فيملآن ذلك الحوض، فيشرب منه الحاجّ، فيكسره أناسٌ حَسَدَةٌ من قريش بالليل، فيصلحه عبد المطلب حين يصبح، فلما أكثروا إفساده دعا عبد المطّلب ربّه، فأُرِي في المنام، فقيل له: قل: اللهم! إني لا أُحِلُّها لمغتسل، ولكن هي لشاربٍ حِلٌّ وَبَلٌّ، ثم كُفيتَهُمْ. فقام عبد المطلب فنادى بالذي أُري ثم انصرف.

فلم يكن يفسد حوضَه عليه أحدٌ من قريش إلا رُمي في جسده بداء، حتى تركوا حوضه، وسقايته.

ثم تزوّج عبد المطّلب النساء، فولد له عشرة رهط، فقال: اللهم! إني كنت نذرتُ لك نَحْرَ أحدهم، وإني أُقرِع بينهم، فأصب بذلك من شئت فأقرع بينهم، فصارت القرعةُ على عبد الله بن عبد المطلب، وكان أحبَّ ولده إليه، فقال عبد المطّلب: اللهم! أهو أحبُّ إليك، أم مئةٌ من الإبل؟ ثم أقرع بينه وبين المئة، فكانت القرعة على مئة من الإبل، فنحرها عبد المطلب مكان عبد الله.

وكان عبد الله أحسنَ من رُؤي في قريشٍ قطّ، فخرج يوماً على نساءٍ من قريش مجتمعات، فقالت امرأة منهنّ: يا نساء قريش! أيّتكُن تتزوّج هذا

الفتى، فتصطادَ النور الذي بين عينيه؟ وإنّ بين عينيه نوراً. قال: فتزوّجته آمنةُ بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فحملت برسول الله ﷺ، ثم بعث عبدُ المطلب عبدَ الله بن عبد المطلب يمتار له تمراً من يثرب، فتوفى بها عبد الله بن عبد المطلب[١]، وعمره ثمان عشرة سنة، كما ذكر ذلك الحافظ العلائي، وصحّحه.

ولم يعقب عبد الله غير رسول الله ﷺ، لا ذكر ولا أنثى، ولم تلد آمنة ولداً غير رسول الله ﷺ، ذكره ابن حزم، وابن سعد.

ترجمة عبد المطلب بن هاشم:

اسمه شيبة؛ لشيبةٍ كانت في رأسه، ويقال له: شيبة الحمد لجوده، وقيل له: عبد المطّلب؛ لأن أباه هاشماً لما مرّ بالمدينة في تجارته إلى الشام نزل على عمرو بن زيد بن لبيد بن حرام بن خداش بن خندف بن عدي بن النجار النّجّاري، الخزرجي، وكان سيّد قومه، فأعجبته ابنته سلمى، فخطبها إلى أبيها، فزوّجها منه، واشترط عليه ألا تلد ولداً إلا عنده بالمدينة، فلما رجع من الشام بنى بها، وأخذها معه إلى مكة، فلما خرج في تجارة، أخذها معه، وهي حبلى، فتركها بالمدينة، ودخل الشام، فمات بغزّة، ووضعت سلمى ولدها، فسمّته شيبة، فأقام عند أخواله بني عدي بن النّجّار سبع سنين، أو ثمان، ثم إنّ رجلاً من تهامة من بني الحارث بن عبد مناف مرّ بالمدينة، فإذا غلمان ينتضلون (يرتمون بالسهام) وإذا غلام فيهم إذا أصاب قال: أنا ابنُ هاشم، أنا ابنُ سيِّد البطحاء، فقال له الرجل: ممَّن أنت يا غلام؟ قال: أنا شيبةُ بن هاشم بن عبد مناف، فانصرف الرجل حتى قدم مكة، فوجد المطلب بن عبد مناف جالساً في الحجر، فقال له: قم يا أبا الحارث! فقام إليه فقصَّ عليه ما رأى، قال: وإذا أظرف غلام رأيته قط، ولا يَحسُن أن يترك مثله. قال المطلب: أغفلته والله! أما والله لا أرجع إلى أهلي ومالي حتى آتيه، فأعطاه ناقته فركبها.

---

(١) الدلائل (١/ ٨٥).

فخرج المطَّلب بنُ عبد مناف حتى أتى المدينة عشيّاً، فأتى بني عديّ بن النجار، فإذا بغلمان بين ظهراني المجلس، فلما نظر إلى ابن أخيه، قال: هذا ابنُ هاشم؟ فقال القوم: نعم، وعرف القومُ المطّلب، فقالوا: نعم، هذا ابنُ أخيك، فإن كنت تريد أخذه، فالساعة لا تَعْلَمُ أمه، فإن علمت حُلْنا بينك وبينه. فأناخ راحلته، ثم دعاه، فقال: يا بن أخي! أنا عمك، وقد أردتُ الذهاب بك إلى قومك، فاركب، فجلس شيبةُ على عجز الرحل، وجلس المطّلب على الرحل، ثم انطلق به إلى مكة، فدخلها ضحوةً مردِفُه خلفه، والناس في أسواقهم، ومجالسهم، فقاموا يرحّبون به، ويقولون: مَن هذا معك؟ فيقول: هذا عبدي ابتعتُه بيثرب، ثم خرج به حتى جاء الحَزْوَرة، فابتاع له حلّة، ثم أدخله على امرأته، فلما كان العشيُّ ألبسه الحلّة، ثم أجلسه في مجلس بني عبد منافٍ، وأخبرهم خبره، وجعل بعد ذلك يخرجُ في تلك الحلة فيطوف في سكك مكة، وكان أحسنَ الناس وجهاً، فيقولون: هذا عبد المطلب، لقول المطّلب: هذا عبدي، فثبت اسمه عبد المطّلب، وتُرِك شيبة. وكان عبد المطلب يكثر زيارة أخواله، ويبرّهم[١].

ترجمة هاشم بن عبد مناف:

هاشم اسمه عَمْرو، وإنما سُمِّي هاشماً لهشمه الثَّريد مع اللحم لقومه في سنيّ الجَدْب والمَحْل، وهو أوَّلُ مَن سنَّ رحلتي الشِّتاء والصَّيف. قال ابن الزِّبَعْرى، أو مطرود الخزاعي فيه:

عمرو الذي هَشَم الثَّريد لقومه ... ورجال مكة مُسْنِتون عجافُ

سُنَّت إليه الرِّحلتان كِلاهما ... سفر الشِّتاء ورحلة الأصياف

وكان أكبر ولد أبيه، حكى ابن جرير أنه كان توأم أخيه عبد شمس، وإنَّ هاشماً خرج ورجله ملتصقةٌ برأس عبد شمس، فما تخلّصت حتى سال بينهما دمٌ، فقال الناس لذلك: يكون بين أولادهما حروب، فكانت وقعةُ بني

---

(١) سبل الهدى.

العباس مع بني أمية بن عبد شمس سنة ثلاث وثلاثين ومئة للهجرة.

وشقيقهم الثالث المطّلب، وكان المطّلبُ أصغر ولد أبيه، ورابعهم نوفل من أمّ أخرى، وكانوا قد سادوا قومَهم بعد أبيهم، وصارت إليهم الرِّئاسة، وكان يُقال لهم: المجيرون، وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم ليدخلوا في التِّجارات إلى بلادهم.

فكان هاشم قد أخذ أماناً من ملوك الشام، والروم، وغسان، وأخذ عبد شمس أماناً لهم من النَّجاشي الأكبر ملك الحبشة، وأخذ نوفل لهم أماناً من الأكاسرة، وأخذ المطلبُ أماناً من ملوك حمير، قال عبد الله بن الزِّبعرى فيهم:

يا أيها الرجلُ المحوّلُ رَحْلَه ... هلاَّ نزلتَ بآلِ عبد منافِ
الآخذون العهدَ من آفاقها ... والراحلون لرِحْلة الإيلافِ
والرائشون وليس يُوجد رائشٌ ... والقائلون هَلُمَّ للأضيافِ
والخالطون غنيَّهم بفقيرهم ... حتى يكون فقيرُهم كالكافي
عمرو العُلا هَشَمَ الثَّريدَ لقومه ... سفَر الشتاء ورحلة الإيلافِ

ولا يعرف بنو أبٍ في الوفاة مثلهم؛ فإنَّ هاشماً مات بغزّة من أرض الشام، وعبد شمس مات بمكة، ونوفل مات بسلامان من أرض العراق، ومات المطلب ـ وكان يقال له القمر لحسنه ـ بريمان من طريق اليمن[1].

مات هاشم وله من العمر عشرون سنة، ويقال: خمس وعشرون سنة.

ترجمة عبد مناف بن قُصَيّ:

مناف: اسم صنم، وأصلُ اسم عبد مناف: المغيرة، وكان قد رأَس في زمن والده، وذهب به الشَّرف كلَّ مذهب، وهو أخو عبد الدار.

سبب تسميته عبد مناف: أن أمّهُ جعلته يخدم مناة، وكان صنماً عظيماً

---

(١) الفتح الرباني (٢٠/١٧٨).

لهم، فسمي عبد مناة، به، ولكن أباه قصياً حوّله إلى عبد مناف. كان يقال له قمر البطحاء لجماله.

ترجمة قُصَي بن كلاب:

قُصَيّ: اسمه زيد، وإنما سُمِّي بذلك لأن أمّه تزوّجت بعد أبيه بربيعة بن حزام بن عذرة، فسافر بها إلى بلاده، وابنها صغير، فَسُمِّي قُصَيّاً لذلك، أي: بعيداً، لأنه بعد عن قومه في بلاد قضاعة.

ثم عاد إلى مكة وهو كبير، ولمَّ شَعَثَ قريش، وجَمَعها من متفرقات البلاد، وأزاح يد خزاعة عن البيت، وأجلاهم عن مكة، ورجّع الحقَّ إلى نِصابه، وصار رئيسَ قريش على الإطلاق، وكانت إليه الرِّفادةُ، والسِّقاية، وهو سنَّها، والسّدانة، والحجابة، واللواء، وداره دار الندوة؛ ولهذا قال الشاعر:

قصيٌّ لَعمري كان يدعى مُجَمِّعاً ... بـه جَمّـع اللهُ القبـائـلَ مـن فِهْـرِ

وهو أخو زهرة، وكلاهما أولاد كلاب (حكيم).

ترجمة كلاب بن مرة:

اسمه: حكيم، ولقبه كِلاب، إما من مكالبة الأعداء، وإما جمع كلب، لُقِّب به لحبّه للصيد بالكلاب، فكان إذا مَرَّ بالكلاب على قوم قيل: هذه كلاب ابن مُرّة، فبقيت لقباً له.

وكان العربُ يُسمّون أبناءهم بأشرِّ الأسماء، وعبيدهم بأحسن الأسماء، ويقولون: نُسمِّي أبناءنا لأعدائنا، وعبيدنا لأنفسنا.

وهو أوّل من حلَّى السُّيوف بالنَّقد.

ترجمة مرّة بن كعب:

مُرّة: اسم منقول من وصف الحنظلة، أو من وصف الرجل بالمرارة، أو نبتة سُمِّي بها، وهي بقلةٌ تُقطع فتؤكل بالخلِّ، يشبه ورقُها ورقَ الهندباء، له

من الأولاد: يقظة، وكلاب، وتَيْم. ومن تيم: رهط أبي بكر الصديق، وطلحة بن عُبيد الله، ومن يقظة: بنو مخزوم.

ترجمة كعب بن لؤي:

كعب: اسم منقول من الكعب؛ الذي هو قطعة السَّمن الجامد، أو القطعة من الأقِط، أو من كعب الإنسان الذي يعلو فوق الرّسغ، أو كعب القناة لارتفاعه على قومه، وعلوّه عليهم، وشرفه فيهم.

كنيته: أبو هُصَيْص، وهو أوّل من قال: أما بعد، وأوّل من جمَّع يوم العَرُوبة (الجمعة) كان يجمع قريشاً يومها فيخطبهم، ويذكِّرهم، ويبشِّرهم بمبعث النبي ﷺ، وأنه مِنْ ولده.

ترجمة لؤي بن غالب:

لؤيّ: تصغير لأي، وهو: إما الثور الوحشي، وإما البقرة، وإما البطء، والأناة، وترك العجلة، وإما من لواء الجيش، وإما من لِوَى الرمل. وكان لؤي حليماً، حكيماً، نطق بالحكمة صغيراً.

ترجمة غالب بن فِهْر:

غالب: أبو تيم الأدرم، وفي قريش تيمان: تَيْم بن مرة، وتيم الأدرم (لأن أحد لحيَيْه كان أنقص من الآخر) وهو أخو الحارث ومحارب، ثلاثتهم أبناء فِهْر.

ترجمة فِهْر بن مالك:

فِهْر: حجر ملء الكف، واسمه قريش، وإليه تُنسب قريش، فما كان فوقه فكناني. وولد فهر: غالباً، ومحارباً، والحارث، وأسداً من ليلى بنت سعد، وعوفاً، وريثاً، وجَوْناً، وجندلة.

ترجمة مالك بن النَّضر:

ولم يكن لمالك من الولد غير فِهْر.

ترجمة النَّضر بن كِنانة:

اسمه: قيس، لُقِّب بالنَّضْر لنضارة وجهه، وجماله، وله من الذكور: مالك، ومخلد، والصّلت.

ترجمة كنانة بن خُزَيْمة:

كنانة: جَعبة السِّهام، سُمِّي بذلك لأنه كان ستراً على قومه، وله من الولد: النّضر، ومالك، وعبد مناة، ومَلْكان. وكان عظيمَ القدرِ يحج إليه العربُ لعلمه، وفضله، وهو أخو أسد، وأسدة، والهُون.

ترجمة خُزَيْمة بن مُدْركة:

تصغير خَزْمة، وهي نبتة، أو مصدر للمَرّة، من: الخزم، وهو شدُّ الشيء، وإصلاحه، ويكنى: أبا أسد، وله أخٌ اسمه: هذيل.

ترجمة مُدْركة بن إلياس:

مدركة: اسم فاعل من الإدراك، واسمه: عمرو، كنيته: أبو هذيل، لُقِّب به لأنه أدرك أرنباً عجز عنها رفقاؤه، وهو أخو طابخة، واسمه: عامر، وقمَعَة، ثلاثتهم أبناء إلياس.

ترجمة إلياس بن مُضَر:

بكسر الهمزة وفتحها واللام فيه للتعريف، فالهمزة التي تسبق اللام همزة وصل. كنيته: أبو عمرو، وهو أولُ من أهدى البدن للبيت. قيل: وكان يسمع في صُلْبه تلبية النبي ﷺ بالحج. ولما مات أسفت زوجته خندف عليه، فنذرت لا تقيم ببلد مات فيه، ولا يظلُّها سقف، وحرّمت الرجال، والطيب، وخرجت سائحةً حتى ماتت، فَضُرِب بها المثل.

قال الصالحي: ولما أدرك إلياس أنكر على بني إسماعيل ما غيّروا من سُنَن آبائهم وسيرهم، وبان فضلُه عليهم، وجمعهم رأيه، ورضوا به، فردّهم إلى سُنَن آبائهم، ولم تزل العرب تعظّمه تعظيم أهل الحكمة كتعظيمها لقمان، وأشباهه.

وإلياس أخو عيلان، والد قيس كلّها.

ترجمة مُضَر بن نزار:

مُضَر: اسم معدولٌ عن ماضر، اسمه: عمرو، لُقِّب بمضر لبياضه؛ لأنه كان يمضر قلب من رآه لحسنه وجماله، أو: لأنه كان مولَعاً بشرب اللبن الماضر، واللبن الماضر؛ إذا حَمُض.

قال الصالحي: روى ابنُ حبيب بسند جيد عن سعيد بن المسيّب مرسلاً أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تسبّوا مُضَر فإنه كان على مِلَّة إبراهيم» قال: ورواه الزُّبَير والبلاذري بسند جيد عن الحسن مرسلاً مثله.

ومما يؤثر عنه من الحِكَم: من يزرع شرّاً يحصد ندامة، وخيرُ الخير أعجَلُه، فاحملوا أنفسَكم على مكروهها فيما يصلحكم، واصرفوها عن هَواها فيما أفسدها، فليس بين الصَّلاح والفساد إلا صبر فَواق. والفَواق: ما بين الحلبتين من الوقت؛ لأنها تحلب، ثم تترك سُوَيعةً يرضعها الفصيل لتَدِرّ، ثم تُحلَب.

وكانت لمضر فراسةٌ، وقيافة، وهو أخو ربيعة، وإياد، وأنمار. فأما مضر وإياد فشقيقان، وربيعة وأنمار شقيقان. ويقال لمضر وربيعة: الصّريحان من ولد إسماعيل، وإياد وأنمار لحقا باليمن، وأنمار والد خثعم، وبجيلة.

ترجمة نزار بن مَعَدّ:

نزار: من التَّنَزُّر، لأنه كان فريد عصره، أو من النَّزْر: القليل؛ لأن أباه حين ولد له، ونظر إلى النُّور بين عينيه، فرح به فرحاً شديداً، وأطعم شيئاً كثيراً، وقال: هذا نَزْرٌ قليل في حقِّ هذا المولود، فَسُمِّي نزاراً لذلك.

قال الصَّالحي: روى ابن حبيب بسند جيّد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مات أُدَد والد عدنان، وعدنان، ومَعَدّ، وربيعة، ومضر، وقيس ابن عيلان، وتَيْم، وأسد، وضبّة، وخزيمة على الإسلام على ملة إبراهيم ﷺ.

ونزار أخو قضاعة، وقنص، وإياد. وكنيته: أبو إياد، أو أبو ربيعة.

ترجمة مَعَدّ بن عدنان:

مَعَدّ: منقول من: عددتُ الشيء عدّاً، أو من مَعَدَ الرجل في الأرض إذا ذهب، أو من المَعْد، وهي القوّة، أو من تمعدد الرجل؛ إذا قوي، واشتد، وتعبّد. وقول عمر: تمعددوا، أي: كونوا على خلق مَعَدّ.

كان عمره زمن بختنصّر: اثنتي عشرة سنة.

وأخوه عك، وقال السهيلي: وله أخوان: الحارث، والمذهب، وكنيته: أبو قضاعة.

ترجمة عدنان بن أُدَد:

عدنان مأخوذ من عَدَنَ بالمكان؛ إذا أقام به، ويقال: إنه أول من كسا الكعبة، والله أعلم.

وبعد أن ذكرت النسب الشريف ابتداء برسول الله ﷺ وانتهاء بعدنان، فإني مبيّن لك ما وَلَد أصحاب النسب، لتعرف اتصال نسب رسول الله ﷺ بسائر القبائل العربية من جهة الذكور والإناث معاً، إلا أنني اقتصرتُ هنا على ذكر الأبناء دون البنات، فدونك النسب ابتداءً من عدنان.

عدنان وَلَدَ: معدّ ـ عكّ.
مَعَدّ وَلَدَ: نزار ـ قضاعة ـ قنص ـ إياد.
نزار وَلَدَ: مضر ـ ربيعة ـ إياد ـ أنمار.
مضر وَلَدَ: إلياس ـ عيلان.
إلياس وَلَدَ: مُدرِكَة ـ طابخة ـ قمعة.
مُدرِكة وَلَدَ: خزيمة ـ هُذَيْل.
خزيمة وَلَدَ: كنانة ـ أسد ـ أسدة ـ الهُون.
كنانة وَلَدَ: النّضر ـ مالكاً ـ عبد مناة ـ ملكان، زاد الطبري: عامراً ـ الحارث ـ

النضير ـ غنم ـ سعد ـ عوف ـ جرول ـ الحدال ـ غزوان.
النّضْر وَلَدَ: مالك ـ مخلد.
مالك وَلَدَ: فِهْر (قريش).
فهر وَلَدَ: غالب ـ محارب ـ الحارث ـ أسد.
غالب وَلَدَ: لؤي ـ تَيْم ـ قيس.
لؤي وَلَدَ: كعب ـ عامر ـ سامة ـ عوف.
كعب وَلَدَ: مُرّة ـ عديّ ـ هصيص.
مرة وَلَدَ: كلاب ـ تيم ـ يقظة.
كلاب وَلَدَ: قُصَيّ ـ زهرة.
قصي وَلَدَ: عبد مناف ـ عبد الدار ـ عبد العزّى ـ عبد.
عبد مناف وَلَدَ: هاشم ـ عبد شمس ـ المطّلب ـ نوفل.
هاشم وَلَدَ: عبد المطلب ـ أسد ـ أبا صيفي ـ نضلة.
عبد المطلب وَلَدَ: عبد الله ـ حمزة ـ العباس ـ أبا طالب (عبد مناف) ـ الزبير ـ الحارث ـ جحل ـ المقوم ـ ضرار ـ أبا لهب.
عبد الله وَلَدَ: محمداً رسول الله ﷺ سيّد ولد آدم، فهو ﷺ أشرف ولد آدم حسباً، وأفضلهم نسباً من قبل أبيه وأمّه.

وهذا النسبُ بهذه الصِّفة لا خلافَ فيه بين العلماء، فجميعُ قبائل عرب الحجاز ينتهون إلى هذا النسب، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيرُه في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٣] لم يكن بطن من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ نَسَبٌ يتصل بهم. وصدق ابن عباس فيما قال، وأزيد مما قال، وذلك أنَّ جميعَ قبائل العرب العدنانية تنتهي إليه بالآباء وكثير منهم بالأمهات أيضاً.

ولادته ﷺ:

روى الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقرّه الذهبي، عن قيس بن مَخْرَمَة عن أبيه قال: تُوفِّيَ أبو النبيّ ﷺ وأمه حُبلى

به[١] وبقي ﷺ في بطن أمه تسعة أشهر كملاً، لا تشكو وجعاً، ولا مغصاً، ولا ريحاً، ولا ما يَعْرِض لذوات الحمل.

وُلد ﷺ يوم الإثنين؛ لما روى أحمد، ومسلم، وأبو داود عن قتادة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سُئل عن صوم يوم الإثنين قال: «ذاك يومٌ وُلِدْتُ فيه، ويومٌ بُعثتُ فيه ـ أو: أنزل عليّ فيه»[٢] وولد في النهار عند إبهاره.

وولد ﷺ في شهر ربيع الأول، لثمانٍ خلون منه، والمشهور لاثنتي عشرة ليلة خلت منه في مكة المكرّمة.

وولد ﷺ عام الفيل، لما روى البيهقي في «الدلائل» عن قيس بن مخرمة قال: وُلِدتُ أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل، كنا لِدَيْنِ[٣]، والمشهور لِدَتَيْنِ [يعني: أننا ولدنا في زمن واحد وفي سنّ واحد] وكان بعد يوم الفيل بخمسين يوماً.

رؤيا آمنة النور حين حملت به، ورؤيتها النور حين وضعته:

روى أحمد، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، وأقرّه الذهبي، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله! أَخبرنا عن نفسك، فقال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأتْ أمي حين حملتْ بي أنه خرج منها نورٌ أضاءتْ له بصرى»[٤].

فهذه رؤيا منامية.

وروى ابن سعد، ورجاله ثقات، عن أبي العجفاء رحمه الله تعالى مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «رأت أمي حين وضعتني سطع منها نور

(١) المستدرك (١/ ٦٠٥).
(٢) مسلم (٢/ ٨١٩).
(٣) الدلائل للبيهقي (١/ ٧٦).
(٤) المستدرك (٢/ ٦٠٠).

فضاءت له قصور بُصرى».

وهذه رؤية بصرية.

وبُصرى بلد بالشام. قال في «المسكة الفائحة»: وفي تخصيص بصرى لطيفة، وهي: أنها أول موضع من بلاد الشام وطئته قدما رسول الله ﷺ، وكذلك هي أول ما افتتح من بلاد الشام(١).

ختنه ﷺ:

وردت أحاديث في ولادته ﷺ مختوناً، فمن الحُفّاظ من صحَّحها، ومنهم من ضعّفها، ومنهم من رآها من الحسان، ومنها ما هو إسناده جيّد. وبه قال ابن الجوزي، والحاكم، وغيرهما.

ووردت أحاديث أخرى بأن جدّه عبد المطلب ختنه يوم سابعه، وصنع له مأدبة، وسمّاه محمداً، وحكاه ابن عبد البر في «التمهيد» وقال ابن القيّم رحمه الله تعالى: ليس هذا من خصائصه ﷺ، فإن كثيراً من الأنبياء وغيرهم وُلِدَ مختوناً. فمن قال بأنه ولد مختوناً فله دليلُه، ومن قال بولادته غير مختون فله دليلُه أيضاً.

أخرج أبو نعيم في «الدلائل» عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «من كرامتي على ربي أنّي وُلِدْتُ مختوناً، ولم ير أحدٌ سوءتي»(٢).

ما وقع من الآيات ليلة مولده ﷺ:

أخرج أبو نعيم في «الدلائل» عن مالك بن سنان رضي الله عنه قال: جئتُ بني عبد الأشهل يوماً لأتحدَّث فيهم، ونحن يومئذٍ في هدنة من الحرب (أي: التي كانت تنشبُ بين الأوس والخزرج قبل مبعث النبي ﷺ) فسمعت يوشع اليهوديّ يقول: أظلّ خروجُ نبيٍّ يقال له: أحمد، يخرج من الحرم، فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلي كالمستهزىء به: ما صفتُه؟ قال: رجلٌ ليس

---

(١) سبل الهدى والرشاد (١/ ٤١١).

(٢) الدلائل لأبي نعيم (١/ ٤٦).

بقصير ولا طويل، في عينيه حُمرة، يلبس الشملة، ويركب الحمار، سيفه على عاتقه، وهذا البلد مهاجَره.

قال: فخرجتُ على قومي من بني خدرة، وأنا يومئذٍ أتعجّب مما يقول يوشع، فأسمع رجلاً منّا يقول، ويوشع يقول هذا وحده؟ كلّ يهود يثرب يقولون هذا، قال أبي: مالك بن سنان: فخرجتُ حتى جئتُ بني قريظة، فأجد جمعاً، فتذاكروا النّبيّ ﷺ، فقال الزُّبَيْر بن باطا: قد طلع الكوكب الأحمر الذي لم يطلعْ إلا بخروج نبيٍّ وظهوره، ولم يبق أحدٌ إلا أحمد، وهذه مهاجَرُه.

قال أبو سعيد: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخبره أبي هذا الخبر، فقال رسول الله ﷺ: «لو أسلم الزبير وذووه من رؤسائهم كلّهم له تبع»[(١)].

وقال ابن كثير: روى الخرائطي عن هانيء المخزومي قال: لما كانت الليلة التي وُلد فيها رسول الله ﷺ ارتج إيوان كسرى، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نارُ فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأى الموبذان إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة، وانتشرت في بلادهم[(٢)].

رضاعه ﷺ:

كان من عادةِ الأشرافِ من أهل مكة بَعْث رضعائهم إلى البادية، يقضون فيها مدة الرَّضاع في حضانة المراضع من نساء البدو، بعيدين عن جوِّ المدينة، إذ كانوا يعتقدون أن جوَّ البادية أصحّ، وأنقى، وأحسن أثراً في نموّ أطفالهم، وفصاحتهم.

وكانت المراضعُ من نساء البادية يأتين إلى مكة من حينٍ إلى حينٍ

---

(١) الدلائل لأبي نعيم (١/١٨).
(٢) البداية والنهاية (٢/٢٤٩).

يلتمسن الرضعاء من بيوت الأشراف الأغنياء، والسادة، طمعاً في بِرِّ الآباء وعطاياهم، أما اليتامى والفقراء فلم يكن للمراضع نظرٌ إليهم.

وولد ﷺ في الوقت الذي لم يصل المراضعُ فيه إلى مكة، فكان لا بُدَّ من مرضع ترضعه، فأرضعته أمُّه آمنة بنت وهب سبعة أيام، فهي أولى مراضعه ﷺ.

ثم أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب؛ التي أعتقها حين بشّرته بولادة رسول الله ﷺ. وكانت ثويبة أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأبا سلمة ابن عبد الأسد.

ورضع ﷺ من ثويبة بلبن ابنها مسروح، فهي ثانية مراضعه ﷺ.

ورضع ﷺ من امرأةٍ من بني سعد غير حليمة، فهي ثالثة مراضعه ﷺ.

ورضع ﷺ من حاضنته أم أيمن، بركة الحبشية، ذكرها القرطبي، والمشهور أنها من الحواضن، وهي الرابعة.

ورضع ﷺ من ثلاث نسوة من بني سُلَيم؛ قال أبو عمر بن عبد البَرّ: إنه ﷺ مُرَّ به على نسوة ثلاثة من بني سليم، فأخرجن ثُدِيّهنّ، فوضعنها في فيه، فدرّت عليه، ورضع منهن.

ورضع ﷺ من السيدة حليمة بنت أبي ذؤيب السَّعدية الفائزة بالسعد، والبركة، واليُمْن.

قصة رضاعه ﷺ:

روى ابن إسحاق، وابن راهويه، وأبو يعلى، والطبراني، وابنُ حِبّان عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: حدّثتني حليمة.

وروى البيهقي عن الزهري، وروى الإمام أحمد، والدارميّ عن عتبة بن عبد الله، وروى الحافظ أبو نُعَيْم عن بُرَيْدَة، وروى أبو يعلى، وأبو نعيم عن شداد بن أوس، وروى ابن سعد، وأبو نعيم، وابن عساكر عن زيد بن أسلم، وروى البيهقي وابنُ عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي سنده من

تُكُلِّمَ فيه، لكن لأكثره شاهد قويّ، أن حليمة قالت: قدمتُ على أتانٍ لي قمراء (بيضاء) قد أذمّت بالرَّكب (أعيت، وتأخرت عن الجماعة) حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفاً، وعَجْفاً (هزالاً) ومعي صبيٌّ لنا، وشارف لنا (الناقة المسنّة) والله ما تَبِضُّ بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبيِّنا ذاك، لا يجدُ في شارفنا ما يكفيه، ولا في ثدييّ ما يغنيه، فقدِمنا مكة، فوالله! ما علمتُ امرأة منّا إلا وقد عُرِضَ عليها رسول الله ﷺ، فتأباه إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنَّا إنَّما كُنَّا نرجو المعروفَ من أبي الصَّبي، فكنَّا نقول: يتيم! ما عسى تصنع أمُّه وجدُّه، فكنا نكرهه لذلك. فوالله! ما بقي من صواحبي امرأةٌ إلا أخذتْ رضيعاً، غيري، فلمّا لم أجد غيرَه قلتُ لزوجي: والله! إني لأكره أن أرجعَ من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخُذَنَّه. فذهبتُ، فأخذتُه، فجئتُ به رحلي، فلمَّا وضعته في حِجْري أقبلَ عليه ثدياي بما شاء الله من لبن، فشرب حتى روي، ثم شرب أخوه حتى روي، ثم ناما، وقام زوجي إلى شارفنا فإذا إنَّها لَحافِل، فحلب، فشربَ، وشربتُ حتى انتهينا، وبتنا بخير ليلة.

فقال صاحبي: تعلّمي (اعلمي) يا حليمةُ! والله! لأراكِ قد أخذتِ نَسَمَةً مباركة، ألم تَرَيْ إلى ما بتنا فيه الليلة من الخير، والبركة حين أخذناه؟ قلتُ: والله! إنِّي لأرجو ذلك.

قالت: ثم رجعنا، وركبت أتاني (حمارتي) وحملتُه عليها معي، فوالله! لقد قطعتْ أتاني بالرّكب حتى ما يتعلّق بها حمار، حتى إنَّ صواحبي لَيَقُلْنَ لي: يا بنت أبي ذؤيب ويحك! اربعي علينا، أهذه أتانُكِ التي خرجتِ عليها معنا؟ فأقول: نعم، والله! إنها لهي، فيقلن: والله! إنّ لها لشأناً.

ثم قدمنا أرضَ بني سعد، وما أعلمُ أرضاً من أرض الله تعالى أجدَب منها، فكانت غنمي تسرحُ، ثم تروح شباعاً لُبَناً (كثيرة اللبن)، فنحلب، ونشرب، وما يَحلُب إنسانٌ قطرةَ لبن، ولا يجدها في ضرْعٍ، إن كان الحاضر من قومنا لَيقولون لرعاتهم: ويحكم انظروا حيث تسرحُ غَنَمُ حليمة فاسرحوا

معهم، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح، فتروح أغنامُهم جياعاً ما فيها قطرةُ لبن، وتروح غنمي شِباعاً لُبَّناً.

قالت حليمةُ: فلم يزلِ اللهُ يُرينا البركة، ونتعرّفها، حتى بلغ ﷺ سنتين، فكان يَشِبُّ شباباً لا يَشبُّهُ الغلمان.

قالت: فَقَدِمنا به إلى أمّه، فلمّا رأته قلنا لها: اترُكي ابننا عندنا هذه السَّنة، فإننا نخافُ عليه وباء مكّة، فوالله! ما زلنا بها حتى قالت نعم، فسرَّحته معنا فأقمنا شهرين أو ثلاثة.

وكان ﷺ يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون فيجتنبهم، فقال لي يوماً: يا أمّاه! ما لي لا أرى إخوتي بالنَّهار؟ قالت: يرعون بَهْماً لنا (أولاد المعز والضأن) غنماً لنا، فيروحون من الليل إلى الليل. فقال: ابعثيني معهم؛ فكان ﷺ يخرج مسروراً، ويعود مسروراً، فلما كان يوماً من ذلك خرج، فلما انتصف النهار إذ جاءنا أخوه يشتدُّ، فقال: يا أبتِ ويا أمّة! الحقا أخي محمداً فما تلحقانه إلا ميّتاً.

قلتُ: وما قِصّته؟ قال: بينا نحن قيامٌ إذ أتانا رجل فاختطفه من أوساطنا، وعلا به ذُروةَ جبل، ونحن ننظرُ إليه حتى شَقَّ من صدره إلى عانته، وما أدري ما فعل؟.

فأقبلتُ أنا وأبوه نسعى سَعْياً، فإذا به قاعداً على ذُروة الجبل، شاخصاً ببصره إلى السَّماء، فنجده مُنتقعاً لونُه، فأكبَبْتُ عليه، وقَبّلتُ بين عينيه، وقلت: فَدَتْك نفسي، ما دهاك؟ قال: خيراً يا أمّاه! بينا أنا السَّاعة قائم، إذ أتاني رهطٌ ثلاثة بيَدِ أحدِهم إبريق فضة، وفي يَدِ الثاني طَسْتٌ من زُمُرُّدَةٍ خضراءَ ملآن ثلجاً، فأخذوني، وانطلقوا بي إلى ذُروة الجبل، فأضجعوني إضجاعاً لطيفاً، ثم شقّ أحدُهم من صَدْري إلى عانتي، وأنا أنظرُ إليه، فلم أجدْ لذلك حِسّاً ولا ألماً، ثم أدخل يَده في جوفي، فأخرج أحشاء بطني، فغسلها بذلك الثّلج، فأنعم غسلها، ثم أعادها.

قالت حليمة: فأتيتُ به منازلَ بني سعد. فقال الناس: اذهبوا به إلى

الكاهن حتى ينظر إليه، ويُداويه. فقال: ما بي شيء مما تذكرون، إني أرى نفسي سليمةً، وفؤادي صحيحاً.

فقال الناس: أصابه لَمَمٌ، أو طائفٌ من الجنّ، فغلبوني على أمري. قالت: فانطلقتُ به إلى الكاهن، فقصصتُ عليه القصَّة، فقال: دعيني أنا أسمع منه، فإنَّ الغلامَ أبصرُ بأمره منكم، تكلّم يا غلام! فقصّ عليه قصّته، فوثب الكاهنُ قائماً على قدميه، ونادى بأعلى صوته: يا لَلعرب من شرٍ قد اقترب! اقتلوا هذا الغلام، واقتلوني معه، فإنكم إن تركتموه، وأدرك مدارك الرجال لَيُسَفِّهنَّ أحلامكم (عقولكم)، ولَيكذِّبنَّ أربابكم، وَلَيدعونّكم إلى ربٍّ لا تعرفونه، ودينٍ تنكرونه.

قالت: فلما سمعتُ مقالته انتزعتهُ من يده، وقلت: لأنت أَعْتهُ منه، وأجنّ، ولو علمتُ هذا مِن قولك ما أتيتك به. أُطلُبْ لنفسك من يقتلك، فإنّا لا نقتل محمداً.

فأتيت به منزلي، فما أتيتُ منزلاً من منازل بني سعد إلا وقد شممنا منه ريحَ المسك.

فقال الناس: يا حليمةُ! رُدّيه إلى جَدّه، واخرُجي من أمانتك، وقال زوجي: أرى أن نَرُدَّه على أمّه لتعالجه، فوالله! إن أصابه ما أصابه إلا حسداً من آل فلان، لما يرون من عظيم بركته. يا حليمة! أخذناه ولنا أَعنُزٌ عجافٌ، فهنّ اليوم ثلاثمئة.

قالت: فاحتملناه، فقدمنا به على أمّه، فقالت: ما ردّكما به يا ظئر (مرضع) فقد كنتما عليه حريصَيْنِ؟ قلنا: نخشى الإتلاف، والأحداث. فقالت: ما ذاك بكما، اصدُقاني شأنكما، فلم تَدَعْنا حتى أخبرناها خبره. فقالت: أخشيتُما عليه الشَّيطان؟ كلا، والله! ما للشيطان عليه سبيل. والله إنه لَكائنٌ لابني هذا شأن، ألا أُخبركما خبره؟ قلنا: بلى، قالت: حملت به فما حملتُ حملاً قطُّ أخفَّ منه، فأُرِيت في النَّوم حين حملتُ به خرج مني نورٌ أضاءت له قصور بُصرى من أرض الشام، ثم وقع حين ولدته وقعاً ما يقعه

المولودُ معتمداً على يديه، رافعاً رأسه إلى السماء.

قالت حليمة: ثمّ جهّزني عبد المطّلب أحسنَ جِهَاز، وصرفني إلى منزلي بكل خير[١].

إسلام حليمة:

قال الحافظ المنذري في «مختصر سنن أبي داود»: حليمة أمّه ﷺ، أسلمت، وجاءت إليه، وروت عنه عليه الصلاة والسلام.

قلت: وقد وفدت على رسول الله ﷺ بعد أن ردّته إلى أمّه مرتين، إحداهما: بعد زواجه من السيدة خديجة رضي الله عنها جاءته ﷺ تشكو إليه الجدب والقحط، وأنّ قومها قد أسنتوا (أصابتهم السنة: الجوع) فكلّم لها خديجة، فأعطتها أربعين شاةً وبعيراً، ثم قدمتْ عليه بعد النبوّة، فأسلمت، وبايعت، وأسلم زوجُها الحارث.

والظاهر: أن القدمة الثانية كانت يوم حنين؛ لما روى البخاري في «الأدب»، وأبو داود، والطبراني، وابن حبان في صحيحه، عن أبي الطّفيل رضي الله عنه قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يقسم لحماً بالجعرانة، وأنا يومئذٍ غلام، أحمل عظم الجزور، إذ أقبلت امرأة حتى دنت إلى رسول الله ﷺ، فبسط لها رداءه، فجلستْ عليه، فقلتُ: من هذه؟ قالوا: هذه أمُّه ﷺ التي أرضعته.

وفي رواية عمرو بن السائب رحمه الله تعالى: أنه بلغه أنَّ رسول الله ﷺ كان جالساً يوماً، فأقبل أبوه من الرَّضاعة، فوضع له بعضَ ثوبه، فقعد عليه، ثم أقبلت أمُّهُ، فوضع لها شِقَّ ثوبه من جانبه الآخر، فجلست إليه، ثم أقبل أخوه من الرَّضاعة، فقام رسول الله ﷺ، وأجلسه بين يديه.

---

(١) السيرة الشامية (١/ ٤٧٠) بتصرف.

تنبيه:

وراوي حديث رضاع رسول الله ﷺ من حليمة: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سمع من حليمة بعد مجيئه من الحبشة مع والده بسنة، أي: في السنة السابعة للهجرة، أو الثامنة، وعمره سبع سنين ونيف.

* * *

الفصل الرابع

نشأته ﷺ، وكفالة جده عبد المطلب، وعمه أبي طالب، وسفره إلى الشام مرتين، وعصمته ﷺ في فتوته وشبابه، وزواجه من خديجة رضي الله عنها، وعمله في بناء الكعبة المشرفة

سانحة:

أقول: صَحّ في أبي طالب أنه من أهل النّار، وأنه أهون أهل النار عذاباً؛ لنصرته رسول الله ﷺ، ودفاعه عنه.

روى مسلم في صحيحه عن العباس بن عبد المطّلب أنه قال: يا رسول الله! هل نفعتَ أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطُك، ويغضب لك؟ قال: «نعم هو في ضحضاحٍ من نار، ولولا أنا لكان في الدّرك الأسفل من النار»[1] (الضحضاح: الطبقة الرقيقة).

وروى أيضاً عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهلِ النّار عذاباً ينتعلُ بنعلين من نار، يغلي دماغُه من حرارة نعليه»[2].

وقد فسّر الحديث الآتي شخصية هذا المنتعل:

فروى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أهونُ أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو منتعلٌ بنعلين، يغلي منهما دماغُه»[3].

فإذا كان أبو طالب أهونَ، وأدنى أهل النار عذاباً وقد بلغته الدعوة، وعاش أكثر من عشر سنين في ظلّ الدعوة، ودعاه رسول الله ﷺ ليقول كلمة التوحيد حين لفظ آخر أنفاسه، فلم يفعلْ، فأين مكان أبوي النبي ﷺ من النار؟ وهما اللذان لم تبلغهما دعوةُ أحد، ولم يُعمّرا طويلاً

---

(١) مسلم (١/ ١٩٥).
(٢) مسلم (١/ ١٩٦).
(٣) المصدر السابق.

عمراً، بحيث يقع لهما فيه البحث والاستدلال، فإن الحافظ العلائي صحَّح القول بأنه مات وعمره ثمان عشرة سنة، وأمه ماتت في حدود العشرين، يعني أنَّ مدة التكليف ثلاث سنين فقط. وإذا كان ذلك كذلك فلم لا يفسر الحديث القائل: «إن أبي وأباه في النار» بأن المقصود بلفظ أبي: عمّي، ويطلق الأبُ على العمّ، وفي الحديث: «عم الرجل صنو أبيه» والآية تقول في سورة البقرة: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٣] فأطلقت الآية الأب على العم إذ الكاف، تشير إلى يعقوب عليه السلام والآباء: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وإسحاق أبو يعقوب، وإبراهيم جد يعقوب، ولكن إسماعيل عمّ يعقوب، فأطلق الأب على العمّ.

وإذا فسّرنا لفظ أبي بعمّي، فقد زال الإشكالُ إن شاء الله.

هذا لمن يحبُّ التأويل، والذي لا يحبه يكفيه أوّلُ الحديث، والله أعلم.

فتوّة رسول الله ﷺ وشبابه

كفالة عبد المطلب:

لما توفيت آمنةُ أمُّ رسول الله ﷺ كان عمره ست سنين على ما ذكره ابن إسحاق، فضمّه إليه جدُّه عبدُ المطلب، ورقّ عليه رِقَّةً لم يرقّها على ولده، وكان يُوضع لعبد المطلب فراشٌ في ظلّ الكعبة، لا يَجلس عليه أحدٌ من بنيه إجلالاً له، وكان رسول الله ﷺ يأتي فيجلس عليه، فيذهب أعمامُه يؤخِّرونه، فيقول جدُّه: دعوا ابني، فيمسح على ظهره ويقول: إنّ لابني هذا لشأناً.

وكان عبدُ المطلب رقيقاً عليه، برّاً به، فربما أُتي بالطعام فيجلسه إلى جنبه، وربما أقعده على فخذه، فيؤثره بأطيب طعامه، وإذا لم يكن حاضراً انتظره حتى يأتي. وأم أيمن كانت حاضنته، وأمّه بعد أمّه، كما كان ﷺ يقول لها: «أنتِ أمي بعد أمي».

كفالة عمّه أبي طالب:

لما مات جدُّه ﷺ كان له من العمر ثماني سنين، لما روى محمد بن عمر الأسلمي عن أم أيمن: أنها حدَّثت أن رسول الله ﷺ كان يبكي خلف سرير عبد المطلب، وهو ابنُ ثماني سنين، ودفن بالحَجون. وكان عبدُ المطلب أوصى أبا طالب بحفظِ رسول الله ﷺ، وحياطته، والقيام عليه حين حضرته الوفاة. واختيارُ عبد المطلب أبا طالب من بين أولاده لأنه شقيقُ أبيه عبد الله.

وَوَلِيَ أبو طالب أمرَ رسول الله ﷺ بعد جده، وكان معه يحبُّه حباً شديداً لا يحبّه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه يتلمَّسُ بركته.

كان عيالُ أبي طالب إذا أكلوا جميعاً، أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فإذا أراد أن يغدِّيهم أو يعشِّيهم يقول: كما أنتم حتى يحضر ابني، فيأتي رسول الله ﷺ، فيأكل معهم، فيفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعهم، وإن كان لبناً شرب أوّلهم، ثم يتناول العيالُ القعبَ فيشربون منه، فيروون عن آخرهم من القعب الواحد، وإن كان أحدُهم ليشربُ قعباً وحده، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك.

وكان أبو طالب يقرّبُ للصبيان تصبيحهم (أي طعام الصباح) فيضعون أيديهم فينتهبون، ويكفُّ رسول الله ﷺ يدَه، فلما رأى ذلك أبو طالب عزل له طعامه.

استسقاء أبي طالب به ﷺ:

قال جُلْهُمة بن عرفطة فيما رواه عنه ابن عساكر: قدمتُ مكة وقريش في قحط، فقائل منهم يقول: اعتمدوا اللات والعزّى، وقائل منهم يقول: اعتمدوا مناة الثالثة الأخرى.

فقال شيخٌ حسنُ الوجه، وسيمٌ، جيد الرأي: أنّى تؤفكون وفيكم بقيةُ إبراهيم، وسلالة إسماعيل؟ قالوا: كأنك عنيتَ أبا طالب؟ قال: إيهاً! فقاموا

بأجمعهم، وقمتُ معهم، فدققنا عليه بابه، فخرج إلينا رجلٌ حسنُ الوجه، عليه إزارٌ قد اتَّشح به، فثاروا إليه، فقالوا: يا أبا طالب! أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلمّ فاستسقِ لنا، فخرج أبو طالبٍ ومعه غلامٌ كأنه شمسٌ دُجُنٍّ[١]، تجلّت عنه سحابةٌ قتماء[٢] (وهذا من بديع التشبيه، فإن شمس يوم الغيم حين ينجلي سحابُها الرقيق تكون مضيئةً، مشرقةً مقبولة للناس، غير محرقة) وحوله أُغَيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهرَه بالكعبة، ولاذ[٣] الغلامُ بأُصْبُعه مشيراً إلى السماء، وما في السماء قَزَعة (قطعة سحاب) فأقبل السحاب من ها هنا وها هنا وأغدق، واغدودق (كثر قطره) وانفجر له الوادي، وأخصب النادي والبادي، وفي هذا يقول أبو طالب:

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه ... ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ
يلوذُ به الهُلاَّكُ من آلِ هاشم ... فهم عنده في نعمةٍ وفواضلِ

سفره ﷺ مع عمه إلى الشام:

قال ابنُ الجوزي: قال أهلُ السِّير والتَّواريخ: لما أتت عليه ﷺ اثنتا عشرة سنة وشهران خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام.

فقد أجمعت قريش أن يجهّزوا عيراً إلى الشام بتجارات، وأموال عظام، وأجمع أبو طالب المسيرَ في تلك العير، فلما تهيّأ له المسيرُ انتظر رسول الله ﷺ هل يشخص معه؟ فقال له رسول الله ﷺ: أي عمّ! إلى من تخلّفني ها هنا؟ وصبّ به رسول الله ﷺ فقال له: أتخرج؟ فكلّمه عمومته، وعمّاته، وقالوا لأبي طالب: مثلُ هذا الغلام لا يُخْرَجُ به تعرّضه للأرياف والأوباء، فهمّ أبو طالب بتخليفه، فرآه يبكي، قال: ما لك يا بن أخي؟ لعل بكاءك من

---

(١) أي: شمسٌ كسيت ظلمة.
(٢) سحابة يعلوها سوادٌ غير شديد.
(٣) التجأ.

أجل أني أريدُ أن أخلِّفك؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. وفي رواية: أخذ بزمام ناقته، وقال: يا عم! إلى من تكلني؟ لا أب لي، ولا أم لي؟! فرقَّ له أبو طالب وقال: والله! لأخرجنَّ به معي، ولا يفارقني، ولا أفارقه أبداً.

روى الترمذي، وقال: حديث حسن غريب، عن أبي موسى الأشعري قال: خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا، فحلّوا رحالهم، فخرج إليهم الراهبُ، وكانوا قبل ذلك يمرُّون به فلا يخرجُ إليهم، ولا يلتفت، قال: فهم يَحُلّون رحالهم، فجعل يتخلّلهم الراهبُ، حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: هذا سيّد العالمين، هذا رسولُ ربِّ العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخٌ من قريش: ما عِلْمُك؟ فقال: إنّكم حين أشرفتم من العَقَبة لم يبق حجرٌ ولا شجرٌ إلا خرَّ ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبيّ، وإني أعرفُه بخاتَم النبوّة أسفل من غضروف كتفه مثلَ التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به، فكان هو ﷺ في رِعْيَةِ الإبل، فقال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامةٌ تُظِلُّه، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشَّجرة، فلما جلس مال فَيءُ الشَّجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشَّجرة مال عليه. قال: فبينما هو قائمٌ عليهم وهو يناشدُهم ألا يذهبوا به إلى الروم، فإنّ الرومَ إن رأوه عرفوه بالصِّفة فيقتلونه، فالتفت فإذا بسبعةٍ قد أقبلوا من الرُّوم، فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا، إنّ هذا النبيّ خارجٌ في هذا الشهر، فلم يبق طريقٌ إلا بُعث إليه بأُناسٍ، وإنّا قد أُخبِرْنا خبرَه بُعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحدٌ هو خيرٌ منكم؟ قالوا: إنّا أُخبرنا خبرَه بطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحدٌ من الناس رَدُّه؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه، وأقاموا معه.

قال: أَنشُدُكم بالله أَيُّكم وَلِيُّه؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى ردَّه أبو طالب. والراهب: اسمه بَحيرا وزاد الترمذي في آخر الحديث زيادة مدرجة ليست من الحديث.

وذكر ابن إسحاق في السيرة حديث بحيرا، فقال:

فلما نزل الرّكبُ بُصرى من أرض الشام، وبها راهب يقال له بَحيرا، في صومعةٍ له، وكان إليه علمُ أهل النَّصرانية، وكانوا كثيراً ما يمرُّون به قبل ذلك فلا يكلِّمهم ولا يعرضُ لهم، حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا، وغَمامةٌ تُظِلُّه من بين القوم. قال: ثم أقبلوا فنزلوا في ظلِّ شجرةٍ قريباً منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلّتِ الشَّجرة، وتهصَّرت أغصانُ الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظلَّ تحتها، فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته، ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعتُ لكم طعاماً يا معشر قريش! فأنا أحبُّ أن تحضروا كُلُّكم، صغيركم وكبيركم، حُرُّكم وعَبدُكم، فقال له رجلٌ منهم: والله يا بحيرا! إنَّ لك لشأناً اليوم، فما كنت تصنعُ هذا بنا، وقد كنّا نمرُّ بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟ قال له بحيرا: صدقت، قد كان ما تقول ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أُكْرِمَكم، وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلُّكم، فاجتمعوا إليه، وتخلّف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنّه في رحال القوم تحت الشَّجرة؛ فلما نظر بحيرا في القوم لم يَرَ الصِّفة التي يعرف، ويجد عنده، فقال: يا معشر قريش! لا يتخلّفنّ أحدٌ منكم عن طعامي؛ قالوا له: يا بحيرا! ما تخلف عنك أحدٌ ينبغي له أن يأتيَك إلا غلامٌ، وهو أحدثُ القوم سنّاً، فتخلّف في رحالهم، فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضرْ هذا الطعام معكم. قال: فقال رجلٌ من قريش مع القوم: واللات والعزّى! إن كان لَلُؤمٌ بنا أن يتخلّف ابنُ عبد الله بن عبد المطّلب عن طعامٍ من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه، وأجلسه مع القوم.

فلما رآه بحيرا جعل يلحظُه لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القومُ من طعامهم، وتفرّقوا، قام إليه بحيرا فقال له: يا غلام! أسألك بحقّ اللات والعزّى إلا ما أخبرتني

عمّا أسألك عنه، وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما. فزعموا أنّ رسول الله ﷺ قال له: لا تسألني باللات والعزّى، فوالله! ما أبغضت شيئاً قطُّ بغضَهما؛ فقال له بحيرا: فبالله! إلا ما أَخبرتني عما أسألُك عنه؛ فقال له: سَلْني عمّا بدا لك. فجعل يسألُه عن أشياء مِن حاله في نومه، وهيئته، وأموره؛ فجعل رسول الله ﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوّة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

فلما فرغ أقبل على عمّه أبي طالب، فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً؛ قال: فإنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حُبْلى به؛ قال: صدقت، فارجعْ بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفت لَيَبْغُنَّهُ شرّاً؛ فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم، فأسرِعْ به إلى بلاده.

فخرج به عمُّه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام. فزعموا فيما روى الناس أنَّ نفراً من أهل الكتاب، قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ مثلَ ما رآه بحيرا في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب، فأرادوه، فردّهم عنه بحيرا، وذكّرهم اللهَ، وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه، ولم يزلْ بهم حتى عرفوا ما قال لهم، وصدّقوه بما قال، فتركوه، وانصرفوا عنه.

فشبَّ رسول الله ﷺ، والله تعالى يكلؤه، ويحفظه، ويحوطه مِن أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً، وأفضلَ قومه مروءة، وأحسنَهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حِلْماً، وأصدقَهم حديثاً، وأعظمَهم أمانة، وأبعدَهم من الفحش والأخلاق التي تدنّس الرجال تَنَزُّهاً، وتكرُّماً، حتى ما اسمُهُ في قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصَّالحة.

رعيه ﷺ للغنم:

روى أبو نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما بعثَ اللهُ نبياً إلا راعي غنم» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا، كنت أرعاها لأهلي بمكة بالقراريط»[1].

عصمة الله له في طفولته وفتوته وشبابه

١ـ عصمته ﷺ من كشف عورته في طفولته:

قال ابن إسحاق: كان رسول الله ﷺ يُحدِّث عما كان حَفِظه اللهُ به في صغره قال: لقد رأيتُني في غلمان قريش ننقُل حجارةً لبعض ما يلعب به الغلمان كلنا قد تعرَّى، وأخذ إزارَه فجعله على رقبته يحملُ عليه الحجارة؛ فإني لأُقْبِلُ معهم كذلك وأُدبر، إذ لكمني لاكِمٌ ما أراه لكمةً وجيعةً، ثم قال: شُدَّ عليك إزارك. قال: فأخذتُه وشددتُه عليَّ، ثم جعلتُ أحملُ الحجارةَ على رقبتي، وإزاري عليَّ من بين أصحابي.

٢ـ عصمته ﷺ من الاستماع إلى آلات اللهو وحضور مجالسها:

وروى البيهقي عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله تعالى فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة، ونحن في رعاية غنم أهلها، فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمرَ فيها كما يَسمُرُ الفتيان. قال: بلى، قال: فدخلتُ، حتى إذا جئت أوَّلَ دارٍ من دور مكة سمعتُ عزفاً بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوَّجَ فلان فلانة. فجلستُ أنظر، وضرب اللهُ على أذنيّ، فوالله ما أيقظني إلا مَسُّ الشمس، فرجعتُ إلى صاحبي، فقال: ما فعلتَ؟ قلت: ما فعلتُ شيئاً. ثم أخبرته بالذي رأيت.

---

(١) الدلائل لأبي نعيم (١/ ٥٥).

ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمُرَ بمكة، ففعل، فدخلتُ، فلما جئتُ مكة سمعتُ مثل الذي سمعتُ تلك الليلة، فسألتُ، فقيل: فلان نكح فلانة، فجلست أنظر وضرب اللهُ على أُذُنيَّ، فوالله! ما أيقظني إلا مَسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلتَ؟ فقلت: لا شيءَ، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممتُ، ولا عدتُ بعدها لشيء من ذلك، حتى أكرمني الله عز وجل بنبوّته»[1]. (الغربال: دفٌّ سُمِّي به لشبهه به).

قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: حديث غريب جداً. ثم قال شيخ ابنُ إسحاق: ذكره ابن حبان في «الثقات» وزعم بعضهم أنه من رجال الصحيح، قال شيخنا في «التهذيب»: ولم أقفْ على ذلك والله أعلم.

٣ـ عصمته ﷺ من مس الأصنام:

وروى البيهقي عن زيد بن حارثة قال: كان صنمٌ من نحاس يقال له: إساف أو نائلة يتمسَّحُ به المشركون إذا طافوا، فطاف رسولُ الله ﷺ فطفتُ معه، فلما مررتُ مسحتُ به، فقال رسول الله ﷺ: لا تمسّه، فقال زيد: فطفت، فقلت في نفسي لأمسّنّه حتى أنظر ما يكون، فمسحته، فقال رسول الله ﷺ: ألم تُنْه[2]؟.

زاد غيره: قال زيد: فوالذي أكرمه، وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً حتى أكرمه الله بالذي أكرمه، وأنزل عليه.

٤ـ عصمته ﷺ من كشف العورة:

روى البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما بنيت الكعبةُ ذهب النَّبيُّ ﷺ وعباسٌ ينقلان الحجارة، فقال عباسٌ للنَّبيِّ ﷺ: اجعلْ إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة؛ فخرّ إلى

---

(١) الدلائل (٢/ ٣٤).
(٢) البخاري (٥/ ٤٠).

الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: «إزاري، إزاري» فشدّ عليه إزاره[١].

٥ـ عصمته ﷺ من عبادة الأوثان:

روى أبو نعيم عن ابن عباس قال: حدثتني أمُّ أيمن رضي الله عنها قالت: كانت بُوانة صنماً تحضره قريش، وتعظّمه، وتنسك له النَّسائك (تذبح) ويحلقون رؤوسهم عنده، ويعكفون عنده يوماً إلى الليل، وذلك يومٌ في السَّنة؛ وكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلِّم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه، فيأبى رسول الله ﷺ، حتى رأيتُ أبا طالب غضب عليه أسوأ الغضب، فيقول: إنا نخافُ عليك مما تصنعُ من اجتناب آلهتنا، ورأيتُ عماتِه غضبن عليه يومئذ أشدَّ الغضب، وجعلن يقلن: ما تريدُ يا محمد! أن تحضر لقومك عيداً، ولا تُكثّر لهم جمعاً؟ قالت: فلم يزالوا به حتى ذهب، فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إلينا مرعوباً. فقالت عمّاته: ما دهاك؟ قال: إني أخشى أن يكون بي لممٌ، (مسّ)، فقلن: ما كان الله عزّ وجل ليبتليك بالشيطان، وفيك من خصال الخير ما فيك؛ فما الذي رأيت؟

قال: إني كلما دنوتُ من صنم منها تَمَثَّل لي رجلٌ أبيض طويل يصيحُ بي: وراءك يا محمد! لا تمسّه. قالت أم أيمن: فما عاد إلى عيدٍ لهم ﷺ[٢].

٦ـ عصمته ﷺ من أكل ما أُهِلَّ لغير الله، وحفظ جوفه من الطعام الحرام:

روى أبو نعيم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «سمعتُ زيد بن عمرو بن نفيل يعيبُ أكلَ ما ذبح لغير الله، فما ذقتُ شيئاً ذُبِح على النُّصب حتى أكرمني الله عز وجل بما أكرمني به من رسالته»[٣].

---

(١) بخاري (٥/ ٥٠).
(٢) الدلائل لأبي نعيم (١/ ٥٩).
(٣) المصدر السابق.

النُّصب: الأوثان.

٧ـ عصمته ﷺ من الكذب، فما أُثر عنه كذبة قطّ:

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤] صعد النَّبيُّ ﷺ على الصَّفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر! يا بني عَدِيّ!» لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجلُ إذا لم يستطع أن يخرج أرسَلَ رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش: فقال: «أرأيتكُم (أي أخبروني) لو أخبرتُكم أنّ خيلاً بالوادي، تريدُ أن تُغير عليكم أكنتم مُصَدِّقيَّ؟» قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقاً...[١] الحديث.

٨ـ عصمته ﷺ من الحلف باللاَّت والعُزَّى:

روى البيهقي في «الدَّلائل» في قصة بحيرا حين حلف باللات والعُزّى متابعةً لقريش، فقال النبيُّ ﷺ: «لا تسألني باللات والعزّى شيئاً، فوالله! ما أبغضت بغضهما شيئاً قطُّ»[٢].

٩ـ عصمته ﷺ من شرب الخمر:

قال الصَّالحي: روى أبو نعيم عن علي رضي الله عنه قال: قِيل للنَّبيِّ ﷺ: هل عبدتَ وثناً قَطُّ؟ قال: «لا». قالوا: فهل شربتَ خمراً قطُّ؟ قال: «لا، وما زلتُ أعرفُ أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان»[٣].

شهوده ﷺ حرب الفِجَار:

ولما بلغ رسول الله ﷺ من العمر عشرين عاماً، وفي رواية: خمسة عشر عاماً، هاجت حربُ الفجار بين قريش ومعها كنانة، وبين قيس بن عيلان،

---

(١) البخاري (٦/ ١٤٠).
(٢) الدلائل (٢/ ٣٥).
(٣) سبل الهدى والرشاد (٢/ ١٠٢).

هاجها قتلُ البَرّاض بن قيس الكناني عروةَ الرحال بن عتبة من هوازن؛ لأنه أجار لطيمةً (وهي الجمالُ التي تَحملُ التجارة، والطيب، والثياب، والحرير) للنّعمان بن المنذر ملك الحيرة، وذلك أنه كان يبعث إلى سوق عكاظ في كل عام لطيمةً في جوار رجلٍ من أشراف العرب، يجيرُها له حتى تباع هناك، ويشتري له بثمنها من أدم الطّائف ما يحتاجُ إليه.

فقال البرّاضُ بن قيس: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم، وعلى الخلق. فخرج فيها عروة الرحّال، وخرج البرّاض يطلب غفلته، حتى إذا كان في بعض الطريق غفل عروة، فوثب عليه البرّاض فقتله في الشهر الحرام؛ فلذلك سمي حربَ الفجار. والفجارات أيام.

وشهد رسول الله ﷺ بعضَ أيامهم، أخرجه أعمامه.

روى ابنُ سعد أنَّ رسول الله ﷺ قال: «كنت أُنَبِّل على أعمامي»: أي: أردُّ عليهم نبل عدوّهم إذا رموهم بها.

شهوده ﷺ حلفَ الفضول:

وكان هذا الحلفُ في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة، مُنصرفَ قريش من الفجار بعدها بأربعة أشهر، ولرسول الله ﷺ من العمر عشرون عاماً.

وكان حلفُ الفضول أكرمَ حلف سُمِعَ به، وأشرفَه في العرب، وكان أول من تكلَّم به، ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب، وكان سببُه أنَّ رجلاً من زَبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، فحبس عنه حقّه، فاستعدى عليه الزّبيدي الأحلاف: عبد الدار، ومخزوماً، وجمحاً، وسهماً، وعديَّ بن كعب، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل، وزبروه، أي: انتهروه، فلما رأى الزّبيدي الشرّ، أوفى على أبي قبيس وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فنادى بأعلى صوته:

يـا آل فِهـرٍ لِمظلـوم بضـاعتُـه ببطـن مكـة نـائي الـدَّار والنَّفَـر

ومحرمٍ أشعثٍ لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحِجْرِ والحجر
إن الحرامَ لمن ماتت كرامتُه ولا حرام لثوبِ الفاجر الغَدِرِ

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطّلب وقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وتيم بن مرّة في دار عبد الله بن جُدعان، فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام، فتعاقدوا، وتعاهدوا بالله ليكونُنَّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه، ما بل بَحرٌ صوفة، وما رسا ثبير وحراء مكانهما، وعلى التأسي في المعاش، فسمّت قريشٌ ذلك الحلفَ حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضولٍ من الأمر. ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه.

روى ابن إسحاق عن طلحة، وابن سعد، والبيهقي عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحب أنَّ لي به حمر النّعم، ولو دُعِيتُ به في الإسلام لأجبتُ».

سفره ﷺ إلى الشام في تجارة خديجة رضي الله عنها:

قال ابنُ إسحاق: وعمره ﷺ خمس وعشرون سنة.

روى أبو نعيم عن نُفَيْسة بنت أمية، وقيل: منية، قالت: لمّا بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة، وليس له بمكة اسمٌ إلا الأمين، لِما تكامل فيه من خِصال الخير، قال له أبو طالب: يابن أخي! أنا رجلٌ لا مال لي، وقد اشتدَّ الزمانُ علينا، وألَحّتْ علينا سِنون منكرة، ليس لنا مالٌ ولا تجارة، وهذه عيرُ قومك قد حضر خروجُها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعثُ رجالاً من قومك في عيرانها فيتّجرون لها، ويصيبون منافع، فلو جئتَها فعرضتَ نفسك عليها لأسرعتْ إليك، وفضَّلتك على غيرك لما يبلغُها من طهارتك، وإني كنتُ لأكره أن تأتي الشام، وأخافُ عليك من اليهود، ولكن لا نجد بدّاً من ذلك.

وكانت خديجةُ امرأةً تاجرة، ذات شرفٍ ومالٍ كثير، وتجارةٍ تبعث بها إلى الشام، فيكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجرُ الرجلَ، وتدفع إليه المال مضاربةً، وكانت قريشٌ قوماً تجاراً، ومن لم يكن تاجراً فليس عندهم بشيء.

قال رسول الله ﷺ: فلعلها أن تُرسِل إليَّ في ذلك؛ قال أبو طالب: إني أخاف أن تُوَلِّي غيرك فتطلب أمراً مُدْبِراً، فافترقا.

فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمِّه له، وقبل ذلك ما قد بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، فقالت: ما دَريْتُ أنَّه يريد هذا، ثم أرسلت إليه، فقالت: إنه قد دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعفَ ما أُعطي رجلاً من قومك.

ففعل رسول الله ﷺ، فلقي أبا طالب، فقال له ذلك، فقال: إن هذا لَرِزْقٌ ساقه اللهُ إليك.

فخرج رسول الله ﷺ، مع غلامها ميسرة؛ وقالت خديجة لميسرة: لا تعصِ له أمراً، ولا تخالفْ له رأياً، وجعل عمومتُه يوصون به أهلَ العير، فخرج حتى قدم الشام، فنزل في سوق بصرى في ظل شجرةٍ قريباً من صومعة راهب من الرهبان، يقال له: نسطورا، قال: فاطّلع الراهبُ إلى ميسرة وكان يعرفه ـ فقال: يا ميسرة! من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال: من قريش من أهل الحرم، قال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطُّ إلا نبيٌّ، ثم قال: أفي عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم، لا تفارقه قطّ، قال الراهبُ: هو، هو، وهو آخرُ الأنبياء، ويا ليت أني أدركه حيثُ يؤمر بالخروج. فوعى ميسرة ذلك.

ثم حضر رسول الله ﷺ سوقَ بصرى، فباع سلعته، أي: تجارته، التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، فكان بينه وبين رجل اختلافٌ في

سلعة، فقال الرجل: احلفْ باللات والعزّى، فقال رسول الله ﷺ: «ما حلفتُ بهما قطّ وإني لأمرّ بهما فأُعرض عنهما» فقال الرجل: القول قولك.

ثم أقبل رسول الله ﷺ قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة ـ فيما يزعمون ـ إذا كانت الهاجرةُ، واشتدَّ الحر يرى ملكين يظلاّنه من الشمس، وهو على بعيره.

فلما قدم مكة باعوا متاعهم، وربحوا ربحاً لم يربحوا مثله قط، فقال ميسرة: يا محمد! اتجرنا لخديجة أربعين سنة، ما رأيت ربحاً قط أكثر من هذا الربح على وجهك؛ فلما رأت خديجةُ أن تجارتها قد ربحت أضعفت له ما سمّت.

ولما دخل ميسرةُ على خديجة، أخبرها بقول الراهب نسطورا، وقول الآخر الذي خالفه في البيع.

نكاحه ﷺ خديجة رضي الله عنها وأرضاها:

وسببه: ما حدّثها به غلامها ميسرة، وما رأته من الآيات، وما ذكره ابن إسحاق في كتاب «المبتدأ» قال: كان لنساء قريش عيدٌ يجتمعن فيه في المسجد، فاجتمعن يوماً فيه، فجاءهن يهوديّ فقال: يا معشر نساء قريش! إنه يوشك فيكنّ نبيٌّ، فأيّكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل. فحصبه النساء، وقبّحنه، وأغلظْنَ له، وأغضت خديجة على قوله، ولم تَعْرِض فيما عرض فيه النّساء، ووقر ذلك في نفسها، فلما أخبرها ميسرةُ بما رآه من الآيات، وما رأته هي، قالت: إن كان ما قاله اليهودي حقاً فما ذلك إلا هذا.

فلما استقرّ عندها ذلك كله، وكانت امرأة حازمة، شريفةً، لبيبة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذٍ أوسط قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، وكلُّ قومها حريصٌ على نكاحها لو يقدر عليه، فقد طلبوها، وبذلوا لها الأموال.

وأما خِطبتها فقد ذكر فيها وجوه عِدّة:

١ـ ففي «الشرف» للنيسابوري: أن خديجة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: اذهب إلى عمّك فقل له: عَجِّل إلينا بالغداة. فلما جاء قالت له: يا أبا طالب! ادخل على عمرٍو عمّي، فكلِّمْه يزوّجْني من ابن أخيك محمد بن عبد الله. فقال أبو طالب: يا خديجة! لا تستهزئي. فقالت: هذا صُنْعُ الله، فقام أبو طالب مع عشرة من قومه. . . والحديث سأذكره.

٢ـ وفي سيرة الزهري: أنَّ رسول الله ﷺ دخل على خديجة ليتحدّث عندها فلما قام عندها جاءت امرأةٌ فقالت: خاطباً يا محمد؟ فقال: كلاّ. فقالت: ولِمَ؟ فوالله! ما في قريش امرأةٌ ـ وإن كانت خديجة ـ إلا تراك كفئاً لها. فرجع رسول الله ﷺ خاطباً لخديجة، مستحيياً منها.

٣ـ وفي تاريخ يعقوب بن سفيان عن عمّار قال: مررتُ أنا ورسول الله ﷺ بأخت خديجة فنادتني، فانصرفت إليها، ووقف لي رسول الله ﷺ، فقالت: أما لصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ فقال عمار: فأخبرته. فقال: بلى لَعَمْري. فذكرت ذلك لها، فقالت: اغدُ علينا إذا أصبحنا. فغدونا عليهم، فوجدناهم قد ذبحوا بقرة، وألبسوا خديجة حلّة. . . الحديث.

٤ـ وفي «المبتدأ» لابن إسحاق أنها قالت له: يا محمد! ألا تتزوّج؟ قال: ومن؟ قالت: أنا. قال: ومَن لي بك؟ أنت أيّم قريش، وأنا يتيم قريش، قالت: اخطبني. . الحديث.

٥ـ وفي «السيرة»: أنها عرضتْ نفسَها على النبي ﷺ، فقالت له ـ فيما يزعمون ـ: إني رغبتُ فيك لقرابتك، وسطتك في قومك، وأمانتك، وحسنِ خلقك. [السِّطة: الوسط، وهو من أوصاف المدح هنا] فلما قالت له ذلك ذكره لأعمامه.

٦ـ وفي «طبقات» ابن سعد: عن نُفَيسة بنت مُنْيَة قالت: أرسلتني خديجة دسيساً إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام، فقلت: يا محمد! ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: ما بيدي ما أتزوّج به، قلت: فإن كُفيتَ ذلك ودعيت إلى المال، والجمال، والشرف، والكفاءة ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ قلت: خديجة. قال: وكيف لي بذلك؟ قالت: قلت: عَلَيّ. قال: فأنا أفعل. فذهبت فأخبرتها... فذكرت الحديث. قالت: فأرسلت إليه أن ائت ساعة كذا وكذا. فحضر، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوّجها.

وفي كتاب «الشرف» للنيسابوري: أن أبا طالب خرج مع عشرةٍ من قومه حتى دخلوا على عمّها، فخطبها، فزوّجه، فقال عمها عمرو بن أسد: هذا الفحل لا يُقدَع أنفه. وخطب أبو طالب خِطبة النكاح فقال:

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضىء مَعَدٍّ، وعنصر مُضَر، وجعلنا حضنة بيته، وسُوّاسَ حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا حُكّام النّاس، ثم إنَّ ابنَ أخي هذا محمدَ بنَ عبد الله لا يوزَنُ به رجلٌ إلا رجح به شرفاً، ونُبْلاً، وفَضْلاً، وعَقْلاً، وإن كان في المالِ قِلٌّ، فإن المال ظِلٌّ زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجَعَةٌ، وهو والله! بعد هذا له نبأ عظيم، وخَطَر جليل، وقد خطب إليكم رغبةً في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصّداق حكمكم، عاجلهُ وآجله اثنتا عشرة أوقيةً ونِشّاً.

وكان تزويجُه لها بعد مجيئه من الشام بشهرين وخمسة وعشرين يوماً عقب صفر سنة ست وعشرين من الفيل، وعمره ﷺ خمس وعشرون سنة، وعمرها رضي الله عنها أربعون سنة.

الضئضىء: الأصل والمعدن. لا يقدع: لا يضرب. النّشّ: نصف أوقية، والأوقية أربعون درهماً، فجملة الصداق: خمسمئة درهم.

عمل رسول الله ﷺ في بناء الكعبة:

جدّدتْ قريش بناء الكعبة للوهن الذي أصابها من الحريق، ودخول السَّيل إليها، وتصديع جدرانها، ولترفع بابَها عن الأرض، ليدخلوا من شاؤوا بسبب سرقة حليّ الكعبة من بئرٍ في جوفها.

وساق اللهُ تعالى ريحاً شديدة وحطّمت سفينة رومية في جُدَّة، كان قيصر ملك الروم سرّحها مع تاجرٍ رومي بَنّاءٍ اسمه باقوم إلى الكنيسة التي أحرقها الفرس بالحبشة، محملة بآلات البناء من الرخام، والخشب، والحديد، فأخذت قريش خشَب السفينة لتسقيف الكعبة، وكلّموا الرّومي، فقدم معهم إلى مكة ليشاركهم في بنائها.

فلما أجمعت قريش لبنائها، قام المغيرة بن عبد الله بن عمران بن مخزوم، أو أبو أمية بن المغيرة، وهو خالُ أبي رسول الله ﷺ، فقال: يا معشر قريش! لا تُدخِلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيّباً، لا يدخل فيها مهر بغيّ، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

ثم إنّ قريشاً تجزّأت بناء الكعبة أرباعاً، فكان شِقّ الباب لبني عبد مناف وزُهرة، وما بين الركن الأسود واليماني لبني مخزوم، وقبائل من قريش انضموا إليهم، وظهر الكعبة لبني جُمَح وبني سهم، وشِقّ الحِجْر لبني عبد الدار بن قُصَيّ ولبني أسد بن عبد العُزّى ولبني عدي بن كعب، وهو الحطيم.

فأمَروا بجمع الحجارة، وكان رسول الله ﷺ ينقلُ معهم، وكانت الكعبةُ مبنيةً بالرّضم[1]، ليس فيها مدر.

قال ابن إسحاق: ثم إن الناس هابوا هدمها، وفَرِقوا منه، فقال الوليدُ بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعولَ، ثم قام عليها، وهو يقول: اللهم! لم تُرَع، اللهم! لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين، فتربّص

---

(١) الرّضم: المرضوم من رَضم الحجارة رضماً: جعل بعضها على بعض دون شيء يمسكها.

الناس تلك الليلة، وقالوا: ننتظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء هدمنا، فقد رضي الله تعالى ما صنعنا.

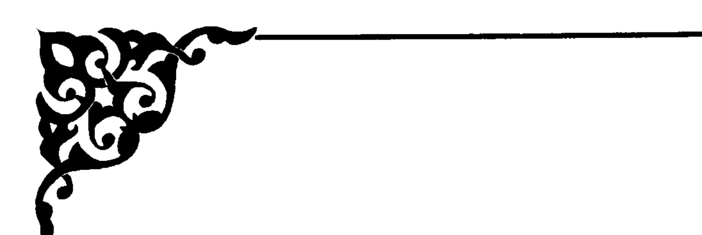
فأصبح الوليدُ غادياً إلى عمله، فهدم، وهدم الناس حتى إذا انتهى الهدمُ بهم إلى الأساس أساسِ إبراهيم ﷺ، أفضوا إلى حجارة خُضْر كالأسنمة آخذٌ بعضها ببعض. فعمد رجلٌ منهم إلى حجر من الأساس الأول فرفعه، وهو لا يدري أنه من الأساس الأول، فأبصر القوم بَرْقَةً تحت الحجر كادت تلتمع بصَرَ الرجل، ونزل الحجرُ من يده، فوقع في موضعه، وفزع الرجل والبُناة، فلما ستر عنهم الحجر ما تحته عادوا إلى بنيانهم، وقالوا: لا تحرّكوا هذا الحجر ولا شيئاً بحذائه. فلما انتهوا إلى أُسّ البيت الأوّل، وجدوا في حجر منها كتاباً لم يدروا ما هو، حتى جاءهم حبرٌ من يهود اليمن، فنظر إلى الكتاب، فحدّثهم أنه قد قرأه فاستحلفوه: لَتُحَدِّثنا بما فيه، ولَتَصْدُقَنّا عنه، فأخبرهم أنّ فيه: أنا الله ذو بكة، حرّمتها يوم خلقت السموات، والأرض، والشمس، والقمر، ويوم وضعت هذين الجبلين، وحففتهما بسبعة أملاكٍ حنفاء.

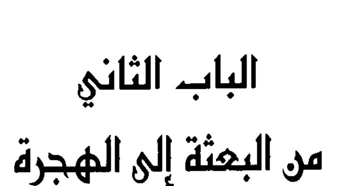
ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضعَ الركن، فاختصموا فيه، كلّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، إلى أن أشار عليهم أبو أميّة بن المغيرة المخزومي، وكان عامئذ أسنّ قريش كلّها، بأن يحتكموا إلى أوّل من يدخل عليهم من باب هذا المسجد، فكان أولَ داخلٍ رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمّد(وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل الوحي: الأمين) فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر، قال رسول الله ﷺ: هَلُمّ إليّ ثوباً، فَأُتِي به، فأخذ الركن، فوضعه فيه بيديه ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً. ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ.

ولما بنت قريش الكعبة جعلت ارتفاعَها من خارجها من أعلاها إلى الأرض ثمانية عشر ذراعاً، منها تسعة أذرع زائدة على طولها حين عمرها الخليل ﷺ، واقتصروا من عرضها أذرعاً، جعلتها في الحجر لقصر النفقة

الحلال التي أعدُّوها لعمارة الكعبة عن إدخال ذلك فيها، ورفعوا بابها ليدخلوا من شاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا، وجعلوا في داخلها ست دعائم في صَفّين، ثلاثٌ في كل صفٍّ من الشّقّ الذي يلي الحَجَر إلى الشق اليماني، وجعلوا في ركنها الشامي من داخلها درجة يصعد منها إلى سطحها، وجعلوه مسطحاً وجعلوا فيه ميزاباً يصبُّ في الحِجْر.

* * *





الباب الثاني

من البعثة إلى الهجرة

الفصل الأول: فترة بعثته ﷺ إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ومدّة إقامته بمكة المكرمة.

الفصل الثاني: إسراؤه ومعراجه ﷺ.

الفصل الثالث: الهجرة النبوية الشريفة.





الفصل الأول

فترة بعثته ﷺ إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ومدة إقامته بمكة المكرمة

العرب قبل الإسلام:

كانت حالةُ الناس في الجزيرة العربية وغيرها قبل مبعث النبيّ ﷺ قد وصلتْ في الفساد إلى النهاية، وبلغت البشريةُ الدركَ الأسفل من الانحطاط، وغيّر الناسُ، وبدّلوا، وحرّفوا ما أنزل الله على رسله من الكتب السماوية، وتفرّق أهلُ كلِّ دين مذاهب شتى، وعبدوا من دون الله آلهةً شتى، فالبوذيّون يعبدون بوذا، والهندوس يعبدون البقر، والمجوس يعبدون النار، وأمم تعبد الملائكة والجنّ، وأمم يعبدون الصُّور والتَّماثيل، وأمم تعبد أرواحَ الموتى وآثارهم، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأنهار، ومنهم من يعبد الحجارة،، وسادت الخرافاتُ والأوهام، وشاعت الإباحيةُ والفوضى، وارتُكِبَتِ الفواحش.

وكان العربُ أسوأ الناس حالاً، وأشدَّهم إمعاناً في الجهالة والضَّلالة، فقد أشركوا بالله ما لم يُنزِّل به سلطاناً، وعبدوا كلَّ ما هبَّ ودبَّ من الأصنام، والأوثان، والأنصاب، والتماثيل، والأشجار، وكثبان الرمال، وعبدوا الملائكة والجنّ، واعتقدوا أنَّ الهواء، والشمس، والقمر، والنجوم، والحجارة تتصرَّف في أمورهم، ومستقبل حياتهم.

وبالغوا في العبادة حتى ملؤوا بها الكعبة ـ البيت الحرام ـ فكان في الكعبة ثلاثمئة وستون صنماً، وكان هبل، واللات، والعزّى رؤساء هذه الآلهة، هذا عدا ما هنالك من الأصنام المتفرقة في القبائل.

وكانوا يقدِّسونها ويقرّبون لها القرابين، ويذبحون عندها الذبائح، وكانوا يذبحون عند صنمي إساف، ونائلة، ويجعلون من رؤوسهم، وأنعامهم نصيباً لله، ونصيباً لآلهتهم، فيصرفون ما يجعلونه لله على الضُّيوف

والفقراء، وينفقون ما يجعلونه للآلهة على الأوثان وخَدَمتها، فإنْ سقط شيءٌ مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه، وقالوا: إن الله غنيٌّ عنه، وإنْ سقط شيء من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردّوه إليها، وقالوا: إنها في حاجة إليه، وإذا هلك شيءٌ مما جعلوه لله لم يبالوا به، وإذا هلك شيءٌ مما جعلوه للأوثان عوّضوه مما جعلوه لله، وإذا رأوا ما جعلوه لله نامياً زاكياً جعلوه للأوثان، وبادلوا بينه وبين ما كان لله.

بدء عبادة الأصنام:

أول ما حدثت عبادةُ الأصنام في قوم نوح عليه السلام، فأرسله الله تعالى إليهم ينهاهم عن ذلك، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، كما قصَّ اللهُ خبره في القرآن العظيم، واستمرت هذه الضلالةُ في زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبعده، إلى أن بعث الله تعالى نبيَّه سيدنا محمداً ﷺ، فالناسُ من زمن نوح بعد الطوفان، إلى مبعثه عليه الصلاة والسلام عباد أصنام إلا من استجاب للرسل منهم.

سبب عبادة الناس الأصنام:

والسببُ في عبادة الناس الأصنام على ما رواه الفاكهي عن ابن عمير: أن أوّل حدوثها كان زمان نوح عليه السلام، وكانت الأبناء يَبَرّون آباءهم، فمات رجلٌ منهم، فجزع عليه ابنهُ، فجعل لا يصبرُ عنه، فاتخذ مثالاً على صورته، فكلما اشتاق إليه نظره، فمات، فَفُعل به كما فَعَل، حتى تتابعوا على ذلك، فمات الآباء، فقال الأبناء: ما اتخذ هذه آباؤنا إلا أنها كانت آلهتهم، فعبدوها.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٧١/ ٢٣] أنهم كانا قوماً صالحين بين آدم ونوح عليهم السلام، فنشأ قوم بعدهم، فقال لهم إبليس: إنَّ الذين كانوا قبلكم كانوا يعبدونها، فعبدوها.

أول من أدخل الأصنام الجزيرة العربية:

كان عمرو بن لُحَيّ بن قمعة بن خندف أول من حمل العربَ على عبادة الأصنام، وهو الذي ابتدع الشَّرائع الباطلة الفاسدة التي سبق ذكرها، ظناً منه ـ قبحه الله ـ أنَّ فيها مصلحةً ورحمة بالدواب والبهائم، وهو كاذب مفترٍ، ومع جهله اتبعه جهلةٌ طَغامٌ[١]، فبدلوا ما كان اللهُ بَعَثَ به إبراهيم خليله من الدين القويم، والصِّراط المستقيم: من توحيد عبادة الله وحده لا شريك له، وتحريم الشرك، وغيّروا شعائر الحج، ومعالم الدين بغير علم ولا برهان، ولا دليل صحيح ولا ضعيف، واتبعوا في ذلك من كان قبلهم من الأمم المشركين، وشابهوا قوم نوح؛ الذين كانوا أول من أشرك بالله، وعبد الأصنام.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن لُحَي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب هؤلاء يجرّ قُصْبَه في النار» وفي رواية لمسلم بزيادة: «وكان أول من سيّب السيوب»[٢].

الملتمسون الحنيفية من العرب:

كان لقريش عيد يجتمعون فيه عند صنمٍ من أصنامهم (بوانة) كانوا يعظِّمونه، وينحرون له، ويَعكُفون عنده يوماً في كلِّ سنة، فخلص منهم نجيّاً زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل بن أسد، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث بن أسد، ثم قال بعضُهم لبعض: تعلموا، والله! ما قومكم على شيء، لقد أخطؤوا دينَ أبيهم إبراهيم، ما حجرٌ نطيفُ به لا يسمع، ولا يبصر، ولا ينفع؟! يا قوم! التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله! ما أنتم على شيء. فتفرقوا في البلاد يلتمسون الحنيفيةَ دين إبراهيم.

أما ورقة بن نوفل فقد تنصَّر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة

---

(١) الطغام: أرذال الناس وأوغادهم.

(٢) مسلم (٤/ ٢١٩١).

والإنجيل، حتى علم علماً من أهل الكتاب.

وأما عبيد الله بن جحش، فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمةً، فلما قدمها تنصّر، وفارق الإسلام، حتى هلك نصرانياً.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم، فتنصّر، وحسنت منزلته عنده.

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان، والميتة، والدَّم، والذَّبائح التي تُذبح للأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد ربَّ إبراهيم، وبادى قومه بعيبِ ما هم عليه. توفي زيد وقريش تبني الكعبة قبل المبعث بخمس سنين.

روى أبو يعلى، والطبراني، والبزار بسند جيد عن زيد بن حارثةرضي الله عنه قال: إن زيد بن عمرو بن نفيل مات، ثم أنزل على النَّبي ﷺ، فقال النَّبي ﷺ: «يبعث يوم القيامة أمةً وحده»[(١)].

قال ابنُ كثير: قال الواقدي: حدثني علي بن عيسى الحكمي، عن أبيه، عن عامر بن ربيعة، قال: «سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول: أنا أنتظرُ نبيّاً من ولد إسماعيل، ثم من بني عبد المطلب، ولا أُراني أدركه، وأنا أؤمن به، وأصدّقه، وأشهد أنه نبيٌّ، فإن طالتْ بك مدةٌ، فرأيته، فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نَعْتُهُ حتى لا يخفى عليك، قلت: هَلُمّ! قال: هو رجلٌ ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثير الشَّعر ولا قليله، وليست تفارق عينه حُمْرَةٌ، وخاتم النُّبوّة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده وبعثه، ثم يُخْرِجُه قومُه منها، ويكرهون ما جاء به، حتى يهاجر إلى يثرب فيَظْهر أمره،

---

(١) البداية والنهاية (٢/ ٢٢٤).

فإياك أن تُخْدَع عنه، فإنّي طفتُ البلادَ كلَّها أطلبُ دين إبراهيم، فكان مَن أسأل من اليهود، والنصارى، والمجوس، يقولون: هذا الدين وراءك، وينعتونه مثلَ ما نعتُّه لك، ويقولون: لم يبق نبيٌّ غيره.

قال عامر بن ربيعة: فلما أسلمتُ أخبرتُ رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو، وإقرائه منه السلام، فردّ عليّ السلام، وترحّم عليه، وقال: «قد رأيته في الجنة يسحبُ ذيولاً».

إخبار الأحبار، والرهبان، والكهّان بمبعثه ﷺ:

قال ابنُ إسحاق: كانت الأحبارُ من اليهود، والرهبانُ من النصارى، والكهّانُ من العرب، قد تحدّثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لمّا تقارب زمانه.

أما الأحبارُ، والرُّهبان فمِمّا وجدوه في كتبهم من صفته، وصفة زمانه، وما كان عَهِد أنبياؤهم إليهم فيه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧]. وقد عرّجت على قصة هشام بن العاص الأموي حين بعثه الصِّدِّيقُ في سريّةٍ إلى هرقل يدعوه إلى الله عز وجل، فذكر أنه أخرج لهم صُورَ الأنبياء في رقعةٍ من آدم إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين على النّعت، والشكل الذي كانوا عليه.

وروى ابنُ إسحاق عن عمرو بن أمية الضمري قال: قدمتُ برقيقٍ من عند النجاشي أعطانيهم، فقالوا لي: يا عَمْرو! لو رأينا رسول الله ﷺ لعرفناه من غير أن تخبرنا، فمرّ أبو بكر فقلت: أهذا هو؟ قالوا: لا. قال: فمرّ عمر، فقلت: أهو هذا؟ قالوا: لا. قال: فدخلنا الدار، فمرّ رسول الله ﷺ، فنادوني: يا عمرو! هذا رسول الله ﷺ! فنظرت، فإذا هو هو من غير أن يخبرهم به أحد، عرفوه بما كانوا يجدونه مكتوباً عندهم.

خبر تُبّعِ اليماني:

مَلَك تُبّع اليمن، وغزا بلاد المشرق، فمرّ على المدينة، وخلّف بين

أظهرهم ابناً له، فَقُتِل غيلة، فقدمها وهو مُجْمِعٌ لخرابها، واستئصال أهلها، وقَطْع نخلها، وزاده حَنَقاً على أهل المدينة أنّ أحدَهم رأى رجلاً من أصحاب تُبَّع يَجدُّ نخلة له أي: يجمع تمرها، فضربه بمنجله فقتله، وقال: إنَّما التمر لمن أبَّرَه، فزاده ذلك حَنَقاً عليهم، فاقتتلوا، وبينما هم على قتالهم، إذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بني قريظة، عالمان راسخان، حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة، وأهلها، فقالوا له: أيها الملك! لا تفعل، فإنك إن أبيتَ إلا ما تريد حِيْل بينك وبينها، ولم نأمنْ عليك عاجلَ العقوبة، فقال لهما: ولم ذلك؟ قالا: هي مهاجر نبيّ يخرجُ من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان تكون داره، وقراره، فانتهى، ورأى أنَّ لهما عِلْماً، وأعجبه ما سمع منهما، فانصرف عن المدينة، واتَّبعهما على دينهما، وعمّر البيت الحرام، وكساه أحسنَ الكسوة.

وقد سبق ذكرُ حديث الزبير بن باطا؛ الذي نقله والد أبي سعيد الخدري إلى رسول الله ﷺ، وكان سبب إسلامه.

بعثته ﷺ:

بُعِث النبيُّ ﷺ على رأس الأربعين، وهو القولُ المشهورُ الذي أَطبق عليه العلماء.

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: بعثه اللهُ على رأس أربعين سنة[1].

وسنُّ الأربعين سنّ الكمال، وبها تُبعث الرسل، وبُعِث ﷺ في شهر رمضان، وكان ذلك يوم الإثنين؛ لحديث مسلم في الصحيح، وقد مرّ: «ذاك يومٌ ولدتُ فيه وفيه بُعِثْتُ، أو قال: أُنزِلَ عليَّ فيه».

وحين أراد الله تعالى كرامته، وابتدأه بالنُّبوَّة، كان إذا خرج لحاجته أبعد

---

(١) مسلم: (٤/ ١٨٢٤).

حتى لا يرى بيتاً، ويفضي إلى الشِّعاب، وبطون الأودية، فلا يمرُّ بحجر، ولا شجر، إلا قال: السلام عليك يا رسول الله! وكان يلتفتُ عن يمينه، وشمالِه، وخلفه فلا يرى أحداً.

روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقام رسول الله ﷺ بمكة يسمع الصوت، ويرى الضوء، ولا يرى شيئاً (ومعنى يسمع الصوت ويرى الضوء، أي: يسمع صوت الملائكة، ويرى نور الملائكة، ونور آيات الله) حتى رأى المَلَك بعينه.

فكان تسليمُ الشجر والحجر عليه بالنبوة ليستشعر عظيم ما يراد به، وليستعدَّ لما ينتظره. فلم يأته الملك إلا بأمرٍ عنده مقدّماتُه ﷺ.

بدء الوحي:

وأول ما بُدِىء به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، فكان ما يراه في الرؤيا تأسيساً، وتهيئة له، لئلا يفجأه الملك، ويأتيه بصريح النُّبوّة، فلا تَحْملها قواه البشرية عليه الصلاة والسلام.

فرأى وهو بمكة أن آتياً أتاه، ومعه صاحبان له، فنظروا إليه، فقالوا: هو هو، ولم يأنِ له بعد، فهاله ذلك، وذكره لعمِّه فقال: يابن أخي! ليس بشيء، حَلُمْتَ. ثم رجع إليه بعد ذلك، فقال: سطا بي الرجلُ الذي ذكرتُ لك، فأدخل يده في جوفي حتى أجدُ بردها. فخرج به عمُّه إلى رجلٍ من أهل الكتاب يطبّب بمكة، فحدّثه حديثه، وقال: عالِجْهُ، فصوَّب به، وصعَّد، وكشف عن قدميه، ونظر بين كفيه، وقال: يا عبد مناف! ابنك هذا طيِّب للخير فيه علامات، إن ظفرت به يهود قتلته، وليست الرُّؤيا من الشيطان، ولكنه من النَّواميس الذين يتحسَّسون القلوب للنبوّة، فرجع به.

موقف خديجة من الوحي:

رأى رسول الله ﷺ في منامه أن سقفَ بيته نُزِعَتْ منه خشبة، وأدخل فيه

سُلّمٌ من فضّة، ثم نزل إليه رجلان، فأراد أن يستغيثَ، فَمُنِع من الكلام، فقعد أحدُهما إليه، والآخر إلى جنبه، فأدخل أحدُهما يده في جنبيه، فنزع ضلعين منه، وأدخل يدَه في جوفه ورسول الله ﷺ يجدُ بردها، فأخرج قلبَهُ فوضعه على كفِّه، فقال لصاحبه: نعم القلبُ قلبُ رجلٍ صالح، فطهّر قلبه، وغسله، ثم أدخل القلب مكانه، وردّ الضّلعين، ثم ارتفعا، ورفعا سلّمهما، فإذا السَّقفُ كما هو، فذكر ذلك لخديجة، فقالت له: أبشر، فإن الله لا يصنعُ بك إلا خيراً، هذا خير فأبشر.

ورأى في منامه جبريلَ عليه السلام، ومعه نمطٌ من ديباج فيه كتاب، فقال له: اقرأ. . . الحديث في البخاري، ثم هبَّ من نومه فكأنّما كتبت الآيات في قلبه كتاباً، فذكر ذلك لخديجة، فقالت: أبشر، فإنَّ اللهَ لا يصنعُ بك إلا خيراً.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أمّ المؤمنين أنها قالت: أول ما بُدِىء به رسول الله ﷺ من الوحي: الرُّؤيا الصَّالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنَّثُ فيه ـ وهو التعبّد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزعَ إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجعُ إلى خديجة، فيتزوّد لمثلها. حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء. قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فأخذني، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فأخذني، فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٩٦/ ١ـ٣] فرجع بها رسول الله ﷺ يَرْجُفُ فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها؛ فقال: زمّلوني زَمّلوني؛ فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرّوع. فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خشيتُ على نفسي. فقالت خديجة: كلا، والله! ما يخزيك اللهُ أبداً، إنك لتصلُ الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكْسبُ

المعدوم، وتَقْرِي الضَّيف، وتعينُ على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقةَ بن نوفل بنِ أسد بن عبد العزّى ابنَ عمّ خديجة، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العبراني، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يابن عم! اسمعْ من ابن أخيك، فقال له ورقة: يابن أخي! ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبرَ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموسُ الذي نزَّل اللهُ على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً[1]، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجُك قومُك! فقال رسول الله ﷺ: أوَمُخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجلٌ قطّ بمثل ما جئتَ به إلا عُودِي، وإن يدركني يومُك أنصرك نصراً مؤزّراً. ثم لم ينشَب[2] ورقة أن تُوُفِّي، وفتر الوحي[3].

ومما أخبر به رسول الله ﷺ خديجةَ أنه قال لها:

إني إذا خلوتُ وحدي أرى ضوءاً، وأسمع نداءً: يا محمد! أنا جبريل. وقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً! (أي: مسّاً) فقالت: معاذ الله! ما كان الله ليفعلَ بك، إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. ومما أخبرها به أنه قال لها:

خرجتُ ـ أي: إلى حراء ـ حتى إذا كنتُ في وسط من الجبل سمعت صوتاً في السماء يقول: يا محمد! أنت رسولُ الله، وأنا جبريل، فرفعتُ رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريلُ في صورة رجلٍ صافٍّ قدميه في أفق السماء، فرفعت أنظرُ إليه فما أتقدّم أمامي، وما أتأخر ورائي. فقالت: أبشر يابن عم! واثبتْ، فوالذي نفسي بيده! إني أرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة! قالت هذا بعدما سمعت ورقة يقول لها: يا بُنَيّة أخي! ما أدري لعلَّ صاحبَك

---

(١) شاباً.
(٢) لم يلبث.
(٣) البخاري (١/ ٥).

النبيّ الذي ينتظر أهلُ الكتاب الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. وأقسم بالله لئن كان إياه، ثم أظهر دعاءه، وأنا حيّ، لأبلينّ الله في طاعة رسول الله ﷺ، وحسن مؤازرته بالصبر، والنصر.

وروى البيهقي في «الدلائل»: أن خديجة رضي الله عنها قالت لرسول الله ﷺ فيما تثبّته: يابن عم! تستطيعُ أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ فقال: نعم. فقالت: إذا جاءك فأخبرني.

فبينا رسول الله ﷺ عندها إذ جاء جبريل، فرآه رسول الله ﷺ، فقال: يا خديجةُ! هذا جبريل. فقالت: أتراه الآن؟ قال: نعم. قالت: فاجلس إلى شقّي الأيمن، فتحوّل فجلس، فقالت: هل تراه الآن؟ قال: نعم. قالت: فاجلس في حجري، فتحوّل رسول الله ﷺ فجلس، فقالت: هل تراه الآن؟ قال: نعم. فحسرت رأسها، فألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالسٌ في حجرها، فقالت: هل تراه الآن؟ قال: لا. قالت: ما هذا شيطانٌ، إن هذا لَمَلك يابن عم! فاثبتْ، وأبشرْ. ثم آمنتْ به، وشهدتْ أنَّ الذي جاء به الحقَّ.

وكانت مدة الرُّؤيا الصَّالحة ستة أشهر، بُدئت في شهر ربيع الأول، وخُتِمت برمضان.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[1].

بدء وحي اليقظة في رمضان:

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ٩٧/ ١]، وقال عز وجل: ﴿حمٓ. وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الدخان: ٤٤/ ١ـ٢].

---

(١) مسلم (٤/ ١٧٧٤).

قال القرطبي في التفسير: لا خلاف أنَّ القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر جملة واحدة، فوضع في بيت العزَّة في سماء الدنيا، ثم كان جبريل ﷺ ينزل به نجماً نجماً (أي: جزءاً جزءاً) في الأوامر، والنواهي، والأسباب، وذلك في عشرين سنة(١).

وروى الحاكم، وقال: صحيح على شرطهما، وأقرّه الذهبي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ٩٧/ ١] قال: أُنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وكان بموقع النجوم، وكان الله ينزلُه على رسول الله ﷺ بعضه في إثر بعض، قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان ٢٥/ ٣٢](٢) ورواه السيوطي في «الإتقان» بزيادة ألف: «وكان بمواقع النجوم».

وقال السيوطي في «الإتقان» عن ابن عباس: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة، ثم أُنزل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام. قال أبو شامة: رسلاً، أي: رفقاً، وعلى مواقع النجوم، أي: على مثل مساقطها، يريد: أنزل في رمضان في ليلة القدر جملةً واحدة، ثم أنزل على ما وقع مفرّقاً، يتلو بعضه بعضاً على تُؤدة، ورفق(٣).

فإن قيل: ما السِّرُّ في نزوله منجّماً؟ وهلاّ نزل كسائر الكتب جملة؟.

وقد تولَّى الإجابةَ الإمامُ أبو شامة فقال: هذا سؤالٌ قد تولّى اللهُ جوابه، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٣٢] يعنون: كما أنزل على من قبله من الرسل، فأجابهم تعالى بقوله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٩٧).
(٢) المستدرك (٢/ ٢٢٢).
(٣) الإتقان (١/ ٤١).

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أنزلناه مفرّقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[الفرقان: ٢٥/ ٣٢] أي: لنقوي به قلبك: ولتجديد العهد به، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السُّرور ما تقصُر عنه العبارة؛ ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقائه جبريل عليه السلام.

ثقل الوحي، وشدّته:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٧٣/ ٥].

وروى مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أُنزِل عليه الوحي كُرِب لذلك، وتربّد وجهه[(١)].

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصَّدُ عرقاً[(٢)].

وروى أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما: سألتُ رسولَ الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله! هل تُحسُّ بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصلَ ثم أسكت عند ذلك، فما مرّةٌ يوحى إليَّ إلا ظننتُ أنّ نفسي تُقبض»[(٣)].

قال الإمام أبو شامة رحمه الله: وهذا العرقُ الذي كان يغشاه، واحمرارُ الوجه، والغطيطُ، وثقلُه على الراحلة وعلى الفخذ لثقل الوحي، كما أخبر الله تبارك وتعالى، وذلك لضعف قوى البشر عن تحمّل مثلِ ذلك الوارد العظيم من ذلك الجناب الجليل، ولم يكن ﷺ عند الوحي يغيبُ عن إحساسه بالكليّة.

أنواع الوحي:

قال العلماءُ رحمهم الله تعالى: كان الوحي ينزلُ إلى رسول الله ﷺ في

---

(١) مسلم (٤/ ١٨١٧).
(٢) البخاري (١/ ٥).
(٣) مسند أحمد (٢/ ٢٢٢).

أحوال مختلفة:

الحال الأولى: الرُّؤيا الصَّادقة في النوم، إذ رؤيا الأنبياء وحي، بدليل قوله تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٠٢] فدلّ على أنَّ الوحيَ كان يأتيهم في المنام، كما يأتيهم في اليقظة.

روى البخاري عن عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي[١].

الثانية: أن ينفثَ الملكُ في قلبه من غير أن يراه، كقوله ﷺ: «إنّ روحَ القدس نفث في روعي: لن تموتَ نفسٌ حتى تستكمل رزقَها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب» قال الحليمي: هذا هو الوحي الذي يخصُّ القلب دون السَّمع.

الثالثة: أن يأتيه مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّه عليه، فيتلبسُ به الملكُ، حتى إن جبينه لَيتفصّد عرقاً في اليوم الشَّديد البرد، وحتى إنّ راحلته لَتبركُ على الأرض.

الرابعة: أن يكلِّمه اللهُ تعالى بلا واسطة من وراء حجاب في اليقظة، كما في ليلة الإسراء.

الخامسة: أن يكلِّمه الله تعالى كفاحاً بغير حجاب على القول بالرؤية ليلة الإسراء.

السادسة: أن يكلِّمه الله تعالى في النوم.

والقرآن كلُّه نزل في اليقظة، وما رواه مسلم عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع بَصَرَه مبتسماً، فقرأ: بسم الله

---

(١) البخاري (١/ ٤٦).

الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١٠٨/ ١] إلى آخرها؛ فلا يعني نزولها في النوم؛ والأشبه أن يقال: خطر له في النوم سورة الكوثر المنزلة في اليقظة، أو عُرِض عليه الكوثر الذي وردت فيه السورة فقرأها عليهم، وفسَّرها لهم.

وزاد بعضُهم أحوالاً أخرى، والله أعلم.

صفة أمين الوحي سيدنا جبريل عليه الصلاة والسلام:

كان جبريل عليه الصلاة والسلام ينزلُ على النبي ﷺ بصور شتى:

الأولى: في صورته التي خُلِق عليها، له ستمئة جناح، وقد وقع ذلك له مرتين: مرةً في الأرض، ومرةً في السماء.

الثانية: في صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشَّعر.

الثالثة: في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه.

الرابعة: في صورة رجلٍ غير دحية.

الخامسة: نزل ملك الجبال، فأوحى إلى النبي ﷺ مقفِله من ثقيف.

السادسة: نزل إسرافيل عليه السلام، فأوحى إلى النبي ﷺ عند الصَّفا.

ونزول الوحي بصورة رجل لا يعني أنَّ ذاتَ الملَك انقلبت رجلاً، ولكن معناه: أنه ظهر بتلك الصُّورة تأنيساً لمن يخاطبه. والظَّاهر أن القدرَ الزَّائد لا يزول ولا يفنى، ولكنَّه يخفى على الرائي فقط. قاله ابن حجر.

فترة الوحي:

فترة الوحي: تأخّر نزول الوحي.

كان تأخُّر نزول الوحي من مقدِّمات تأسيس النُّبوَّة، ليتدرَّجَ فيه ﷺ ويتمرَّن عليه، فحين فجأه الملكُ باقرأ، ثم غاب عنه، عزّ ذلك، وشقّ عليه، إذ لم يكن خُوطِب عن الله تعالى بعد: أنه رسولُ الله، ومبعوثٌ إلى العباد، فأشفق أن يكون ذلك أمراً بُدِىء به، ثم لم يُرَد استتمامه، فحزن لذلك حزناً

شديداً غدا منه مراراً، حتى كاد يتردى من رؤوس شواهق الجبال.

قال ابن عبّاس: حتى كان يغدو إلى ثبيرٍ مَرّةً، وإلى حراء مرةً أخرى، يريد أن يلقي نفسَه فيه.

قال الزُّهري: فكلّما وافى بذروة جبل لكي يلقيَ نفسه منه تبدّى له جبريل، فقال له: يا محمد! أنت رسولُ الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقرّ عينه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترةُ الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريلُ فقال له مثل ذلك.

والحكمة في فترة الوحي والله أعلم ـ: ليذهب عنه ما كان يجده من الخوف، وليحصل له التشوُّقُ إلى العود.

[وقد عرضت لأخي الشيخ عبيد الله أمين كردي سانحة حول مسألة التردّي، أحببتُ أن أُثبتَها هنا:

فقال: إنَّ التردِّي المذكور في سياق الآثار الواردة في فترات انقطاع الوحي، وتأخُّر ظهور جبريل عليه السلام للنبي ﷺ، ليس المقصود منه أنه محاولة انتحار منه ﷺ ولكن المقصود تصوير حال الرسول ﷺ النفسية والحركية، حيث كان يذهب إلى رؤوس الجبال يتطلّع لرؤية جبريل عليه السلام الذي أبطأ عنه، ويتشوّف إلى عودة الوحي الذي استأنس به، وتعلّق به روحياً، وهو ﷺ إنما يبحثُ عن ذلك في رؤوس الجبال؛ لأن لقاءه الأول مع جبريل كان على جبل حراء، فمن الطبيعي أن يبحث عنه بعد ذلك في الذُّرا لا في السُّفوح، فالتردي ليس مقصوداً، ولكنه تصويرُ لحاله ﷺ أثناء البحث، حيث إنَّ الإنسانَ إذا كان يسيرُ على قمّة جبليّة وعرة، غير مستوية السطح، فيجب عليه أن يلاحظَ مواطنَ قدميه، وممشاه ليضبط توازنه، فإذا انصرف بصره متقلباً بين السماء ودائرة الأفق متشوّقاً متعطشاً لرؤية شيء ما يرتقبه، فإنه سيتعذَّر عليه ملاحظةُ مواطن قدميه، وممشاه، وبالتالي سيفقد توازنه، وهـذا الأمـرُ يمكـنُ أن يـؤدي إلـى التـردي، أو السقـوط القسـري، لا

الاختياري اهـ].

تتابع الوحي:

وروى البخاريُّ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاورتُ في حراء، فلما قضيت جواري هبطت، فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً»(١).

وفي رواية للبخاري أيضاً عن جابر رضي الله عنه: «فرفعت بصري قِبَل السماء، فإذا الملكُ الذي جاءني بحراء قاعدٌ على كرسي بين السماء والأرض، فَجُئِثْتُ(٢) منه حتى هويتُ إلى الأرض، فجئتُ أهلي فقلت: زَمِّلوني، زمِّلوني، فزمّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ١ـ٥] ثم حمي الوحي وتتابع».

مُدّة فترة الوحي:

اختلف العلماءُ في مقدار مدة الفترة، فقيل: سنتين ونصف، وقيل: ثلاث سنين، وقيل: أربعين يوماً، وقيل: خمسة عشر يوماً، وقيل: ثلاثة أيام، قلت: وهل يقال في انقطاع الوحي مدة ثلاثة أيام، أو خمسة عشر يوماً انقطاعاً يشتد فيه الشوق إلى اللقاء، فيخرج إلى الجبال يتلمسه؟! ليحرّر.

والذي ذهب إليه القرطبي أن مدة تنزيل القرآن في عشرين سنة.

وروى الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وصحّحه الذهبي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أُنزل القرآنُ جملةً واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة... الحديث.

وهل يُستفاد من هذين الخبرين: أنَّ مدة فترة الوحي كانت ثلاث

(١) البخاري (٦/ ٢٠٢).

(٢) فزعت.

سنين؟! تأمّل. مع ما نقل عن الشعبيّ من رواية أحمد، وذهب إليه الحافظ ابن حجر، وإن كان صاحبُ السيرة الشامية ردّه، والله أعلم.

أول ما نزل من القرآن الكريم:

إن أوّل ما نزل من القرآن مطلقاً قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ٩٦/١] لما في البخاري عن عائشة رضي الله عنها من حديث الحارث بن هشام رضي الله عنه: سأل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله! كيف يأتيك الوحي، وفيه: «ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق: ٩٦/ ١ـ٢]. وفيه أيضاً: فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة رضي الله عنها فقال: «زمّلوني زمّلوني»[1].

وإن أوّل ما نزل من القرآن بعد فترة الوحي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر: ١٧٤/ ١ـ٢] الآيات.

معنى الوحي، والنبوة، والرسالة:

الوحي لغةً: الإعلام في خفاء، وشرعاً: الإعلام بالشرع، وهو كلامُ الله المنزل على النبي ﷺ.

والنبوة: الوحي بمعرفة الله تعالى وصفاته، وهي قاصرةٌ على النبيّ، وهي من النَّبْوَة، أي: الرفعة، أو: من النبأ، وهو الخبر. والنبوّة أعم من الرسالة، والنبي: إنسان ذكر أوحي إليه بالعمل فقط.

والرسالة: سفارةٌ بين الله تعالى وبين ذوي الألباب من الخلق، وهي أفضلُ من النبوّة؛ لأنها تثمر هداية الأمة.

والرسالة: أخصُّ من النبوة، فكلُّ رسولٍ نبيّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً.

والرسول: إنسان ذكر أوحي إليه بالعمل، والتبليغ.

---

(١) بخاري (١/ ٥).

مَثَلُ رسول الله ﷺ في رسالته

المثل الأول: الغيث الكثير:

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيّةٌ قبلت الماء، فأنبتت الكلأَ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع اللهُ بها الناس فشربوا، وسقوا، وزرعوا، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قيعان لا تُمسِك ماءً، ولا تُنبتُ كلأً، فذلك مثل مَن فَقُه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فَعَلِمَ، وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[1].

ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العامّ؛ الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه، وكذا حالُ الناس قبل مبعثه، فكما أنَّ الغيثَ يُحيي البلد الميت، فكذا علومُ الدين تحيي القلوبَ الميتة، ثم شبّه السَّامعين له بالأرض المختلفة التي نزل الغيثُ بها، فمنهم العالم المعلِّم، فهو بمنزلة الأرض الطيبة التي شربت، فانتفعت في نفسها، وأنبتت، فنفعت غيرها.

ومنهم الجامعُ للعلم، المستغرقُ لزمانه فيه، غير أنه لم يعملْ بنوافله، ولم يتفقّه فيما جمع، لكنه أدّاه لغيره، فهو بمنزلة الأرض التي يستقرُّ فيها الماء، فينتفع الناسُ به، وهو المشارُ إليه بقوله ﷺ: «نضّر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلّغه كما سمعه، فرب مبلَّغ أوعى من سامع»[2] وفي رواية عن زيد بن ثابت قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «نضّر الله امرأً سمع منّا حديثاً فبلّغه غيره، فربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وربّ حامل فقه ليس بفقيه... الحديث»[3].

---

(١) بخاري (١/ ٣٠).

(٢) الترغيب والترهيب (١/ ١٠٨).

(٣) المرجع السابق.

ومنهم من سمع العلم فلم يحفظه، ولم يعمل به، ولم ينقله لغيره، فهو بمنزلة الأرض السَّبِخَة، أو الملساء التي لا تقبل الماء، أو تفسده على غيرها.

وقد جعل رسول الله ﷺ الطائفتين الأوليين الممدوحتين جميعاً لاشتراكهما في الانتفاع بهما، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها.

المثل الثاني: الداعي إلى المأدُبة:

روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال: جاءت ملائكةٌ إلى النّبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضُهم: إنه نائم، وقال بعضُهم: إن العينَ نائمة والقلب يقظان؛ فقالوا: إنَّ لصاحبكم هذا مثلاً، فاضربوه له مثلاً، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضُهم: إنّ العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً، فمن أجاب الدّاعي دخل الدار، وأكل من المأدُبة، ومن لم يجب الدَّاعي لم يدخلِ الدَّار، ولم يأكلْ من المأدبة، فقالوا: أوِّلوها له يفقَهْها. فقال بعضُهم: إنه نائم، وقال بعضُهم: إن العين نائمة والقلبَ يقظان، فقالوا: فالدَّار الجنَّة، والدّاعي محمد ﷺ؛ فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمّد ﷺ فرّق بين النّاس»[1].

فلله تعالى أن يضربَ الأمثال، ولرسول الله ﷺ أن يضربَ الأمثال، والبشر منهيُّون عن ضرب الأمثال لله تعالى، قال عز وجل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٧٤].

فمثل الله تعالى في الحديث مثل مضيفٍ كريم بنى داراً، وجعل فيها من ألوان الأطعمة المستلَذّةِ، والأشربة المستعذَبة ما لا يحصى، ولا يوصف، ثم بعث داعياً إلى النّاس يدعوهم إلى الضِّيافة إكراماً لهم. فمن تبع الدَّاعي

(١) بخاري (٩/ ١١٤).

نال من تلك الكرامة، والرحمة، ومن لم يتبع حُرِم منها، وحُرِم ما فيها من الكرامة والرحمة، وعبَّر عنها بالقول: لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة. ومن لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة وُضع في مكان حلول سخط الله تعالى، وعقابِه السَّرمديّ؛ ولم يشبه الحديث الناس بالديار، وإنّما شبّه وجودَهم فيها، وسرعة زوالهم، وفنائهم بالحلول فيها ووشك نهوضهم عنها، وتركها خلاءً خاوية، فالمدعوّ للدّعوة لا يفكّر في البقاء في دار الدّعوة البتّة، ويعلم تمام العلم أنه راحلٌ عنها، ولذا فهو مستعدٌّ دائماً للانتقال منها، والزّوال عنها.

وكونه ﷺ فرّق بين النّاس؛ لأن الرسالة كشّافة لهم، فهي تفرزُ الإبريز أي: الذهب عن الزيوف (المغشوش)، والناس ليسوا في قبول الرسالة سواء، فمن سبقت له من الله العناية، وُفِّق لعمل أهل الهداية، فكان إبريزاً، ومن تنكَّب عن الصراط المستقيم، واتخذ إلهه هواه، وسلك طريق الضَّلالة كان زيفاً.

المثل الثالث: النّذير العُرْيان:

روى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنّما مَثَلي وَمَثَلُ ما بعثني الله به، كمثل رجلٍ أتى قوماً فقال: يا قوم! إني رأيتُ الجيش بعينيَّ، وإني أنا النّذيرُ العُرْيان، فالنّجاء! فأطاعه طائفةٌ من قومه، فأدلجوا، فانطلقوا على مهلهم فَنَجوا. وكذّبت طائفةٌ منهم، فأصبحوا مكانهم، فَصَبّحهم الجيش، فأهلكهم، واجتاحهم. فذلك مثل مَن أطاعني فاتّبع ما جئتُ به، ومَثَل من عصاني وكذَّب بما جئتُ به من الحق»[١].

اجتاحهم: استأصلهم.

النذير العُرْيان: مَثَلٌ سائر، يُضرب لشدَّة الأمر، ودنوّ المحذور، وبراءة

---

(١) بخاري (٩/ ١١٤).

المحذِّرِ من التُّهمة، وأصله: أن الرجلَ إذا رأى العدوّ في طريقه إلى قومه يريد مفاجأتهم، ومباغتتهم، وكان يخشى لحوق العدوّ عند لحوقه، تجرّد عن ثوبه، وجعله على رأس خشبة، وصاح؛ ليأخذوا حِذْرهم، ويستعدُّوا قبل لحوقهم، فهو أبلغُ في استحثاثهم في التأهُّب للعدوِّ. وعملُه هذا يدلُّ على شدَّة حِرْصه على قومه من الهلاك.

وقولُه: إني رأيت الجيش بعينيّ، مع أن الرؤية لا تكون إلا بهما لتحققه من رؤية العدو، وتأكيده لقومه ذلك، وأنَّ جميعَ ما أخبرهم به خالٍ عن الوهم، والشك.

فضرب ﷺ لنفسه، ولما جاء به هذا المثل، فشبّه ذاته ﷺ بالرجل، وشبّه ما بعثه الله تعالى به من إنذار القوم بعذاب الله تعالى القريب؛ وشبّه من أطاعه من أمته ومَن عصاه بمن كذَّب الرجل في إنذاره وصدّقه، فالمكذبون هلكى، والمصدِّقون ناجون.

المثل الرابع: المُنقِذ من النَّار:

روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادبُ والفراشُ يقعن فيها، وهو يَذُبُّهُنَّ عنها. وأنا آخِذٌ بِحُجَزِكم عن النار، وأنتم تفلّتون من يدي»[١]. وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة: «وأنتم تَقَحَّمون فيه»[٢].

ضرب رسول الله ﷺ مثلاً في دعوة الناس إلى الإسلام المنقذِ لهم من النّار، وفيما تُزَيّن لهم أنفسهم من التّمادي في الباطل بمستوقدٍ ناراً بقصد الانتفاع بها، والفراش يقتحمُ فيها، لا ليهلك فيها، بل لما يعجبه من الضِّياء.

---

(١) مسلم (٤/ ١٧٩٠).
(٢) المصدر السابق.

فالمستوقد غرضه من فعله: انتفاعُ الخلق به من الاهتداء، والدلالة، والاستدفاء، وغير ذلك، كذلك الرسول عليه الصلاة والسلام قصدُه بالدلالات التي وردت على لسانه، والبيانات الشافية، سواءٌ في كتاب الله تعالى، أو سنّتِهِ ﷺ: اهتداءُ الأمة، واحتماؤها، وابتعادُها عما هو سببُ هلاكها.

ومثلُ النَّاس في عدم مبالاتهم بتلك الدلالات، والبيانات، والتوجيهات، وحرصهم على استيفاء الشهوات، واللذّات، وإكبابهم عليها كمثل الفراش، والجنادب يكبُّ على ما فيه حتفه، وهلاكه، وهو النّار.

ورسول الله ﷺ آخذٌ بحجز الناس المتهافتين على النار تهافت الفراش، يدفعهم عن النار، ويحجزهم عنها كيلا يحترقوا في لظاها. والحُجَزُ: جمع حُجزة، وهي: معقد الإزار، والسَّراويل.

فجهلُ الآدميِّ أشدُّ من جهل الفراش والجنادب، لأنها باغترارها بالضوء إذا احترقت، فإن عذابها ينتهي في الحال، وأما عذابُ الآدميِّ فباقٍ في النار أبداً.

المثل الخامس: اللبنة التي يختم بها بناء الدّار:

روى مسلم عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمّها، وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناسُ يدخلونها، ويتعجّبون منها، ويقولون: لولا موضع اللّبِنَة» قال رسول الله ﷺ: «فأنا موضعُ اللبنة، جئتُ فختمت الأنبياء»[(١)].

نبوة سيدنا محمد ﷺ قديمة:

روى الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح غريب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسولَ الله! ـ ﷺ ـ متى وجبت لك النّبوّة؟ قال:

---

(١) مسلم (٤/١٧٩١).

«وآدم بين الروح والجسد»(١).

وفي رواية: متى كُتبت نبيّاً؟ قال: «كتبتُ نبيّاً وآدم بين الرُّوح والجسد».

ومعناه: جاء أنَّ الله تعالى خلق الأرواح قبل خلق الأجساد، وإذا كان كذلك فقد تكون الإشارةُ بقوله ﷺ: «كنت نبياً» إلى روحه الشريفة، فيكون لنبوته محلّ قامت به، وهو روحه الشريفة، فلا يشترط إذاً أن تكون النُّبوَّةُ متعلقةً بالجسد؛ فحقيقتُه ﷺ بهذا الاعتبار سابقة على خلق آدم عليه السلام. والله أعلم.

إعلام الوحش برسالته ﷺ:

روى أحمد بإسنادٍ رجاله ثقات عن مجاهد قال: حدثنا شيخٌ أدرك الجاهلية، ونحن في غزوة رودس، يقال له: ابن عبس، قال: كنت أسوقُ لآلٍ لنا بقرةً، قال: فسمعتُ من جوفها: يا آل ذريح! قول فصيح، رجل يصيح: لا إله إلا الله.

قال: فقدمنا مكة، فوجدنا النّبيّ ﷺ قد خرج بمكة(٢).

وروى أحمد بإسنادٍ جيد عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: عدا الذئبُ على شاة فأخذها، فطلبه الرّاعي، فانتزعها منه، فأقعى الذئبُ على ذنبه قال: ألا تتقي الله؟ تنزعُ مني رزقاً ساقه اللهُ إليَّ؟ قال: يا عجبي! ذئبٌ مُقْعٍ على ذنبه يكلِّمني كلام الإنس؟ فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟! محمّد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق.

قال: فأقبل الرَّاعي يسوقُ غنمه حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسولَ الله ﷺ فأخبره؛ فأمر رسول الله ﷺ فنودي: الصلاة

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٥٤٥).

(٢) مسند أحمد بشرح البنا (٢٠/ ٢٠٣).

جامعة، ثمّ خرج، فقال للرَّاعي: «أخبرهم» فأخبَرهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «صدق، والذي نفسي بيده! لا تقوم الساعة حتى يكلِّم السِّباعُ الإنس، ويكلِّم الرجلَ عذبةُ سوطه وشراكُ نعله، ويخبرُه فخذُه بما أحدث أهله»[(١)].

نزول الوضوء والصلاة (قبل الإسراء والمعراج):

روى الإمام أحمد، والدارقطني، وأبو نعيم بأسانيد فيها ضعفاء، لكن بكثرة طرقها يقوّي بعضها بعضاً، عن زيد بن حارثة رضي الله عنه: أن جبريلَ عليه السلام أتى النَّبيّ ﷺ في أوّل ما أُوحي إليه، فأراه الوضوء والصَّلاة، فلما فرغ من الوضوء حثا حفنةً من الماء، فنضح بها فَرْجَه[(٢)].

وذكر ابنُ إسحاق: أن جبريل عليه السلام أتى النبيَّ ﷺ وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت له منه عين، فتوضَّأ جبريلُ عليه السلام ورسول الله ﷺ ينظرُ إليه لِيُريَه كيف الطهورُ للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل عليه السلام يتوضَّأ، ثم أقام به جبريل عليه السلام فصلَّى به.

ثم انصرف جبريل عليه السلام، فجاء رسول الله ﷺ خديجةَ، فتوضّأ لها يريها كيف الطهورُ للصَّلاة، كما أراه جبريلُ عليه السلام، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ، ثم صلَّى لها كما صلَّى به جبريل عليه السلام. فصلَّت بصلاته.

أوّل من أسلم:

أوّل من آمن بالله تعالى ورسولِه ﷺ من النساء والرّجال على الإطلاق باتفاق أهل العلم والسير: السيدةُ خديجةُ بنت خُوَيلد رضي الله تعالى عنها، أمّ المؤمنين.

---

(١) مسند أحمد بشرح البنا (٢٠/ ٢٠٣).
(٢) السبل (٢/ ٣٩٧).

قال ابنُ إسحاق: ثم كان أوّل ذَكَرٍ من الناس آمن برسول الله تعالى وصدّق بما جاء به: عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

كان رسول الله ﷺ وخديجة يصليان سرّاً، ثم إنّ علياً جاء بعد ذلك بيوم، فوجدهما يصلِّيان، فقال عليٌّ: ما هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دينُ الله الذي اصطفى لنفسه، وبعث به رُسُله! فأدعوك إلى الله تعالى وحده لا شريك له وإلى عبادته، وكُفْرٍ باللاتِ والعزّى». فقال عليٌّ: هذا أمرٌ لم أسمع به قبل اليوم، فلستُ بقاضٍ أمراً حتى أحدِّث به أبا طالب.

وكره رسول الله ﷺ أن يُفشِيَ عليه سرَّه قبل أن يستعلنَ أمره، فقال له: «يا عليّ! إذا لم تُسلِم فاكتُم هذا». فمكث عليٌّ تلك الليلة، ثم إن الله تبارك وتعالى أوقَع في قلب عليٍّ الإسلامَ، فأسلم، وكتم إسلامَه، ولم يُظْهِره.

ولفقر أبي طالب، وكثرةِ عياله، ضمَّ رسول الله ﷺ علياً إليه، كما ضم العباسُ إليه جعفراً؛ ولم يزل عليٌّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً، فاتّبعه، وصدّقه؛ ولم يزل جعفرٌ عند عمه العباس رضي الله تعالى عنه حتى أسلم، واستغنى عنه.

وروى البيهقي عن محمد بن كعب القُرظي: إنَّ أول مَنْ أسلم من هذه الأمَّة برسول الله ﷺ: خديجة بنت خويلد، وأول رجلين أسلما: أبو بكر الصديق، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وإن أبا بكر أوّل من أظهر الإسلام، وإن علياً كان يكتمُ الإسلامَ فرقاً من أبيه، حتى لقيه أبو طالب فقال: أسلمتَ؟ قال: نعم، قال: وازِر ابنَ عمّك، وانصره، وقال: أسلم عليٌّ قبل أبي بكر[١].

وروى البيهقي عن ابن إسحاق قال: ثم إنَّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه

---

(١) الدلائل للبيهقي (٢/ ١٦٣).

لقي رسولَ الله ﷺ فقال: أحقٌّ ما تقول قريش يا محمد! مِن تركك آلهتنا وتسفيهك عقولنا، وتكفيرك آباءنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى، إنّي رسول الله ونبيّه بعثني لأبلِّغ رسالته، وأدعوك إلى الله بالحق، فوالله! إنه لَلحَقُّ، أدعوك يا أبا بكر! إلى الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالاةِ على طاعته».

وقرأ عليه القرآن فلم يقرَّ ولم ينكر، فأسلم، وكفر بالأصنام، وخلع الأنداد، وآمن بحقِّ الإسلام، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدِّق[١].

وروى البيهقي عن ابن إسحاق قال: كان أوّل من اتَّبع رسول الله ﷺ خديجةُ بنت خويلد زوجتُه، ثم كان أوّلَ ذكر آمن به عليُّ بن أبي طالب وهو يومئذٍ ابنُ عشر سنين، ثم زيد بن حارثة، ثم أبو بكر الصديق، فلما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه، ودعا إلى الله ورسولِه[٢].

وجاءت رواياتٌ أُخر بأن أول من أسلم أبو بكر، عن حسان بن ثابت، وابن عباس، والنَّخعي.

والأولى التوفيقُ بين الروايات كلها، وتصديقُها، فيقال: أول من أسلم مطلقاً خديجة، وأول ذكر أسلم علي بن أبي طالب، وهو صبيٌّ لم يبلغ، وكان مخفياً إسلامه، وأول رجلٍ عربيٍّ بالغ أسلم، وأظهر إسلامه: أبو بكر ابن أبي قحافة، وأول من أسلم من الموالِي: زيد بن حارثة. وهذا متفقٌ عليه، لا خلافَ فيه.

السابقون الأوَّلون:

قال ابنُ إسحاق: فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه، ودعا إلى الله عز وجل، وكان رجلاً مؤلّفاً لقومه، مُحبَّباً، سهلاً، يحبُّه قومه،

---

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.

ويألفونه، ويأنسون به لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته.

فجعل يدعو إلى الإسلام مَن وَثِق به من قومه ممن يغشاه، ويجلسُ إليه؛ فأسلم على يديه: عثمان بن عفان، والزبير بن العوّام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله.

انطلقوا ومعهم أبو بكر حتى أتوا رسول الله ﷺ، فعرض عليهم الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، وأنبأهم بحقِّ الإسلام، وبما وعدهم الله تعالى به من الكرامة، فآمنوا، وأصبحوا مقرّين به.

ثم أسلم عامر بن عبيد الله الجرّاح أبو عبيدة، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد، وأسلم مصعب بن عمير، وعيّاش بن أبي ربيعة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخواه: قُدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب، وحمزة بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأسماء بنت أبي بكر، وخبّاب بن الأرت، وعمير بن أبي وقّاص، وعبد الله بن مسعود، وعامر بن ربيعة، وسَليط بن عمرو، وأسماء بنت سلامة زوجة عياش بن أبي ربيعة، وخنيس بن حذافة، وعامر بن ربيعة، وعبد الله بن جحش، وأخوه عبيد، وجعفر بن أبي طالب، وزوجته أسماء بنت عُمَيْس، وحاطب بن الحارث بن معمر، وامرأته فاطمة بنت المُجَلَّل، وأخوه خطاب بن الحارث، وامرأته فُكَيْهَة، ومعمر بن الحارث الجُمَحي، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطّلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت عوف، ونُعَيم النحّام، وخالد بن سعيد بن العاص، وامرأته أُمَيْنَة، وحاطب ابن عمرو بن عبد شمس، وأبو حذيفة مِهْشَم بن المغيرة، وواقد بن عبد الله، وخالد، وعامر، وعاقل، وإياس: بنو البُكَيْر، وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان، وبلال بن رباح، وعامر بن فهيرة، وشقران مولى رسول الله ﷺ، وأم أيمن، وأبو فكيهة، وسميّة أم عمار، وياسر بن عامر والد عمّار بن ياسر.

وذكر ابن عبد البَرّ من السابقين الأوّلين: عتبة بن مسعود أخو عبد الله بن

مسعود، وعمرو بن عَبَسة أبو نجيح، وجندب بن جنادة، وَأُنَيْس أو أبي ذرّ.

إسلام أبي ذرّ:

روى مسلم عن عبد الله بن الصامت قال: قال أبو ذر أي: لعبد الله بن الصامت: خرجنا من قومنا غفار، وكانوا يُحِلُّون الشَّهر الحرام فخرجت أنا وأخي أنيسٌ وأمُّنا، فنزلنا على خالٍ لنا، فأكرمنا خالنا، وأحسن إلينا، فحسدنا قومُه، فقالوا: إنك إذا خرجت عن أهلك خالف إليهم أُنَيس. فجاء خالُنا، فنثا[١] علينا الذي قيل له. فقلت: أمّا ما مضى من معروفك فقد كدّرته، ولا جماعَ لك فيما بعد؛ فقرَّبْنا صِرمَتنا[٢]، فاحتملنا عليها، وتغطّى خالُنا ثوبه، فجعل يبكي، فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة. فنافر أنيس عن صرمتنا، وعن مثلها[٣]، فأتيا الكاهن، فخيّر[٤] أُنيساً، فأتانا أنيس بصرمتنا، ومثلِها معها.

قال: وقد صلَّيت يابن أخي! قبل أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين. قلت: لمن؟ قال: لله. قلت: فأين تَوَجَّهُ؟ قال: أتوجّه حيث يُوجِّهني ربي. أصلي عشاءً، حتى إذا كان من آخر الليل أُلقِيتُ كأني خُفاءٌ[٥] حتى تعلوني الشمس. فقال أُنَيس: إنّ لي حاجةً بمكة فاكفني، فانطلق أُنَيس حتى أتى مكة. فراث[٦] عليّ، ثم جاء فقلت: ما صنعتَ؟ قال: لقيتُ رجلاً بمكة على دينك يزعمُ أنَّ الله أرسله، قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعرٌ، كاهنٌ، ساحرٌ. وكان أنيس أحدَ الشعراء. قال أنيس: لقد سمعتُ

---

(١) أشاع الخبر وأفشاه.
(٢) الصرمة: القطيع من الإبل أو الغنم.
(٣) تراهن أنيس هو وآخر أيهما أفضل، وكان الآخر ذا صرمة، فأيهما كان أفضل أخذ الصرمتين.
(٤) خيّر أنيساً: حكم بأن صرمته أفضل، فحاز الصرمتين.
(٥) خفاء: كساء.
(٦) أبطأ.

قولَ الكهنة فما هو بقولهم: ولقد وضعتُ قولَه على أقراء[١] الشِّعر، فما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعر. والله! إنَّه لصادقٌ، وإنهم لكاذبون.

قال: قلت: فاكفني حتى أذهبَ فأنظرَ. قال: فأتيت مكةَ، فتضعَّفتُ رجلاً منهم، فقلت: أين هذا الذي تدعونه الصَّابىء؟ فأشار إليَّ، فقال: الصَّابىء، فمال عليَّ أهلُ الوادي بكلِّ مَدَرةٍ وعظم حتى خررتُ مغشيّاً عليّ. قال: فارتفعتُ حين ارتفعتُ كأني نُصُبٌ أحمر. قال: فأتيتُ زمزمَ، فغسلتُ عنِّي الدماء، وشربتُ من مائها؛ ولقد لبثتُ يابن أخي! ثلاثين بين ليلة ويوم ما كان لي طعامٌ إلا ماء زمزم، فسمنتُ حتى تكسَّرتْ عُكَنُ بطني، وما وجدتُ على كبدي سُخْفَةَ[٢] جوع.

قال: فبينا أهلُ مكة في ليلة قمراء إضحيان[٣]، إذ ضُرب على أسمختهم[٤]، فما يطوفُ بالبيت أحد. وامرأتين منهم تدعوان إسافاً ونائِلةَ. قال: فأتتا عليَّ في طوافهما، فقلت: أنكِحَا أحدَهما الأخرى. قال: فما تناهَتا عن قولهما. قال: فأتتا عليَّ، فقلتُ: هَنٌ مثلُ الخشبة غير أنِّي لا أَكْني، فانطلقتا تولولان، وتقولان: لو كان ها هنا أحد من أنفارنا. قال: فاستقبلهما رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وهما هابطان. قال: «ما لكما؟» قالتا: الصَّابىء بين الكعبة وأستارها. قال: «ما قال لكما؟» قالتا: إنه قال لنا كلمةً تملأ الفم. وجاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر، وطاف بالبيت هو وصاحبه، ثم صلَّى، فلما قضى صلاته (قال أبو ذرّ): فكنت أنا أوّلَ من حيَّاه بتحيّة الإسلام. قال: فقلتُ: السلام عليك يا رسول الله! فقال: «وعليك رحمةُ الله» ثم قال: «مَن أنت؟» قال: قلتُ: من غفار. قال: فأهوى بيده،

---

(١) طرقه، وأنواعه.
(٢) رقة الجوع، وضعفه.
(٣) مضيئة منيرة.
(٤) آذانهم.

فوضع أصابعه على جبهته، فقلت في نفسي: كره أن انتميتُ إلى غِفار. فذهبت آخذ بيده، فقدعني[١] صاحبُه، وكان أعلم به مني، ثم رفع رأسه ثم قال: «متى كنت ها هنا» قال: قلت: قد كنت ها هنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم. قال: «فمن كان يطعمك؟» قال: قلتُ: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم، فسمنتُ حتى تكسّرت عُكَنُ بطني، وما أجد على كبدي سُخْفَةَ جوع. قال: «إنها مباركة، إنّها طعام طُعْم». فقال أبو بكر: يا رسول الله! ائذن لي في إطعامه الليلة؛ فانطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر، وانطلقت معهما، ففتح أبو بكر باباً فجعل يقبضُ لنا من زبيب الطائف، وكان ذلك أوّلَ طعام أكلتُه بها، ثم غبرتُ ما غبرتُ[٢]، ثم أتيتُ رسول الله ﷺ فقال: وإنه قد وُجِّهَت لي أرضٌ ذات نخل لا أراها إلا يثرب؛ فهل أنت مبلِّغ عنِّي قومَك؟ عسى الله أن ينفعهم بك، ويأجُرَكَ فيهم».

فأتيتُ أُنيساً، فقال: ما صنعتَ؟ قلتُ: صنعتُ أني قد أسلمتُ وصدَّقت. قال: ما بي رغبةٌ عن دينك، فإني قد أسلمتُ وصدَّقت؛ فأتينا أمَّنا فقالت: ما بي رغبةٌ عن دينكما، فإني قد أسلمت وصدَّقتُ. فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفاراً، فأسلم نصفُهم، وكان يؤمُّهم أَيماءُ بن رحضة الغفاري، وكان سيِّدهم.

وقال نصفُهم: إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا. فقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأسلم نصفُهم الباقي.

وجاءت أسلم فقالوا: يا رسول الله! إخوتنا نُسلم على الذي أسلموا عليه، فأسلموا، فقال رسول الله ﷺ: «غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله»[٣].

---

(١) كفّني، ومنعني.
(٢) بقيت.
(٣) مسلم (٤/١٩١٩).

وفي رواية لمسلم: أنّ علياً أدخله على النَّبي ﷺ فسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبيُّ ﷺ: «ارجعْ إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري». فقال: والذي نفسي بيده! لأصرخنّ بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ وثار القومُ فضربوه حتى أضجعوه؛ فأتى العباس فأكبَّ عليه، فقال: ويلكم! ألستم تعلمون أنه من غفار، وأنَّ طريق تُجَّاركم إلى الشام عليهم، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد بمثلها، وثاروا إليه، فضربوه، فأكبَّ عليه العبَّاس، فأنقذه.

دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم:

قال صاحبُ السُّبل: روى الحافظ الأطرابلسي عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما اجتمع أصحابُ النَّبيّ ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، أَلَحَّ أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في الظُّهور. فقال: يا أبا بكر! إنَّا قليل، فلم يزلْ أبو بكر يُلِحُّ حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرَّق المسلمون في نواحي المسجد، كُلُّ رجلٍ في عشيرته. وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورسول الله ﷺ جالسٌ، فكان أوّلَ خطيبٍ دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ. وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فَضُربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً، وَوُطِىءَ أبو بكر، وضُرِب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسقُ عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويحرفهما لوجهه حتى صار لا يُعرف أنفُه من وجهه. وجاء بنو تيم يتعادَوْن، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوبٍ حتى أدخلوه منزله، ولا يَشُكُّون في موته. ثم رجعت بنو تيم، فدخلوا المسجد، وقالوا: والله! لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة بن ربيعة.

فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة، وبنو تيم يكلّمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلَّم في آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسّوا منه بألسنتهم، وعذلوه، وقالوا لأمّه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً، أو تسقيه

إياه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لي علمٌ بصاحبك! فقال: اذهبي إلى أمِّ جميل بنت الخطاب أختِ عمر فاسأليها عنه. فخرجت حتى جاءت أمَّ جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألكِ عن محمد بن عبد الله (وكانت أم جميل مسلمة تخفي إسلامها) فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله! قالت لها: تريدين أن أخرجَ معك؟ قالت: نعم، فمضتْ معها حتى وجدتْ أبا بكر صريعاً دَنِفاً[1]. فدنتْ أمُّ جميل، وأعلنت بالصِّياح، وقالت: إن قوماً نالوا هذا منك لأهلُ فسقٍ وكفر، وإني لأرجو أن ينتقمَ الله منهم. قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمعُ. قال: فلا شيء عليكِ منها. قالت: سالمٌ صالح. قال: فأين هو؟ قالت: في دار الأرقم. قال: فإنَّ لله عليَّ ألا أذوق طعاماً، ولا أشرب شراباً، أو آتيَ رسول الله ﷺ. فأمهلنا حتى إذا هدأت الرِّجْل، وسكن الناس، خرجنا به يتكىء عليّ، حتى أدخلناه على رسول الله ﷺ، فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ يُقبِّله، وأكبَّ عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقّةً شديدة. فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله! ليس بي بأس إلا ما نال الناسُ من وجهي، وهذه أمِّي برّةٌ بولدها، وأنت مباركٌ، فعسى اللهُ أن يستنقذَها بك من النار، فدعا لها رسول الله ﷺ، ودعاها إلى الله فأسلمت.

إسلام حمزة بن عبد المطَّلب:

روى ابنُ إسحاق قال: حدثني رجلٌ من أسلم، وكان واعيةً، والطبراني برجال ثقات عن محمد بن كعب القُرظي: أن أبا جهل مرَّ برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه، وشتمه، ونال منه بعضَ ما يكره، من العيب لدينه، والتضعيف لأمره. فلم يكلِّمه رسول الله ﷺ. ومولاةٌ لعبد الله بن جُدعان في مسكن لها تسمع ذلك. ثم انصرف عنه، فعمد إلى نادي قريشٍ عند الكعبة، فجلس معهم. فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشِّحاً قوسه، راجعاً من

---

(١) أي: نهكه المرض حتى أشرف على الهلاك.

قَنَصٍ له، وكان صاحبَ قنصٍ يرميه، ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصلْ إلى أهله حتى يطوفَ بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمرَّ على نادٍ من قريش إلا وقف، وسلّم، وتحدَّث معهم، وكان أعزَّ فتى في قريش، وأشدَّهم شكيمة.

فلما مرَّ بالمولاة، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، قالت له: يا أبا عُمارة! لو رأيتَ ما لقي ابنُ أخيك محمدٌ آنفاً من أبي الحكم بن هشام، وجده ها هنا جالساً، فآذاه، وسبَّهُ، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلِّمه محمد (ﷺ)!.

فاحتمل حمزةَ الغضبُ لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى، ولم يقفْ على أحد مُعِدّاً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقعَ به. فلما دخل المسجدَ نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس، فضربه بها، فشجّه شجّة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فَرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعت؟ فقامت رجالٌ من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة! فإنِّي واللهِ قد سَبَبْتُ ابنَ أخيه سبّاً قبيحاً.

ثم رجع حمزة إلى بيته، فقال: أنت سيِّد قريش اتّبعتَ هذا الصَّابىء، وتركتَ دين آبائك؟ لَلموتُ خيرٌ لك مما صنعتَ، وقال: اللهم! إن كان رُشداً فاجعل تصديقَه في قلبي، وإلا فاجعلْ لي ممَّا وقعتُ فيه مخرجاً. فبات بليلةٍ لم يَبِتْ مثلها مِن وسوسة الشيطان؛ حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ، فقال: يابن أخي! إنِّي قد وقعتُ في أمرٍ لا أعرفُ المخرجَ منه، وإقامةُ مثلي على ما لا أدري ما هو، أَرَشَدٌ أم غيّ؟ شديدٌ، فحدّثني حديثاً، فقد اشتهيتُ يابن أخي! أن تحدّثني.

فأقبل رسول الله ﷺ فذكّره، ووعظهُ، وخوّفه، وبشّره، فألقى الله تعالى في قلبه الإيمان بما قال رسول الله ﷺ، فقال: أشهد إنك لصادقٌ، فأظهِر

يابن أخي! دينَك، فوالله! ما أُحِبُّ أنَّ لي ما أظلَّته السماء، وأنِّي على ديني الأوَّل.

وتمَّ حمزة رضي الله عنه على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله. فلَما أسلم حمزة عرفتْ قريش أنَّ رسول الله ﷺ عزَّ وامتنع، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

أول دم أريق في الإسلام:

قال ابنُ إسحاق: ودخل الناسُ أرسالاً الرجالُ والنساءُ في دين الله، حتى فشا الإسلام بمكة، وتُحُدِّثَ به.

وكان أصحابُ رسول الله ﷺ إذا صلَّوا ذهبوا في الشِّعاب، واستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقَّاص في نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ في شِعْبٍ من شعاب مكة، إذْ ظهر عليهم نفرٌ من المشركين وهم يصلُّون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعدُ ابن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بِلَحْيِ بعير، فشجَّه، فكان أوَّلَ دمٍ أريق في الإسلام.

جهره ﷺ بالدَّعوة:

وكان إعلان رسول الله ﷺ بالدعوة في السَّنة الرابعة من البعثة حين نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٥١/ ٩٤] وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤] قال صاحبُ «السيرة الحلبية»: ذكر بعضُهم أنه لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤] اشتدَّ ذلك على النَّبيّ ﷺ، وضاق به ذرعاً (عجز عن احتماله) فمكث شهراً أو نحوَه جالساً في بيته، حتى ظنّ عمَّاتُه أنه شاكٍ (مريض) فدخلن عليه عائدات. فقال ﷺ: «ما اشتكيت شيئاً، لكن الله أمرني بقوله: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤] فأريد أن أجمعَ بني عبد المطَّلب لأدعوَهم إلى الله تعالى». قلن: فادعهم، ولا تجعل عبد العزَّى

فيهم - يعنين: عمَّه أبا لهب - فإنه غيرُ مجيبك إلى ما تدعوه إليه. وخرجن من عنده ﷺ.

فلما أصبح رسول الله ﷺ بعث إلى بني عبد المطَّلب فحضروا، وسارع إليه أبو لهب ظانّاً أن النَّبيَّ ﷺ يريدُ أن ينزعَ عما يكرهون إلى ما يحبُّون، فقال له: هؤلاء عمومتك، وبنو عمومتك، فتكلم بما تريد، واترك الصّبأة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب طاقةٌ، وإن أحقَّ من أخذك، وحبسك أسرتُك، وبنو أبيك إن أقمتَ على أمرك، فهو أيسرُ عليك من أن تثبَ عليك بطونُ قريش، وتمدها العرب. فما رأيتُ يابن أخي! أحداً قطّ جاء بني أبيه وقومه بشرّ ما جئتهم به. فسكت رسول الله ﷺ، ولم يتكلّم في ذلك المجلس.

ثم مكث ﷺ أياماً، ونزل عليه جبريل، وأمره بإمضاء أمر الله تعالى، فجمعهم رسول الله ﷺ ثانياً، وخطبهم، ثم قال لهم: «إنَّ الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبتُ الناسَ جميعاً ما كذبتكم، ولو غرَّرتُ الناسَ جميعاً ما غرَّرتكم، والله الذي لا إله إلا هو! إني لرسول الله إليكم خاصّة، وإلى الناس كافّة، والله! لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبُنَّ بما تعملون، ولَتُجْزَوُنَّ بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنّها لَجنّةٌ أبداً، أو لَنارٌ أبداً. والله يا بني عبد المطَّلب! ما أعلم شابّاً جاء قومَه بأفضل ممَّا جئتُكم به، إني قد جئتُكم بأمر الدُّنيا والآخرة». فتكلّم القوم كلاماً ليّناً غيرَ أبي لهب، فإنه قال: يا بني عبد المطَّلب! هذه والله السّوءَة، خذوا على يديه قبل أن يأخذَ على يديه غيرُكم، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم، وإن منعتموه قُتِلْتُم. فقالتْ أختُه صفيّةُ عمةُ رسول الله ﷺ رضي الله عنها: أي أخي! أيحسُنُ بك خذلان ابن أخيك؟! فوالله! ما زال العلماءُ يخبرون أنه يخرج من ضِئضىء (أصل) عبد المطَّلب نبيٌّ فهو هو. قال: هذا والله الباطل، والأماني، وكلامُ النِّساء في الحجال، إذا قامتْ بطونُ قريش وقامتْ معها العرب، فما قوّتنا بهم، فوالله! ما نحن عندهم إلا أكلة رأس.

فقال أبو طالب: والله! لنمنعنه ما بقينا اهـ.

روى البخاري ومسلم، وغيرهما، واللفظ لمسلم: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤] انطلق نبي الله ﷺ إلى رضْمَةٍ من جبل، وفي رواية: (صعد الصّفا) فعلا أعلاها حجراً، ثم نادى: «يا صباحاه!» فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمّد. فاجتمعوا إليه. فقال: «يا بني فلان! يا بني فلان! يا بني فلان! يا بني عبد مناف! يا بني عبد المطَّلب!» فاجتمعوا إليه. فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرجُ بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقيَّ؟» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً. قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد». قال: فقال أبو لهب: تبّاً لك! أما جمعتنا إلا لهذا؟! ثم قام، فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1] [المسد: ١١١/ ١].

بدء عداوة قريش:

حين بادى رسولُ الله ﷺ قومَه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله تعالى، لم يبعد منه قومه، ولم ينكروا قوله.

فكان ﷺ إذا مرَّ عليهم في مجالسهم يشيرون إليه: أنَّ غلامَ بني عبد المطَّلب ليكلّم من السماء، وكان ذلك دأبهم، حتى عاب آلهتم، وسفّه عقولهم، وضلَّل آباءهم. حتى إنه مرَّ عليهم يوماً، وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام. فقال: «يا معشر قريش! والله! لقد خالفتم ملَّة أبيكم إبراهيم» فقالوا: إنما نعبُد الأصنامَ حُبّاً لله لتقرّبنا إلى الله، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١] فتناكروه، وأجمعوا خلافَه وعداوتَه، إلا من عصم الله منهم.

وجاؤوا إلى أبي طالب، وقالوا: يا أبا طالب! إنَّ ابنَ أخيك قد سبَّ

---

(١) مسلم (١/ ١٩٤).

آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا (عقولنا) ينسبنا إلى خفة العقل، وضلَّل آباءنا، فإما أن تكفَّه عنَّا، وإما أن تخلِّي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه.

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردَّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه.

ومضى رسول الله ﷺ يُظْهِر دينَ الله، ويدعو إليه، لا يردّه عن ذلك شيء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله.

جاء في الأثر: أن جبريل تبدَّى له ﷺ في أحسن صورة، وأطيب رائحة، وقال: يا محمد! إن الله يُقْرِئُكَ السلام، ويقول لك: أنت رسول الله إلى الجنِّ والإنس، فادْعُهم إلى قول لا إله إلا الله.

ثم شَرِي الأمر (كَثُر، وتزايد) وانتشر بينه وبينهم، حتى تباعد الرجال، وتضاغنوا (أضمروا له العداوة) وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها، وتذامروا (حضَّ بعضهم بعضاً على حربه، ومقاطعته).

ثم إنَّهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى. فقالوا: يا أبا طالب! إن لك سنّاً، وشرفاً، ومنزلة فينا، وإنَّا قد طلبنا منك أن تنهى ابنَ أخيك، فلم تنهه عنَّا، وإنَّا والله! لا نصبرُ على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيبِ آلهتنا حتى تكفّه عنا، أو ننازلَه وإياك في ذلك حتى يهلك أحدُ الفريقين. ثم انصرفوا عنه.

فعظُم على أبي طالب فراقُ قومه، وعداوتُهم، ولم يطب نفساً بأن يخذلَ رسول الله ﷺ، فقال له: يابن أخي! إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا. فأبقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق.

فظنَّ رسول الله ﷺ أن عمّه خاذله، وأنه ضعُفَ عن نصرته، والقيامِ معه، فقال له: «يا عمّ! والله! لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى، أو أهلك فيه

ما تركته» ثم استعبر رسول الله ﷺ (حصلت له العبرة التي هي دمع العين) فبكى، ثم قام. فلما ولَّى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يابن أخي! فأقبل عليه، فقال: اذهب يابن أخي! فَقُلْ ما أحببتَ، فوالله لا أُسلِمُك، وأنشد أبياتاً منها:

والله لـن يصلُـوا إليـك بجمعهـم حتـى أُوَسَّـد فـي التُّـراب دفينـا

ولما رأى أبو طالب من قريش ما رأى، دعا بني هاشم وبني المطَّلب إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ، والقيام دونه، فأجابوه إلى ذلك غير أبي لهب، فكان من المجاهرين بالظلم لرسول الله ﷺ، ولكل من آمن به.

إذاية المشركين لرسول الله ﷺ:

روى البخاريُّ عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشدّ شيءٍ صنعه المشركون بالنبي ﷺ، قال: بينا النبيُّ ﷺ يصلِّي في حِجْرِ الكعبة إذ أقبل عقبةُ بن أبي معيط، فوضع ثوبَه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٤٠/ ٢٨] الآية[1].

وقال الحافظ في «الفتح»: أخرج أبو يعلى، وابن حبان عن عمرو بن العاص قال: ما رأيتُ قريشاً أرادوا قَتْلَ رسول الله ﷺ إلا يوماً أغروا به، وهم في ظلِّ الكعبة جلوس، وهو يصلِّي عند المقام، فقام إليه عقبةُ، فجعل رداءه في عنقه، ثم جذبه حتى وجب لركبتيه، وتصايح الناس، وأقبل أبو بكر يشتدُّ حتى أخذ بضبع رسول الله ﷺ من ورائه، وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟! ثم انصرفوا عنه، فلما قضى صلاته مرَّ بهم فقال: «والذي نفسي بيده! ما أرسلت إليكم إلا بالذبح». فقال له أبو جهل: يا محمد! ما كنتَ جهولاً. فقال: «أنتَ منهم»[2].

---

(١) بخاري (٥/ ٥٨).
(٢) فتح الباري (٧/ ١٣٤).

وقال البرهان الحلبي في سيرته بعد إيراده رواية البخاري عن ابن عمرو: قال رضي الله عنه: ما رأيتُ قريشاً أصابتْ من عداوة أحد ما أصابت من عداوة رسول الله ﷺ. ولقد حضرتُهم يوماً، وقد اجتمع ساداتُهم وكبراؤهم في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما صبرنا لأمرٍ كصبرنا لأمر هذا الرجل قط. ولقد سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرَّق جماعتنا، وسبَّ آلهتنا. لقد صبرنا منه على أمر عظيم.

فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الرُّكن، ثم مرَّ طائفاً بالبيت، فلما مرَّ بهم لمزوه ببعض القول، فعرفنا ذلك في وجهه، ثم مرَّ بهم الثانية فلمزوه بمثلها، فعرفنا ذلك في وجهه، ثم مرَّ بهم الثالثة، فلمزوه، فوقف عليهم، وقال: «أتسمعون يا معشر قريش! أما والذي نفس محمد بيده! لقد جئتُكم بالذَّبح». فارتعبوا لكلمته ﷺ تلك، وما بقي رجلٌ منهم إلا كأنَّما على رأسه طائرٌ واقع، فصاروا يقولون: يا أبا القاسم! انصرف، فوالله ما كنت جهولاً. فانصرف رسول الله ﷺ.

فلما كان الغد اجتمعوا في الحجر، وأنا معهم، فقال بعضُهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا ناداكم بما تكرهون تركتموه؛ فبينما هو كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فتواثبوا إليه وثبة رجلٍ واحد، وأحاطوا به، وهم يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟! يعني: عيب آلهتهم، ودينهم، فقال: «نعم أنا الذي أقول ذلك» فأخذ رجلٌ منهم بمجمع ردائه عليه الصلاة والسلام، فقام أبو بكر دونه، وهو يبكي، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟! فأطلقه الرجلُ، ووقعت الهيبة في قلوبهم، فانصرفوا عنه. فذلك أشدُّ ما رأيتهم نالوا من رسول الله ﷺ[١].

---

(١) السيرة الحلبية (١/ ٢٩٤).

محاولة قريش مع رسول الله ﷺ ليكفَّ عن الدعوة:

حاولت قريش مَنْعَ رسول الله ﷺ من عيب آلهتها، وتسفيه أحلامها، فبعثت عتبة بن ربيعة، وكان من علماء قريش بالسحر، والكهانة، والشعر ليكلِّمه في ذلك.

فجاء عتبةُ إليه، حتى جلس بين يديه ﷺ، فقال: يابن أخي! إنك منا حيث قد علمت من السِّطَةِ في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيتَ قومَك بأمر عظيم، فرَّقْتَ به جماعتهم، وسفَّهت أحلامهم، وعبتَ آلهتهم ودينهم، وكفَّرت مَن مضى مِن آبائهم، وفضحتنا في العرب، حتى طَار فيهم أنَّ في قريشٍ ساحراً، وأنَّ في قريش كاهناً، والله! ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقومَ بعضُنا بعضاً إليك بالسُّيوف حتى نتفانى. أيها الرجل! اسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منّا بعضها.

فقال رسول الله ﷺ: «قل أبا الوليد أسمع».

قال: يابن أخي! إن كنتَ إنما تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعناه لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريدُ به الشَّرفَ سوَّدناك علينا، حتى لا نقطعَ أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئِياً لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطِّب، وبذلنا فيه أموالَنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابعُ على الرجل حتى يُداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة من حديثه، ورسول الله ﷺ يسمع منه، قال له: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاسمع مني». قال: أفعل.

قال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٤١/ ١ـ٥].

ومضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمعه عتبةُ أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما، فسمع منهن إلى أن بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ٤١/ ١٣] فأمسك عتبة على فيه، وناشده الرَّحم أن يكفَّ عنه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد! ما سمعت، فأنت وذاك».

فقال: ما عندك غير هذا؟.

فقال: «ما عندي غير هذا».

فقام عتبة، واحتبس عن أصحابه، فجاؤوا إليه، فقالوا: فما أجابك؟ قال: والله! الذي نصبها بَنِيَّةً ما فهمتُ شيئاً مما قال، غير أنه أنذركم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود. فأمسكتُ بفيه، وناشدته الرحم أن يَكُفَّ. وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفتُ أن ينزلَ عليكم العذاب.

قالوا: ويلك! يُكلِّمك الرجلُ بالعربية لا تدري ما قال؟!.

قال: والله! ما سمعتُ مثله، والله! ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة.

يا معشر قريش! أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله! ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ نبأً، فإن تصبه العربُ فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزُّه عزكم، وكنتم أسعدَ الناس به. يا قوم! أطيعوني في هذا الأمر واعصوني بعده، فوالله! لقد سمعتُ من هذا الرَّجل كلاماً ما سمعتْ أذناي كلاماً مثله، وما دَرَيْتُ ما أردُّ عليه.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد.

قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

عناد قريش، ومكابرتها:

اجتمع كفَّارُ مكة من أشراف قريش وغيرهم عند الكعبة مع غروب الشمس، ثم قال بعضُهم لبعض: ابعثوا إلى محمد (ﷺ) فكلِّموه، وخاصِموه حتى تُعذَروا فيه.

فبعثوا إليه، فجاءهم ﷺ سريعاً وهو يظنُّ أن قد بدا لهم فيما يكلِّمهم فيه بداء، وكان حريصاً عليهم يحبُّ رشدهم، ويعزّ عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم.

فقالوا: يا محمد! إنا قد بعثنا إليك لنكلِّمك؛ وإنا والله! ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك، لقد شتمتَ الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفَّهت الأحلام، وفرَّقت الجماعة، فما بقي أمرٌ قبيحٌ إلا قد جئتَه فيما بيننا وبينك. أو كما قالوا له.

فإن كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلبُ به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ إنما تريدُ به الشرف فينا فنحن نسوِّدك علينا، وإن كنت تريدُ به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً، فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطِّبِّ لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتُ بما جئتُ به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملكَ عليكم، ولكن بعثني الله إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغتكم رسالات ربي، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حَظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبرْ لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم». أو كما قال ﷺ.

قالوا: يا محمد! إن كنتَ غير قابلٍ منا شيئاً مما عرضنا لك، فإنك قد

علمتَ أنه ليس أحدٌ أضيقَ بلداً، ولا أقلَّ مالاً، ولا أشدَّ عيشاً منّا. فاسأل لنا ربّك أنهاراً كأنهار العراق، والشام. وليبعث لنا مَن مضى من آبائنا، وليكن ممن يبعث لنا منهم قُصيّ بن كلاب، فإنه كان شيخَ صدقٍ، فنسألهم عما تقول: أحقٌ هو أم باطل، فإن صدَّقوك، وصنعتَ ما سألناك صدَّقناك، وعرفنا منزلتك من الله، وأنه بعثك إلينا رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بُعِثت لكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلَّغتكم ما أُرْسِلتُ به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه أصبرُ لأمر الله حتى يحكمَ اللهُ بيني وبينكم».

قالوا: فإن لم تفعل فخذْ لنفسك، سَلْ ربّك يبعث معك مَلَكاً يصدّقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسَلْه فليجعلْ لك جناناً، وقصوراً، وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس الرِّزق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك، ومنزلتك إن كنت رسولاً.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي أسأل ربي هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكنَّ الله بعثني بشيراً ونذيراً (أو كما قال) فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: فأسقِطِ السماء علينا كِسَفاً كما زعمت أن ربّك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله عز وجل، إن شاء أن يفعله بكم فعله».

قالوا: يا محمد! فما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب إليك ما نطلب فيتقدَّم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك

ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا أنك يعلِّمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد! وإنا والله! لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك، أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبدُ الملائكة وهي بناتُ الله، وقال قائلهم: لن نؤمنَ لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أميَّة المخزومي ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، وأسلم بعد ذلك رضي الله عنه، فقال: يا محمد! عرض عليك قومُك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك، ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذَ لنفسك ما يَعرفون به فضلك عليهم، ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجِّل لهم بعضَ ما تخوِّفهم به من العذاب فلم تفعل. فوالله! لا أومنُ بك حتى تتخذ إلى السَّماء سُلَّماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي بصكٍّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وايم الله! إن لو فعلت ذلك ما ظننتُ أني أصدِّقك. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ.

وانصرف رسول الله ﷺ حزيناً أسفاً إلى أهله لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه لما رأى من مباعدتهم إياه.

وأنزل الله تعالى في أسئلة قريش:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ١٣/ ٣١] وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٩].

أي: فحين أرسلناها أهلكناهم، ولو أرسلناها إلى هؤلاء لكذّبوا بها، واستحقّوا الإهلاك، وقد حكمنا بإمهالهم لإتمام أمر محمد ﷺ.

وأنزل الله تعالى في قولهم: خذ لنفسك: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧ـ١٠] إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٠].

وأنزل الله في قول ابن أبي أميّة المخزومي: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٠ـ٩٤] وأنزل الله تعالى فيهم حين سألوا أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحّي عنهم الجبال فيزرعون، وسألوه سعة العيش والرغد: ما روى الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ جبريلَ عليه السلام أتى النبيَّ ﷺ فقال: إن ربك يقرؤك السلام، ويقول لك: إن شئتَ أصبح الصَّفا لهم ذهباً فمن كفر منهم بعد ذلك عذَّبته عذاباً لا أعذِّبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحتُ لهم باب التوبة والرحمة. قال: «أي رب! بابَ الرحمة».

امتحان قريش رسول الله ﷺ:

أرسلت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة ليسألاهم عن محمد ودعوته، ويخبراهم ببعض قوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم من علم الأنبياء.

فقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد أتيناكم لتخبرونا عن صاحِبنا هذا.

فقالت لهما أحبارُ يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيٌّ مرسل، وإن لم يفعلْ فالرجل متقوّل فروا فيه رأيكم.

سلوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب. واسألوه عن رجلٍ طوّاف قد بلغ مشارقَ الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ واسألوه عن الروح، ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه إنه نبيٌّ، وإن لم يفعل فهو رجلٌ متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فجاؤوا رسولَ الله ﷺ فسألوه في تلك الأشياء، فقال لهم: «أخبركم بما سألتم عنه غداً» ولم يستثن (لم يقلْ: إن شاء الله) فانصرفوا عنه.

ومكث رسول الله ﷺ فترةً، قيل: خمسة عشر يوماً، وقيل: ثلاثة أيام، لا يُحْدِثُ الله تعالى في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجفَ أهلُ مكة وقالوا: وعدنا محمدٌ غداً، واليوم خمس عشرة ليلة، قد أصبحنا منه لا يخبرنا بشيءٍ مما سألناه عنه. حتى أحزن رسول الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهل مكة.

ثم جاءه جبريلُ ﷺ من الله عز وجل بسورة الكهف، وفيها معاتبتُه ﷺ إياه على حزنه عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرَّجل الطَّوّاف، والرُّوح.

استجابة الله تعالى دعوة نبيّه ﷺ بإسلام عمر:

كان إسلامُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة التي كانت سنة خمسٍ من المبعث.

روى أسلم مولى عمر قصة إسلامه عنه رضي الله عنه، فقال: أتحبون أن أعلمكم بإسلامي؟ قلنا: نعم، قال: كنت أشدّ الناس على رسول الله ﷺ. فجلستُ يوماً مع أبي جهل بن هشام، أو شيبة بن ربيعة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش! إن محمداً قد شتم آلهتكم، وسفّه أحلامكم، وزعم أنَّ مَن

مضى من آبائكم يتهافتون في النار. ألا ومَن قتل محمداً عليّ مئة ناقة حمراء وسوداء، وألف أوقية من فضّة.

قال عمر: فخرجتُ متقلّداً السيف، متنكباً كنانتي، أريد النبي ﷺ، فلقيني رجلٌ من قريش هو نُعَيم بن عبد الله النحّام، وكان قد أسلم، وكان يخفي ذلك فرقاً من قومه. فقال: أين تذهب يابنَ الخطّاب؟ قلت: أريدُ هذا الصّابيء الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها فأقتلَه.

فقال له نُعَيم: والله! لقد غرّتك نفسك يا عمر! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على وجه الأرض وقد قتلتَ محمداً؟ أفلا ترجعُ إلى أهل بيتك فتقيمَ أمرهم؟ قال: وأيُّ أهلِ بيتي؟ قال: ختنك، وابن عمّك سعيد بن زيد ابن عمرو، وأخْتك فاطمة بنت الخطّاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما. وإنما فعل ذلك ليصرفَ عمر عن أذى رسول الله ﷺ (ويقينه أنه لن يقتل أخته بصرفه إليها عنهُ)، فخرج عمرُ عامداً إلى أخته وختنه.

وكان رسول الله ﷺ إذا أسلم بعضُ من لا شيء له، ضمَّ الرجل والرجلين إلى الرجل ينفقُ عليه، وكان ضمَّ رجلين من أصحابه إلى زوج أخت عمر. فقرع عمر عليهم الباب، وعندهم خبَّاب بن الأرتِّ معه صحيفة فيها طٰهٰ يقرئهما إياها. فلما سمعوا حسَّ عمر تغيَّب خبَّاب في مخدع لهم، أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة، فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع حين دنا من البيت قراءة خبَّاب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهَيْنَمَةُ التي سمعت؟ قالا له: ما سمعتَ شيئاً. قال: بلى، والله! لقد أُخبِرتُ أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أختُه بنت الخطاب لِتكُفَّهُ عن زوجها، فضربها، فشجّها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم، قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصَّحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد. وكان عمر كاتباً. فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها. قال: لا تخافي، وحلف بآلهته ليردَّنَّها إذا قرأها إليها. فلما قال ذلك طمعتْ في إسلامه فقالت: يا أخي! أنت نجسٌ على شركك، وإنه لا يمسَّه إلا الطاهر. فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها طٰهٰ، فقرأها، فلما قرأ صدراً منها فقال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرمه! فلما سمع ذلك خبَّاب خرج إليه، فقال له: يا عمر! والله إني لأرجو أن يكون الله تعالى قد خصَّك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمسِ وهو يقول: «اللهم! أيِّد الإسلام بالحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطَّاب». فالله الله يا عمر!.

قال له عمر عند ذلك: دلني يا خبَّاب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال خبَّاب: هو في بيتٍ عند الصَّفا، معه نفرٌ من أصحابه. فأخذ عمر سيفه متوشِّحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خَلَل الباب، فرجع وهو فزع، فقال: يا رسول الله! هذا عمر بن الخطّاب متوشِّحاً السيف. فقال حمزة بن عبد المطّلب: فأذن له، فإن كان يريدُ خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرّاً قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله ﷺ: «ائذن له، فإن يرد الله به خيراً يهده» فأذن له الرجل، وفتحوا له، وأخذ رجلان بعضديه حتى دنا من رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بحجزته، أو بمجمع ردائه، ثم جبذه جبذة شديدة وقال: «ما جاء بك يابن الخطّاب؟ فوالله ما أراك أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة». فقال: يا رسول الله! جئتُ لأؤمن بالله، وبرسوله، وبما جاء من عند الله. فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرةً عرف أهلُ البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم. فكبروا تكبيرةً سُمِعَتْ بطريق مكة، وتفرَّقوا من مكانهم،

وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة. وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ، وينتصفون بهما من عدوّهم.

روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر.

كفار قريش والصّحيفة الظَّالمة:

لما رأت قريش أن أصحابَ رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً آمناً، وأصابوا فيه أمناً وقراراً عند النجاشي، ورأوا أن عمر قد أسلم، وامتنع أصحابُ رسول الله ﷺ به وبحمزة حتى عازّوا (غالبوا) قريشاً، وأن الإسلامَ جعل يفشو في القبائل أجمعوا رأيهم، واتفقوا على قتل رسول الله ﷺ وقالوا: قد أفسد علينا أبناءنا ونساءنا، فقالوا لقومه: خذوا منَّا ديةً مضاعفة، وليقتله رجلٌ من غير قريش، فيريحنا، وتريحوا أنفسكم. فأبى قومه بنو هاشم، وأعانهم بنو المطّلب بن عبد مناف.

فلما عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد منعه قومه، فأجمع المشركون من قريش على منابذتهم، وإخراجهم من مكة إلى الشِّعب، وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطّلب ألا يُنكحوهم ولا يَنكِحوا إليهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعون منهم، ولا يقبلوا منهم صلحة، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل. فلما اجتمعوا لذلك كتبُوا صحيفة، ثم تعاهدوا، وتعاقدوا على ذلك.

والذي كتب الصحيفة دعا عليه رسول الله ﷺ فَشُلَّت بعضُ أصابعه، ثم علّقوا الصَّحيفةَ في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وقطعوا عنهم الأسواق، ولم يتركوا طعاماً، ولا إداماً، ولا بيعاً إلا بادروا إليه، واشتروه دونهم.

فلما فعلت قريش ذلك، انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شِعبه مؤمنهم وكافرهم، فالمؤمن ديناً، والكافر حميّةً.

وخرج أبو لهب من بني هاشم إلى قريش، وحُصِرَ المسلمون في الشِّعب ثلاث سنين، وقطعوا عنهم الميرة، حتى إن الرجل ليخرجُ بالنَّفقة، فما يبايَع حتى يرجع، حتى هلك من هلك. وكان لا يصل إليهم شيءٌ إلا سرّاً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش.

وكان أبو جهل لقي حكيم بن حزام مع غلام يحمل قمحاً يريدُ به عمته خديجة بنت خويلد، وهي مع رسول الله ﷺ فيِ الشِّعب، فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة. فقال له أبو البختري بن هشام بن الحارث وهلك كافراً:

طعامٌ كان لعمته عنده، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خلِّ سبيلَ الرجل. فأبى أبو جهل حتى نال كلٌّ واحدٍ منهما من صاحبه. فأخذ أبو البختري لحيَ بعير، فضربه به، فشجّه ووطئه وطأً شديداً.

وكان أبو طالب في طول مدَّتهم في الشعب، يأمر رسول الله ﷺ فيأتي فراشه كل ليلة حتى يراه من أراد به شرّاً، أو غائلة، فإذا نام أمر أحد بنيه، أو إخوته، أو بني عمّه، فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعضَ فرشهم فيرقد عليه، فلم يزالوا في الشعب إلى تمام ثلاث سنين.

وبعث اللهُ تعالى على صحيفتهم الأَرَضَة فأكلت، أو لحست ما في الصحيفة من عهد، وميثاق.

وأطلع الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ على ذلك، فذكره رسول الله ﷺ لعمّه أبي طالب، فقال له عمه: أربُّك أخبرك بهذا؟ قال: «نعم». قال: لا والثواقب ما كذبتَني، فانطلق بعصابةٍ من بني هاشم وبني المطّلب حتى أتوا المسجد (وهم خائفون) لقريش. فلما رأتهم قريش في جماعة أنكروا ذلك، وظنُّوا أنهم خرجوا من شدَّة البلاء ليسلموا رسول الله ﷺ برمّته إلى قريش.

فتكلم أبو طالب فقال: جرتْ أمورٌ بيننا وبينكم لم نذكرها لكم، فأتوا بصحيفتكم التي فيها مواثيقكم، فلعلّه أن يكون بيننا وبينكم صلح. وإنما قال ذلك أبو طالب خشية أن ينظروا في الصّحيفة قبل أن يأتوا بها. فأتوا بصحيفتهم مجمعين لا يشكّون أنَّ رسول الله ﷺ يُدْفَعُ إليهم، فوضعوها بينهم، وقالوا لأبي طالب: قد آن لكم أن ترجعوا عمَّا أحدثتم علينا وعلى أنفسكم. فقال أبو طالب: إنما أتيتكم بأمر هو نَصَفٌ (عدل) بيننا وبينكم. إنَّ ابنَ أخي أخبرني ولم يكذبني أنّ هذه الصحيفة التي في أيديكم قد بعث الله تعالى عليها دابة، فأبقت اسم الله وأكلت غدركم، وتظاهركم علينا بالظُّلم (وفي رواية: فلم تترك اسماً لله تعالى إلا لحسته، وتركت غدركم، وتظاهركم علينا بالظُّلم) فإن كان كما قال: فلا والله! لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا. وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتم، أو استحييتم، فقالوا: رضينا بالذي تقول. ففتحوا الصَّحيفة، فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر قبل أن تفتح. فلما رأت قريش صدق ما جاء به أبو طالب عن رسول الله ﷺ. قالوا: هذا سحرُ ابن أخيك، وزادهم ذلك بغياً وعدواناً.

وقال أبو طالب: يا معشر قريش! علامَ نُحصَرُ، ونُحبَس، وقد بان الأمر، وتبيَّن أنكم أولى بالظلم، والقطيعة، والإساءة. ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة فقال: اللهمَ انصرنا على من ظلمنا، وقطع أرحامنا، واستحلَّ ما يحرم عليه منا. ثم انصرفوا إلى الشِّعب.

وقد أتيتُ على ذكر نقض الصحيفة برواية أخرى بزيادات عند ذكر المعجزات، فارجع إليها إن شئت.

وفاة أبي طالب:

مات أبو طالب قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين، ذكره ابن كثير.

وفاة السيدة خديجة:

كانت السيدةُ خديجة وزيرَ صدق على الإسلام، وكانت سكنَ رسول الله

ﷺ، وتوفيت في العام الذي توفي فيه أبو طالب، قبل أن تُفرض الصلاةُ، وقبل الهجرة إلى المدينة، وعمرها خمس وستون سنة، ودُفِنت بالحجون، ونزل رسول الله ﷺ قبرَها، ولم تكن الصلاةُ على الجنازة شُرِعت، وتتابعتْ المحن على رسول الله ﷺ بهلاك أبي طالب والسيدة خديجة رضي الله عنه.

بعد وفاة أبي طالب:

نالت قريشٌ من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمعْ به في حياة أبي طالب.

روى البيهقي عن عروة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما زالت قريش كاعِّينَ عني حتى مات أبو طالب».

وروى أيضاً عن عبد الله بن جعفر قال: لما مات أبو طالب عَرض لرسول الله ﷺ سفيهٌ من سفهاء قريش، فألقى عليه تراباً، فرجع إلى بيته، فأتت امرأةٌ من بناته تمسحُ عن وجهه التراب، وتبكي. قال: فجعل يقول: «أي بنيّة! لا تبكين، فإنَّ الله مانع أباك»[١].

ولما تجهَّمت قريش على رسول الله ﷺ قال: «يا عم! ما أسرع ما وجدتُ فقدك!».

إلى الطائف:

ثم إنَّ رسول الله ﷺ خرج إلى الطائف وحده ماشياً، يلتمسُ النُّصرة من ثقيف، والمَنَعَةَ بهم من قومه، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله تعالى، وكان معه غلامه زيد بن حارثة رضي الله عنه. فلما انتهى إليها عمد إلى نفرٍ من ثقيف سادتِها، وهم ثلاثة إخوة، فجلس إليهم، وكلّمهم بما جاء به من نصرته على الإسلام، فكذَّبوه، فقال الأوّلُ: هو يشقُّ ثيابَ الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال الثاني: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟! وقال

---

(١) الدلائل للبيهقي (٢/ ٣٥٠).

الثالثُ: والله لا أكلِّمك، لئن كنت رسولاً من الله لأنت أعظمُ خطراً من أن أردَّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذبُ على الله ما ينبغي لي أن أكلِّمك.

فلما يئس من خيرهم قال لهم: «إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عليَّ» كراهية أن يبلغ ذلك قومه. وأقام بالطَّائف عشرة أيام، وقيل: شهراً، لا يدعُ أحداً من أشرافهم إلا جاء إليه، وكلَّمه، فلم يجيبوه، وخافوا على أولادهم منه، فقالوا: يا محمد! اخرجْ من بلدنا؛ وأغرَوا به سفهاءهم، وعبيدهم يسبُّونه، ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناسُ، ووقفوا له صَفَّيْنِ على طريقه، فلما مرَّ ﷺ بين الصَّفَّيْنِ جعل لا يرفعُ رجليه، ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه.

وكان إذا أذلقته[١] الحجارة يقعدُ إلى الأرض، فيأخذون بعضديه، ويُقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى لقد شُجَّ في رأسه شجاجاً، فخلص منهم ورجلاه تسيلان دماً، فعمد إلى بستان من بساتينهم، فاستظلَّ في ظل كرمةٍ منه وهو مكروبٌ مُوجَع، وإذا في الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة، فلما رآهما كره مكانَهما لما يعلمُ من عداوتهما. ثم إنه صلَّى ركعتين ثم قال:

«اللهم! إني أشكو إليك ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربِّي، إلى من تكلني، إلى بعيدٍ يتجهَّمني، أو إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟! إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات، وصلح عليه أمرُ الدُّنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو تحلَّ عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

ولما رأى ابنا ربيعة ما لقي رسول الله ﷺ تحرَّكت له رحمهما، فدعوا

---

(١) بلغت منه الجهد.

غلاماً يقال له: عدّاس بقطف عنبٍ إليه ليأكله. فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال: «باسم الله» ثم أكل، فنظر عدّاس في وجهه وقال: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أي البلاد أنت يا عدّاس؟ وما دينك؟» قال: نصراني، وأنا من أهل نينوى. فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصَّالح يونس بن متى». قال له عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ وأنت أُمِّي وفي أمّة أمِّيّة؟! قال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نَبيٌّ. فأكبّ عدّاس على رسول الله ﷺ يُقبِّل رأسَه، ويديه، وقدميه.

فلما جاءهما عدَّاس قالا له: ويلك! ما لك تُقَبِّلُ رأسَ هذا الرجل، ويديه، وقدميه؟ قال: يا سيدي! ما في الأرض خيرٌ من هذا الرجل! لقد أعلمني بأمرٍ لا يعلمه إلا نبيٌّ. قالا: ويحك يا عداس! لا يصرفنّك عن دينك؛ فإنَّ دينَك خيرٌ من دينه.

فانصرف رسول الله ﷺ عنهم وهو محزونٌ، لم يستجبْ له رجل واحد، ولا امرأة.

وبينما هو يمشي إذ أظلَّته سحابة، فنظر فإذا فيها جبريل، فناداه، وقال: إن الله تعالى قد سمع قولَ قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال، فتأمره بما شئت فيهم، فناداه مَلَك الجبال فسلَّم عليه، ثم قال: يا محمد إن الله سمع قول قومك، وأنا ملكُ الجبال، قد بعثني الله عز وجل لتأمرني بما شئت، إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشَبَيْنِ (جبلان بمكة) فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرجَ الله عز وجل من أصلابهم مَن يعبد الله عز وجل لا يشرك به شيئاً».

وأقام رسول الله ﷺ بنخلة أياماً، وأوى إليه أصحابُه، وبينا كان يصلِّي بهم الفجر مرَّ به سبعةٌ من جنٍّ نصيبين، أو تسعة، فاستمعوا إلى قراءته وهو يقرأ، فلما فرغ من قراءته أسلموا، ثم أرسلهم إلى قومهم مُنذرين، ثم أتوه

بعد مُدَّة، وهم ثلاثمئة، فقرأ عليهم القرآن.

ثم أراد الرجوعَ إلى مكة، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟! فقال: «يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله مظهر دينه، وناصر نبيّه».

ثم انتهى إلى حراء، وطلب إلى المطعم بن عديّ أن يجيرَه فأجابه، فدخل مكة في جوار المطعم بن عديّ.

عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل طالباً حمايته، ومنعته حتى يؤدي رسالة ربه:

جعل رسول الله ﷺ يوافي الموسمَ كُلَّ عام يتبع الحاجَّ في منازلهم، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلِّغ رسالةَ ربِّه، وله الجنّةُ، فلا يجد أحداً ينصره، ويجيبه، فكان يقفُ على كلِّ قبيلة، ويقول: «يا أيها الناس! قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا العرب وتذل لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة» وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابىء كاذب، فيردُّون عليه أقبح الرَّدِّ، ويؤذونه، ويقولون: قومك بك أعلم.

روى البخاري في «التاريخ» عن مدرك بن منير العامريّ، عن أبيه، عن جدّه رضي الله عنه يقول: رأيتُ رسول الله ﷺ في الجاهلية وهو يقول: «يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا». فمنْهم من تَفَلَ في وجهه، ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبّه حتى انتصف النهار، فأقبلتْ جاريةٌ بِعُسٍّ من ماء، فغسل وجهه ويديه، وقال: «يا بنيّة! لا تخشَيْ على أبيك غلبةً ولا ذلّةً» فقلتُ: مَن هذه؟ قالوا: زينب بنت رسول الله ﷺ، وهي جاريةٌ وضيئة.

* * *

الفصل الثاني

إسراؤه ومعراجه ﷺ

أيتهما أفضل ليلة الإسراء أم ليلة القدر؟

نقل الصالحي عن ابن النقَّاش رحمهما الله تعالى عن ليلة الإسراء: أنه قال فيها:

ليلة الإسراء أفضلُ من ليلة القدر في حقِّ النبي ﷺ؛ لاشتمالها على رؤيته تعالى، ومخاطبته التي هي أفضل كلِّ شيء، ولذا لم يجعلِ الله تعالى الرؤية ثواباً على عملٍ من الأعمال مطلقاً، بل منَّ بها على عباده المؤمنين يوم القيامة تفضُّلاً منه.

وليلة القدر أفضلُ في حقِّ الأمة؛ لأنَّها خيرٌ لهم من عمل أكثر من ثمانين سنة ممن كان قبلهم. وليلة الإسراء لم يأتِ في أرجحيَّة العمل فيها حديث صحيح، ولا ضعيف، ولذلك لم يعيِّنها رسول الله ﷺ.

حول آية الإسراء:

ابتدأت الآيةُ بسبحان، والعرب تسبّح عند الأمر العجيب، فكأنَّ الله تعالى عجَّبَ خلقَه بما أسدى إلى رسول الله ﷺ من الإسراء به؛ وخرَّج التسبيح مخرج الرَّدِّ عليهم؛ لأنَّه ﷺ لمَّا حدَّثهم عن الإسراء كذّبوه، فيكون المعنى: تنزَّه الله تعالى أن يَتَّخِذَ رسولاً كذّاباً.

وأما السُّرى فقد قال أهلُ اللغة: أسرى وسرى ـ لغتان ـ يختصَّان بسير الليل؛ وقيل: أسرى: سار من أول الليل، وسرى: سار من آخره.

وأما العبدُ في الآية فسيِّدنا محمد ﷺ بالإجماع، وَوُصف بالعبودية المضافة إلى غيرها لئلا تَضِلَّ أمته، ولأنَّ العبوديةَ أشرفُ المقامات؛ ودلَّ قولُه تعالى (بعبده) على إسرائه ﷺ بجسده وروحه؛ لأن العبد اسم للروح والجسد جميعاً.

وأما قوله ﴿لَيْلًا﴾ فتأكيد للإسراء، فالعرب تقول: أخذ بيده، وقال بلسانه، وفي القرآن العزيز: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٨] ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٧] ويفيد أيضاً: أن المدّة التي أسري به فيها لا تقطع في أقلّ من أربعين فقطعتْ به في ليل واحد، أو في بعضه. والسُّرى بالليل لكون الليل وقت الاختصاص، ووقت صلاة الليل المفروضة عليه على وجه الاختصاص في قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٧٣/ ٢] وهو أيضاً وقت التنزُّلات الإلهية.

وأما قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١] فلفظ المسجِد بكسر الجيم، معناه: مكان السجود، والمسجَد بفتح الجيم: جبهة الرجل حيث يصيبه السُّجود، والمِسْجَد بكسر الميم وفتح الجيم: الخُمرة، والحصير الصغير. والمسجد في العُرْفِ: كلُّ موضع من الأرض.

وأما قوله: ﴿ٱلْحَرَامِ﴾ فمعنى الحرام في اللغة: المنع، ومنه: البيت الحرام، أي: المحرّم. وفلانٌ حرام، أي: محرم، وهو ضدُّ الحلال لما منع منه المُحرِم مما يجوز لغيره.

والمسجد الحرام عَلَم على الكعبة فقط على وجه الحقيقة، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٦] وبقوله ﷺ: «أول مسجد وضع في الأرض البيت الحرام».

واستعير اللفظُ بعد ذلك ليطلقَ على المسجد المحيط بالكعبة، وإليه أشار النبيُّ ﷺ في قوله: «صلاة في المسجد الحرام بكذا وكذا صلاة» على سبيل التَّغليب المجازي.

واستعير اللفظُ أيضاً ليطلقَ على مكة كلّها، على رأي من يفسِّر آية الإسراء بأن المسجد الحرام أريد به مكة، لأنه أُخِذ من بيت أم هانىء، ثم أُسري به. وعلى قول من يفسِّر قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي

﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢/١٩٦] بدور مكة والحرم حولها. فكلُّ ذلك من باب التغليب المجازي.

وكلّ موضع ذَكر الله تعالى فيه المسجد الحرام فالمراد به: الحرم، إلا في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٤] فإنه أراد به الكعبة.

وأما قوله: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١] فهو بيتُ المقدس، وسُمِّي الأقصى، أي: الأبعد لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام.

وأما قوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١] فالبركةُ: ثبوتُ الخير الإلهي في الشَّيء، والبركة حول المسجد الأقصى وفيه أيضاً، ولكن البركة حوله ظاهرة دنيوية كالأنهار الجارية، والأشجار المثمرة، والبركة فيه حيث إنّه مَقَرُّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومتعبّدُهم، ومهبط الوحي والملائكة.

ويتميز المسجدُ الحرام على المسجد الأقصى بالبركة حوله باعتبار الفضل، وتضعيف الحسنات فيه للطائفين، والعاكفين، والوافدين؛ لأن الأجرَ يكون على قدر النَّصَب. والمسجد الحرام وادٍ غيرُ ذي زرع، نزَّهه الله تعالى عن خصب الدُّنيا وسعتها؛ لئلا يكون القصدُ إليه ممزوجاً بقصد الدُّنيا. فهذه البركةُ الدينية أفضلُ من البركة الدنيوية.

وأمّا قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١] فالصّحيح في الضمير أنه راجعُ إلى الله تبارك وتعالى، ولا يبعد إرجاعُ الضمير إلى العبد، فيكون المعنى: إنه هو السميع لكلامنا البصير لذاتنا، ويكون بذلك دليلاً على أنه ﷺ رأى رب العزّة، وسمع كلامه.

حول آيات المعراج:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣/ ٨]:

قال الإمام الرازي: فيه وجوه:

الأول: إن جبريل عليه السلام دنا من النبي ﷺ، بعدما مَدَّ جناحه، وهو بالأفق الأعلى، عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها، وقرب من النبي ﷺ.

الثاني: دنا رسول الله ﷺ من ربه دنواً ليس كمثله شيء.

الثالث: دنا جبريل عليه السلام من ربِّه.

والذي عليه الجمُّ الغفير الأوَّل، وهو دنو جبريل عليه السلام من النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [**النجم**: **٥٣/ ٩**]

القوس: معروفة. وقيل: الذراع يُقاس بها كلُّ شيء ورجَّحه ابن حجر. والقاب والقيد والقوسان: الذراعان.

والقاب: القدر والمِثْل. ومعنى: أو أدنى: بل أدنى. والمقترب الداني: جبريل عليه السلام من النبيﷺ.

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [**النجم**: **٥٣/ ١١**]

لم يكذب فؤاد النبي ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام، فقد رآه بعينه، وعرفه بقلبه، وبمجرَّد وقوع بصره عليه أدرك بقلبه أنه جبريل عليه السلام، لم يتردد في ذلك، ولم يخالجه شكّ. والمرئي: جبريل عليه السلام، كما ذهب إليه ابن مسعود رضي الله عنه.

وذهب ابنُ عباس رضي الله عنهما إلى أنَّ النبي ﷺ رأى ربَّه بفؤاده مرَّتين، كما رواه مسلم، ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٥٣/ ١٣] وقد تابعه على تفسيره جماعةٌ من السلف والخلف، وخالفهُ جماعةٌ آخرون من الصحابة والتابعين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [**النجم**: **٥٣/ ١٣**]

قال ابن كثير: هذه هي المرةُ الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل

عليه السلام على صورته التي خلقه الله تعالى عليها.

قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٥٣/ ١٤]

هي سدرةٌ عندها منتهى العلوم، أو سدرةُ المنتهى إليه وهو الله تعالى، وهي سدرةٌ في أصل العرش، إليها ينقضي عِلْمُ الخلائق، وما خلفها بحيث لا يعلمه إلا الله تعالى. ظلّها مديد، وطعمها لذيذ، ورائحتها زكيّة.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٣/ ١٨]

رأى رسول الله ﷺ ليلةَ الإسراء والمعراج آياتٍ عظاماً، منها: جبريل عليه السلام على صورته الأصلية، وسدرة المنتهى، والجنة، والنار.

وقد ختم قصة المعراج برؤية الآيات، كما بدأ في صدر سورة الإسراء بقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١] وقد استدل مَن ذهب من أهل السنة إلى أنَّ الرؤية لم تقعْ بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٣/ ١٨] وقالوا: لو كان رأى ربَّه لأخبر بذلك، ولقال النَّاس ذلك.

فإن قيل: إذا كان الإسراء والمعراج في ليلة واحدة فهلاَّ أخبرهم بعروجه إلى السماء؟!.

وأجاب صاحبُ «رموز الكنوز»: استدرجهم إلى الإيمان بذكر الإسراء أوّلاً، فلما ظهرتْ أماراتُ صدقه، وصحّت لهم براهينُ رسالته أخبرهم بالمعراج، وأنزل عليه سورةَ النَّجم.

زمن الإسراء:

كان الإسراءُ يقظةً قبل الهجرة إلى المدينة بسنة، وكان بعد شقِّ الصَّحيفة الظَّالمة، وقبل بيعة العقبة، وكان يوم الإثنين في شهر رجب، وجزم به النووي في «الروضة» تبعاً للرافعي؛ وفي فتاوى النووي: ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الأول، وقيل: في شهر ربيع الآخر.

فمولده ﷺ كان يوم الإثنين، ومبعثه ﷺ كان يوم الإثنين، وإسراؤه

ومعراجه ﷺ كان يوم الإثنين، وهجرته ﷺ كانت يوم الإثنين، ووفاته ﷺ كانت يوم الإثنين.

فكان يوم الإثنين في حقِّه ﷺ كيوم الجمعة في حقِّ آدم عليه السلام، فيه خُلِق، وفيه أُنزل إلى الأرض، وفيه تاب اللهُ عليه، وفيه قُبِض.

ولما كان الإسراءُ ليلاً، وليلة كل يوم: هي التي قبله؛ لأن أول الشهر ليلة وآخره يوم؛ ولا يَرِدُ قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٣٦/ ٤٠] لأن المفسِّرين ذكروا فيه معنى غير هذا.

قال مجاهد رحمه الله: معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٣٦/ ٤٠] أي: في قضاء الله تعالى، وعِلْمه، لا يفوت الليلَ النهارُ حتى يدركه، فيذهب بظلمته، وفي قضاء الله تعالى وعلمه لا يفوتُ النهارَ الليلُ حتى يدركه، فيذهب بضوئه. رواه ابنُ المنذر.

ولا يَرِد أن الليلةَ التي تلي يومَ عرفة تتبعه في الحكم من حيث مشروعية الوقوف فيها، مع تأخرها عن يوم عرفة، وكذلك ليالي الرّمي، فإنها تتبع ما قبلها من الأيام في جواز الرمي فيها عن أيام الرمي، فإنها مستثناة.

والدَّليل على أنَّ الليالي تسبقُ الأيام: ثبوت شهر رمضان وشوال وغيرهما من سائر الشهور في الليالي التي تسبق الأيام، حتى إن صلاةَ التَّراويح مشروعةٌ في الليلة التي تسبق صوم أول يوم من رمضان، كما أن صلاة التراويح ليست مشروعةً في ليلة العيد؛ لأنَّها تابعة لما بعدها.

كيفية الإسراء:

كان الإسراءُ بالروح والجسد معاً يقظةً لا مناماً، من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، ثم إلى السموات العلى، ثم إلى سدرة المنتهى، ثم إلى حيث شاء العليُّ الأعلى، وهو الحقُّ الذي لا مرية فيه، والآية تدلُّ نصّاً عليه، ومعها صحيحُ الأخبار، وليس فيه استحالةٌ تؤذن بالتأويل.

فقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١] العبد في الآية يُطلق على الروح والجسد معاً، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧/٥٣] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨/٥٣] ولو كان الأمر مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة. ورؤيا الأنبياء ـ وإن كانت وحياً ـ ليس فيها من خرق العادة ما في اليقظة، ولو كان الإسراءُ مناماً لما استبعده الكفار، ولما كذبوه، ولما ارتدَّ به ضعفاءُ من أسلم، بل لم يكن منهم ذلك الاستبعاد، والتكذيب، والافتتان إلا بعد علمهم أنَّ خبره إنما هو عن إسرائه بجسمه وروحه حال يقظته.

روى البخاريُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٠] قال: هي رؤيا عين أُرِيهَا النبيُّ ﷺ ليلة أسري به[١].

قال ابنُ جرير الطبري رحمه الله تعالى: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده، وكما تظاهرت الأخبارُ عن رسول الله ﷺ: أنَّ الله حمله على البراق حتى أتاه به، وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل، فأراه ما أراه من الآيات، ولا معنى لقول من قال: أسري بروحه دون جسده؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكنْ في ذلك ما يوجبُ أن يكون دليلاً على نبوته، ولا حُجّة على رسالته. ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به من صَدّقه فيه، إذ لم يكن منكراً عندهم، ولا عند أحد من ذوي الفطرة الصَّحيحة من بني آدم أن يرى الرَّائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة، فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقلّ، وبعد فإنَّ الله إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبده، ولم يخبرنا أنه أسرى بروح عبده، وليس جائزاً لأحد أن يتعدَّى ما قال اللهُ إلى غيره، ولا دلالة تدلُّ على

---

(١) بخاري (١٠٦/٦).

أنَّ مراد الله من قوله أسرى بعبده: أسرى بروح عبده. بل الأدلةُ الواضحة والأخبار المتتابعة عن رسول الله ﷺ: أنَّ الله أسرى به على دابة يقال لها البراق. ولو كان الإسراءُ بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق إذ كانت الدَّواب لا تحمل إلا الأجسام.

والقائل إن الإسراء كان بروحه ﷺ فقط دافعٌ لظاهر التنزيل وما تتابعت به الأخبار عن رسول الله ﷺ وجاءت به الآثار عن الأئمة من الصحابة والتابعين.

هل تكرر الإسراء؟

ذهب الحافظ الإمام أبو شامة من الحفَّاظ إلى أنَّ الإسراء وقع مراراً، وذهب جماعةٌ آخرون، وهو الذي جزم به النَّووي في فتاويه: إلى أن الإسراء وقع مرّتين: مرّة في النوم، ومرّة في اليقظة، وكانت مرة النوم تأسيساً، وتوطئة، وتمهيداً له، وتيسيراً عليه ﷺ.

قصة الإسراء والمعراج:

ذكرها البخاري في صحيحه، وكذا مسلم. وأنا أذكر روايتيهما، وأضمِّنها بعض ما رواه أبو جعفر الرازي عيسى بن ماهان عن النبي ﷺ في حديث المعراج، وأترك البعض الآخر للاعتبار والاتعاظ، كحديث المجاهدين، والزُّناة، وغيرهم.

وعيسى بن ماهان قال الذهبي فيه: وثقه ابن معين، وقال فيه أبو حاتم: ثقة صدوق، وقال فيه ابن المديني: ثقة، كان يخلِّط، وقال أيضاً: يكتب حديثه، إلا أنه يخطىء، وقال أحمد والنسائي: ليس بالقويّ. وضعّفه الفلاس، وابن حبان، وأبو زرعة.

وأضمنها أيضاً بعض ما رواه البيهقي في «دلائل النبوّة» وأعزو كل قول إلى مصدره إن شاء الله تعالى؛ ليكون القارىء على بيّنة.

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين. فأُتيت، فانطُلق بي، فأُتيت بطَست من ذهب فيها من ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا (إلى أسفل بطنه) فاستُخرِج قلبي، فغسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حُشي إيماناً وحكمة. وفي رواية البخاري: فَشُقَّ من النحر إلى مراقِّ البطن، ثم غُسل البطن بماء زمزم، ثم مُلِيء حكمة وإيماناً. ثم أُتيت بدابّة أبيض يقال له: البراق، فوق الحمار ودون البغل، يقع خطوه عند أقصى طرفه فَحُمِلتُ عليه، وفي رواية لمسلم: يضع حافره عند منتهى طرفه. قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس[(١)].

وعند البيهقي: ثم حملني عليها، فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها، حيث أدرك طرفها حتى بلغنا أرضاً ذات نخل، فأنزلني، فقال: صلِّ، فصلَّيت، ثم ركبنا، فقال: أتدري أين صلَّيت؟ قلت: الله أعلم. قال: صلَّيت بيثرب، صلَّيت بطيبة، فانطلقت تهوي بنا يقعُ حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضاً فقال: انزل، فنزلت ثم قال: صلِّ، فصلَّيت، ثم ركبنا فقال: أتدري أين صلَّيت؟ قلت: الله أعلم. قال: صلَّيت بمدين، صلَّيت عند شجرة موسى عليه السلام، ثم انطلقت تهوي بنا يقعُ حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضاً بدت لنا قصور، فقال: انزلْ، فنزلت، فقال: صلِّ. فصلَّيت، ثم ركبنا قال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صلَّيت ببيت لحم، حيث وُلِد عيسى عليه السلام ـ المسيح ابن مريم. ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني[(٢)].

وعند ابن جرير: فَحُمِلَ عليه (أي البراق) كلّ خطوة منه منتهى طرفه

---

(١) مسلم (١/ ١٤٥).
(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٣٥٥).

وأقصى بصره، قال: فسار وسار معه جبرئيل عليه السلام، فأتى على قومٍ يزرعون في يوم، ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان. فقالَ النبي ﷺ «يا جبرئيل ما هذا؟» قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمئة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خيرُ الرازقين. ثم أتى على قومٍ ترضخُ رؤوسهم بالصَّخر، كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم منً ذلك شيء، فقال: «ما هؤلاء يا جبرئيل؟» قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسُهم عن الصلاة المكتوبة، ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرحُ الإبل والغنم، ويأكلون الضَّريع والزَّقُّوم، ورضف جهنَّم وحجارتها، قال: «ما هؤلاء يا جبرئيل؟» قال: هؤلاء الذين لا يؤدُّون صدقات أموالهم، وما ظلمهم اللهُ شيئاً وما الله بظلاَّم للعبيد.

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نضيجٌ في قدور، ولحم آخر نيء قذر خبيث، فجعلوا يأكلون من النّيء، ويدعون النَّضيج الطيِّب فقال: «ما هؤلاء يا جبرئيل؟» قال: هذا الرجلُ من أمتك تكون عنده المرأةُ الحلالُ الطيب، فيأتي امرأةً خبيثة فيبيتُ عندها حتى يصبح، والمرأة تقومُ من عند زوجها حلالاً طيباً، فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تصبح.

قال: ثم أتى على خشبة في الطريق لا يمرُّ بها ثوب إلا شقَّته، ولا شيء إلا خرقته، فقال: «ما هذا يا جبرئيل» قال: هذا مثلُ أقوام من أمتك يقعدون في الطَّريق فيقطعونه، أي: عن الخير. ثم قرأ ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٦] الآية. ثم أتى على رجلٍ قد جمع حزمةً من حطب عظيمةً، لا يستطيع حملها، وهو يزيدُ عليها. فقال: «ما هذا يا جبرئيل» قال: هذا الرجل من أمتك تكون عنده أماناتُ الناس لا يقدر على أدائها، وهو يزيدُ عليها، ويريدُ أن يحملَها فلا يستطيع ذلك.

ثم أتى على قوم تُقرَض ألسنتهم وشفاههم بمقاريضَ من حديد، كلما

قُرِضت عادتْ كما كانت، لا يُفَتَّر عنهم من ذلك شيء. قال: «ما هؤلاء يا جبرئيل؟» فقال: هؤلاء خطباءُ أمتك، خطباءُ الفتنة، يقولون ما لا يفعلون.

ثم أتى على جحرٍ صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثورُ يريدُ أن يرجعَ من حيث خرجَ فلا يستطيع. فقال: «ما هذا يا جبرئيل؟» قال: هذا الرجل يتكلَّم بالكلمة العظيمة، ثم يندم عليها، فلا يستطيعُ أن يردَّها[(١)].

وروى البيهقي عن عطاء بن السَّائب من رواية حمَّاد بن زيد، وروايته عنه جيدة، كما قال النَّسائي فيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «لما أُسْرِي بي مرت بي رائحة طيبة، فقلت: ما هذه الرائحة؟ قالوا: ماشطةُ ابنة فرعون وأولادُها. سقط مشطها من يدها، فقالت: باسم الله. فقالت بنت فرعون: أبي؟ قالت: ربِّي وربُّك وربُّ أبيك. قالت: أولك ربٌّ غيرُ أبي؟ قالت: نعم ربِّي وربُّك وربُّ أبيك: الله. قال: فدعاها، فقال: ألك ربٌّ غيري؟ قالت: نعم ربِّي وربُّك الله. قال: فأمر ببقرةٍ من نحاس فأحميت، ثم أمر بها لتلقى فيها، قالت: إنَّ لي إليك حاجة. قال: ما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي في موضع. قال: ذاك لك لما لك علينا من الحق. قال: فأمر بهم، فأُلقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم، فقال: قعي يا أمَّه! ولا تقاعسي، فإنَّا على الحقّ»[(٢)].

وروى ابن جرير عن ابن شهاب قال: أخبرني ابن المسيّب، وأبو سلمة ابن عبد الرحمن: أنَّ رسول الله ﷺ أُسري به على البراق، وهي دابة إبراهيم التي كان يزور عليها البيت الحرام، فمرّت بعيرٍ من عيران قريش بوادٍ من تلك الأودية، فنفرت العير، وفيها بَعيرٌ عليه غرارتان سوداء وزرقاء، حتى أتى رسول الله ﷺ إيلياء (القدس) فأتي بقدحين قدح خمر وقدح لبن فأخذ

---

(١) تفسير ابن جرير (١٥/٦).
(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٢/٣٨٩).

رسول الله ﷺ قدح اللبن، فقال له جبرئيل: هديت إلى الفطرة؛ لو أخذت قدح الخمر غَوَتْ أمتك.

وروى ابن جرير من طريق أبي جعفر الرازي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ثم أتي النبي ﷺ بآنية ثلاثة، مغطاةٍ أفواهها، فأتي بإناء منها فيه ماء، فقيل: اشرب، فشرب منه يسيراً، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن، فقيل له: اشرب، فشرب منه حتى روي، ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر، فقيل له: اشرب. فقال: لا أريده فقد رويتُ، فقال له جبرئيل ﷺ: أما إنها ستحرَّم على أمتك، ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا القليل[١].

وقال عليه الصلاة والسلام. «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء (أي في بيت المقدس) فحانت الصَّلاة فأممتهم، وفي نعت بعضهم: قال: «حين أُسري بي لقيت موسى، فإذا رجلٌ مضطربٌ رَجِل الرأس كأنه من رجال شنوءة. قال: ولقيت عيسى، فإذا ربعةٌ أحمر كأنما خرج من ديماس (حمّام)، وقال: ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه، وأنا أشبه ولده به» الحديث[٢].

وعند مسلمٍ قال النبي ﷺ: «حتى أتيت بيت المقدس قال: فربطتُه بالحلقة التي يربطُ به الأنبياء. قال: ثم دخلتُ المسجد فصلَّيت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترتُ اللبن. فقال جبريل ﷺ: اخترتَ الفطرة.

ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل عليه السلام. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بآدم، فرحَّب بي، ودعا لي بخير. وفي رواية لمسلم أيضاً: قال ﷺ: فلما علونا السَّماء الدُّنيا، فإذا رجلٌ عن يمينه

---

(١) تفسير ابن جرير (١٥/٨).
(٢) دلائل النبوة (٢/٣٥٨).

أَسْوِدَةٌ، وعن يساره أسودة. قال: فإذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى. قال: فقال: مرحباً بالنبي الصَّالح والابن الصَّالح. قال: قلت: يا جبريل! مَن هذا؟ قال: هذا آدم ﷺ، وهذه الأسودةُ عن يمينه وعن شماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين أهلُ الجنّة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ شِماله بكى.

ثم عَرَج بنا إلى السَّماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام. فقيل: مَن أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بعث إليه. فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بابنَيْ الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى ابن زكرياء صلوات الله عليهما. فرحّبا، ودعوا لي بخير.

ثم عَرَج بي إلى السَّماء الثّالثة. فاستفتح جبريل. فقيل: مَن أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أُعطي شطر الحُسْنِ، فرحَّب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قال: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحّب ودعا لي بخير. قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ١٩/٥٧] ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة. فاستفتح جبريل. قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون ﷺ، فرحّب، ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بموسى ﷺ: فرحَّب، ودعا لي بخير.

ثم عرج إلى السَّماء السابعة، فاستفتح جبريل. فقيل: من هذا؟ قال:

جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور.

وعند ابن جرير: فإذا هو برجلٍ أشمط (وهو الشيب في اللحية إذا خالط سوادها) جالسٍ عند باب الجنة على كرسيٍّ، وعنده قومٌ جلوسٌ، بيضُ الوجوه، أمثال القراطيس، وقومٌ في ألوانهم شيء. فقام هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، فدخلوا نهراً، فاغتسلوا فيه، فخرجوا، وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخر، فاغتسلوا فيه، فخرجوا، وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، فصارت مثل ألوانِ أصحابهم، فجاؤوا، فجلسوا إلى أصحابهم. فقال: يا جبريل! من هذا الأشمط؟ ثم مَن هؤلاء البيضُ وجوههم؟ ومَن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء؟ وما هذه الأنهار التي دخلوا فجاؤوا وقد صفت ألوانهم؟ قال: هذا أبوك إبراهيم أوَّل من شمط على الأرض، وأما هؤلاء البيض الوجوه، فقومٌ لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، فقومٌ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتابوا، فتاب الله عليهم، وأما الأنهار فأوَّلها رحمة الله، وثانيها نعمةُ الله، والثالث: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[1] [الإنسان: ٧٦/ ٢١]. اهـ.

وتتمة الحديث عند مسلم: وإذا هو (أي: البيت المعمور) يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى السِّدرة المنتهى[2]، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقِلال[3]. قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيّرت، فما أحدٌ من خَلقْ الله يستطيع أن ينعتها من حُسْنها.

وفي البخاري: في أصلها: أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران،

---

(١) تفسير ابن جرير (٨/١٥).
(٢) هكذا في الأصل بالألف واللام.
(٣) جمع قُلّة، وهي: الجرّة الكبيرة.

فسألت جبريل: فقال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران النيل والفرات[١].

قال: فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاةً في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ، فقال: ما فرض ربُّك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني بَلَوْتُ بني إسرائيل، وخَبَرتُهم. قال: فرجعتُ إلى ربي، فقلت: يا رب! خفّف عن أمتي. فحطَّ عني خمساً، فرجعتُ إلى موسى فقلت: حطَّ عني خمساً. قال: إنَّ أمتك لا يطيقون ذلك، فارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزلْ أرجعُ بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام، حتى قال: يا محمّد! إنّهن خمس صلوات كل يوم وليلة، بكل صلاة عشرٌ، فذلك خمسون صلاة. ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً. ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتبْ شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته، فقال: ارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف[٢]. فقال رسول الله ﷺ: فقلت: قد رجعتُ إلى ربي حتى استحييت منه. وفي رواية البخاري: فنودي: إني قد أمضيتُ فريضتي، وخفّفتُ عن عبادي، وأجزي الحسنة عشراً[٣].

قال ابنُ كثير رحمه الله تعالى: حصل للنبي عليه الصلاة والسلام التكليم من الربّ عز وجل ليلتئذ، وأئمة السنّة كالمطبقين على هذا.

واختلفوا في الرؤية، فقال بعضُهم: رآه بفؤاده مرّتين، قاله ابن عباس، وطائفة. وأطلق ابن عباسٍ وغيره الرؤية، وهو محمول على التقييد، أي: بالفؤاد.

---

(١) بخاري (٤/ ١٣٤).
(٢) مسلم (١/ ١٤٥).
(٣) بخاري (٤/ ١٣٥).

ومن أطلق الرؤية: أبو هريرة رضي الله عنه، والإمام أحمد رحمه الله تعالى.

وصرَّح بعضُهم بالرؤية بالعينين، واختاره ابن جرير، وبالغ فيه، وتبعه على ذلك آخرون من المتأخرين. وممن نصَّ على الرؤية بعيني رأسه: الشيخ أبو الحسن الأشعري فيما نقله السُّهيلي عنه، واختاره الشيخ أبو زكريا النووي في فتاويه.

وقالت طائفة: لم يقعْ ذلك لحديث أبي ذرٍّ في صحيح مسلم، قلت: يا رسول الله! هل رأيت ربك؟ فقال: «نورٌ أنّى أراه؟!» وفي رواية: «رأيت نوراً».

ثم هبط رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، والظَّاهر أن الأنبياء هبطوا معه تكريماً له، وتعظيماً عند رجوعه من الحضرة الإلهية العظيمة كما هي عادة الوافدين.

وأمَّهم ﷺ ثانيةً في بيت المقدس. ثمّ خرج منه، فركب البراق، وعاد إلى مكة، فأصبح بها وهو في غاية الثَّبات، والسَّكينة، والوقار[1]، وقد عاين في تلك الليلة من الآيات، والأمور التي لو رآها، أو رأى بعضها غيرُه لأصبح مندهشاً. ولكنه ﷺ أصبح ساكناً واجماً يخشى إن بدأ فأخبر قومه بما رأى أن يبادروا إلى تكذيبه، فتلطَّف بإخبارهم أولاً بأنه جاء بيت المقدس في تلك الليلة.

وذلك: أنَّ أبا جهل ـ لعنه الله ـ رأى رسول الله ﷺ في المسجد الحرام، وهو جالسٌ واجم، فقال له: هل من خبر؟ فقال: «نعم!» فقال: وما هو؟ فقال: «إني أُسري بي الليلة إلى بيت المقدس». قال: إلى بيت المقدس؟ قال: «نعم!» قال: أرأيت إن دعوتُ قومَك لك لتخبرهم أتخبرهم بما أخبرتني به؟ قال: «نعم!» فأراد أبو جهل جمع قريشٍ ليسمعوا منه ذلك، وأراد رسول الله ﷺ جمعَهم ليخبرهم ذلك ويبلِّغهم. فقال أبو جهل: هيا

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ١١١).

معشر قريش! وقد اجتمعوا من أنديتهم. فقال: أخبر قومك بما أخبرتني به، فقصَّ عليهم رسول الله ﷺ خبرَ ما رأى، وأنه جاء بيت المقدس هذه الليلة، وصلَّى فيه، فمن بين مصفِّقٍ وبين مصفِّرٍ تكذيباً له، واستبعاداً لخبره. وطار الخبرُ بمكة؛ وجاء الناسُ إلى أبي بكر رضي الله عنه، فأخبروه أن محمداً ﷺ يقول كذا وكذا.

فقال: إنكم تكذبون عليه، فقالوا: والله! إنه ليقوله. فقال: إن كان قاله فلقد صدق، فما يُعَجِّبكم من ذلك! فوالله! إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه.

ثم جاء إلى رسول الله ﷺ وحوله مشركي قريش، فسأله عن ذلك، فأخبره، فاستعلمه عن صفات بيت المقدس ليسمع المشركون، ويعلموا صدقه فيما أخبرهم به.

وفي مسلم: «لقد رأيتُني في الحِجْر، وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكَرِبتُ كربةً ما كربت مثلها قط. قال: فرفعه اللهُ لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به.

وله أيضاً من حديث جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «لما كذّبتني قريش قمتُ في الحجر، فجلا اللهُ لي بيت المقدس، فطفقتُ أخبرهم عن آياته، وأنا أنظُر إليه»[1].

وجعل أبو بكر يقول: صدقت، أشهد أنك رسول الله، كلما وصف له منه شيئاً قال: صدقت، أشهد أنك رسول الله، حتى إذا انتهى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «وأنت يا أبا بكر الصّدّيق!» فيومئذ سماه الصّدّيق.

وارتدَّ من ارتدَّ يومئذٍ عن الإسلام لذلك. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا

---

(١) مسلم (١/١٥٦).

﴿ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٠].

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٠] قال: هي رؤيا عين أُرِيَها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس[١].

فوائد على هامش الإسراء والمعراج:

* أخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ منذ أُسري به ريحه ريح عروس، وأطيب من ريح عروس.

* كان تكريمُ الله تعالى نبيّه ﷺ بمناجاته جل وعلا ليلة الإسراء والمعراج على سبيل المفاجأة من غير سابق موعد، وتكريمه سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بميعاد واستعداد، فكان موسى عليه الصلاة والسلام مريداً، وكان رسول الله ﷺ مراداً.

* البراقُ مركبُ إبراهيم عليه السلام حين كان يزور إسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام في مكة.

* صلى رسول الله ﷺ في بيت المقدس قبل العروج وبعده، ولم تكن الصلاة من المفروضة عليه.

* الأنبياء يصلُّون في قبورهم.

روى مسلم عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مررتُ على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر، وهو قائمٌ يصلِّي في قبره»[٢].

* كيف يصلِّي الأنبياء وهم أمواتٌ في الدار الآخرة، وليست دار عمل؟

الأنبياءُ أفضلُ من الشهداء، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، والأنبياءُ أحياء في قبورهم كما نصَّ عليه البيهقي، وصلاتهم في القبور قربان لله

---

(١) بخاري (٥/ ٦٩).

(٢) مسلم (٤/ ١٨٤٥).

تعالى، ويكتب لهم بها ثواب كالأحياء، وحياتهم البرزخية ينسحبُ عليها حكم الدنيا من حيث الاستكثار من الأعمال، وزيادة الأجور فحسب.

والذي ينقطعُ بموتهم وانتقالهم: التكليف. وأعمالهم التي يقومون بها من غير تكليف على سبيل التلذُّذ، والتذلُّل لله تعالى.

* رؤيةُ النَّبي ﷺ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في السماء محمولةٌ على رؤية أرواحهم إلا عيسى عليه السلام، فإنه رآه جسداً وروحاً، وكذلك رؤيته ﷺ إياهم في بيت المقدس والأرواح تشكّل بصورة أجسادها.

* عرض الشّراب على رسول الله ﷺ مرتين مرةً قبل العروج، ومرة بعد العروج، وتحريمه ﷺ الخمر على نفسه قبل نزول تحريمها، موافقة الصَّواب في علم الله تعالى.

* الفطرة تُطلق على الإسلام، وتُطلق على أصل الخلقة. فقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» يعني: الإسلام. وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٠] وقول جبريل عليه السلام للنبي ﷺ حين اختار اللبن: اخترت الفطرة، يعني: أصل الخلقة، فاللبن بنيت عليه الخلقة، واللحم ينبت به.

* البراق مركب النبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، ومن بيت المقدس إلى مكة. وعروجه ﷺ إلى السموات كان بواسطة المعراج، وهو سُلَّم ترتقي فيه أرواحُ المؤمنين.

وترقي النبي ﷺ، وقطعه المسافات الشاسعة لإظهار مكانته عند أهل السموات، وأنه أفضل المخلوقات. روى إسحاق، والبزار بسند صحيح عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين السماء والأرض خمسمئة عام، وغلظ كل سماء خمسمئة عام، كذلك إلى السماء السابعة، والأرضون مثل ذلك».

وروى الإمام أحمد، والترمذي، وحسّنه قريباً منه[١].

ولتعلم أنَّ الربَّ سبحانه وتعالى كان قبل أن يخلقَ العرش، والجهات وكل ما سواه حادث، والحادث لا يحتاج، ولا يفتقر إليه محدثه سبحانه وتعالى، وهو سبحانه غنيٌّ عن كلِّ ما سواه، ومفتقرٌ إليه كلُّ ما عداه، ولم يزلْ على استغنائه عن مخلوقاته ولا يزال، ومحالٌ أن يكون خالقُ الكلِّ مفتقراً إلى بعض مخلوقاته.

وما ورد من الاستواء والنُّزول وغير ذلك من المتشابهات نؤمن به، ونكِلُ علم معناه إلى الله تعالى، ولا نشبهه تعالى بخلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١١] ونثبت الصفات التي أثبتها لنفسه، وأثبتها رسول الله ﷺ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١١].

* ينبغي للمستأذن بالدخول إذا سُئِل عن هويته بـ«مَن؟» أن يُسمِّي نفسه، كما فعل جبريل عليه السلام حين استأذن بالدخول على أهل السموات، ولا يقول: أنا، وقد أنكر النبيُّ ﷺ على الذي استأذن بالدُّخول، فقال رسول الله ﷺ: «من هذا؟» فجعل الرجلُ يقول: أنا. فقال النبي ﷺ: «أنا، أنا؟!» إنكاراً لذلك، ولأن كلمة «أنا» غير كافية في البيان.

* القادم يسلِّم على المقيم، كما سلَّم جبريل على أهل السموات.

* رؤية النبي ﷺ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليلة الإسراء تحتمل وجوهاً:

الأول: أن يكون ﷺ رأى كلَّ نبيٍّ منهم في قبره في الأرض على الصورة التي أخبر عنها من الموضع الذي عاينه فيه، فيكون الله عز وجل قد أعطاه من القوّة في البصر والبصيرة ما رأى آدم عليه السلام في الأرض وهو في السماء الأولى، وإبراهيم عليه السلام في الأرض وهو في السماء

---

(١) مسند أحمد بشرح البنا (٥/ ٢٠).

السابعة مسنداً ظهره للبيت المعمور بما عمر به البيت الحرام.

الثاني: أن يكون ﷺ رأى أرواحَهم في السماء في صورهم، وأرواحُ الأنبياء في أعلى عليّين.

الثالث: وردت روايةٌ، وهي: «بَعْثُ آدم فمن دونه من الأنبياء» وهي تفيدُ رَفْعَهم من قبورهم لتلك المواضع إكراماً لنبيّه ﷺ. والقدرةُ صالحةٌ، لكن نفاها بعضُ أهل العلم، والله أعلم.

* أصلُ النيل والفرات من الجنة، ويخرجان من أصل سدرة المنتهى، ثم يسيران حيث شاء الله تعالى، ثم ينزلان إلى الأرض، وكيفية نزولهما إليها بعلم الله تعالى ثم يسيران في الأرض. قال ابن كثير: إن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة في صفائها، وعذوبتها، وجريانها.

* سدرة المنتى شجرةٌ خارج الجنة، وهو قولُ العزِّ بن عبد السلام.

* خصَّ فرض الصلاة بليلة الإسراء والمعراج؛ لأن رسول الله ﷺ رأى تعبُّد الملائكة تلك الليلة، وأن منهم القائم، فلا يقعد، ومنهم الراكع، فلا يسجد، ومنهم الساجد، فلا يرفع، فجمع اللهُ تعالى له ولأمته تلك العبادات كلّها في ركعة واحدة، يصلِّيها العبد بشرط الطمأنينة، والإخلاص. ثم إنها فُرِضت في الحضرة القدسيَّة المطهَّرة؛ ولذا كانت الطَّهارةُ من شأنها، وهي مناجاةُ الربِّ تعالى، والله تعالى مقبلٌ بوجهه على المصلِّي يناجيه.

* اعتناء موسى عليه السلام بهذه الأمة، وحرصه على التَّخفيف عنها، وإلحاحه على نبيِّها أن يشفع لها، ويسأل التخفيف عنها حين علم صفات أمَّة محمد ﷺ في الألواح، وسأل أن تكون أمته، وجعل يدعو ويقول: اللهم اجعلهم أمتي، فيقال له: تلك أمّة محمد، فقال: اللهم اجعلني من أمة محمد ﷺ.

وقد تكررتْ شفاعةُ النبي ﷺ في أمته في قصة فرض الصلاة إلى تمام المقصود، وصحَّت مراجعتُه المتكررة حين علم أن الأمر في كل مرة لم يكن على سبيل الإلزام بخلاف المرة الأخيرة، ففيها ما يشعر بذلك لقوله تعالى: إني قد أمضيتُ فريضتي، وخفَّفتُ عن عبادي.

* القدر على قسمين: قسم قدّره، وهو قابل للرد والتغيير بدعاء وغيره، كفرضه تعالى الخمسين صلاة، فأمر بها أوّلاً، وسبقت إرادته بعدم إنفاذه، فجعل بحكمته تعالى موسى عليه السلام سبباً لرفع ذلك هنالك. وقسم: قدّره، وقدّر إنفاذه، ولا يرده دعاءٌ ولا غيره، كفرض خمس صلوات، ، فلما أمر بها، وسبقت إرادتُه بإمضائها، وإنفاذها، لم ينفع كلام موسى عليه السلام إذ ذاك، فإنه من المقدر المحتوم غير القابل للنسخ.

* تكليف ما لا يستطاع جائز وواقع، فقد كلَّف الله تعالى نبيه ﷺ وأمته بخمسين صلاة، ثم خفّف عنهم ذلك، ونسخه إلى خمس صلوات قبل أن يتمكن ﷺ وأمته من فعله.

والله سبحانه وتعالى كلَّف إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم خفّف عنه ذلك، ونسخه إلى الفداء قبل أن يتمكن ﷺ من فعله.

* من الآيات الكبرى التي رآها عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء والمعراج: جبريل عليه السلام على صورته، الجنة، النّار، مالك خازن النار، رضوان خازن الجنة، البيت المعمور، سدرة المنتهى، الدّجّال.

صلاة جبريل عليه السلام بالنبي ﷺ صبيحة ليلة الإسراء:

روى أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمّني جبريلُ عليه السلام عند البيت مرّتين، فصلّى بي الظهر حين زالت الشمس، وكانت قدر الشراك. وصلَّى بي العصر حين كان ظِلُّه مثلَه، وصلّى بي ـ يعني: المغرب ـ حين أفطر الصَّائم، وصلَّى بي العشاء حين

غاب الشَّفق، وصلى بي الفجر حين حَرُم الطعام والشراب على الصَّائم.

فلما كان الغد صلَّى بي الظهر حين كان ظلُّه مثلَه، وصلّى بي العصر حين كان ظلُّه مثلَيْه، وصلّى بي المغرب حين أفطر الصائم، وصلّى بي العشاء إلى ثلث الليل، وصلّى بي الفجر فأسفر. ثم التفت إليَّ فقال: يا محمد! هذا وقتُ الأنبياء من قبلك، والوقتُ ما بين هذين الوقتين»[١].

وقول جبريل: هذا وقتُ الأنبياء من قبلك؛ يوهم أنَّ هذه الصلوات في هذه الأوقات مشروعة لمن قبله من الأنبياء، وليس كذلك، إنما معناه: هذا وقتُك المشروعُ لك، يعني: الوقت الموسَّع المحدود بطرفين الأوّل والآخر، ووقت الأنبياء قبلك، فصلاتهم كانت واسعةَ الوقت، وذات طرفين مثل هذا. قاله أبو بكر بن العربي.

أصل فرضية الصلاة:

والصلاة فرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم زيدت عقب الهجرة إلا الصبح.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: الصلاة أول ما فرضت ركعتين، فأقرّت صلاة السفر، وأتمّت صلاة الحضر[٢].

وروى ابن خزيمة، وابن حِبّان، والبيهقي عنها رضي الله عنها قالت: فُرِضت صلاة السفر والحضر ركعتين ركعتين، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة واطمأنَّ، زيد في صلاة الحضر ركعتان، وتركت صلاة الفجر لطول القراءة، وصلاة المغرب لأنها وتر[٣].

* * *

(١) سنن أبي داود (١/ ١٠٧).

(٢) بخاري (٢/ ٥١).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٠٦).

الفصل الثالث

الهجرة النبوية الشريفة

روى البخاري عن أبي موسى عن النبي ﷺ:

«رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرضٍ بها نخل، فذهب وَهْلي إلى أنها اليمامة، أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب»[١].

وَهْلي: وَهمي. اليمامة: الرياض. هجر: البحرين.

وروى أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بُعِثَ رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرةَ سنةً يوحى إليه، ثم أُمِرَ بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابنُ ثلاث وستين[٢].

وروى الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، عن عبد الله بن عديّ بن حمراء قال: رأيتُ رسول الله ﷺ واقفاً على الحَزْوَرَة فقال: «والله إنكِ لخير أرض الله، وأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجتُ منك ما خرجت»[٣].

الأنصار في التاريخ:

الأنصار في التاريخ الإسلامي كلمة تُطلق على أهل المدينة الذين نصروا رسول الله ﷺ، وآمنوا بدعوته، وآووه وأصحابه المهاجرين، والذين سمَّاهم به الله جل جلاله.

والأنصار حزبان: بنو الأوس، وبنو الخزرج، والأوس لغةً: العطيةُ، والعوض. والخزرج لغةً: الريح الباردة، أو الريح الشديدة.

---

(١) بخاري (٥/ ٧١).
(٢) بخاري (٥/ ٧٣).
(٣) ترمذي (٥/ ٣٩٠).

والأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، من ذريّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. قاله الزبير بن بكار، ورجّحه الحافظ ابن حجر.

حبّ الأنصار:

الأنصار: اسم سمَّى الله تعالى به أهلَ المدينة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٨/ ٧٤] وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٩].

فحبُّ الأنصار فرضٌ على كل من قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

روى البخاري ومسلم عن أنس أن النبي ﷺ رأى صبياناً ونساءً مقبلين من عُرسٍ، فقام نبيُّ الله ﷺ مُمْثِلاً[١]، فقال: «اللهم أنتم من أحبِّ الناس إليَّ، اللهم أنتم من أحبِّ الناس إليَّ»[٢] يعني: الأنصار.

وروى البخاري عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأنصار كَرِشي وعَيْبَتي، وإن الناس سيكثرون ويقلُّون، فاقبلوا من محسنهم، واعفوا عن مسيئهم»[٣].

الكرش: مستقر غذاء الحيوان الذي يكون به بقاؤه. العَيْبَة: وعاءٌ مثل

---

(١) قائماً منتصباً.
(٢) مسلم (٤/ ١٩٤٨).
(٣) بخاري (٥/ ٤٠).

الحقيبة يحفظُ الإنسانُ فيها متاعَه وفاخر ثيابه. وكأنه ﷺ قصد بكرشي وعيبتي: جماعتي، وخاصَّتي.

وروى البخاري عن البراء قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «الأنصار لا يحبُّهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبَّه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»(١).

وروى أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «آيةُ الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»(٢).

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قالت الأنصار يوم فتح مكة، وأعطى قريشاً: والله! إن هذا لهو العجب! إنَّ سيوفَنا تقطرُ من دماء قريش، وغنائمنا تُرَدُّ عليهم!.

فبلغ ذلك النبي ﷺ فدعا الأنصار. قال: فقال: «ما الذي بلغني عنكم؟» وكانوا لا يكذبون. فقالوا: هو الذي بلغك؛ قال: «أولا ترضون أن يرجِع الناس بالغنائم إلى بيوتهم، وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم؟! لو سَلَكَتِ الأنصار وادياً، أو شِعباً لَسَلَكْتُ واديَ الأنصار، أو شِعبهم»(٣).

وروى الإمام أحمد عن أبي قتادة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول على المنبر للأنصار: «إنَّ الناس دثاري، والأنصار شعاري»(٤).

الشِعار: الثوب الذي يلي البدن مباشرة.

بدء إسلام الأنصار:

كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب في المواسم بعد

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) بخاري (٥/ ٣٨).
(٤) مسند أحمد بشرح البنا (٢٢/ ١٧١).

رجوعه من الطائف، يدعوهم إلى الله عز وجل، ويخبرهم أنه نبي مرسل.

روى الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، عن ربيعة بن عباد الدؤلي قال: رأيتُ رسول الله ﷺ بمِنى في منازلهم (أي الحجيج) قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول: «يا أيها الناس! إن الله يأمركم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً» قال: ووراءه رجل يقول: يا أيها الناس! إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم، فسألت: من هذا الرجل؟ قيل: أبو لهب.

وروى الحاكم عن ابن أبي الزناد عن ربيعة، وأقره الذهبي، قال: رأيتُ رسول الله ﷺ في الجاهلية بسوق ذي المجاز، وهو يقول: «يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» قال: يُردِّدها مراراً، والناس مجتمعون عليه يتبعونه. وإذا وراءه رجل أحول، ذو غديرتين، وضيء الوجه، يقول: إنه صابىء كاذب. فسألت: من هذا؟ فقالوا: عمّه أبو لهب[١].

من صور الدعوة:

قال الصالحي رحمه الله تعالى في «السبل»:

روى أبو زرعة الرازي في «دلائل النبوة» له بسند حسن، والحاكم، وصححه عن معاذ بن رفاعة، عن أبيه، عن جده رافع بن مالك بن العجلان: أنه خرج هو، وابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة، فلما هبطا من الثنيّة رأى رجلاً تحت شجرة قال: وهذا قبل خروج السِّتَّة من الأنصار، فلما رأيناه قلنا: نأتي هذا الرجل لنستودعه راحلتنا حتى نطوفَ بالبيت، فجئنا فسلَّمنا عليه تسليمَ أهل الجاهلية، فردَّ علينا تسليم أهل الإسلام، وقد سمعت بالنبي فأنكرنا، فقلنا: من أنت؟ قال: «انزلوا»، فنزلنا، فقلنا: أين هذا الرجل الذي يدّعي ما يدّعي، ويقول ما يقول؟ قال: «أنا هو» قلنا: اعرضْ علينا الإسلام، فعرض، وقال: «مَن خلق السموات، والأرض، والجبال؟» قلنا:

---

(١) المستدرك (١/ ١٥).

خلقهنّ الله عزّ وجل. قال: «فمن خلقكم؟» قلنا: الله عزّ وجل. قال: «فمن عمل هذه الأصنام التي تعبدون؟» قلنا: نحن. قال: «الخالق أحق بالعبادة أو المخلوق؟» قلنا: الخالق. قال: «فأنتم أحقُ أن تعبدوا ربكم وأنتم عملتموهن، والله أحق أن تعبدوه من شيء عملتموه، وأنا أدعوكم إلى عبادة الله عز وجل وشهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وصلةِ الرَّحم، وترك العدوان، وإن غضب الناس». فقالا: لو كان هذا الذي تدعو إليه باطلاً كان من معالي الأمور، ومحاسن الأخلاق، فأمسك راحلتنا حتى نأتي البيت. فجلس عنده معاذ بن عفراء. قال: رافع: فجئتُ البيت، فطفتُ، وأخرجت سبعةَ قداح، وجعلت له بينها قِدْحاً، فاستقبلت البيت، وقلت: اللهم! إن كان ما يدعو إليه محمد حقاً فأخرج قِدْحَه سبع مرات، فضربت بها سبع مرات، فصحتُ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» فاجتمع الناسُ عليَّ، وقالوا: مجنون، رجلٌ صبأ. فقلت: بل رجل مؤمن، ثم جئتُ إلى رسول الله ﷺ بأعلى مكة، فلما رآني معاذ بن عفراء قال: لقد جئتَ بوجهٍ ما ذهبتَ به يا رافع! قال: لقد جئت، وآمنت.

طلائع المسلمين في المدينة:

حضر موسمَ الحج نفرٌ من أهل المدينة فيهم: معاذ بن عفراء، وأسعد ابن زرارة، ورافع بن مالك بن العجلان، وذكوان بن عبد قيس، وعبادة بن الصامت، وأبو عبد الرحمن بن ثعلبة، واسمه يزيد، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويم بن ساعدة. فأتاهم رسول الله ﷺ فأخبرهم خبره، والذي اصطفاه الله به من كرامته ونبوته، وقرأ عليهم القرآن، فلما سمعوا قوله أيقنوا به، واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا منه، وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من صفته، فصدَّقوه، واتبعوه، وكانوا من أسباب الخير الذي سُبِّبَ له ﷺ.

ثم قالوا: قد علمت الذي بين الأوس والخزرج من الاختلاف، وسفك الدماء، ونحن حِراصٌ على ما أرشدك الله به، مجتهدون لك بالنَّصيحة، وإنا

نشيرُ عليك برأينا، فامكث على رِسلك باسم الله حتى نرجعَ إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك، وندعوَهم إلى الله ورسوله، فلعل الله عز وجل أن يصلح ذات بينهم، ويجمعَ لهم أمرهم، فإنّا اليوم متباغضون، متباعدون، وإنك إن تقدم علينا ولم نصطلحْ لا يكون لنا جماعةٌ عليك، ولكنّا نواعدك الموسم من العام المقبل.

فرضي بذلك رسول الله ﷺ، فرجعوا إلى قومهم، فدعوهم سرّاً، وأخبروهم برسول الله ﷺ[1].

بيعة العقبة الأولى:

قال ابنُ إسحاق: فلما كان العامُ المقبل وافى الموسمَ من الأنصار اثنا عشر رجلاً، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث بن رفاعة، ومعاذ بن الحارث، ورافع بن مالك بن العجلان، وذكوان بن عبد قيس، وعبادة بن الصامت، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة بن نضلة، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عامر، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويم بن ساعدة، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء.

روى البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترضَ علينا الحرب على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال: «فمن وفى ذلك منكم فأجره على الله» وفي لفظ: «فله الجنة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة وطهور، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله إن شاء عذّب وإن شاء غفر» فبايعناه على ذلك.

فلما انصرف القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير، وأمره أن

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٣٠).

يقرئهم القرآن، ويعلِّمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وأسلم بدعاية مصعب أمراء الأوس: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، ثم أسلم بدعاية سعد بن معاذ: بنو عبد الأشهل.

بيعة العقبة الثانية:

روى الحاكم، وقال: صحيح الإسناد، وصححه الذهبي، عن جابر بن عبد الله الأنصاري: أن النبي ﷺ لبث عشر سنين يتبعُ النَّاسَ في منازلهم في الموسم، ومِجنة، وعُكاظ، ومنازلهم من مِنى: مَن يؤويني؟ مَن ينصرني حتى أبلِّغ رسالات ربي فله الجنّة؟ فلا يجد أحداً ينصره، ولا يؤويه، حتى إنّ الرجلَ لَيرحل من مصر، أو من اليمن إلى ذي رحمه، فيأتيه قومُه، فيقولون له: احذرْ غلامَ قريش لا يفتنك. ويمشي بين رحالهم يدعو إلى الله عز وجل، يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا اللهُ من يثرب، فيأتيه الرجلُ منا فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها رهطٌ من المسلمين يظهرون الإسلام.

وبعثنا الله إليه فائتمرنا، واجتمعنا (سبعين رجلاً منا) وقلنا: حتى متى رسول الله ﷺ يُطرَدُ في جبال مكة ويخاف؟ فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعَدَنا بيعة العقبة. فقال له عمه العباس: يابن أخي! لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاؤوك؟ إني ذو معرفةٍ بأهل يثرب. فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، فلما نظر العباس في وجوهنا قال: هؤلاء قوم لا نعرفهم، هؤلاء أحداث. فقلنا: يا رسول الله! علام نبايعك؟ قال: «تبايعوني على السَّمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمتُ عليكم، وتمنعوني مما تمنعون عنه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنة».

فقمنا نبايعه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو أصغرُ السَّبعين، إلا أنه

قال: رويداً يا أهل يثرب! إنا لم نضربْ إليه أكباد المَطِيِّ إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقةُ العرب كافّة، وقتلُ خياركم، وأن يعضّكم السيف، فإما أنتم قومٌ تصبرون عليها إذا مسَّتكم، وعلى قتل خياركم، ومفارقةِ العرب كافة، فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفةً، فذروه، فهو عذرٌ عند الله عز وجل. فقالوا: يا أسعد! أَمِطْ عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها، قال: فقمنا إليه رجلاً رجلاً، فأخذ علينا ليعطينا بذلك الجنة[١].

رواية ثانية لبيعة العقبة الثانية:

روى البيهقي[٢] عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: خرجنا في الحجة التي بايعنا فيها رسول الله ﷺ بالعقبة مع مشركي قومنا، ومعنا البراء ابن معرور، كبيرنا، وسيدنا. ثم واعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق ليلة النفر الأول إذا هدأت الرّجل أن نوافيه في الشِّعب الأيمن إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة، وأمرهم ألا ينبهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً.

قال كعب: فلما كانت الليلة التي واعدنا فيها رسول الله ﷺ بمنى أول الليل مع قومنا، فلما استثقل الناس في النوم، تسلَّلنا من قريش تسلُّل القطا، حتى إذا اجتمعنا بالعقبة، فأتانا رسول الله ﷺ وعمّه العباس ليس معه غيره، أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه، فكان أوّل متكلِّم فقال:

يا معشر الخزرج! إن محمداً منا حيث قد علمتم، وهو في مَنَعة من قومه وبلاده، قد منعناه ممن هو على مثل رأينا فيه، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم، وإلى ما دعوتموه إليه، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه فأنتم وما تحمَّلتم، وإن كنتم تخشون من أنفسكم خذلاناً فاتركوه في قومه، فإنه في منعة من عشيرته، وقومه.

---

(١) المستدرك (٢/ ٦٢٤).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٤٦).

فقلنا: قد سمعنا ما قلت، تكلَّم يا رسول الله! فتكلم رسول الله ﷺ، ودعا إلى الله عز وجل، وتلا القرآن، ورغَّب في الإسلام، فأجبناه بالإيمان به، والتصديق له، وقلنا له: يا رسول الله! خذْ لربك ولنفسك. فقال: «إني أبايعكم على أن تمنعوني مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم».

فأجابه البراء بن معرور، فقال: نعم والذي بعثك بالحق! لنمنعنّك مما نمنع منه أُزرنا، فبايِعنا يا رسول الله! فنحن والله! أهل الحرب وأهل الحلْقة، ورثناها كابراً عن كابر.

فعرض في الحديث أبو الهيثم بن التّيهان، فقال: يا رسول الله! إن بيننا وبين أقوامٍ حبالاً (يعني: اليهود والحبال: المواثيق والعهود) وإنا قاطعوها، فهل عسيتَ إنْ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك، وتَدَعَنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل الدم الدم، والهدْم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم».

فقال له البراء بن معرور: ابسطْ يدك يا رسول الله! نبايعك، فقال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً» فأخرجوهم له.

فكان نقيب بني النجار: أسعد بن زرارة.

وكان نقيب بني سلمة: البراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام.

وكان نقيب بني ساعدة: سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو.

وكان نقيب بني زريق: رافع بن مالك بن العجلان.

وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج: عبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع..

وكان نقيب بني عوف بن الخزرج: عبادة بن الصامت.

وكان نقيب بني عبد الأشهل: أسيد بن حضير، وأبو الهيثم بن التيهان.

وكان نقيب بني عمرو بن عوف: سعد بن خيثمة.

فكانوا اثني عشر نقيباً التسعة من الخزرج، والثلاثة الأخيرون من الأوس.

وقال رسول الله ﷺ للنقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي». قالوا: نعم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله ﷺ، فضرب عليها، وكان أوَّلَ من بايع، وتتابع الناس، فبايعوا.

روى ابن كثير عن ابن إسحاق حديث كعب بن مالك رضي الله عنه، وفيه قال: فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوتٍ سمعته قط: يا أهل الجباجب! (المنازل) هل لكم في مُذَمَّمٍ والصُّبَّاءِ معه قد اجتمعوا على حربكم.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزبُّ العقبة، هذا ابن أزبب» يعني: الشيطان «أتسمع أي عدوَّ الله؟ أما والله لأتفرَّغنَّ لك» ثم قال رسول الله ﷺ: «ارفضُّوا إلى رحالكم» قال: فقال العباس بن عبادة بن نضلة: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق! إن شئت لنميلنَّ على أهل مِنى غداً بأسيافنا. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا فيها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلَّةُ قريش، حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج! إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعوه على حربنا، وإنه والله! ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

قال: فانبعث مَن هناك من مشركي قومنا يحلفون ما كان من هذا شيء، وما علمناه، قال: وصدقوا، لم يعلموا. قال: وبعضنا ينظرُ إلى بعض. (ثم انصرف الناس من مِنى قافلين).

ثم إن قريشاً دققت النَّظر في الأمر، فوجدوه قد كان، فخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيباً، فأما المنذر فأعجز القوم (فرّ) وأما سعد بن عبادة فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بِنِسْع رحله (النِّسع سير من جلد يشدُّ به الرحل) ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة، يضربونه، ويجذبونه بجمّته، وكان ذا شعر كثير. قال سعد: فوالله! إني لفي أيديهم إذ طلع عليَّ نفرٌ من قريش فيهم رجلٌ وضيء، أبيض، شعشاع، حلو من الرجال، فقلت في نفسي: إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا، فلما دنا مني رفع يده، فلكمني لكمة شديدة، فقلت في نفسي: لا والله! ما عندهم بعد هذا من خير، فوالله! إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى إليَّ رجلٌ ممن معهم، قال: ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش جوارٌ ولا عهد؟ قال: قلت: بلى، والله لقد كنت أُجير لجبير بن مطعم تجارة، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي، وللحارث بن حرب بن أمية، فقال: ويحك! فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما، قال: ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدهما في المسجد عند الكعبة. فقال لهما: إنّ رجلاً من الخزرج الآن ليضرب بالأبطح يهتف بكما. قالا: ومن هو؟ قال: سعدُ بن عبادة. قالا: صدق والله! إن كان ليجير لنا تجّارنا، ويمنعهم أن يظلموا ببلده. قال: فجاءا فخلّصا سعداً من أيديهم، فانطلق.

والرجل الذي لكم سعداً: سهيل بن عمرو، والرجل الذي أوى إليه: أبو البختري بن هشام.

الإذن بالهجرة إلى المدينة:

لما علمت قريش أنه ﷺ أوى إلى قوم أهل حرب، وتحمُّلٍ (أهل المدينة) ضيّقوا على أصحابه، ونالوا منهم ما لم يكن ينالوه من الشتم والأذى، وجعل البلاء يشتدُّ عليهم، وصاروا ما بين مفتونٍ في دينه، وبين معذَّب في أيديهم، وبين هاربٍ في البلاد. شكوا إليه ﷺ، واستأذنوه في

الهجرة، فمكث أياماً لا يأذن لهم، ثم قال لهم: «أُريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابَتَيْنِ»(١).

فأذن لهم، وأمرهم بالخروج إلى المدينة، فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامّةُ مَن كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة. وكانوا يخرجون أرسالاً متتابعين، يخفون ذلك.

ومكث ﷺ بعد أصحابه ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه إلا عليٌّ، وأبو بكر، ومن كان محبوساً، أو مريضاً، أو عاجزاً عن الخروج، وكان أبو بكر رضي الله عنه كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له: «لا تعجل، لعل الله أن يجعل لك صاحباً» فيطمع أبو بكر أن يكون هو.

وحبس أبو بكر رضي الله عنه نفسَه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين عنده الخَبَط (ورق السَّمُر) قرابة الشَّهرين.

ولما رأت قريش أنَّ رسول الله ﷺ صار له أنصارٌ وأصحابٌ من غيرهم، ورأوا خروج أصحابه إليهم، وأنهم أصابوا مَنعةً حَذِروا أن يخرج إليهم رسول الله ﷺ، وأن يجمع على حربهم، فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ، وكانت مَحَلَّ مشورتهم، لا يقطعون أمراً إلا فيها.

ودار الندوة أول دار بنيت بمكة، كانت منزل قصيّ بن كلاب، وكان لها بابٌ للمسجد، وكان لا يدخلها عند المشورة من غير ولد قُصَي إلا ابن أربعين سنة. وسُمِّيت دار النّدوة لاجتماع النديّ (الجماعة) فيها.

واتّعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ، فلما كان اليوم الذي اتعدوا فيه سمي يوم الزحمة؛ لأنه اجتمع فيه أشراف بني عبد شمس، وبني نوفل، وبني عبد الدار، وبني أسد، وبني مخزوم، وبني

---

(١) بخاري (٥/ ٦٢).

سهم، وبني جمح، وغيرهم مما لا يعد من قريش، ولم يتخلّف من أهل الرأي والحِجا أحد.

ثم إنَّ إبليس جاء إليهم في صورة شيخ نجديٍّ عليه طيلسان من خزٍّ وقيل من صوفٍ، وإنما فعل ذلك ليقبل منه ما يشير به؛ لأن أهلَ الطيالسة عادةً من أهل الوقار والمعرفة، ووقف ذلك الشيخ على الباب، فقالوا له: مَن الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اجتمعتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأياً ونصحاً. قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم، وإنما قال لهم من أهل نجد؛ لأن قريشاً قالوا: لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة؛ لأن هواهم كان مع محمد ﷺ.

وقيل: لما سمعهم يقولون: لا يدخل معكم اليوم إلا من هو معكم، قال لهم لمَّا سألوه، وقالوا له: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، وأنا ابن أختكم. فقالوا: ابنُ أخت القوم منهم.

فقال بعضُهم لبعض: هذا من أهل نجد لا من مكة، فلا يضركم حضوره معكم.

وعند المشورة قال بعضهم لبعض:

إنَّ هذا الرجل (يعنون النبي ﷺ) قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنَّا والله! لا نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتَّبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً. فتشاوروا.

فقال قائل: (وهو أبو البختري بن هشام) احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربَّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء حتى يصيبه ما أصابهم من هذا الموت.

فقال الشيخ النجدي: لا والله! ما هذا لكم برأي، والله! لو حبستموه كما تقولون لَيَخْرُجَنَّ أمرُه من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلا تَشُكُّوا أن يثبوا عليكم، فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم

على أمركم. ما هذا برأي، فانظروا رأياً غيره. فتشاوروا.

فقال قائل منهم: (هو الأسود بن ربيعة): نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله! ما نبالي أين يذهب؟

فقال الشيخ النجدي: والله! ما هذا برأي، ألم تَرَوا حُسْنَ حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به. والله! لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يَحُلَّ على حَيٍّ من العرب، فيغلب بذلك عليهم من قوله وحديثه حتى يبايعوه، ثم يسير به إليكم حتى يطأكم بهم، فيأخذوا أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد. دبِّروا فيه رأياً غير هذا. فقال أبو جهل بن هشام: والله! إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: الرأي أن تأخذوا من كل قبيلة شاباً جلداً، (أي: قوياً) حسيباً في قومه نسيباً وسطاً، ثم يُعطى كلُّ فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يغدون إليه، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيقتلونه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً، فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فيرضوا منا بالعَقْل (الديّة) فعقلنا لهم.

فقال النجدي: القول ما قال هذا الرجل، هذا هو الرأي، ولا رأي غيره. فتفرّق القومُ على ذلك.

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال: لا تَبِتْ هذه الليلة في فراشك الذي كنت تبيتُ عليه، وأخبره بمكرهم، وأنزل الله عز وجل عليه: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٠] فلما كانت عتمة من الليل (أي: الثلث الأول) اجتمعوا على باب رسول الله ﷺ يرصدونه حتى ينام، فيثبوا عليه.

فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، وعلم ما يكون منهم، قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «نَمْ على فراشي، واتَّشحْ بردائي هذا الحضرمي، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم».

وكان في القوم الحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، وأبو لهب، وأبو جهل، فقال وهم على باب رسول الله ﷺ: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوكَ العرب والعجم ثم بعثتم بعد موتكم، فَجُعِلَت لكم جنانٌ كجِنان الأُرْدُنّ! وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم نار تحترقون فيها.

وسمعه رسول الله ﷺ فخرج عليهم، وهو يقول: «نعم، أنا أقول ذلك». وأخذ حفنةً من تراب، وتلا قوله تعالى: ﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ٣٦/ ١] إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٩].

فأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلم يروه، وعند خروجه ﷺ جعل ينثر التراب على رؤوسهم، فلم يبق رجلٌ إلا وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد. فأتاهم آتٍ فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمداً. فقال: قد خيَّبكم الله، والله! خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب. ثم جعلوا يطّلعون، فيرون علياً نائماً في الفراش مسجّىً بِبُرْدِ رسول الله ﷺ، فيقولون: والله! إن هذا مُحمَّدٌ نائماً عليه برده، فلم يزالوا كذلك (أي: يريدون أن يوقعوا به الفعل، والله مانع لهم من ذلك حتى أصبحوا، واتضح النهار، فقام علي رضي الله عنه عن الفراش، فقالوا: والله! لقد صَدَقَنا الذي كان حدّثنا، وردَّ الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٥٢/ ٣٠].

وكان ذهابه ﷺ في تلك الليلة إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه، فكان فيه إلى الليل، ثم خرج هو وأبو بكر رضي الله عنه، ثم مضيا إلى جبل ثور.

وقبل تلك الليلة جاء رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر ظهراً، كما جاء في

البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنّعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها. فقال أبو بكر: فداءٌ له أبي وأمّي، والله! ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر. قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأُذن له فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخرج مَن عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلُك (أي: لأنه ﷺ كان عقد على عائشة رضي الله عنها، فأمُّها من جملة أهله، وأختها كذلك) بأبي أنت يا رسول الله! قال: «فإني قد أُذِن لي في الخروج» فقال أبو بكر: الصحابةُ بأبي أنت يا رسول الله! قال رسول الله ﷺ: «نعم» قال أبو بكر: فخذْ بأبي أنت يا رسول الله! إحدى راحلتيَّ هاتين. قال رسول الله ﷺ: «بالثمن».

قالت عائشة: فجهَّزناهما أحثَّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرةً في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعةً من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سُمِّيت ذات النِّطاق، وفي نسخة: النطاقَيْنِ[(١)].

والنطاق: ما تَشُدُّ به المرأةُ وسطها لئلا تعثر في ذيلها على ثوب. وتسميتها بذات النطاقين لما روى البخاري عنها رضي الله عنها نقلاً من السيرة الحلبية، قالت: لم نجد لسفرة رسول الله ﷺ ولا لسقائه ما نربطهما به، فقلت لأبي بكر: لا والله! ما أجد شيئاً أربط به إلا نطاقي. قال: فشقّيه اثنين، واربطي بواحد السقاء وبواحدِ السفرة، ففعلت، فلذلك سُمّيت ذات النّطاقين، أي: سمّاها رسول الله ﷺ، وقال لها: «أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنَّة».

ثم استأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل، وهو عبد الله بن أريقط؛ ليدلهما على الطريق للمدينة، وكان على دين قريش، فدفعا إليه

---

(١) بخاري (٥/ ٧٥).

راحلتيهما، وواعداه على جبل ثور بعد ثلاث ليال، كل ذلك قبل التجهيز، وقبل حلول الظلام.

ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثَور ليلاً، وجعل أبو بكر رضي الله عنه يمشي مرة أمام النبي ﷺ، ومرة خلفه، ومرة عن يمينه، ومرة عن شماله، فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك. فقال: يا رسول الله! أذكر الرَّصَد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك، ومرةً عن يسارك، لا آمن عليك. فمشى ﷺ ليلته على أطراف أصابعه لئلا يظهر أثرُ رجليه على الأرض حتى حفيت رجلاه. فلما رآهما أبو بكر قد حفيتا حمله على كاهله، وجعل يشتدُّ به حتى أتى على فم الغار فأنزله، وقال أبو بكر للنبي ﷺ: والذي بعثك بالحق! لا تدخل حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيءُ نزل بي قبلك. فدخل رضي الله عنه، فجعل يلتمس بيده كلما رأى جُحْراً قال بثوبه فشقّه، ثم ألقمه الحجر حتى فعل ذلك بجميع ثوبه، ثم دخل رسول الله ﷺ.

ولما دخلا الغار أمر الله تعالى شجرة، فنبتت في وجه الغار، فسترته بفروعها، وبعث الله العنكبوت فنسجت ما بين فروعها نسجاً متراكماً بعضه على بعض، وأمر الله تعالى حمامتين وحشيتين، فوقفتا بفم الغار.

ولما فقد المشركون رسول الله ﷺ شقَّ عليهم ذلك، وخافوا، وطلبوه بمكة أعلاها وأسفلِها، وبعثوا القافة (أي: الذين يَقُصّون الأثر) في كل وجه يقفون أثره، فلما كانوا على أربعين ذراعاً من الغار تعجّل بعضهم ينظر في الغار فلم ير إلا حمامتين وحشيتين مع العنكبوت، فقال: ليس فيه أحد، فسمع النبي ﷺ ما قال: فعرف أن الله عز وجل قد درأ عنه.

وفي رواية: لما انتهوا إلى فم الغار قال قائل منهم: ادخلوا الغار. فقال أمية بن خلف: وما أَرَبُكم إلى الغار؟! إنَّ عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد (ﷺ) أي: لو دخل الغار لانفتح ذلك العنكبوت، ثم جاء قبالة فم الغار

فبال، فقال أبو بكر: يا رسول الله ﷺ! إنه يرانا. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر! لو كان يرانا ما فعل هذا». وقال ﷺ: «جزى الله العنكبوت عنا خيراً فإنها نسجت على الغار»(١).

وفي الحديث أيضاً: «العنكبوت شيطان فاقتلوه»(٢) فأحدهما ناسخ والآخر منسوخ، والله أعلم بتقدم أحدهما على الآخر.

وروي أنَّ أبا بكر رضي الله عنه لما رأى قريشاً أقبل نحو الغار، وسمع القائف يقول لقريش: والله! ما جاز مطلوبكم من هذا الغار: حزن، وبكى، وقال: والله! ما على نفسي أبكي، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره، فقال له رسول الله ﷺ؛ «لا تحزن إن الله معنا» وأنزل الله سكينته على أبي بكر رضي الله عنه، وهي الأَمَنَةُ التي تسكن عندها القلوب.

ولما أيست قريش منهما أرسلوا لأهل السَّواحل: أن من أسر، أو قتل أحدهما كان له مئة ناقة.

ومكثا في الغار ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام، يعرف ما يقال، يأتيهما حين يختلط الظلام، ويدلج من عندهما بفجر، فيصبح مع قريش كبائت في بيته، فلا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه، ويخبرهما به. وكان عامر بن فُهيرة مولى أبي بكر يروح عليهما بمنحة غنم، فكان يرعاها حيث تذهب ساعة من العشاء، ويغدو بها عليهما، فإذا خرج من عندهما عبد الله تبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يقفو أثر قدميه، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، وذلك بإرشاد من أبي بكر رضي الله عنه.

وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما تأتيهما إذا أمست بما

---

(١) جامع الأحاديث (٣/ ٧٢٤).
(٢) المصدر السابق (٤/ ٥٩٠).

يصلحهما من الطعام، وبعد مضي الثلاث ليال جاءهما الدليل، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، فأخذ بهم طريق السَّواحل.

وقال رسول الله ﷺ عند خروجه من مكة متوجِّهاً إلى المدينة: «والله! إني لأخرج منك وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله، وأكرمها على الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت».

وأما ما رواه الحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً: «اللهم إنك أخرجتني من أحب البقاع إليَّ، فأسكني في أحب البقاع إليك» فقال الذهبي: إنه موضوع، وقال ابن عبد البر: لا يختلف أهل العلم أنه منكر موضوع.

قال سراقة بن مالك بن جعشم: جاءنا رسلُ كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر ديةَ كل واحد منهما مَن قتله، أو أسره، فبينما أنا جالسٌ في مجلس من مجالس قومي بني مُدلِج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقةُ! إني قد رأيت آنفاً أسودةً بالساحل أُراها محمداً وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بِهم، ولكنك رأيتَ فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعةً، ثم قمت، فدخلت، فأمرتُ جاريتي أن تخرج بفرسي، وهي من وراء أكمة فتحبسَها عليَّ، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت، فحططتُ بزجّه الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيتُ فرسي فركبتها، فرفعتها تقرِّب بي، حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررتُ عنها، فقمت، فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها أَضُرُّهُم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي، وعصيت الأزلام، فجعل فرسي تقرِّب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يُكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخررتُ عنها، ثم زجرتها، فنهضت، فلم تكد تخرج يديها. فلما استوت قائمةً إذا لأثر يديها عنانٌ ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج

الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتُهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم: أنْ سيظهر أمرُ رسول الله ﷺ، فقلت له: إنَّ قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناسُ بهم، وعرضتُ عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني، ولم يسألاني إلا أنه قال: «أخفِ عنّا»[١].

وفي «الإمتاع»: لما قَرُب من رسول الله ﷺ ساخت يدا فرسه في الأرض، فقال: ادع لي يا محمد! أن يخلّصني الله تعالى، ولك عليَّ أن أردَّ عنك الطلب، فدعا، فخلص، فعاد، فتبعهم، فساخت قوائم فرسه في الأرض أشد من الأولى، فقال: يا محمد! قد علمت أن هذا عملك، فادع الله ينجيني مما أنا فيه، فوالله! لأعمِّينَّ على من ورائي من الطلب، فدعا له، فانطلق راجعاً.

قال سراقة: فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة مِن أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ.

ولما رجع سراقة صار يردُّ عنهم الطلب، لا يلقى أحداً إلا ردَّه، فكان سراقة أول النهار جاهداً على رسول الله ﷺ وآخر النهار مَسلحة له، أي: سلاحاً، وفي رواية: قال سراقة: خرجتُ وأنا أحبُّ الناس في تحصيلهما، ورجعت، وأنا أحبُّ الناس في ألا يعلم بهما أحد.

واجتازوا في طريقهم بأم معبد، واسمها عاتكة، وكان منزلها بِقُدَيْد، وهو محلُّ سراقة. وكانت أم معبد امرأة بَرْزَةً (تبرز للناس) جَلْدَةً تحتبي بفناء بيتها، وتطعم، وتسقي، وهي لا تعرفهم، وسألوها لحماً، وتمراً، أو لبناً يشترونه، فقالت: والله! لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القِرى؛ لأنهم كانوا مُسنتين (مجدبين) فقال لها رسول الله ﷺ: «يا أمَّ معبد! هل عندك من لبن؟»

---

(١) بخاري (٥/ ٧٦).

قالت: لا والله! فرأى شاةً خلَّفها الجهد عن الغنم (لم تطق اللحاق بالغنم لما بها من الهزال) قال: «هل بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال: أتأذنين في حِلابها؟» قالت: والله! ما ضربها من فحل قطّ، فشأنك بها، إن رأيت منها حلباً فاحْلبها، فدعا بها، فمسح ظهرها بيده، وفي رواية: فمسح بيده ضرعها، وظهرها، وسمَّى الله تعالى، وقال: «اللهم! بارك لنا في شاتنا» فدرّت، واجترّت، وتفاجّت، أي: فتحت ما بين رجليها للحلب، ثم دعا بإناء يُربِض (يُروي) الرهطَ (من الثلاثة إلى العشرة) فحلب بها ثجّاً (بقوة لكثرة اللبن) حتى علاه البهاء (الرّغوة) فسقاها، فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا عللاً بعد نهل (مرّة ثانية بعد الأولى) ثم شرب ﷺ، فكان آخرهم شرباً، وقال: «ساقي القوم آخرهم شرباً» ثم حلب فيه، وغادره عندها، وارتحل.

قالت أم معبد في وصف الشاة نقلاً عن البرهان الحلبي: وكنا نحلبها صبوحاً وغبوقاً (بكرة وعشية) وما في الأرض قليل ولا كثير؛ مما يتعاطى الدوابّ أكله.

ولما جاء زوجُها أبو معبد عند المساء يسوق أعنزاً عجافاً، ورأى اللبن الذي حلبه ﷺ، عَجِبَ، وقال: يا أم معبدَّ ما هذا اللبن؟ ولا حلوب في البيت، والشاة عازب (لم يطرقها فحل أو بعيدة عن المرعى)؟!.

قالت: مَرّ بنا رجلٌ مبارك.

قال: صفيه.

قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، متبلِّج الوجه (مشرقه) في أشفاره وطف (في شعر أجفان عينيه طول) وفي عينيه دَعَج (شدة سواد العينين) وفي صوته صَحَل (بُحّة) غصن بين الغصنين، لا تَشنَؤُه من طول (لا تبغضه لفرط طوله) ولا تقتحمه من قِصر (لا تحتقره) لم تعبه ثجلة (عظم البطن) ولم تُزْرِبه صعلة (صغر الرأس) كأن عنقه إبريق فضة (الإبريق: السيف الشديد البريق).

إذا نطق فعليه البهاء، وإذا صمت فعليه الوقار، له كلام كخرزات النظم، أَزْيَنُ أصحابه منظراً، وأحسنهم وجهاً، أصحابه يحفّون به، إذا أمر ابتدروا أمره، وإذا نهى انتهوا عند نهيه. وجاء في وصفه ﷺ على لسانها رواية أخرى.

قال: هذه واللهِ صفة صاحب قريش، ولو رأيته لاتبعته، ولأجتهدن أن أفعل.

وحين سمعت قريش هاتفَ الجن يخبر بمنزل رسول الله ﷺ عند أم معبد، أرسلوا سريّةً إليها، وسألوا سراقة أوّلاً، فردّهم، ثم جاؤوا إليها، فسألوها عن رسول الله ﷺ، فأشفقت عليه منهم، فتعاجمت عليهم (أظهرت عدم علمها بذلك) فقالت: إنكم تسألوني عن أمرٍ ما سمعتُ به قبل عامي هذا، ثم قالت: لئن لم تنصرفوا عني لأصرخنّ في قومي عليكم، وكانت في عزٍّ من قومها، فانصرفوا، ولم يعلموا أين توجه.

ولقي ﷺ في طريقه بريدة بن الحُصَيْب الأسلمي في ركبٍ من قومه يبلغون السبعين، وكان بلغه ما جعلته قريش لمن يأخذ النبي ﷺ فطمع في ذلك، فلما رآه النبي ﷺ قال له: «مَن أنت؟» قال: بريدة بن الحصيب، فالتفت النبي ﷺ وقال: «يا أبا بكر! بَرَدَ أمرُنا وَصَلُح» قال: «ممن أنت؟» قال: من أسلم من بني سهم. قال النبي ﷺ: «سلمنا، وخرج سهمك يا أبا بكر» لأنه ﷺ كان يتفاءل، ولا يتطير (ولا يتشاءم).

ثم قال بريدة للنبي ﷺ: من أنت؟ قال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسولُ الله» فقال بريدة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فأسلم بريدة وكل من كان معه، وصلّوا خلفه العشاء الآخرة. ثم مضى رسول الله ﷺ، فلقي الزُّبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً.

ولما سمع المسلمون بالمدينة بخروج رسول الله ﷺ من مكة، كانوا

يغدون كل غداة إلى الحرّة ينتظرونه حتى يردهم حرُّ الظهيرة.

فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أُطُمٍ من آطامهم لأمر ينظر إليه، فَبَصُر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيّضين، يزولُ بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب! هذا جَدّكم (حظّكم) الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقّوا رسول الله ﷺ بظهر الحرّة، فاستقبله زهاء خمسمئة من الأنصار، فقالوا: اركبا آمنيْنِ مطاعيْنِ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بقباء في دار بني عمرو بن عوف، وذلك في يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، على كلثوم بن الهدم.

فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق مَن جاء من الأنصار ممن لم يَرَ رسول الله ﷺ يُحَيّي أبا بكر، حتى أصابت الشمسُ رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلّل عليه بردائه، فعرف الناسُ رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة.

وكان يجلس للناس، ويتحدّث مع أصحابه في بيت سعد بن خيثمة؛ لأنه كان عزباً لا أهل له هناك، وكان منزل سعد يسمى منزل العزَّاب.

وأسس ﷺ في قباء المسجد الذي أسس على التقوى، وصلّى فيه رسول الله ﷺ، وهو أول مسجد أسس في الإسلام، وكان شارك في بنائه، ففي الطبراني عن الشَّموس بنت النعمان رضي الله عنها: قالت: نظرت إلى رسول الله ﷺ حين قدم، ونزل، وأسس المسجد مسجد قباء، فرأيته يأخذ الحجر، أو الصخرة، حتى يصهره الحجر، أي: يتبعه، فيأتي الرجل من أصحابه، فيقول: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي تعطيني أكفك، فيقول: «لا، خُذْ مثله» حتى أسّسه.

ولما أراد رسول الله ﷺ أن يدخل المدينة أرسل إلى بني النجار. وفي البخاري: فبعث إلى الأنصار، فجاؤوا إلى نبي الله ﷺ، فسلّموا عليهما

وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب نبيُّ الله ﷺ وأبو بكر، وحفُّوا دونهما بالسلاح، والناس عن يمينه وشماله وخلفه، منهم الماشي والراكب، وقيل في المدينة: جاء نبيُّ الله، جاء نبيُّ الله ﷺ. وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير (الأسطحة) عند قدومه ﷺ يعلنَّ بقولهنّ: طلع البدر علينا... وسرى السرورُ إلى القلوب بحلوله ﷺ.

روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة، فما رأيتُ أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ، حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ[١].

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: فما رأيتُ يوماً قطُّ أنورَ، ولا أحسنَ من يوم دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر المدينة، وشهدت وفاته فما رأيت يوماً قطّ أظلمَ، ولا أقبحَ من اليوم الذي توفي رسول الله ﷺ فيه[٢].

وروى البيهقي عن ابن عائشة قال: لما قدم ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان يقلن:

طلـــع البـــدر علينـــا ... مـــن ثنيـــات الـــوداع
وجـــب الشكـــر علينـــا ... مـــا دعـــا لله داع
أيهـــا المبعـــوث فينـــا ... جئـت بـالأمـر المطـاع

ثنية الوداع: شمال المدينة، وسُمِّيت ثنية الوداع؛ لأن المسافر من المدينة كان يشيع إليها يودَّع عندها قديماً. والشعر يقول من ثنيّات الوداع، فهو جمع ثنيّة فيحتمل اللفظ أن تكون الثنية التي من كل جهة يصل إليها المشيِّعون تسمى: ثنية الوداع، ولو كان المراد بها الموضع الذي هو من جهة الشمال

(١) بخاري (٥/ ٨٠).
(٢) مسند أحمد بشرح البنا (٢٠/ ٢٩٠).

لم يجمع، ولا مانع من ترديد الشعر يوم الهجرة، ويوم تبوك.

وروى ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه أنه قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كلّ شيء.

وفي دخوله المدينة مر بدار بني سالم، فقام إليه عِتبان بن مالك ونوفل ابن العجلان، وهو آخذ بزمام راحلته، فقال: يا رسول الله! انزل فينا، فإن فينا العدد والعشيرة والحلْقة، ونحن أصحاب الفضاء، والحدائق، والدّرك، فجعل رسول الله ﷺ يبتسم، ويقول: «خلوا سبيلها؛ فإنها مأمورة».

فقام إليه عبادة بن الصامت، والعباس بن عبادة بن نضلة، فجعلا يقولان: يا رسول الله! انزل فينا، فيقول النبي ﷺ: «بارك الله عليكم، إنها مأمورة».

فلما أتى مسجد بني سالم، وهو المسجد الذي في وادي «رانوناء» أدركته الجمعة هناك، فصلاها فيه، وصلى مع الجمعة مئةُ نفس، وهي أول جمعةٍ صلاها رسول الله ﷺ بالمدينة حين قدم، واستقبل بيت المقدس، فلما أبصرته اليهود صلى إلى قبلتهم تذاكروا بينهم أنه النَّبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل.

ثم مرَّ رسول الله ﷺ بدار بني ساعدة، فقال له سعد بن عبادة، والمنذر ابن عمرو، وأبو دجانة: هلم يا رسول الله! إلى العز، والثروة، والقوة، والجلد، فيقول رسول الله ﷺ: «يا أبا ثابت! خلِّ سبيلها، فإنها مأمورة» فمضى، واعترضه سعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، وبشير بن سعد، فقالوا: يا رسول الله! لا تجاوزنا؛ فإنا أهلُ عدد، وثروة، وحَلْقة (سلاح) قال: «بارك الله فيكم، خلُّوا سبيلَها، فإنها مأمورة».

ثم مرَّ بديار بني بياضة، فاعترضه زياد بن لبيد، وفروة بن عمرو، فقالا: يا رسول الله! هلمَّ إلى المواساة، والعز، والثروة، والعدد، والقوّة، نحن

أهلُ الدَّرك يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «خلُّوا سبيلها؛ فإنها مأمورة».

ثم مرّ بديار بني عديٍّ بن النَّجّار، وهم أخواله، فقام أبو سَليط، وصِرمة ابنُ أبي أنس في قومهما، فقالا: يا رسول الله! نحن أخوالك، هلمّ إلى العدد، والمنعة، والقوّة مع القرابة، لا تجاوزْنا إلى غيرنا يا رسول الله! ليس أحدٌ من قومنا أولى بك منّا لقرابتنا بك، فقال رسول الله ﷺ: «خلُّوا سبيلها، فإنّها مأمورة».

فلم يمرَّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار إلا قالوا: هلمَّ يا رسول الله! إلى العزّ، والمنعة، والثروة، فيقول لهم خيراً، ويدعو، ويقول: «إنها مأمورة، خلُّوا سبيلها».

فسارت الناقةُ في ديار بني عدي بن النجار، ومضت حتى انتهت إلى موضع المسجد بركت، وهو ﷺ عليها، وأخذه الذي كان يأخذه عند الوحي، ثم وثبت، وسارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضعٌ لها زمامها، لا يثنيها به، ثم التفتتْ خلفها، فرجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه، ثم تلحلحت، وأرزمت (صوّتت من غير فتح فمها) ووضعت جِرانها (باطن عنق البعير).

وجعل جبّار بن صخر ينخسها رجاء أن تقوم، فتنزل في دار بني سَلِمة، فلم تفعل.

فنزل رسول الله ﷺ عنها، وقال: «هنا المنزل إن شاء الله» ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٢٩].

وقال رسول الله ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: أنا يا نبيَّ الله! هذه داري، وهذا بابي. قال: «فانطلق فهيِّىء لنا مقيلاً» قال: قوما على بركة الله. وهكذا ظفر بنو النجار بجواره ﷺ، وجوار مسجده.

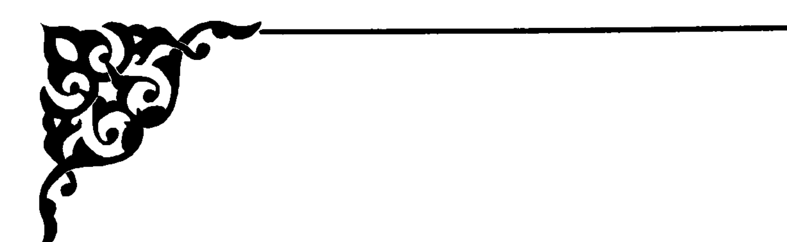
وخرجت جُويرياتُ مِنهنَّ يرحِّبن برسول الله ﷺ بالدفوف، يقلن :

نحن جوار من بني النجار يا حبّذا محمدٌ من جار

فخرج إليهن رسول الله ﷺ وقال : «أَتُحْبِبْنَني؟» قلن : نعم يا رسول الله! فقال : «الله يعلم أن قلبي يُحبُّكنَّ».

ومكث ﷺ ببيت أبي أيوب إلى أن بنى المسجد، وبعض مساكنه، مدة سبعة أشهر، أو اثني عشر شهراً.

* * *



الباب الثالث

أحوال النبي ﷺ أول قدومه المدينة المنورة

الفصل الأول: أحوال النبي ﷺ أول قدومه المدينة المنورة مِنْ خُطبِ خطبها، وبناء مسجده، وظهور النفاق في المدينة، وما نزل في المنافقين من الآيات.



الفصل الأول

أحوال النبي ﷺ أول قدومه المدينة المنورة مِنْ خُطبٍ خطبها، وبناء مسجده، وظهور النفاق في المدينة، وما نزل في المنافقين من الآيات

أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ حين قدم المدينة:

روى البيهقي بسنده إلى أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس! فقدِّموا لأنفسكم، تَعلَمُنَّ والله! لَيُصْعَقَنَّ أحدكم، ثم ليدعنَّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولنَّ له ربُّه، ليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلَّغك، وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك، فما قدَّمت لنفسك؟ فلينظرنَّ يميناً وشمالاً، فلا يرى شيئاً، ثمَّ لينظرنَّ قدَّامه، فلا يرى غير جهنَّم، فمن استطاع أن يقيَ وَجْهَه من النار ولو بشقٍّ تمرة فليفعل، ومن لم يجدْ فبكلمة طيبة، فإن بها تُجزى الحسنةُ عشرَ أمثالها إلى سبعمئة ضعف، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته»(١).

خطبة أخرى:

قال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله أحمده، وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضللْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن أحسنَ الحديث كتاب الله، قد أفلح من زيَّنه اللهُ في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنَّه أحسن الحديث وأبلغُه، أحِبُّوا مَن أحبَّ الله، أحبُّوا الله من كلِّ قلوبكم، ولا تملّوا كلامَ الله تعالى وذكره،

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٢٤).

ولا تَقْسُ عنه قلوبكم»... الحديث، وفيه: «فاعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابّوا بروح الله بينكم، إن الله يغضبُ أن ينكث عهده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(١).

عبد الله بن سلام مع رسول الله ﷺ:

عبد الله بن سلام حبرٌ من أحبار اليهود، وعالم من علمائهم، وكان ممن يترقب ظهور نبي آخر الزمان، وعنده صفاته وأماراته.

روى البيهقي في الدلائل بسنده إلى أنس بن مالك قال:

سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرضه، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلا نبيّ: ما أَوَّلُ أشراط الساعة؟ وما أوّل طعام يأكله أهل الجنة؟ وما ينزع الولدُ إلى أبيه وأمّه؟.

قال رسول الله ﷺ: «أخبرني بهنَّ جبريل عليه السلام آنفاً». قال: جبريل؟ قال: «نعم» قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، قال: ثم قرأ هذه الآية: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٢/ ٩٧] «أما أول أشراط الساعة: فنارٌ تخرج على الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماءُ المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه».

قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله! إن اليهود قوم بُهْتٌ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني، فجاءت اليهود إليه، فقال: «أيّ رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيّدنا وابن سيّدنا، قال: «أرأيتم إن أسلَم عبد الله بن سلام؟!» قالوا: أعاذه الله من ذلك! فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً

---

(١) المصدر نفسه.

رسول الله. قالوا: شرّنا وابن شرّنا، وتنقّصوه. قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله!.

وروى البيهقي عن عبد الله بن سلام قال: لما أن قدم رسول الله ﷺ المدينة، وانجفل الناس قِبَلَه، فقالوا: قدم رسول الله ﷺ. قال: فجئتُ في الناس لأنظر إلى وجهه، فلما رأيتُ وجهَه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذّاب، فكان أوّل شيء سمعته منه أن قال: «يا أيها الناس! أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصِلوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام».

ثم قال عبد الله: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي ابنة الحارث، فحسن إسلامها.

بناؤه ﷺ المسجد النبوي:

بركت ناقةُ رسول الله ﷺ في دار بني عديٍّ بن النجار عند باب مسجده الذي بني فيما بعد، فنزل رسول الله ﷺ عنها وقال: «هنا المنزل إن شاء الله». ومبركُ الناقة مربد لِيَتيميْن من بني النجار هما: سهل، وسهيل ابنا رافع بن أبي عمرو، وكانا في حجر أسعد بن زرارة رضي الله عنه، فأرسل رسول الله ﷺ إلى بني النجار، فقال: «يا بني النجار! ثامنوني بحائطكم هذا» فقالوا: والله! لا نطلب ثمنه إلا من الله. فأبى عليه الصلاة والسلام أن يقبله هبةً، واشتراه بمال أبي بكر رضي الله عنه، ثم بناه مسجداً.

وكان المسجد جداراً ليس له سقف فيه قبور جاهلية، فأمر بها فنبشت، وأمر بالعظام أن تغيّب، وفي المربد ماء فسيَّره حتى ذهب، وفيه خِرَبٌ، فأمر بها فسوّيت، فصفّوا النخل قبلة له، أي: جعلوا سواري له في جهة القبلة، فسقف عليها، وجعلوا عضادتيه حجارة.

ولما أراد ﷺ بناء المسجد، قال: «ابنُوا لي عريشاً كعريش موسى

ثمامات وخشبات، وظُلَّة كظُلَّة موسى، والأمر أعجلُ من ذلك» قيل: وما ظُلَّة موسى؟ قال: «كان إذا قام أصاب رأسَه السقف».

وعمل رسول الله ﷺ مع الصَّحابة بنفسه الكريمة في بناء المسجد، وطفق ينقل الَّلبِن معهم ترغيباً لهم في العمل حتى اغبرّ صدره الشريف، ويقول:

اللهم لا خيرَ إلا خير الآخرة فارحمِ المهاجرين والأنصار

وجعل أصحابُ رسول الله ﷺ يحمل كلُّ رجل منهم لبنةً لبنةً، وعمّار بن ياسر يحمل لبنتين لبنةً عنه ولبنةً عن رسول الله ﷺ، فمسح رسول الله ﷺ ظهره، وقال: «يابن سميّة! للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك شربةٌ من لبن، وتقتلك الفئة الباغية، تدعوهم إلى الجنة، ويدعونك إلى النّار»[١] وعمّار يقول: أعوذ بالله من الفتن. ورواه البخاري والبيهقي عن أبي سعيد الخدري.

وأوّل ما بني المسجد بالجريد، وطوله ستون في سبعين، ثم كثر الناس، فقالوا: يا رسول الله! لو زيد فيه ففعل. ورفع أساسه قريباً من ثلاثة أذرع بالحجارة، وجعلوا طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مئة ذراع، وكذا في العرض، فكان مربعاً.

وفي أثناء بناء المسجد للمرة الثانية وفد من اليمامة إلى المدينة طلق بن عليّ رضي الله عنه وأصحابُه يستشيرونه في هدم بيعة في أرضهم، وتشييد مسجد مكانها. يقول طلق: أتيت رسول الله ﷺ وهو يبني المسجد والمسلمون يعملون فيه معه، وكنت صاحب علاج وخلط طين، فأخذت المسحاة أخلط الطين، والنبي ﷺ ينظر إليّ، ويقول: «إنَّ هذا الحنفي لصاحب طين» وكان يقول: «قرِّبوا اليماميَّ من الطين فإنه أحسنكم له مسكاً، وأشدُّكم منكباً» وفي رواية: «وأشدكم ساعداً، ومن أحسنكم له بناءً».

---

(١) بخاري (٤/ ٢٧).

ولم يكن المسجد مسقوفاً، فشكا الصحابة الحرَّ، فجعلوا خشبه، وسواريه جذوعاً، وظلّلوه بالجريد، ثم بالخصف، فلما وكف عليهم طيَّنوه بالطين، وجعلوا وسطه رحباً. وكان جداره قبل أن يسقف قامةً وشيئاً.

وجعلت القبلة في البناء الأول إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب في مؤخره باب أبي بكر وباب عاتكة (الرحمة) والباب الذي كان يدخل منه رسول الله ﷺ، وهو باب آل عثمان (جبريل) وباب الرحمة وباب جبريل لم يغيَّرا بعد صرف القبلة، ولما صرفت القبلة سدّ النبي ﷺ الباب الذي كان خلفه، أي: من جهة القبلة، وهو باب أبي بكر، وفتح في محاذاته من الجهة الشمالية باباً.

وزيد المسجد في البناء الثاني من الجهة الغربية والشمالية، وقال رسول الله ﷺ لصاحب البقعة التي وسّع بها المسجد، وكان من الأنصار: «لك بها بيتٌ في الجنة» فجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال لصاحب البقعة: لك بها عشرة آلاف درهم، فاشتراها منه؛ ثم جاء عثمان إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! اشترِ مني البقعة التي اشتريتها من الأنصاري، فاشتراها منه ببيت في الجنة، فقال عثمان: إني اشتريتها بعشرة آلاف درهم، فوضع رسول الله ﷺ لبنة، ثم دعا أبا بكر فوضع لبنة، ثم دعا عمر فوضع لبنة، ثم دعا عثمان فوضع لبنة، ثم قال للناس: «ضعوا» فوضعوا.

وفي تعديل جهة القبلة إلى الكعبة: روى الطبراني عن مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ أقام رهطاً على زوايا المسجد ليعدّل القبلة، فأتاه جبريل، فقال: يا رسول الله! ضع القبلة وأنت تنظر إلى الكعبة، فقال رسول الله ﷺ: «ما وضعت قبلة مسجدي هذا حتى رفعت لي الكعبة، فوضعتها أمامها»[1].

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٣/ ٤٩١).

وبنى ﷺ للمساكين وفقراء الصحابة محلاً مظلّلاً، يأوون إليه يسمّى الصُّفَّة وسُمُّوا أهل الصُّفّة، فإذا وجّهت السَّرايا إلى الأنحاء كانوا في مقدّمة المجاهدين، وإذا لم تكن بعوثٌ فهم في المسجد يطلبون العلم، ويعونه عن رسول الله ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ يُفرِّقهم على أصحابه مساءً يتعشّون عندهم، ويتعشى معه منهم طائفة.

إنارة المسجد النبوي:

كان إذا جاءت العتمة أوقد في المسجد بسعف النخل، فلما قدم تميم ابن أوس الداري المدينة جلب معه قناديل، وحبالاً، وزيتاً، وعلَّق تلك القناديل بسواري المسجد، وأوقدت، فقال له رسول الله ﷺ: «نوّرت مسجدنا نوَّر الله عليك، أما والله لو كان لي ابنة لأنكحتكها»[(١)].

بناؤه ﷺ الحجرات:

قال في «الروض»: كانت بيوتُه ﷺ تسعة بعضها من جريد مطيّن بالطين، وسقفها من جريد، وبعضها من حجارة مرضومة بعضها فوق بعض، وسقفها من جريد أيضاً.

قال الحافظ الذهبي في «بلبل الروض»: لم يبلغنا أنه ﷺ بني له تسعة أبيات حتى بنى المسجد، ولا أحسبه فعل ذلك إنما كان يريد بيتاً واحداً لسودة أم المؤمنين رضي الله عنها.

ولم يحتج إلى بيت آخر حتى بنى بعائشة رضي الله عنها في شوال سنة اثنتين اهـ. لكن المشهور أنه بنى لسودة وعائشة، فإنها كانت زوجه، وإن تأخّر الدخول بها.

---

(١) السيرة الحلبية (٢/ ٨١).

ثم كان بناؤه بقية الحُجَر في أوقات مختلفة عند الحاجة إليها.

وجاء في رواية أخرى: أنه كانت لحارثة بن النعمان الخزرجي منازل قرب المسجد وحوله، وكان كلما أحدث رسول الله ﷺ أهلاً نزل له حارثة عن منزل، حتى صارت منازله كلها لرسول الله ﷺ، وأزواجه.

وكانت بيوتاً من اللبن ولها حُجَرٌ من جريد مطرورة بالطين، ما خلا بيت أم سلمة زوج النبي ﷺ وحجرتها من اللَّبِن، فإنه لما غزا رسول الله ﷺ دومة الجندل بنتها باللبن، فلما قدم النبي ﷺ نظر إلى اللبن، ودخل عليها أول نسائه، فقال: «ما هذا البناء؟» فقالت: أردتُ يا رسول الله! أن أكُفَّ أبصار الناس، فقال: «يا أم سلمة! إن شرّ ما ذهب فيه مال المسلم البنيان».

وقال علي رضي الله عنه: إنَّ لله بقاعاً تسمى المنتقمات، فإذا اكتسب الرجل المال من حرام سلَّط الله عليه الماء والطين، ثم لا يمتِّعه به. وفي رواية: «إلا ما لا بد له منه».

روى البيهقي في الشعب عن الحسن البصري قال: كنتُ وأنا مراهق أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان، فأتناول سقفها بيدي، وقد رؤيت الحجرات فإذا هي أربعة أبيات بلبن لها حُجَر من جريد، وخمسة أبيات من جريد مطيّنة لا حُجَر لها على أبوابها مُسوح الشعر. والمِسْحُ: ثوب من الشعر غليظ.

قال عطاء الخراساني: حضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ: يأمرنا بهدم حُجَر أزواج النبي ﷺ لأجل ضمِّها إلى المسجد، فما رأيت يوماً كان أكثر باكياً من ذلك اليوم، وفي المسجد نفر من أبناء أصحاب النبي ﷺ منهم: أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف، وخارجة بن زيد بن ثابت، وإنهم ليبكون حتى أخضلوا لحاهم من الدمع، وقال يومئذ أبو أمامة: ليتها تركت فلم تهدم حتى ينقص الناس من البنيان،

ويروا ما رضي الله لنبيه ﷺ ومفاتيح خزائن الدنيا بيده؛ فإن ذلك مما يزهّد الناس في التكاثر، والتفاخر في البنيان.

وقال عطاء الخراساني: سمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله! لوددتُ أنهم تركوها على حالها ينشأ ناشىءٌ من أهل المدينة، ويقدم القادم من الآفاق، فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التفاخر والتكاثر.

وكانت البيوت في قبلة المسجد وفي المشرق والشمال، وليس في غربي المسجد منها شيء.

بناء المنبر:

وبُني لرسول الله ﷺ منبر من طَرْفاء الغابة درجتان، ويقعد على الثالثة، وذلك لما كثر الناس، فأشار عليه بعض أصحابه به ليقوم عليه يوم الجمعة كي يراه الناس، فقالوا: يا رسول الله! إن الناس قد كثروا، فلو اتخذت شيئاً تقوم عليه إذا خطبت يراك الناس، فقال: «ما شئتم» قال سهلٌ بن سعد راوي الحديث: ولم يكن بالمدينة إلا نجّار واحد روميّ.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى فلانة ـ امرأة سمَّاها سهل ـ أن مُري غلامك النجار أن يعمل لي أعواداً، أجلس عليهن إذا كلمت الناس، فأمرته، فعملها من طرفاء الغابة، ثم جاء بها، فأرسلته إلى رسول الله ﷺ، فأمر بها، فوضعت ها هنا، ثم رأيت رسول الله ﷺ صلى عليها، وكبّر، وهو عليها، ثم نزل القهقرى، فسجد في أصل المنبر، ثم عاد، فلما فرغ أقبل على الناس، فقال: «أيها الناس! إنما صنعت هذا لتأتمّوا بي، ولتعلموا صلاتي»[١].

وحين قام رسول الله ﷺ على المنبر حنَّت الخشبةُ التي كان يتكىء إليها، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تعجبون من حنين هذه الخشبة؟!» فأقبل الناسُ

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٥٤).

عليها فرقُّوا من حنينها حتى كثر بكاؤهم، فنزل رسول الله ﷺ، فأتاها، فوضع يده عليها، فسكنت، فأمر رسول الله ﷺ بها، فدفنت تحت منبره. وفي رواية: فحنت إليه الخشبة حنين الوالِه.

وفي رواية: فصاحت النخلةُ التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل رسول الله ﷺ حتى أخذها، فضمَّها إليه، فجعلت تئِنُّ أنينَ الصبي الذي يُسَكَّتُ حتى استقرّت، قال: بكت على ما كانت تسمع من الذكر عندها. وفي رواية: فلما صنع المنبر فقدته الخشبة، فحنّت حنين الناقة الخلوج إلى ولدها، فأتاها رسول الله ﷺ، فوضع يده عليها، فسكنت.

فحديث حنين الجذع من الأحاديث المتواترة لوروده عن جماعة من الصحابة، فقد رواه سهل بن سعد وأم سلمة، وجابر، وأنس بن مالك، وابن عمر رضي الله عنهم أجمعين.

واعلم أن منبر النبي ﷺ على حوض رسول الله ﷺ، وما بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة. روى البخاري في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي».

تحويل القبلة:

كان رسول الله ﷺ يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه، ولما هاجر إلى المدينة ـ وكان أكثر أهلها اليهود ـ أمره سبحانه وتعالى أن يستقبل صخرة بيت المقدس، فعرّض اليهود بذلك، وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت.

وقال ﷺ لجبريل: «وَدِدْتُ أن الله عز وجل صرفني عن قبلة يهود إلى غيرها»، فقال جبريل عليه السلام: إنما أنا عبد مثلك، لا أملك لك شيئاً إلا ما أُمرت به، فادْعُ الله تعالى، فكان رسول الله ﷺ يدعو الله تعالى، ويُكْثِر النظر إلى السماء، ينتظر أمر الله تعالى.

وخرج رسول الله ﷺ زائراً أم بشر بن البراء بن معرور في بني سَلِمة، فصنعت له طعاماً، وحانت صلاة الظهر، فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه في مسجدٍ هناك الظهر، فلما صلّى ركعتين نزل جبريل، فأشار إليه أن صلِّ إلى البيت، وصلَّى جبريلُ إلى البيت، فاستدار رسول الله ﷺ إلى الكعبة، واستقبل الميزاب، فتحوَّل النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، فهي القبلة التي قال الله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَنٰهَا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٤] فسمِّي ذلك المسجدِ مسجد القبلتين وكان الظهرُ يومئذ أربعاً، اثنتان إلى بيت المقدس، واثنتان إلى الكعبة.

فخرج عبّاد بن بشر رضي الله عنه، وكان صلّى مع رسول الله ﷺ، فمرَّ على قومٍ من الأنصار ببني حارثة وهم راكعون في صلاة العصر، فقال: أشهد بالله لقد صلَّيتُ مع رسول الله ﷺ قِبَل البيت، فاستداروا.

وقال رافع بن خديج: وأتانا آت، ونحن نصلي في بني عبد الأشهل فقال: إن رسول الله ﷺ قد أُمِر أن يوجّه إلى الكعبة، فأدارنا إمامنا إلى الكعبة، ودُرنا معه.

وتَحَوُّلُ الإمام من مكانه من مقدّم المسجد إلى مؤخَّره، وتحوّل الرجال مكان النساء، وتحوّل النساء مكان الرجال يستدعي عملاً كثيراً في الصلاة، ويحتمل أن ذلك وقع قبل تحريم العمل الكثير، كما كان قبل تحريم الكلام، ويحتمل أن يكون اغتُفِر العمل المذكور لأجل المصلحة المذكورة.

تاريخ تحويل القبلة:

قال البراء بن عازب كما في البخاري: كان رسول الله ﷺ صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً.

والذي جزم بستة عشر شهراً لفَّق من شهر القدوم، وشهر التحويل شهراً، وحذف الأيام الزائدة، ومن جزم بسبعة عشر شهراً عدّهما معاً، ومن شك تردَّد في ذلك، وذلك أن القدوم كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف،

وكان التحويلُ بعد الزوال في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح، وبه جزم الجمهور.

وقال ابن حبيب: كان التحويلُ في نصف شعبان، وذكره النووي في «الروضة» وأقرّه مع كونه رجّح في شرحه على صحيح مسلم رواية ستة عشر شهراً؛ لكونها مجزوماً بها عند مسلم. ولا يستقيمُ كونها في شعبان إلا إذا ألغي شهر القدوم، والتحويل.

وأول صلاة صلاّها رسول الله صلاة الظهر في بني سَلِمة، وصلّى صلاةَ العصر بعد التحويل في المسجد النبوي.

وأنكر اليهود توجُّهه إلى الكعبة، وقالوا للمؤمنين: ما صرفكم عن قبلة موسى، ويعقوب، وقبلة الأنبياء؟ والله إن أنتم إلا قوم تفتنون.

وقال المشركون: أراد محمد أن يجعلنا قبلةً له، ووسيلة، وعرف أن ديننا أهدى من دينه، ويوشك أن يكون على ديننا.

وقال المؤمنون: لقد ذهب منا قوم ماتوا، وما ندري أكنا نحن وهم على قبلة أو لا؟.

وأتى رسولَ الله ﷺ رؤساءُ يهود؛ وقالوا: يا محمد! ما ولاَّكَ عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملّة إبراهيم ودينه؟ ارجعْ إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك، ونصدقْك. وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه، فأنزل الله عز وجل: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ﴾ الجهال واليهود والمشركون والمنافقون ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: يرجع إلى الكفر شكاً في الدين، وظنّاً أن النبي في حيرة من أمره. وقد ارتد لذلك جماعة ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ شاقةً على الناس ﴿إِلَّا عَلَى

﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يثيبكم عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ في عدم إضاعة أعمالهم ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٢/ ١٤٤].

بدء الأذان:

الأذان: لغةً الإعلام، وشرعاً: الإعلام بوقت الصلاة المفروضة بألفاظ مخصوصة.

اخْتُلِف في السَّنَة التي شرع فيها الأذان، قال الحافظ ابن حجر: والراجح أنه في السنة الأولى، وقيل: بل الثانية.

وقبل شرعية الأذان كان رسول الله ﷺ حين قدم المدينة إنما كان يجمع للصلاة حين مواقيتها بغير دعوة، فلما كثر الناس اهتمّ النبي ﷺ كيف يجمعُ الناسَ للصلاة؟ فاستشار الناسَ، فقيل له: انصبْ راية عند حضور الصلاة إذا رأوها أعلم بعضُهم بعضاً، وذكر له البوق، فلم يعجبه ذلك، وقال: «هو من أمر اليهود» فذكر له الناقوس، فقال: «هو من أمر النصارى». فقالوا: لو رفعنا ناراً! فقال: «ذلك للمجوس» فانصَرف عبد الله بن زيد وهو مهتم لِهَمِّ رسول الله ﷺ، فَأُرِيَ الأذانَ في منامه، قال عبد الله: طاف بيَ وأنا نائم رجلٌ، عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبد الله! أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على ما هو خيرٌ من ذلك؟ قلت: بلى. قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة حي على الصلاة، حيٍ على الفلاح حي على الفلاح، الله أكبرالله أكبر، لا إله إلا الله. ثم قعد قعدةً، ثم قام، فقال مثلها إلا أنه يقول: قد قامت الصلاة.

وأُري الأذانَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، فأما عمر رضي الله عنه

فقال: إذا أصبحتُ أخبرتُ رسول الله ﷺ، وأما عبد الله بن زيد فطرق رسول الله ﷺ ليلاً، فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «إنها لرؤيا حقٌّ إن شاء الله تعالى فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت، فليؤذن به، فإنه أندى منك صوتاً». قال عبد الله. فقمتُ مع بلال، فجعلتُ ألقيه عليه، ويؤذِّن به، فسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فخرج يجرُّ رداءه، وهو يقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله! لقد رأيتُ مثل الذي رأى(١).

وفي حديث عبيد بن عمير: فذهب عمر ليخبر النبي ﷺ بالذي رأى، وقد جاء الوحيُ، فما راعَ عمر إلا بلال يؤذن.

فشرع الأذان بالوحي، وبنص الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا﴾ [المائدة: ٥/ ٥٨] الآية، لا بالمنام وحده.

فائدة:

إذا استوحشتَ في المكان الذي أنت فيه فأذِّن حتى يحلَّ الأنسُ، وتزول الوحشة.

روى مسلم عن سهيل قال: أرسلني أبي إلى بني حارثة، ومعي غلام لنا، فناداه منادٍ من حائط باسمه قال: وأشرف الذي معي على الحائط فلم ير شيئاً، فذكرتُ ذلك لأبي فقال: لو شعرتُ أنك تلقى هذا لم أرسلك، ولكن إذا سمعت صوتاً فنادِ بالصلاة، فإني سمعتُ أبا هريرة يحدِّثُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الشيطان إذا نُودي بالصلاة ولّى، وله حُصاص». الحصاص: الضراط.

أسرار الأذان:

قال القاضي عياض: الأذان: كلمة جامعة لعقيدة الإيمان، مشتملة على نوعيه من العقليات والسمعيات.

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٣/ ٥١٢).

فالله أكبر: إثبات الذات، وما يستحقه من الكمال والتنزيه عن أضدادها.

وأشهد أن لا إله إلا الله: إثبات الوحدانية، ونفي ضدّها من الشركة المستحيلة في حقه تعالى، وهي عمدة الإيمان والتوحيد، ومقدّمة على كل وظائف الدين.

وأشهد أن محمداً رسول الله: إثبات النبوة والشهادة بالرسالة لنبيه ﷺ.

حي على الصلاة: أتت بعد إثبات النبوة؛ لأن معرفتها من جهة النبي ﷺ، لا من جهة العقل.

حي على الفلاح: الدعوة إلى الفوز، والبقاء في النعيم المقيم، وفيه إشعار بأمور الآخرة من البعث، والجزاء.

قد قامت الصلاة: كرّر ذكر الصلاة للإعلام بالشروع فيها، وليدخل المصلي فيها على بينة من أمره، وبصيرة في إيمانه، ويستشعر عظيم ما دخل فيه، وعظمة حق من يعبده، وجزيل ثوابه»(١).

المؤاخاة:

قال ابنُ عبد البرّ: كانت المؤاخاةُ مرتين: الأولى بين المهاجرين بعضهم بعضاً قبل الهجرة على الحق، والمواساة، فآخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر وبين حمزة وزيد بن حارثة.

روى أبو يعلى برجال الصحيح عن زيد بن حارثة أنه قال: إن رسول الله ﷺ آخى بيني وبين حمزة بن عبد المطلب، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير بن العوام وابن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة وسالم مولى

---

(١) السبل (٣/ ٥١٤).

أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله، وبين علي بن أبي طالب ونفسه ﷺ.

والثانية: بين المهاجرين والأنصار، مقدمه المدينة المنورة، آخى بينهم على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام، فآخى رسول الله ﷺ بين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة، وبين أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد بن الحارث، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وبين الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وَقْش، ويقال: بينه وبين عبد الله بن مسعود، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت، وبين أبي بن كعب وسعيد بن زيد، وبين أبي عبيدة بن الجراح وأبي طلحة زيد بن سهل، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب، وبين عمّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وبين أبي حذيفة بن عتبة وعبّاد بن بشر، وبين أبي ذر الغفاري والمنذر بن عمرو، وبين عبد الله بن مسعود وسهل بن حُنَيْف، وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء، وبين بلال بن رباح وأبي رويحة الخثعمي، وبين حاطب بن أبي بلتعة وعُوَيْم بن ساعدة، وبين عبد الله بن جحش وعاصم ابن ثابت بن أبي الأقلح، وبين عبيدة بن الحارث بن المطلب وعمير بن الحمام، وبين الطفيل بن الحارث أخي عبيدة وسفيان بن نَسر بن زيد الخزرجي، وبين الحصين بن الحارث أخي عبيدة وعبد الله بن جبير بن النعمان الأوسي، وبين عثمان بن مظعون والعباس بن عبادة بن نضلة، وقيل: أبي الهيثم بن التّيهان، وبين عتبة بن غزوان ومعاذ بن ماعص من بني زُرَيق، وبين صفوان بن وهب ورافع بن المعلّى، وبين المقداد بن عمرو وعبد الله بن رواحة، وبين ذي الشّمالين ويزيد بن الحارث، وبين أبي سلمة ابن عبد الأسد وسعد بن خيثمة، وبين عامر بن أبي وقّاص وخُبَيب بن عديٍّ، وبين عبد الله بن مظعون وقُطبة بن عامر، وبين شمّاس بن عثمان وحنظلة بن أبي عامر، وبين الأرقم بن أبي الأرقم وطلحة بن زيد الأنصاري، وبين زيد

ابن الخطاب ومعن بن عديٍّ، وبين عمرو بن سراقة وسعد بن زيد الأشهلي، وبين عاقل بن البُكَيْر ومبشِّر بن عبد المنذر، وبين عبد الله بن مخرمة وفروة ابن عمرو البياضي، وبين خنيس بن حذافة والمنذر بن محمد بن عقبة، وبين أبي سبرة بن أبي رُهم وعبادة بن الخشخاش، وبين مسطح بن أُثاثة وزيد بن المُزيني، وبين أبي مَرثد الغنوي وعبادة بن الصامت، وبين عكّاشة بن محصن والمجذّر بن زياد، وبين عامر بن فهيرة والحارث بن الصّمّة، وبين مِهجع مولى عمر وسراقة بن عمرو بن عطيّة.

الحكمة من المؤاخاة:

وأمره ﷺ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لتذهبَ عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشدّ أزر بعضهم ببعض؛ لأن بعضهم كان أقوى من بعض بالمال، والعشيرة، والقوّة، فآخى بين الأعلى والأدنى؛ ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، فلما عزّ الإسلام، واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة، أنزل الله سبحانه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٧٥] وبطل التوارث فيما بينهم، وردُّ إلى الأرحام والعصبات، وبقي التعاون على الحق، والنصر، والأخذ على يد الظالم، وذهب الميراث. ثم جعل المؤمنين كلهم إخوةً في التوادِّ والتراحم.

وذكر أهلُ السير أقوالاً متعددة في زمان المؤاخاة، فقيل: بعد الهجرة بخمسة أشهر، وقيل: بتسعة، وهو يبني المسجد، وقيل: بسنة.

لقد كانت المؤاخاةُ شيئاً جديداً على العرب في المدينة، فقد قطعتْ أوصاله العصبية القبلية، وفككت روابطه قرابة الدم، وقضت على كلِّ تعصُّب للجنس، واللون، والقرابة، والوطن.

موادعته ﷺ اليهود في المدينة:

أقام رسول الله ﷺ صلةَ المسلم بغير المسلم على أساس الرابطة

الإنسانية العامّة، فالإنسان أخو الإنسان، ولا بُدَّ لهما من التعاون في قضاء الحوائج فيما بينهم، وبالشعور بهذه الرابطة الأخوية الإنسانية تنتظم الحياة الإنسانية، فيحبّ كلُّ إنسان لأخيه الإنسان ما يحب لنفسه.

لقد كان اليهودُ في المدينة ثلاث قبائل: قينقاع، والنضير، وقريظة، يساكنون الأوس والخزرج، وكانت نيران العداوة والبغضاء مستعرة في المدينة دائماً بين الأوس والخزرج، يثيرها، ويشعلها اليهود؛ لتبقى لهم السيادة، وحين أسلم بعضُ الأوس والخزرج، وهاجر المسلمون إلى المدينة ظهر عنصرٌ جديدٌ في الساحة، لا تنظر إليه الأطراف الأخرى بعين الرضا.

فكان لا بُدَّ من عملٍ ينظم أمور هذه الأطراف، فكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار بيّن فيه ما يجب على المؤمنين والمسلمين بعضهم لبعض من التكافل، والتعاون، والتناصر، والأخذ على يد الباغي، ووادع فيه اليهود، وعاهدهم، وشرط لهم أن يكونوا آمنين على دمائهم، وأموالهم، ومواليهم، وأن يكونوا أحراراً في عقائدهم، فمن تبع المسلمين منهم فله ما للمسلمين من النصر والأسوة، واشترط عليهم أن يكونوا مع المسلمين يداً واحدة على من دهم يثرب، أو حارب أهلها، وأن ينفقوا مع المؤمنين ما داموا محارَبين؛ على اليهود نفقتُهم، وعلى المسلمين نفقتُهم.

كما اشترط على المشركين من العرب في المدينة ألا يجير مشرك مالاً لقريشٍ، ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وألا تُجارَ قريش، ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب؛ على كل أناس حصتُهم من جانبهم الذي قِبَلَهم.

وإنما منع رسول الله ﷺ من إجارة قريش؛ لأنه يعلم أن قريشاً لن تنفكَّ عن محاربته، والسعي للقضاء عليه، فإنها ستضاعف جهودها في محاربة الدعوة، وإذ فاتها قتله في مكة، فلن تدعه في المدينة يهنأ؛ لأنها تعلم تمام العلم أن نجاح دعوة الإسلام قضاءٌ على كيانها، وسيادتها؛ ولذا عمدت إلى

تحريض القبائل المحيطة بالمدينة على المسلمين، وإلى تأليب أعداء الإسلام في داخلها.

وبكتاب الموادعة هذا فوّت رسول الله ﷺ على قريش مقاصدها، فإنه قد تضمّن حرمة النفس، وحرمة المال، وحرمة الجوار، وحرمة الوطن، وكفل نصرة المظلوم، ومقاومة المعتدي، وإعانة المثقَل بالدَّين، وشدَّد في تحريم البغي، والفساد، وإيواء الباغين، والمفسدين، وفتح باب الصلح لمن أراده من المسلمين وغيرهم، ودعا الجميعَ إلى التعاون على البرِّ دون الإثم، وجعل الاحتكام فيما يكون بين أهل هذا الكتاب من خلاف إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، كما تضمّن حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرية الهجرة والإقامة.

وكان الهدف الذي يرمي إليه رسول الله ﷺ أن يعيشَ الجميعُ في وطنهم آمنين على أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، وأهليهم، وأن يكونوا أحراراً في عقائدهم، وآرائهم، وأن يتعاونوا على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان، ضمن إطار الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إذ المجتمعُ كلُّه في ظلِّهما.

وفي هذا كله ضمان دوام السلام، والتراحم، والحبّ بين الناس في المجتمع الجديد، لولا طبيعةُ الأثرة في بني آدم؛ التي تحرك شهوات النفوس في كثير من الناس، فتثير فيهم عوامل الحسد، والغيرة، والبغضاء لكل مُصلِح، وتدفعهم إلى الاعتراض على كل إصلاح لا يجاري أهواءهم، ولا يوافق مصالحهم.

وكان لليهود حظّ وافر من تلك الأثرة، ومع أنهم أولى الناس بالإيمان برسول الله ﷺ؛ لأنهم أهل علم وكتاب سماوي، وذِكر النبي ﷺ فيه، وصفاته، وأماراته بين أيديهم، وهم الذين كانوا يستنصرون على العرب قبل ظهوره، فينصرون، لكن الأثرة غلبت على نفوسهم، فعزّ عليهم أن يكون

النبي من العرب لا منهم، وخشوا على مكانتهم أن ينازعهم فيها أحدٌ من غيرهم، فلما ظهر النبيُّ من العرب أكل قلوبَهم الحقدُ، والغيظ، وجعلوا يُشكِّكون في نبوّته، ودينه، ويقولون: ليس محمد هو الرسول الذي كنا ننتظر، وحرّفوا ما جاءهم في كتاب التوراة عنه، وغيّروا كلَّ ما يدلُّ عليه من وصف، أو إشارة، وأضمروا له العداوة، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٣] يريدون بذلك إفحام الرسول، وإبطال نبوته، وجعلوا وَكْدَهم أن يصدوا عن سبيل الله ما استطاعوا؛ لكي لا يسيطر على قلوب الناس رسول من غيرهم. ومع أن رسول الله ﷺ كان يعلمُ ذلك من أمرهم، فإنه جعل يدعوهم إلى الإسلام في رفقٍ، ويجادلهم بالتي هي أحسن.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٤] ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٨] ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٩].

ويذكرهم بنعم الله عليهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٠ـ٤٢].

وجعل ﷺ يلاينهم، ويتودَّد إليهم، ويدعوهم إلى دينه بكل وسائل الإقناع والرفق، بل جعل يشاركهم في كثير من مشاعر دينهم، فيصوم معهم عاشوراء كما يصومونه، وتوجّه إلى بيت المقدس في صلاته كما يتوجّهون إليه، وأمّنهم على حريتهم، ودينهم، ودمائهم، وأموالهم. ومدَّ يده إليهم ليتعاونوا معه على حماية المدينة ممن يغير عليه، ولكن نيران الحسد كانت

تغلي في قلوبهم، ولم يكن يطفىء هذه النيران إلا أن يعودَ المسلمون إلى الكفر بعد الإيمان، فكان هدفُهم وهدفُ المشركين واحداً في القضاء على الإسلام حتى قال الله تعالى فيهم وفي المشركين: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٥].

وظلّتِ العداوةُ كامنةً في صدورهم لرسول الله ﷺ ودعوتِه منذ قدم عليهم المدينة.

نقل الصالحي عن الزهري قال: إن أبا ياسر بن أخطب حين قدم رسول الله ﷺ المدينة ذهب إليه، فسمع منه، وحادثه، ثم رجع إلى قومه فقال: يا قوم! أطيعوني؛ فإن الله تعالى قد جاءكم بالذي تنتظرونه، فاتبعوه، ولا تخالفوه. وانطلق أخوه حيي بن أخطب وهو يومئذ سيد يهود، وهما من بني النضير، فجلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، ثم رجع إلى قومه، وكان فيهم مطاعاً فقال: أتيتُ من عند رجل لا أزال له عدواً، فقال له أخوه أبو ياسر: يابن أمّ! أطعني في هذا الأمر، واعصني فيما شئت بعد، فقال: والله! لا أطيعك، فاستحوذ عليه الشيطان، وتبعه قومه على رأيه، فقد كان فيهم مطاعاً.

وروى ابنُ إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: حدثت عن صفية بنت حُيَيّ أنها قالت: كنتُ أحبّ ولد أبي إليه، وإلى عمّي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حُيَيّ بن أخطب وعمّي أبو ياسر بن أخطب مُغَلِّسَيْن(١)، قالت: فهشِشْتُ لهما كما كنت أصنع، فوالله! ما التفت إليَّ واحدٌ منهما مع ما بهما من الغمِّ، قالت: وسمعت عمّي أبا ياسر وهو يقول لأبي حُيَيّ بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم

(١) مُبَكِّرَيْن.

والله! قال: أتعرفه؛ وتثبته؟ قال: نعم؛ قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله! ما بقيت[(١)].

كعب بن الأشرف وحُيَيّ يستغضبان النبي ﷺ:

وكان رؤساء يهود، وأحبارهم يستغضبون النبي ﷺ بأسئلتهم، ويهدِّئه جبريل عليه الصلاة والسلام، ويسكِّنه، فقد جاءه يوماً كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، وهما من بني النضير، وقوم معهم منهم، فقالوا: يا محمد! هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ فغضب النبي ﷺ حتى انتُقِع لونهُ، ثم ساورهم غضباً لربه، فجاء جبريل عليه السلام فسكَّنه، وقال: خفِّض عليك يا محمد. وجاءه من الله عز وجل بجواب ما سألوه، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الأحد: أصله واحد، وهو دالٌّ على جميع صفات الجلال، كما دلّ الله على جميع صفات الكمال، والواحد الحقيقي منزّه الذات عن اتحاد التركيب والتعدّد، وما يستلزمه التركيب، والتعدد من الجسمية، والتحيز ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ المقصود في الحوائج على الدوام، فيصمد الناس إليه في حوائجهم، والخلائق يفتقرون إلى رحمته، والصمد أيضاً: من لا جوف له، أو هو الكامل في جميع صفاته، أو الذي لا يَطْعَمُ، ولا يخرج منه شيء، أو هو الباقي بعد فناء خلقه ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ الأصل: يَوْلِد ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لما كان الرب سبحانه واجب الوجود لذاته قديماً، موجوداً قبل وجود الأشياء، وكان كلّ مولود مُحْدَثاً انتفت عنه الولدية.

ولما كان لا يشبهه أحد من خلقه، ولا يجانسه حتى يكون له من جنسه صاحبة فيتوالد، انتفت عنه الوالدية، ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١١٢/ ٤] أي: لم يكن له أحد يكافئه، أي: يماثله من صاحبة، وغيرها.

---

(١) السيرة النبوية (١/ ٥١٨).

قال ابن إسحاق: فلما تلاها عليهم قالوا: فصفْ لنا يا محمد! ربّك كيف خلقه؟ كيف ذَرْعُه؟ كيف عَضُدُه؟ فغضب النبي ﷺ أشدّ من غضبه الأول، وساورهم غضباً لربه، فأتاه جبريل، فقال له مثل مقالته، وجاءه من الله تعالى بجواب ما سألوه عنه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩١].

أي: ما عرفوه حقَّ معرفته، وما عظّموه حق عظمته حين أشركوا به، وشبهوه بخلقه. والأرض جميعاً: أي: السبع قبضته، أي: مقبوضة له، أي: في ملكه وتصرُّفه يوم القيامة. والسموات مطويات: أي: مجموعات بيمينه: أي: بقدرته، سبحانه وتعالى عما يشركون.

فنحاص يستغضب الصِّدِّيق:

قال ابنُ إسحاق: دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه بيت المدراس ـ وهو البيتُ الذي يدرس فيه يهود ما يتعلق بديانتهم ـ بعد نزول قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٥] فوجد يهود وقد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فِنحاص بن عازوراء، وكان من علمائهم، وأحبارهم. فقال أبو بكر: ويلك يا فنحاص! اتق الله عز وجل، وأسلم، فوالله! إنك لَتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة. فقال فنحاص ـ لعنه الله ـ: والله! يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرَّع إليه كما يتضرّع إلينا، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنّا بغنيٍّ، ولو كان عنّا غنياً ما استقرض منّا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيّاً ما أعطانا الرِّبا. فغضب أبو بكر، فضرب وَجْهَ فنحاص ضَربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده! لولا العهدُ الذي بينا وبَيْنك لضربت عنقك أي عدُوَّ الله!.

فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! انظر ما فعل بي صاحبُك؟! فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت؟»

فقال أبو بكر: يا رسول الله! إنّ عدوَّ الله قال قولاً عظيماً، إنه يزعم أن الله عز وجل فقير، وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما قلتُ ذلك. فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردّاً عليه، وتصديقاً لأبي بكر رضي الله عنه:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨١].

ونزل في أبي بكر الصِّدِّيق وما بلغه في ذلك من الغضب:

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٦][١].

سحر اليهود النبي ﷺ:

ومن آثار عداوة اليهود له ﷺ: سحرهم إياه.

لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي الحجة، ودخل المحرّم سنة سبع جاءت رؤساء يهود؛ الذين بقوا في المدينة ممن يظهر الإسلام وهو منافق إلى لبيد بن الأعصم، وكان حليفاً في بني زريق، وكان ساحراً قد علمت ذلك يهود أنه أعلمهم بالسحر وبالسموم، فقالوا له: يا أبا الأعصم! أنت أسحرنا، وقد سحرنا محمداً فلم نصنع شيئاً، وأنت ترى أثره فينا، وخلافَه ديننا، ومن قتل منّا وأجلى، ونحن نجعل لك على ذلك جُعلاً على أن تسحره لنا سحراً ينكؤه (يهزمه، ويغلبه) فجعلوا له ثلاثة دنانير على أن يسحر رسول الله ﷺ.

وقيل: إن الذي سحر رسول الله ﷺ بنات أعصم، أخواتُ لبيد، وكن أسحر من لبيد، وأخبث، وعمل لبيد، أو أخواته السحر في مشط، وما يمشط من الرأس

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٣/ ٥٨٣).

من الشعر، فعقد فيه عُقَداً، وتفل فيها تفلاً، وجعله في جُفِّ طلعِ نخلةٍ ذكر، ثم انتهى به، فجعله تحت راعوفة البئر: بئر ميمون، أو بئر ذِروانَ.

والراعوفة: قطعة غليظة من صخر، لا تعمل فيها الفؤوس.

ولما عقدت أخوات لبيد تلك العقد أنكر رسول الله ﷺ تلك الساعة بصره، فدسسن إحداهن حتى دخلت على عائشة رضي الله عنها فخبَّرتها عائشة، أو سمعت عائشة تذكر ما أنكر رسول الله ﷺ من بصره، ثم خرجت إلى أخواتها، وإلى لبيد، فأخبرتهم بذلك، فقالت إحداهن: إن يكن نبياً فسيخبر، وإن يك غير ذلك فسوف يُدَلِّهُهُ هذا السحر حتى يذهب عقله.

وسحره ﷺ كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، وهو أشد السحر، وسحره ﷺ كان تغيّرَ مزاج يُخيّل إليه أنه يفعل الفعل ولا يفعله، وكان ﷺ يذوب وما يدري وجعه؟ وأنكر بصره ﷺ، ودخل عليه أصحابه يعودونه فخرجوا من عنده وهم يرون أنه مسحور. ومدة مكثه ﷺ مسحوراً أربعون ليلة، أو ستة أشهر، كما جاء في روايتين، ويمكن الجمع بينهما بأن تكون الستة أشهر ابتداء تغيُّر مزاجه، والأربعين يوماً من استحكامه.

وقد فوّض رسول الله ﷺ أمر السحر ابتداءً إلى الله، ثم بعد ذلك سأل الله تعالى رفعه، فعمل بالتفويض، واتخاذ الأسباب معاً، فنال بالتفويض الأجر على بلاء الله تعالى، ونال باتخاذ الأسباب استعمال الحكمة في عالم الحكمة، فكان في الأمرين معاً غايةُ الكمال.

روى البخاري عن عروة عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال لها: «يا عائشة! أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليَّ، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب (أي: مسحور) قال: وَمَن طبّه؟ قال: لبيد بن أعصم، رجل من بني زريق حليفٌ ليهود كان منافقاً، وفي رواية للبخاري: لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق. قال: وفيم؟ قال: في مشط ومُشاقةٍ، قال:

وأين؟ قال: في جُفِّ طلعةٍ ذكر تحت راعوفة في بئر ذروان، قالت: فأتى النبيُّ ﷺ البئر حتى استخرجه، فقال: هذه البئر التي أُريتها، وكأنّ ماءها نُقاعةُ الحنّاء وكأنَّ نخلَها رؤوسُ الشياطين» وقال: فاستُخرج، وفي رواية للبخاري: وأمر بها فدفنت[1].

وحين استخرج الجُفّ وجد فيه مشط رسول الله ﷺ، ووجد فيه وتراً معقوداً فيه إحدى عشرة عقدة، مُغْرَزةً بالإبر، فنزل جبريل عليه السلام بالمعوّذتين: سورة الفلق وسورة الناس، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العُقَدِ، وأمر أن يُتَعوَّذ بهما، فجعل كلما قرأ آيةً انحلت عقدة، وكلما نزع إبرةً وجد لها ألماً، ويجد بعدها راحةً، فقام رسول الله ﷺ كأنّما أُنشِط من عقال.

والسحر حقيقة، وبه قطع جمهور العلماء، ودلَّ عليه الكتاب، والسُّنَّة الصحيحة المشهورة.

وذهب بعضهم إلى أنه تخييل فقط، ولا حقيقة له، وهم محجوجون بالكتاب والسنة.

وعمل السحر حرام، وهو من الكبائر، وقد عدَّه ﷺ من السبع الموبقات، ومنه ما يكون كفراً، ومنه ما لا يكون كفراً بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر فهو كفر، كالتعبد للشياطين، أو الكواكب، وأما تعلُّمه وتعليمه فحرام. قال النووي: إن كان في السحر ما يقتضي الكفر استتيب منه متعاطيه، ولا يقتل، فإن تاب قُبلت توبته، وإن لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عُزِّر.

وعن الإمام مالك، وهو قول أحمد: الساحر كافر يُقتل، ولا يُستتاب، بل يتحتم قتله كالزنديق.

---

(١) بخاري (٧/ ١٧٧).

وقد أجاز بعضُ العلماء تعلُّم السحر لأحد أمرين: لِتَميُّزِ ما فيه من كفر من غيره، وإما لإزالته عمّن وقع فيه، فأما الأول فلا محذورَ فيه إلا من جهة الاعتقاد، فإذا سلم الاعتقاد فمعرفة الشيء معرفةً مجردةً لا تستلزمُ منعاً، كمن يعرف عبادة أهل الأوثان؛ لأن كيفيةَ ما يعرفه الساحر إنما هي حكاية قول وفعل، بخلاف تعاطيه، والعمل به، وأما الثاني فإن كان لا يتمّ كما زعم بعضُهم إلا بنوع من أنواع الكفر أو الفسق، فلا يحلُّ أصلاً، وإلا جاز للمعنى المذكور، قاله الحافظ ابن حجر.

ظهور النفاق:

النفاق: اسم إسلامي، لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو فعلُ المنافق الذي يستر كفره، ويظهر إيمانه، كما يتستر الرجل بالنّفق؛ الذي هو المسلك في خفية، قيل: اشتقاقه من هذا.

وقيل: من قولهم نافق اليربوع، وذلك أن اليربوع له جِحَرَةٌ أربعة: النافقاء، والقاصعاء، والراهطاء، والدّامّاء، فهو يرقق أقصى النافقاء، ويكتمها، ويظهر غيرها، فإذا قصد من غيرها من الجُحر ضرب النافقاء برأسه، فانتفق منها، أي: خرج، فكذلك المنافق يدخل في الإيمان من جهة، ويخرج من جهة أخرى، فاشتقاقه من فعل اليربوع.

وقيل: اشتقاقه من صورة النافقاء، وذلك أن النافقاء ظاهره مدخل، وباطنه مخرج ومهرب، فكذا المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر، ومحل النفاق: القلب.

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينةَ أسلم بشر كثير ممن أراد الله تعالى هدايته، وانضاف إلى اليهود أناسٌ من الأوس والخزرج، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك، والتكذيب بالبعث، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره، فتظاهروا بالإسلام، واتخذوه جُنّةً من القتل، ونافقوا في السِّرِّ، وكان هواهم مع يهود لتكذيبهم برسول الله ﷺ، وجحودهم الإسلام.

وقد ذكر الله أخبارهم في سورة براءة، وغيرها.

فمنهم الجُلاس بن سويد بن الصامت، لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين، قال: والله! لئن كان هذا الرجل صادقاً على إخواننا الذين هم سادتنا وخيارنا، لنحن شرٌّ من الحمير، فسمعها ربيبُه عُمير بن سعد رضي الله عنه، فمشى إلى رسول الله ﷺ بها، فأرسل رسول الله ﷺ إليه، فحلف جُلاس بالله: لقد كذب عليّ عُمَير، وما قلتُ، فنزل الوحي: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [التوبة: ٩/ ٧٤] الآية، فقال جلاس: قلته، وقد عرض الله عليَّ التوبة، فأنا أتوبُ، فقبل ذلك منه.

قال ابنُ سيرين: لما نزلت هذه الآية أخذ رسول الله ﷺ بأذن عُمير، وقال: «يا غلام! وَفَت أذنُك، وصدّقك ربُّك».

ومنهم نبتل بن الحارث، كان يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه، فيسمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وكان يقول لهم: إنما محمد أُذن، مَن حدّثه بشيء صدَّقه، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩/ ٦١].

ومنهم عبد الله بن أبي ابن سلول، وسلول أمُّه، كان رأسَ المنافقين، وإليه يجتمعون، وهو الذي قال في غزوة بني المصطلق: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل. وفيه نزلتْ سورةُ المنافقين بأسرها.

قدم النبيُّ ﷺ المدينةَ وعبد الله بن أُبي سيّد أهلها، لا يختلف عليه في شرفه، ولم يجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجلٍ من أحد الفريقين غيره حتى جاء الإسلام، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوِّجوه، ثم

يملِّكوه عليهم، فجاءهم الله عز وجل برسوله ﷺ وهم على ذلك، فلما انصرف قومُه عنه إلى الإسلام، ضَغِنَ، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً، فلما أن رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصرّاً على نفاقٍ، وضغن.

* * *




الباب الرابع

مراحل الإذن بالجهاد، وغزواته ﷺ

الفصل الأول: مراحل الإذن بالجهاد، وبعض الغزوات (ودّان ـ بواط ـ العشيرة ـ سفوان ـ بدر الكبرى).

الفصل الثاني: غزواته ﷺ بعد بدر إلى غزوة أحد، ويتبعها حمراء الأسد.

الفصل الثالث: غزواته ﷺ بعد أحد إلى ما قبل صلح الحديبية.

الفصل الرابع: من صلح الحديبية إلى غزوة تبوك، وحجّة الوداع.






الفصل الأول

مراحل الإذن بالجهاد وبعض الغزوات
(ودان ـ بواط ـ العشيرة ـ سفوان ـ بدر الكبرى)

مراحل الإذن بالجهاد:

قال العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ: أول ما أوحى إليه ربُّه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أوّل نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ.

ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٧٤/ ١ـ٢] فنبّأه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: ٩٦/ ١] وأرسله بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ٧٤/ ١] ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أمره إنذارَ قومه، ثم إنذار من حوله من العرب قاطبةً، ثم إنذار من بلغته الدعوة من الجن والإنس إلى آخر الدهر، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال، ولا جزية، ويؤمر بالكفِّ، والصبر، والصفح، ثم أذن له في الهجرة، فلما استقرَّ ﷺ بالمدينة، وأيّده الله تعالى بنصره، وبعباده المؤمنين، وألَّف بين قلوبهم بعد العداوة، والإِحَن[1]؛ التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله، وكتيبة الإسلام: الأوس والخزرج، من الأحمر، والأسود، وبذلوا أنفسهم دونه، وقدَّموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان النبي ﷺ أولى بهم من أنفسهم.

لكن العربَ المشركين واليهود رمتهم عن قوسٍ واحدة، وشمَّروا لهم ساق العداوة، والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، حتى كان المسلمون لا يبيتون إلا في السِّلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: تُرى نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل؟! فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ

---

(١) الإحنة: الحقد في الصدر.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ٥٥].

قال العلماء: فلما قويت الشَّوكة، واشتدَّ الجناح، أُذِن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٠].

أُذِنَ: رُخِّص. والصوامع للرهبان، والبِيَع للنصارى، والصلوات: الكنائس لليهود، والمساجد للمسلمين.

قال العلماء: ثم فُرِض عليهم القتالُ بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ يعني: في قتالكم، فتقاتلوا غير الذين يقاتلونكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠].

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة حتى يكون الدين لله، قال عز وجل: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ جميعاً ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[التوبة: ٩/ ٣٦]. وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٦].

فكان القتال مُحرَّماً، ثم صار مأذوناً فيه، ثم مأموراً به لمن بدأهم القتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين، إما فرض عين على أحد القولين، وإما فرض كفاية على المشهور.

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ

قال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» زاد في رواية غيرهما: «وأن يستقبلوا قبلتنا، ويؤتوا الزكاة، ويأكلوا ذبيحتنا، ويصلُّوا صلاتنا، فإذا فعلوا ذلك فقد حرمت علينا دماؤهم، وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وحسابهم على الله». قيل: وما حقها؟ قال: «زِنى بعد إحصان، أو كفرٌ بعد إسلام، أو قتل نفس فيقتل بها».

ثم كان الكفّارُ معه ﷺ بعد الهجرة ثلاثة أقسام:

قسم: صالحهم، ووادعهم على ألا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه عدوه وهم على كفرهم، آمنون على دمائهم، وأموالهم.

وقسم: حاربوه، ونصبوا له العداوة.

وقسم: تاركوه، فلم يصالحوه، ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره، وأمر أعدائه، ثم من هؤلاء من يحب ظهوره، وانتصاره في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه، وانتصارهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن، ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون.

فعامل ﷺ كلَّ طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى، فصالح يهود المدينة، وكتب بينه وبينهم كتاب أمن وموادعة، كما تقدم، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، فنقض العهدَ الجميعُ.

وأمره الله سبحانه وتعالى أن يقيمَ لأهل العقد والصلح بعهدهم، وأن يوفِّي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانةً نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمَهم بنبذ العهد، وأمره أن يقاتل من نقض عهده.

ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان هذه الأقسام كلّها.

فأمره الله تعالى أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، أو يدخلوا في دين الإسلام. وأمره بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم، وجهاده للكفار بالسنان، وللمنافقين باللسان والحجّة. وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم، وأهل العهد ثلاثة أقسام:

أ ـ قسم أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم، وظهر عليهم.

ب ـ قسم لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتمّ لهم عهدهم إلى مدَّتهم.

جـ ـ قسم لم يكن لهم عهد، ولم يحاربوه، وكان لهم عهد مطلق، فأمره أن يُؤَجِّلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت الأربعة قاتلهم، وهذه الأشهر ليست الأشهر الحرم المعهودة، وهي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. وقد سمَّتها الآيةُ: الحُرُم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٥] وأولها يوم الأذان، وهو العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر، الذي وقع فيه التأذين بذلك، وآخرها العاشر من ربيع الآخر. فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذِّمَّة الجزية.

فاستقر أمرُ الكفّار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمّة، ثم آلت حالُ أهل العهد والصُّلح إلى الإسلام.

فصار الكفار قسمين: أهل ذمة آمنون، وأهل حرب، وهم خائفون منه.

وصار أهلُ الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

وأمر في المنافقين أن يقبلَ منهم علانيتهم، وَيَكِلَ سرائرهم إلى الله تبارك وتعالى، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمر أن يعرضَ عنهم، ويغلظَ

عليهم، وأن يبلغَ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهي أن يصلِّي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأُخبر أنه إن استغفر لهم أو لم يستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم.

تنبيه:

قال بعضُ الملحدين: إنما بُعِث ﷺ بالسيف والقتل.

والجواب: إنه ﷺ بعث أولاً بالبراهين والمعجزات، فأقام يدعو الناس بضع عشرة سنة، فلم يقبلوا منه، وأصرُّوا على الكفر والتكذيب، فأمر بالقتال، وهو عوض العذاب الذي عَذَّب اللهُ به الأمم السابقة لما كذبت رسلَها.

مغـازي رسول الله ﷺ

غزوة وَدّان:

أوّل مغازيه ﷺ في صفر في السنة الثانية من الهجرة.

ووَدان: جبل بين مكة والمدينة. عنده قرية تسمى باسمه.

واستعمل ﷺ على المدينة سعد بن عبادة وخرج بالمهاجرين ليس منهم أنصاريٌ، يعترض عيراً لقريش، وحامل لوائه الأبيض حمزة بن عبد المطلب، فلم يلق كيدا، ووادع بني ضمرة، وعقد معهم عقداً، وصالحهم على ألا يغزوهم ولا يغزوه ولا يُكَثِّروا عليه ﷺ جمعاً ولا يعينوا عليه عدواً وكتب ذلك في كتاب نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتابٌ من محمد رسول الله لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم، وأنفسهم، وأن لهم النصرة على من رامَهم (أي: قصدهم) إلا أن يحاربوا في دين الله، ما بلَّ بحرٌ صوفةً (أي: ما بقي فيه ما يَبُلُّ الصوفة) وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنصره أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله (أي: أمانهما).

اللواء: العلم يحمل في الحرب، يعرف به موضع أمير الجيش، وقد

يحمله أميرُ الجيش، وقد يجعل في مقدّم الجيش، واللواء والراية بمعنى، وأول من عقد الألوية: الخليل إبراهيم عليه السلام بلغه أن قوماً أغاروا على لوط عليه السلام، فعقد لواءً، وسار إليهم بعبيده، ومواليه.

غزوة بواط:

في ربيع الأول، وقيل: الآخر، في السنة الثانية من الهجرة.

وبُواط: جبل من جبال جهينة بِيَنْبُع من ناحية رضوى، بينه وبين المدينة أربعة بُرُد.

واستعمل ﷺ على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون، وخرج في مئتين من المهاجرين، وحمل لواءه الأبيض: سعد بن أبي وقاص، يعترض عيراً لقريش، وكان فيها أميّة بن خلف ومئة رجل من قريش، وألفان وخمسمئة بعير، فبلغ بواطاً، ولم يلق كيداً، ورجع إلى المدينة.

غزوة العُشَيرة:

غزوة العشيرة: في جمادى الآخرة، وقيل: الأولى، في السنة الثانية من الهجرة.

والعشيرة: موضع ببطن ينبع لبني مُدْلِج.

واستعمل ﷺ على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وخرج في مئة وخمسين، وقيل: مئتين من المهاجرين خاصّةً ممن انتدب، ولم يكره أحداً على الخروج، وخرجوا في ثلاثين بعيراً يعتقبونها، يعترض عيراً لقريش متوجهة إلى الشام فيها خمسون ألف دينار وألف بعير.

وحمل لواءه الأبيض: حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فوجدوا العير قد مضت قبل ذلك بأيام، ورجع، ولم يلق حرباً، ووادع ﷺ بني مدلج قوم سراقة.

وكنى ﷺ في تلك الغزوة علياً رضي الله عنه بأبي تراب، حين وجده

نائماً، وقد علق به التراب، وقال: «قم أبا تراب» فلما قام قال له ﷺ: «ألا أخبرك بأشقى الناس أجمعين؟! عاقر الناقة، والذي يضربك على هذا» ووضع يده على قرن رأسه «فيخضب هذه» ووضع يده على لحيته. فكان كما أخبر ﷺ، وهو من أعلام نبوّته عليه الصلاة والسلام.

وذكر في تكنيته بأبي تراب واقعة أخرى عقب نكاحه بفاطمة رضي الله عنها، ويحتمل أنه خاطبه بهذه الكنية مرّتين.

غزوة سَفَوان (غزوة بدر الأولى):

غزوة سَفَوان بعد العُشَيرة بأيام قلائل، في ربيع الأول، على ما ذكره ابن حزم.

وسفوان: بفتح السين والفاء وادٍ من ناحية بدر، بلغ إليه رسول الله ﷺ في طلب كُرْز الفهريّ، لما أغار على سَرْح المدينة (الإبل والمواشي) وحمل لواءه الأبيض: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولم يدرك رسول الله ﷺ كرزاً، فرجع إلى المدينة، ولم يلق كيداً.

وأسلم كرز بعدها، واستشهد في غزوة الفتح.

غزوة بدر الكبرى:

السابع عشر من رمضان، السنة الثانية من الهجرة.

بدر: قرية مشهورة على نحو أربعة مراحل من المدينة الشريفة، قيل: نسبت إلى بدر بن مخلّد بن النضر بن كنانة، وقيل: إلى بدر بن الحارث، وقيل: بدر اسم البئر التي بها، سُمِّيت بذلك لاستدارتها، أو لصفائها، فكان البدر يرى فيها، وأنكر ذلك شيوخ بني غفار، وقالوا: ماؤنا ومنازلنا، ولم يملكها أحد قط يقال له بدر، وإنما هو عَلَم عليها كغيرها من البلاد. قال الإمام البغوي: وهو قول الأكثر.

ويقال لها: بدر العظمى، وبدر القتال، ويوم الفرقان؛ لأن الله تعالى

فرّق فيه بين الحق والباطل، وهي التي أعزَّ الله فيها الإسلام وأذلَّ الكفر وأهله، وجمعت الآيات الكثيرة، والبراهين الشهيرة، فحقَّق الله لهم فيها ما وعدهم من إحدى الطَّائفتين، وما أخبرهم به من مَيْلهم إلى العير دون الجيش، ومجيء المطر عند الالتقاء، فكان للمسلمين نعمة وقوة، وعلى الكافرين بلاءً ونقمةً، وإمداد الله تعالى المؤمنين بجند من السماء حتى سمعوا أصواتهم، حين قالوا: أَقدِمْ حَيزُوم، ورأوا الرؤوس تتساقط من الكواهل من غير قطع ولا ضرب، ورأوا أثر السياط في أبي جهلٍ وغيره، ورمى رسول الله ﷺ المشركين بالحصى والتراب، حتى عمَّت رَمْيَتُه الجميعَ، وتقليل المشركين في أعين المسلمين ليزيل عنهم الخوف، ويشجِّعهم على القتال، وإشارة المصطفى ﷺ إلى مصارع المشركين بقوله: «هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان» فرأى المسلمون ذلك على ما أشار إليه ﷺ وذكره، وقوله ﷺ لعقبة بن أبي معيط: «إن وجدتك خارج جبال مكة قتلتك صبراً» فحقَّق اللهُ تعالى ذلك، وإخبار عمه العباس بما استودع أم الفضل من الذهب، فزالت شبهة العبَّاس في صدقه، وحقيقة نبوّته، فازداد بصيرةً ويقيناً في أمره، وتحقيق الله تبارك وتعالى وعده للمؤمنين، إذ يقول: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧/ ٧٠] فأعطي العباس بدل عشرين أوقية عشرين غلاماً يتَّجرون بماله، إلى غير ذلك من الآيات والمعجزات؛ التي أعطاها الله تعالى لرسوله ﷺ، وأراها مَن معه من المؤمنين، فزادتهم بصيرة، ويقيناً.

سببها: سماعه ﷺ بعير قريش قافلةً من الشام، وهي التي خرج لها حتى بلغ العُشَيرة، فوجدها قد مضت، وفيها أموالٌ كثيرة، يقال: إن فيها خمسين ألف دينار من أموال كل قرشي وقرشية إلا حويطب بن عبد العزّى.

فندب المسلمين للخروج معه، وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا لعلَّ الله تعالى يغنمكموها» فخفّ بعضٌ، وثقل بعض، وتخلَّف عنه بشرٌ كثير لم يُلاموا، وقال لأصحابه: «من كان ظهره حاضراً فليركب

معنا» وبعث رسول الله ﷺ قبل خروجه من المدينة بعشر ليال طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام يتحسَّسان خبر العير، فأدركاها، وحين رجعا إلى المدينة ليخبرا رسول الله ﷺ بخبرها، فوجداه قد خرج.

وكان أبو سفيان قد أُخبر وهو في معان من أرض الشام: أنَّ النبي ﷺ كان قد خرج ليدرك عيره، وأنه ينتظر قدومها عليه، ولما رجع أبو سفيان، وقرب من الحجاز جعل يتحسَّس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوُّفاً على أمر القافلة حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاريَّ بعشرين مثقالاً، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يجدع بعيره، ويُحوِّل رحله، ويشقّ قميصه من قُبُله ومِن دُبره إذا دخل مكة، ويأتيَ قريشاً، ويستنفرَهم إلى أموالهم، ويخبرَهم أن محمداً (ﷺ) قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة، وفعل ما أمره به أبو سفيان.

رؤيا عاتكة بنت عبد المطّلب:

رأت عاتكة فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم على قريش بثلاث ليال رؤيا، فأصبحت، فأعظمتها، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له: يا أخيَّ لقد رأيتُ الليلة رؤيا أفظعتني، لَيدخلنّ على قومك منها شرٌّ وبلاء، فقال: وما هي؟ قالت: لن أحدِّثك حتى تعاهدني أنك لا تذكرها، فإنهم إن سمعونا آذونا، وأسمعونا ما لا نحبُّ. فعاهدها العباس، فقالت: رأيت أن رجلاً أقبل على بعير فوق الأبطح، فصاح بأعلى صوته: انفروا يا آل غُدَر! لمصارعكم في ثلاث، وصاح ثلاث صيحات، فأرى الناس اجتمعوا إليه. ثم إن بعيره دخل به المسجد، واجتمع إليه الناس، ثم مثُل به بعيره، فإذا هو على رأس الكعبة، فصاح ثلاث صيحات فقال: انفروا يا آل غدر! لمصارعكم في ثلاث، ثم أرى بعيره مثل به على رأس أبي قبيس، فقال: انفروا يا آل غدر! لمصارعكم في ثلاث، ثم أخذ صخرةً عظيمة فنزعها من أصلها، فأرسلها من رأس الجبل، فأقبلت الصخرة

تهوي، لها حِسٌّ شديد، حتى إذا كانت في أسفل الجبل ارتضَّت فما بقيتْ دارٌ من دور قومك ولا بيتٌ إلا دخل فيه فِلقة. فقال العباس: والله! إن هذه لرؤيا فاكتميها، قالت: وأنت فاكتمْها، لئن بلغت هذه قريشاً ليؤذوننا.

فخرج العباس من عندها، فلقي الوليد بن عتبة فتحدَّث بها، وفشا الحديثُ بمكة، حتى تحدَّثت به قريش في أنديتها. قال العبَّاس: فغدوتُ لأطوف بالبيت، وأبو جهل في رهطٍ من قريش قعود يتحدثون لرؤيا عاتكة، فلما رآني قال: يا أبا الفضل! إذا فرغتَ من طوافك فأقبلْ إلينا، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب! متى حدثت فيكم هذه النبيَّة؟ قلت: وما ذاك؟ قال: رؤيا عاتكة. قلت: وما رأتْ؟ قال: ما رضيتم يا بني عبد المطلب أن يتنبّأ رجالكم حتى تتنبّأ نساؤكم، فما أعلم في قريش أهل بيت أكذب امرأةً، ولا رجلاً منكم ـ وآذاه أشدَّ الأذى ـ قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث، فسنتربَّص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء كتبنا عليكم كتاباً أنكم أكذبُ أهل بيت في العرب.

قال العباس: فوالله! ما كان مني إليه كبيرُ شيء إلا أني جحدتُ ذلك، وأنكرتُ أن تكون عاتكة رأت شيئاً.

قال العباس: فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني، فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقعَ في رجالكم، ثم قد تناول نساءكم وأنت تستمع، ثم لم يكن عندك كبيرُ شيء مما سمعت؟ قلت: قد والله! فعلت، ما كان مني إليه كبيرُ شيء. وايم الله! لأتعرَّضن له، فإن عاد لأكفيكُنّه. قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، وأنا حديد مغضب، أرى أنِّي قد فاتني منه أمر أُحبُّ أن أدركه منه، قال: فدخلت المسجد فرأيته، فوالله! إني لأمشي نحوه أتعرَّضه ليعود لبعض ما قال، فأقعَ فيه، إذ خرج نحو باب المسجد يشتدُّ، قال: فقلت في نفسي: ما له لعنه الله

أكلُّ هذا فرق مني أن أشاتمه! قال: وإذا هو قد سمع ما لم أسمع صوتَ ضمضم الغفاري، وهو يصرخُ ببطن الوادي واقفاً على بعيره، قد جدَّع بعيره، وحوَّل رحله، وشقَّ قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة، (التجارة فيها الطيب) أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها. ففزعت قريش أشد الفزع، وأشفقوا من رؤيا عاتكة، وشغلني عنه ما جاء في الأمر، وقالت عاتكة:

ألم تكن الرؤيا بحق وجاءكم بتصديقها فلٌّ من القوم هارب
فقلتم ولم أكذب كذبتِ وإنما يكذبنا بالصدق من هو كاذب

خروج قريش:

فتجهَّز الناسُ سراعاً، وقالوا: أيظنُّ محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، كلا، والله! ليعلمُنَّ غير ذلك.

[وابنُ الحضرمي: هو عمرو بن مالك الكِنديّ، وعيره كانت تحمل تجارة قريش ظفر به وبأصحابه عبد الله بن جحش، فقتل ابن الحضرمي، وأُسر صاحباه، وأفلت الرابع، وجيء بالعير والأسيرين إلى المدينة. وكان ذلك في آخر يوم من رجب بعد غزوة بدرٍ الأولى] فكانت قريش بين رجلين إما خارجٍ وإما باعثٍ مكانه رجلاً، وأعان قويُّهم ضعيفَهم. ولم يتركوا كارهاً للخروج يظنون أنه في صفِّ محمد وأصحابه، ولا مسلماً يعلمون إسلامه، ولا أحداً من بني هاشم إلا من لا يتهمون إلا أشخصوه معهم، وكان ممن أشخصوا العباس بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث، وطالب بن أبي طالب، وعقيل بن أبي طالب في آخرين، وتهيَّب أبو لهب الخروج لرؤيا عاتكة، واستقسم أمية بن خلف، وعتبة، وشيبة، وزمعة بن الأسود، وعمير ابن وهب، وحكيم بن حزام، وغيرهم عند هبل بالآمر، والناهي من الأزلام، فخرج القِدح الناهي عن الخروج، فأجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل بن هشام، فتجهزوا.

ولما أجمعوا المسير، وخرجوا على الصعب والذَّلول معهم القيان والدفوف، ذكروا ما كان بينهم وبين بكر بن عبد مناة بن كنانة من الدماء، وخشوا أن يأتوهم من خلفهم، وكاد ذلك أن يثنيهم لولا عدو الله إبليس؛ الذي تبدَّى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكناني، وكان من أشراف كنانة، فقال: أنا جارٌ لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً في خمسين وتسعمئة مقاتل، لم يتخلف عنهم من أشرافهم أحد سوى أبي لهب، ولم يتخلف عنهم من بطون قريش سوى بني عديٍّ، وخرجوا كما قال تعالى: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٧] وإبليس معهم يعدهم أن كنانة وراءه أقبلوا لنصرهم، فلم يزل حتى أوردهم، وسلّمهم للموت والهلاك، وكان مع قريش مئتا فارس يقودونها وستمئة دارع.

خروج رسول الله ﷺ:

خرج رسول الله ﷺ من المدينة في رمضان يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، كما روى ابن سعد، ولثمانٍ خلون من رمضان برواية ابن هشام، وضرب عسكره ببئر أبي عِنَبَة مقابل مسجد المحطة في الاستصيون (العنبرية) على ميلٍ من المدينة، فعرض أصحابَه، وردَّ من استصغر منهم، فردَّ عبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، ورافع بن خديج، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظُهير، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، وعمير بن أبي وقّاص، فقال: ارجع، فبكى، فأجازه، فقتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة، وأمر أصحابه أن يستقوا من بئر السقيا، وشرب من مائها، وصلَّى عند بيوت السقيا، (في العنبرية اليوم) ودعا يومئذ للمدينة، فقال: «اللهم! إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك دعاك لأهل مكة، وإني محمد عبدك ونبيك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في صاعهم، ومدِّهم، وثمارهم. اللهم! حبِّبْ إلينا المدينة، واجعلْ ما بها من الوباء بِخُمّ، اللهم! إني حرَّمتُ ما بين لابتيها كما حرَّم إبراهيم خليلك مكة». وراح ﷺ عشية الأحد من بيوت السقيا،

فلما فصل منها أمر قيس بن أبي صعصعة أن يعد المسلمين، فعدهم، ثم أخبر رسول الله ﷺ بأنهم ثلاثمئة وثلاثة عشر، ففرح بذلك، وقال: «عدة أصحاب طالوت» فدعا لهم بقوله: «اللهم إنهم حفاة فاحملهم، وعراة فاكسهم، وجياع فأشبعهم، وعالةٌ فأغنهم».

ودفع اللواء الأبيض إلى مصعب بن عمير، وبين يدي رسول الله ﷺ رايتان سوداوان، إحداهما مع علي بن أبي طالب، والأخرى مع بعض الأنصار. وعدّة المهاجرين نيّفٌ وستون، وعدة الأنصار نيّفٌ وأربعون ومئتان.

وحكى السهيلي: أنه حضر مع المسلمين سبعون نفساً من الجنّ، واستخلف على المدينة ابنَ أم مكتوم للصلاة، وردَّ أبا لبابة من الروحاء، واستخلفه على المدينة.

وكانت إبلُ أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ سبعين بعيراً، فاعتقبوها، وكان رسول الله ﷺ، وعليّ، وزيد بن حارثة، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً، وكان أبو بكر، وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً، وكان رفاعة، وخلاد ابنا رافع بن مالك بن العجلان، وابن عمهما يعتقبون بعيراً، فلما كانوا بالروحاء برك بعيرهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا بماء، فتمضمض، وتوضأ في إناء، ثم قال: «افتحا فاه»، ففعلا، فصبَّه في فيه، ثم على رأسه، وعنقه، ثم على حارِكه [عظم بين الكاهل والعنق] وسنامه، ثم على عَجُزِه، ثم على ذنبه، ثم قال: «اركبا» ومضى، فلحقاه، وإن بَكرهم لينفر بهم، حتى إذا كانوا بالمصلى في المدينة، وهم راجعون من بدر برك عليهم، فنحره خلاَّد، فقسم لحمه، وتصدَّق به.

ولما سار رسول الله ﷺ صام يوماً أو يومين حيث كان الصوم قد فرض في السنة الثانية، ثم نادى مناديه: «يا معشر العصاة! إني مفطر فأفطروا» وذلك أنه قد كان قال لهم قبل ذلك: أفطروا، فلم يفعلوا.

ثم ارتحل رسول الله ﷺ، فاستقبل قرية الصفراء بين جبلين يسكنها بنو

النّار وبنو حراق، بطنان من غفار، واسم الجبلين مُسلِح ومخرىء، فكرههما كراهته الاسم القبيح، وكره المرورَ بينهما، وتفاءل بأسمائهما، وأسماء أهلهما، فترك الصفراء عن يساره، وسلك ذات اليمين على وادي ذَفِران، فجزِع فيه (قطعه عرضاً) ثم نزل، وأتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا عيرهم.

استشارته ﷺ أصحابه:

استشار عليه الصلاة والسلام من معه، فتكلّم المهاجرون، فأحسنوا، فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله! امضِ لما أمرك الله فنحن معك، والله! ما نقول لك كما قال قوم موسى لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، عن يمينك، وشمالك، وبين يديك، وخلفك، والذي بعثك بالحق! لو سرتَ بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه، فأشرق وَجْهُ رسول الله ﷺ، وقال له خيراً، ودعا له.

وقال عمر رضي الله عنه فيما ذكره عنه موسى بن عقبة: يا رسول الله! إنها قريش، وعِزُّها، والله! ما ذلّت مذ عزّت، ولا آمنت مذ كفرت، والله! لتقابلنَّك فأهِّبْ لذلك أُهبته، وأعدَّ لذلك عدّته.

ثم استشارهم ثالثاً، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم، وذلك أنهم عدد النَّاس. فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه، وجزاه خيراً فقال: يا رسول الله! كأنك تعرِّض بنا؟ قال: «أجل»، وكان إنما يعنيهم؛ لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود في ديارهم. فاستشارهم ليعلم ما عندهم.

فقال سعد: يا رسول الله! قد آمنَّا بك، وصدَّقناك، وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا، ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ لما أردت، ولعلك يا رسول الله! تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها ألا ينصروك إلا في ديارهم، وإني أقولُ عن الأنصار، وأجيب عنهم، فاظعن

حيث شئتَ، وصِلْ حبل من شئت، واقطعْ حَبْلَ من شئت، وخُذْ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر، فأمرنا تَبَعٌ لأمرك، فوالله! لئن سرتَ حتى تبلغ البَرْك من غُمدان، وفي رواية: برك الغماد من ذي يَمَن لنسيرنَّ معك، والله! لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلّف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن نلقى عدوَّنا غداً، إنا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعلَّ اللهَ يريك منا ما تقرّ به عينك، ولعلك خرجتَ لأمرٍ فأحدث الله غيره، فسرْ بنا على بركة الله، فنحن عن يمينك وشمالك، وبين يديك وخلفك، ولا نكوننَّ كالذين قالوا لموسى: فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهبْ أنت وربك فقاتلا، إنَّا معكما متبعون. فأشرقَ وجهُ رسول الله ﷺ، وسُرَّ بقول سعد. فقال رسول الله ﷺ: «سيروا على بركة الله، وأبشروا فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين، والله! لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم». وكره جماعةٌ لقاء العدوّ.

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذَفِران، فسلك ثنايا يقال لها: الأصافر، ثم انحطّ منها إلى بلدٍ يقال له: الدّبّة، وترك الحنّان بيمين، وهو كثيب عظيم كالجبل العظيم، ثم نزل قريباً من بدر.

تحسس النبي ﷺ أخبار العير بنفسه:

فركب هو والصِّدِّيق حتى وقف على شيخ من العرب، قال ابن هشام: هو سفيان الضّمْريّ، فسأله عن قريش، وعن محمد، وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك»، قال: أذاك بذاك؟ قال: «نعم». قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بكذا وكذا؛ للمكان الذي فيه رسول الله ﷺ، وبلغني أنَّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا؛ للمكان الذي فيه قريش.

فلما فرغ من خبره قال: ممّن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماء». ثم انصرفا عنه، والشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟.

رسل النبي ﷺ إلى بدر:

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فلما أمسى بعث عليّ بن أبي طالب، والزُّبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص في نفرٍ من أصحابه إلى ماء بدر، يلتمسون الخبر له، فأصابوا راويةً لقريش (البعير، أو البغل، أو الحمار الذي يُستقى عليه الماء، وهي المزادة فيها الماء، والرجل المستقي يسمّى راوية) فيها أسلم غلام بني الحجّاج، وعريض غلام بني العاص، فأتيا بهما، فسألوهما، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القومُ خبرهما، ورجوا أن يكونوا لأبي سفيان، وأصحاب العير، فضربوهما، فلما أذلقوهما (أجهدوهما) قالا: نحن لأبي سفيان، ونحن في العير، فتركوهما.

وركع رسول الله ﷺ، وسجد سجدتيه، ثم سلّم، وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا، والله! إنهما لقريش، أخبراني عن قريش»؟ قالا: هم، والله! وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالا: كثير، قال: «ما عدَّتهُم؟» قالا: لا ندري، قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمئة والألف» ثم قال لهما رسول الله ﷺ: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونُبيه ومُنَبّه ابنا الحجّاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ودّ. فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقتْ إليكم أفلاذَ أكبادها».

عيون النبي ﷺ إلى بدر:

وكان رسول الله ﷺ أرسل بسبس بن عمرو، وعدي بن أبي الزغباء من جهينة حلفاء بني النجار إلى بدر يتحسسان أخبار عير أبي سفيان، فأناخا إلى تلٍّ قريب من الماء، ثم أخذا شنّاً لهما يستقيان فيه، ومجدي بن عمرو الجهني على الماء، فسمعا جاريتين من جواري الحاضرة (القوم النازلين على الماء) وهما تتلازمان الواحدة مدينة، والأخرى دائنة، تقول المدينة للدائنة: إنما تأتي العير غداً أو بعد غد، فأعمل لهم، ثم أقضيكِ الذي لك. قال مجديٌّ: صدقت، ثم خلّص بينهما، وسمع ذلك بسبس وعدي، فجلسا على بعيريهما، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ، فأخبراه بما سمعا.

وصول أبي سفيان إلى بدر:

أقبل أبو سفيان بالعير خائفاً حتى دنوا من المدينة، واستبطأ ضمضم بن عمرو حتى ورد بدراً، وهو خائف أيضاً، فلما كانت الليلة التي يصبحون فيها على ماء بدر، جعلت العير تقبل بوجوهها إلى ماء بدر، وكانوا باتوا من وراء بدر آخر ليلتهم، وهم على أن يصبحوا بدراً إن لم يعترض لهم، ولم تكن العير بحاجة إلى الورود، فقد شربت بالأمس، وجعلوا يصرفونها من التوجه إلى بدر، فلم تنقدْ لهم حتى ضربوها بالعُقُل، وقالوا: هذا شيء ما صنعته معنا منذ خرجنا.

وتقدم أبو سفيان أمام العير حذِراً حتى ورد الماء، فرأى مجديّ بن عمروٍ، فقال له: هل أحسست أحداً؟ قال: ما رأيت أحداً أنكره، إلا أني رأيت راكبيْنِ قد أناخا إلى هذا التلّ، ثم استقيا في شنٍّ لهما، ثم انطلقا. فأتى أبو سفيان مُناخَهما، فأخذ من أبعار بعيريهما، ففتَّه، فإذا فيه النَّوى، فقال: هذه والله! علائف يثرب، فرجع إلى أصحابه سريعاً، فضرب وجهَ عيره عن الطريق، فساحل بها، وترك بدراً بيسار، وانطلق حتى أسرع، فسار ليلاً ونهاراً خوفاً من الطلب.

سلامة العير:

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش قَيس بن امرىء القيس: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم، ورجالكم، وأموالكم، وقد نجّاها الله، فارجعوا، فأتاهم الخبر وهم بالجحفة (قريةٌ محاذيةٌ لرابغ)، فقال أبو جهل: والله! لا نرجع حتى نَرِد بدراً ـ وكان بدر موسماً من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوقٌ كلَّ عام ـ فنقيمَ عليه ثلاثاً، فننحرَ الجُزُرَ، ونُطعَمَ الطعام، ونُسْقَى الخمر، وتعزفَ علينا القيان، وتسمعَ العرب بمسيرنا، وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها.

وكره أهلُ لرأي ممن ذكر من سادة قريش المسير، حتى بكَّتهم أبو جهل بالجبن، وأعانه ابنُ أبي معيط، والنضر بن الحارث، وأجمعوا المسير. ورجع بنو زهرة، لم يشهدوا بدراً، ردّهم الأخنس بن شريق إلا رجلين، ورجع بنو عديّ فلم يشهدوها، وأراد بنو هاشم الرجوعَ فاشتدَّ عليهم أبو جهل، وقال: لا تفارقنا هذه العصابةُ حتى نرجع.

ولحق قيس بن امرىء القيس أبا سفيان، فأخبره بمجيء قريش، فقال: هذا عمل عمرو بن هشام، يعني: أبا جهل.

منازل المسلمين:

نزل المسلمون وبينهم وبين ماء بدر مرحلة، وغلب المشركون المسلمين على الماء في أوّل الأمر، فظمىء المسلمون، وأصابهم ضيقٌ شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس إليهم: تزعمون أنكم أولياء الله، وفيكم رسول الله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلّون مجنبين، فأنزل الله تعالى تلك الليلة مطراً كثيراً، فكان على المشركين وابلاً شديداً منعهم من التقدُّم، وكان على المسلمين طلاًّ، طهرهم الله تعالى به، وأذهب عنهم رجز الشيطان، ووطَّأ به الأرض، وصلَّب الرمل، وثبَّت الأقدام، ومهَّد به المنزل، وربط به على قلوبهم، ولم يمنعهم من

السير، وسال الوادي، فشرب المؤمنون، وملؤوا الأسقية، وسقوا الركاب، واغتسلوا من الجنابة، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ٨/ ١١].

وأصاب المسلمين تلك الليلة نعاسٌ أُلقي عليهم، فناموا، حتى إن أحدهم ذقنه بين يديه، وما يشعر حتى يقع على جنبه. قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: النّعاس في المصافّ من الإيمان، والنعاس في الصلاة من النفاق.

وروى البيهقي في «الدلائل» عن عليّ رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا ليلة بدر، وما منا أحد إلا وهو نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي، فإنه يصلي إلى شجرة، ويدعو حتى أصبح[١].

إشارة الحباب بن المنذر:

فكان النعاس أمنةً من الله، وكانت ليلة الجمعة، وسار رسول الله ﷺ عشاء يبادرهم الماء، فسبقهم إليه، ومنعهم من السبق إليه المطر، أرسله الله تعالى عليهم، حتى جاء أدنى ماء من بدر، فنزل، فقال الحباب بن المنذر فيما رواه ابنُ إسحاق: يا رسول الله! أرأيتَ هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي، والحرب، والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي، والحرب، والمكيدة». قال: يا رسول الله! ليس هذا المنزلَ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماءٍ من القوم، فننزله، ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً، فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي».

وذكر ابنُ سعد أن جبريل نزل على النبي ﷺ فقال: «الرأي ما أشار به الحباب»، فنهض ﷺ ومن معه من الناس، حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه نصف الليل، ثم أمر بالقُلُب فغُوِّرت، وبنى حوضاً على القليب

---

(١) الدلائل (٣/ ٣٩).

الذي نزل عليه، فملأه ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية.

بناء العريش:

قال سعد بن معاذ: يا رسول الله! ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعِدُّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدوَّنا، فإن أعزّنا الله تعالى، وأظهرنا على عدوِّنا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فلقد تخلَّف عنك أقوامٌ، يا نبيَّ الله! ما نحن بأشدَّ حباً لك منهم، ولو ظنُّوا أنك تلقى حرباً ما تخلَّفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك. فأثنى رسول الله ﷺ عليه خيراً، ودعا له بخير، ثم بني لرسول الله ﷺ عريش على تلٍّ مشرفٍ على المعركة، فكان فيه هو وأبو بكر، وليس معهما غيرهما، وقام سعد بن معاذ رضي الله عنه على بابه متوشِّحاً بالسيف.

مصارع القوم:

ومشى رسول الله ﷺ في موضع المعركة، وجعل يشير بيده: «هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلانٍ إن شاء الله» فما تعدَّى أحدٌ موضع إشارته.

الفريقان في بدر:

أصبح رسول الله ﷺ في بدر، وارتحلت قريش حين أصبحت، فأقبلت بحدِّها وحديدها، تحادّ الله عز وجل، وتحادّ رسوله، وجاؤوا على حردٍ قادرين، وعلى حميّة، وغضب، وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه؛ لما يريدون من أخذ عيرهم، وقتل من فيها، فجمعهم الله تعالى على غير ميعاد، فلما رأى رسول الله ﷺ طلائعها قال: «اللهم! هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادّك، وتكذب رسولك، اللهم! فنصرك الذي وعدتني، اللهم! أَحِنْهم الغداة (أَمِتْهُمْ)».

فلما نزل الناسُ أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ﷺ،

فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» فما شرب منهم أحدٌ إلا قتل، إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يقتل، وأسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه.

وصف البدريين على لسان عمير بن وهب:

وحين اطمأنت قريش في منازلها بعثوا عمير بن وهب الجمحي ـ وأسلم بعد ذلك ـ فقالوا له: احزُر لنا أصحاب محمد، فجال بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم، فقال: ثلاثمئة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقومِ كمينٌ، أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعد فلم يَرَ شيئاً، فرجع إليهم، فقَال: ما رأيت شيئاً، ولكن رأيت يا معشر قريش! البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع. قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، يتلمظون تلمُّظ الأفاعي، والله! ما أرى أن يُقتَل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما في العيش خير بعد ذلك، فَرَوْا رأيكم.

وحاول حكيم بن حزام بعد سماعه قول عمير أن يحولَ دون وقوع الحرب، فكلَّم عتبة بن ربيعة في احتمال دم عمرو بن الحضرمي، فوافق عتبة، وخطب الناس، ثم أرسل حكيماً إلى أبي جهل بالرجوع، فأثار أخا عمرو بن الحضرمي، فقام ينشد مقتل أخيه، فأفسد رأي عتبة.

وتقالَّ المشركون أصحابَ رسول الله ﷺ ظنّاً منهم أن الغلبة بالكثرة، فقال أبو جهل: خُذوهم أخذاً فاربطوهم بالحبال، ولا تقتلوا منهم أحداً، فنزل: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ٦٨/ ١٧].

ابتداء الحرب:

ولما أصبح رسول الله ﷺ صفَّ أصحابه قبل أن تنزل قريش، وطلعت قريش ورسول الله ﷺ يصفُّ أصحابه، ويعدِّلهم، يشير إلى هذا تقدَّم، وإلى هذا تأخَّر، حتى استووا.

ولما عدَّل رسول الله ﷺ تقدّم سَوَادُ بن غزيّة أمام الصف، فدفع رسول

الله ﷺ في بطنه، وقال: «استو يا سواد!» قال: يا رسول الله! أوجعتني والذي بعثك بالحق! أَقِدْني، فكشف ﷺ عن بطنه وقال: «استقد» فاعتنقه، وقبّله، فقال: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال: حضر من أمر الله ما ترى، خشيت أن أُقتل، فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك.

ووقف رسول الله ﷺ ينظر إلى الصفوف، فاستقبل المغربَ، وجعل الشمسَ خلفه، وأقبل المشركون، فاستقبلوا الشمس، ونزل رسول الله ﷺ بالعدوة الشمالية، ونزلوا بالعدوة اليمانية.

خطبة النبي ﷺ:

وخطب ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد! فإني أَحثكم على ماحثّكم الله عز وجل، وأنهاكم عما نهاكم الله عز وجل عنه، فإن الله عز وجل عظيمٌ شأنُه، يأمر بالحق، ويحبُّ الصدق، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده، به يذكرون، وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحقِّ، لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتُغي به وجهه، وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرّج الله عز وجل به الهمَّ، وينجِّي به من الغمِّ، وتدركون به النجاة في الآخرة، فيكم نبيُّ الله يحذِّركم، ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطَّلع الله عز وجل على شيءٍ من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله عز وجل يقول: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/ ١٠] انظروا إلى الذي يأمركم به من كتابه، وأراكم من آياته، وأعزَّكم بعد الذِّلَّة، فاستمسكوا به يَرْضَ به ربُّكُم عنكم، وأبلوا ربّكم في هذه المواطن أمراً تستوجبوا الذي وعدكم به من رحمته ومغفرته، فإنَّ وعده حقّ، وقوله صدق، وعقابَه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحيِّ القيُّوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكَّلنا، وإليه المصير، يغفر الله لنا وللمسلمين.

ورجع ﷺ إلى العريش، فأغفى، ثم انتبه وقد أراه الله تعالى المشركين في منامه قليلاً، فأخبر أصحابه، وكان ذلك تثبيتاً لهم.

وتعبَّأت قريش للقتال، والشيطان لا يفارقهم، وخرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلاً شرساً سيِّىء الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضكم، أو لأهدمنّه، أو لأموتن دونه. فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة، فأطنَّ قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً، ثم حبا إلى الحوض، فأتبعه حمزة حتى قتله دون الحوض، حتى وقع فيه فهدمه برجله الصّحيحة، وشرب منه.

نشوب القتال:

وجاء عمير بن وهب فناوش المسلمين، فثبتوا على حقهم، ولم يزولوا عنه، وشدَّ عليهم عامر بن الحضرمي، ونشبت الحرب، فكان أول من خرج من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب، فقتله عامر بن الحضرمي، وكان أول قتيل من الأنصار حارثةُ بن سراقة، أو عمير بن الحمام رضي الله عنهم.

توجيهات رسول الله ﷺ:

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا تقاتلوا حتى أؤذنكم وإن كثبوكم (قربوا منكم) فارموهم بالنبل، ولا تسلُّوا السيوف حتى يغشَوكم، واسْتبْقوا نبلكم».

وخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة، حتى إذا فصل من الصف دعوا إلى المبارزة، فخرج إليهم ثلاثةٌ من الأنصار، وهم: عوف ومعاذ ابنا الحارث، وعبد الله بن رواحة. فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، فقالوا: أكفاءٌ كرام، ما لنا بكم من حاجة، ثم نادوا: يا محمد! أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فناداهم رسول الله ﷺ: «ارجعوا إلى مصافِّكم وليقم إليهم بنو عمِّهم». فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا عليّ، فقاتِلوا بحقكم الذي بُعث به

نبيُّكم إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله»، فلما قاموا، ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ تكلَّموا. فقال عبيدة: أنا عبيدة، وقال حمزة: أنا حمزة، وقال عليٌّ: أنا علي. قالوا: نعم أكفاء كرام.

فبارز عبيدة ـ وكان أسنَّ القوم ـ عتبةَ بن ربيعة، وبارز حمزة: شيبةَ بن ربيعة، وبارز عليّ: الوليدَ بن عتبة، فأما حمزة فلم يمهلْ شيبةَ أن قتله، وأما عليٌّ فلم يمهل الوليدَ أن قتله، واختلف عبيدةُ وعتبةُ بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وضرب شيبةُ رجلَ عبيدة فقطعها، وكرَّ حمزةُ وعليٌّ بأسيافهما على عتبة، فذففا عليه، واحتملا صاحبهما، فحازاه إلى أصحابه، ولما جاؤوا به رسول الله ﷺ أضجعوه إلى جانب موقف النبي ﷺ، فأفرشه ﷺ قدمَه الشريفة، وقال عبيدة: يا رسول الله! لو أن أبا طالب حيٌّ لعلم أني أحقُّ بقوله:

كذبتم وبيتِ الله نبزي محمداً ... ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أنك شهيد».

ورجع رسول الله ﷺ إلى العريش، ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ليس معه غيره، ورسول الله ﷺ يناشد ربّه ما وعده من النصر، يقول فيما يقول: «اللهم! إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد في الأرض، اللهم! إن ظهروا على هذه العصابة ظهر الشرك، وما يقوم لك دين» وأبو بكر رضي الله عنه يقول: يا رسول الله! بعض مناشدتك ربّك، فإن الله منجز لك ما وعدك، والله! لينصرنَّك الله وليبيِّضنَّ وجهك.

ولا ينبغي لأحدٍ أن يتوهّم أن أبا بكر كان أوثق بربه من النبي ﷺ في تلك الحال، بل الذي حمله على ذلك شفقته على أصحابه، وتقوية قلوبهم، وهو أول مشهد شهده، فبالغ في التوجه والدعاء.

قال علي رضي الله عنه فيما رواه ابن سعد وابن جرير : لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال، ثم جئت مسرعاً إلى النبي ﷺ لأنظر ما فعل، فإذا هو ساجد يقول : «يا حيّ، يا قيوم» لا يزيد عليهما، ثم رجعتُ إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك، ثم ذهبت إلى القتال. ثم رجعت وهو ساجد يقول ذلك، ففتح الله عليه.

نزول الملائكة يوم بدر :

وخفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في العريش، ثم انتبه، فأنزل الله عز وجل ألفاً من الملائكة مردِفين عند أكناف العدو، أي : متتابعين، أمدهم الله تعالى بألفٍ ثم بثلاثة آلاف، ثم أكملهم خمسة آلاف، وقال رسول الله ﷺ : «أبشر يا أبا بكر! هذا جبريل متعمِّم بعمامة صفراء، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض، فلما نزل إلى الأرض تغيَّب عني ساعةً، ثم طلع على ثناياه النقع يقول : أتاك نصرُ الله إذ دعوته».

روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال : كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض، قد أرخوها على ظهورهم إلا جبريل، فإنه كانت عليه عمامة صفراء، قال تعالى : ﴿ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٢٥] معلّمين.

وقال علي رضي الله عنه فيما رواه أبو يعلى، والحاكم، والبيهقي : بينما أمتحُ من قليب بدر جاءت ريح شديدة، ما رأيتُ مثلها قط، ثم ذهبت، ثم جاءت ريحٌ شديدة، لم أر مثلها قط إلا التي كانت قبلها، ثم جاءت ريحُ شديدة، قال : فكانت الريح الأولى جبريل ﷺ نزل في ألف من الملائكة، وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر عن يمينه، وكانت الثالثة إسرافيل نزل في ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله ﷺ، وأنا في الميسرة[1] . . . الحديث.

---

(١) الدلائل (٣/ ٥٥).

ولم تكن الملائكة تعلم كيف تقتلُ الآدميين، فعلَّمهم الله تعالى بقوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ الرؤوس ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال: ٨/ ١٢] مفصل.

قال سهل بن حنيف فيما رواه البيهقي، وصححه الحاكم وأبو نعيم: لقد رأيتُنا يوم بدر، وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه.

وكان الناسُ يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوه بضرب فوق الأعناق، وعلى البَنان مثل سمة النار قد احترق.

وقد سمع بعضُ الصحابة قائلاً يقول: أقدم حَيْزوم، ولم يره، وإنما سمع حمحمة فرس، وصوت فارس، وهو الملك.

روى مسلم عن ابن عباس قال: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذ يشتدُّ في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه مستلقياً، فنظر إليه قد خُطِم أنفه، وشُقَّ وجهه كضربة السوط، فاخضرَّ ذلك الموضع أجمع، فجاء الأنصاري، فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت، ذلك مددٌ من السماء الثالثة»[1].

وروى الإمام أحمد، وغيره عن ابن عباس قال: كان الذي أسرَ العباسَ أبو اليسر، وكان رجلاً مجموعاً، وكان العباس رجلاً جسيماً، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا اليَسَر! كيف أسرت العباس؟» قال: يا رسول الله! لقد أعانني عليه رجلٌ ما رأيته قبل ذلك ولا بعده، هيئته كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه ملك كريم».

---

(١) مسلم (٣/ ١٣٨٥).

وكان رسول الله ﷺ سأل جبريل: «من القائل يوم بدر من الملائكة أَقدِم حيزوم؟» فقال جبريل: يا محمد ما كل أهل السماء أعرف[١].

وروى البخاريُّ عن رفاعة الزّرقي قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدُّون أهل بدر فيكم؟ قلنا: من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال جبريل: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة[٢].

وجاء إبليس في جندٍ من الشياطين، ومعه رايته في صورة رجالٍ من بني مدلج، والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جارٌ لكم، وأقبل جبريل إلى إبليس، وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده، ثم ولّى مدبراً، وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة! ألست تزعمُ أنك جارٌ لنا؟! فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب، فذلك حين رأى الملائكة.

فإن قلت: ماالحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، كما فعل بمدائن قوم لوط وبلاد ثمود بصيحة؟ والجواب: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، فتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب والله فاعل الأشياء، والله تعالى فضل محمداً بكل شيء على سائر الأنبياء، وأولاه من الكرامة ما لم يؤته أحداً، ومن ذلك مدد الملائكة.

وقال أبو جهل: يا معشر الناس! لا يهمّنّكم خذلان سراقة، فإنه كان على ميعادٍ من محمد، ولا يهمّنّكم قتل عتبة وشيبة، فإنهم قد عجلوا، فواللات والعزّى! لا نرجعَ حتى نقرن محمداً وأصحابه بالحبال، ولا ألفينَّ

---

(١) الدلائل (٣/٥٧).
(٢) بخاري (٥/١٠٣).

رجلاً منكم قتل رجلاً منهم، ولكن خُذوهم أخذاً حتى نعرِّفهم سوءَ صنيعهم.

ونزل رسول الله ﷺ وأبو بكر من العريش، وقاتل عليه الصلاة والسلام يومئذ بنفسه، ومعه أبو بكر قتالاً شديداً، فلم يقتصرا على المجاهدة بالدعاء، والتضرع في العريش.

قال عليٌّ رضي الله عنه فيما رواه ابن سعد: لما كان يوم بدر، وحضر البأس أمَّنا رسول الله ﷺ، واتَّقينا به، وكان أشدَّ الناس بأساً يومئذ، وما كان أحدٌ أقربَ إلى المشركين منه.

وروى النسائي عنه قال: كنا إذا حمي البأس، ولقي القوم القوم، اتَّقينا برسول الله ﷺ.

فنزل رسول الله ﷺ، وحرَّض على القتال، وحثَّ عليه، فجمع بين المجاهدة بالدعاء والتضرع وبين مقارعة السيوف.

روى ابنُ إسحاق وغيره قال: فخرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرَّضهم، فقال: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، والذي نفسي بيده! لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غيرَ مدبر إلا أدخله الله الجنة». فقال عُمَير بن الحمام أخو بني سلِمة، وفي يده تمراتٌ يأكلهن: بَخٍ، بَخٍ! يا رسول الله! عرضُها السموات والأرض؟! قال: «نعم». قال: أفَما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ وفي رواية قال: لئن حَييتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفَه، فقاتل القومَ حتى قُتِل.

وروي أيضاً: أن عوف بن الحارث قال: يا رسول الله! ما يُضْحِكُ الربَّ من عبده؟ أي: يرضيه غاية الرضا قال: «غمسُه يده في العدوِّ حاسراً» فنزع درعاً كانت عليه، فألقاها، ثم أخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتِل رضي الله عنه.

وأُمر رسول الله ﷺ فأخذ من الحصباء كفًّا، فرمى به المشركين، فالرمية الأولى من الرسول عليه الصلاة والسلام، وقال: «شاهت الوجوه، اللهم! أرعب قلوبهم، وزلزل أقدامهم» فانهزم أعداءُ الله لا يلوون على شيء، وألقوا دروعهم، والمسلمون يقتلون، ويأسرون، وما بقي منهم أحد إلا ملأت الحصباءُ وجهَه، وعينيه، ما يدري أين يُوَجَّه وهذه من الله تعالى، أي: إيصال الرمية إلى الوجوه والأعين، وفي هذا يقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ٨/ ١٧] أي: وما أوصلت الرمي إلى أعينهم حين رميت، ولكن الله رمى، والملائكة يقتلونهم، فقتل اللهُ من قتل من صناديد قريش، وأُسر مَن أُسر مِن أشرافهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى العريش متوشِّحاً بالسيف في نفرٍ من الأنصار يحرسونه، يخافون كرَّةَ العدوّ، وسعد بن معاذ رضي الله عنه قائم على باب العريش متوشِّح بالسيف.

ودعا رسول الله ﷺ ربَّه أن يكفيه نوفل بن خويلد، فقتله عليٌّ، وقتل أيضاً العاصيَ بن سعيد، وكان رسول الله ﷺ قال لبعض أصحابه: «إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً، لا حاجةَ لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البَختري فلا يقتله، ومن لقي منكم العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنما خرج مكرهاً». وقد سبق أنَّ أبا جهل أكره بني هاشم على الخروج إلى بدر.

فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا، وإخواننا، وعشيرتنا، ونترك العباس؟ والله! لئن لقيته لأُلجمنَّه السيف، فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر ابن الخطاب: «يا أبا حفص! أيُضرب وجهُ عمِّ رسول الله ﷺ بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله! دعني فلأضرب عنقه بالسيف، يعني: أبا حذيفة، فوالله! لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمِنٍ من تلك الكلمة التي قلتها يومئذ، ولا أزال خائفاً منها إلا أن تكفِّرها عني الشهادة فَقُتِل يوم اليمامة، شهيداً. وقال عمر رضي الله عنه: إنه لأول يومٍ كنَّاني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص.

وأما أبو البختري فلقيه أحدُ الصحابة فقال له: إن رسول الله ﷺ نهى عن قتلك (فإنه كان لا يؤذي رسول الله بمكة وكان ممن نقض الصحيفة الظالمة) وكان معه زميله، فقال: وزميلي؟! فقالوا له: والله! ما نحن بتاركي زميلك، فأبى إلا القتل، فَقُتِل.

مقتل أبي جهل:

روى البخاري عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: إني لفي الصَّفِّ يوم بدر، إذ التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فَتَيان، حديثا السنّ، فكأنّي لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرّاً من صاحبه: يا عمّ! أرني أبا جهل، فقلت: يا بن أخي! وما تصنع به؟ قال: عاهدتُ الله إن رأيتُه أن أقتله، أو أموتَ دونه، فقال لي الآخَر سِرّاً من صاحبه مثله. قال: فما سرَّني أني بين رجلين مكانهما، فأشرتُ لهما إليه، فشدَّا عليه مثل الصَّقريْن حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء[1]: معاذ بن الحارث ومعوّذ بن الحارث، وعفراء أمهما، وتذكر الرواية الأخرى: أنه معاذ بن عمرو بن الجموح، قال معاذ بن عمرو بن الجموح: سمعتُ القومَ وأبو جهل في مثل الحَرَجة (وهي شجرة بين الأشجار الملتفة لا يوصل إليها) وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخْلَصُ إليه، فلما سمعتُها جعلتُها من شأني، فعمدتُ نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربةً أطنَّت قدمه بنصف ساقه، فوالله! ما شبَّهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مِرْضَخَة النَّوى حين يضرب بها، قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلَّقتْ بجلدةٍ من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلتُ عامة يومي هذا، وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعتُ قدمي عليها، ثم تمطَّيت بها عليها حتى طرحتُها.

ومرَّ بأبي جهل وهو عقير معوّذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته، وبه رَمَق.

وأقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى، فالتمس أبا جهل، فلم

---

(١) بخاري (٥/ ١٠٠).

يجده، فقال: «اللهم! لا يعجزني فرعون هذه الأمة». وقال ﷺ: «من ينظر لنا ما صنع أبو جهل؟ وإن خفي عليكم في القتلى، فانظروا إلى أثر جُرح في ركبته، فإني ازدحمت أنا وهو يوماً على مأدبة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان، وكنت أشفَّ (أطول) منه بيسير، فدفعتُه فوقع على ركبتيه، فجحش في إحداهما جحشاً لم يزل أثره به». قال عبد الله بن مسعود: فأتيته فوجدته بآخر رمق، فعرفتُه، وكان مقنَّعاً بالحديد، واضعاً سيفه على فخذيه، ليس به جرح، ولا يستطيع أن يحرِّك منه عضواً، وهو منكبٌّ ينظر إلى الأرض، فطفقتُ به لأقتله، فأردت أن أضربه بسيفي فخشيت ألا يغني شيئاً، فأتيتُه من ورائه ومعي سيف رثٌّ، ومعه سيف جيِّد، فجعلتُ أنقُف[1] رأسه بسيفي، وأذكر نقفاً ـ أي: هشماً كان برأسي ـ حتى ضعفت يده، فأخذتُ سيفه، فرفع رأسه، فقال: لمن الدائرة؟ قلت: لله ورسوله، فأخذتُ بلحيته وقلت: الحمد لله الذي أخزاك يا عدوَّ الله! فرفعت سابغة البيضة عن قفاه، فضربته، فوقع رأسه بين يديه. وفي رواية: فحززتُ رأسه، ثم جئتُ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! هذا رأسُ عدوِّ الله أبي جهل، فقال رسول الله ﷺ: «آللهِ الذي لا إله إلا هو؟» وفي لفظ: «آلله الذي لا إله غيره؟» فاستحلفني ثلاثاً، فألقيتُ رأسَه بين يديه، فقال: «الحمد لله الذي أعزَّ الإسلام وأهله». ثلاث مرات، وخرَّ رسول الله ﷺ ساجداً، وفي رواية: صلَّى ركعتين.

وجاء معاذ بن عمر بن الجموح إلى رسول الله ﷺ يحملُ يده، فبصق عليها رسول الله ﷺ، فلصقت.

وروى ابنُ إسحاق عن زيد بن أسلم: أن عُكَّاشة بن محصن رضي الله عنه قاتل يوم بدر بسيفه حتى انقطع، فأتى رسول الله ﷺ، فأعطاه جذلاً من حطب وقال: «قاتل بهذا يا عكاشة» فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزّه، فعاد سيفاً في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح

---

(١) نقف رأسه: ضربه على رأسه حتى يخرج دماغه.

الله على المسلمين، وكان ذلك السيف يُسمَّى العون، ثم لم يزلْ عنده يشهدُ به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قُتِل في أيّام الرِّدّة، قتله طلحة بن خويلد الأسدي.

روى البيهقي عن رجال من بني عبد الأشهل عدّة قالوا: انكسر سيفُ سلمة بن أسلم يوم بدر، فبقي أعزل لا سلاح معه، فأعطاه رسول الله ﷺ قضيباً كان في يده من عراجين نخل ابن طاب، فقال: «اضرب به» فإذا هو سيفٌ جيد، فلم يزلْ عنده حتى قتِل يوم جسر أبي عبيدة.

ذكر بركة أثر ريقه ﷺ:

روى البيهقي عن ابن إسحاق قال: حدَّثني خبيبُ بن عبد الرحمن قال: ضُرِب خبيب بن عدي يوم بدر، فمال شقُّه، فتفل فيه رسول الله ﷺ، لأَمَه، وردَّه، فانطبق.

وروى أيضاً عن رفاعة بن رافع بن مالك قال: لما كان يوم بدر رُميتُ بسهم، ففقئت عيني، فبصق فيها رسول الله ﷺ، ودعا لي، فما آذاني منها شيء.

وجعل المشركون القتلى في طَوِيٍّ (بئر) من أطواء بدر خبيثٍ مخبثٍ، بعضهم على بعض، إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه فملأها، فذهبوا ليحرِّكوه فتزايل، فأقرُّوه، وألقوا عليه ما غيَّبه من التراب والحجارة. فلما كان اليوم الثالث من أيام بدر جاء رسول الله ﷺ حتى قام على شفا البئر فجعل يناديهم بأسمائهم: «يا أبا جهل بن هشام! يا أميةُ بنَ خلف! يا عتبةُ بن ربيعة! يا شيبةُ بن ربيعة! أيَسُرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله؟! هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقاً؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم. كذبتموني، وصدَّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فجزاكم اللهُ عني من عصابة شراً. خوَّنتموني أميناً، وكذبتموني صادقاً».

فقال عمر: يا رسول الله! أتناديهم بعد ثلاث؟ كيف تكلِّم أجساداً لا أرواح فيها؟ فقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، إنهم الآن يسمعون ما أقول لهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يَرُدُّوا علينا شيئاً»؛ فإن الله تعالى أحياهم حتى سمعوا، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٢] أي: لا تسمعهم وهم موتى، ولكن الله تعالى أحياهم حتى سمعوا.

بشير النبي ﷺ بالنصر إلى المدينة:

أرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة بشيرَيْن لأهل المدينة بوقعة بدر، فجاءا المدينة يوم الأحد حين اشتدَّ الضُّحى، فجعل عبدُ الله ينادي على راحلته: يا معشر الأنصار! أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين، وأسرهم، وجعل يُسمِّي رؤوس قريش، ثم اتبع دور الأنصار بالعالية يبشِّرهم داراً داراً.

وقدم زيد على ناقة رسول الله ﷺ يبشِّر أهل السافلة، فلم يصدِّق الناسُ الخبر، بل قال رجل من المنافقين لأبي لبابة: قد تفرق أصحابكم تفرُّقاً، لا يجتمعون بعده أبداً، وقد قتل علية أصحابه، وقتل محمد، وهذه ناقته، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرُّعب، وجاء فلاً (هرباً). وقالت اليهود: ما جاء إلا فلاً.

قال عاصم بن عدي: فقمت إلى عبد الله فَنَحَوْتُه، فقلت: أحقاً ما تقول يابن رواحة؟! فقال: إي، والله! وغداً يقدم رسول الله ﷺ بالأسرى مقرنين.

وقال أسامة: فجئتُ حتى خلوتُ بأبي، فقلت: يا أبتِ أحقٌّ ما تقول؟ فقال: إي، والله! حقاً ما أقول يا بني، قال: فجيء بالأسرى وعليهم شقران مولى النبي ﷺ.

أمر الغنائم:

قال ابنُ عباس فيما رواه عنه ابن جرير، وابن المنذر، وغيرهما:

الأنفال: المغانم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة، ليس لأحد منها شيء ما أصاب من سرايا المسلمين من شيء أتوا به، فمن حبس منه إبرة أو سلكاً فهو غلول. فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٨/ ١] ثم أنزل الله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤١] الآية. ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله ﷺ، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، وجعل أربعة أخماسه في الناس هم فيه سواء، للفرس سهمان، ولصاحبه سهم، وللراجل سهم.

أمر الأسرى:

وسأل رسول الله ﷺ أصحابَه فقال: «ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس؟».

فقال أبو بكر: يا رسول الله! أهلك وقومك، قد أعطاك الله الظفر، ونصرك عليهم، هؤلاء بنو العم، والعشيرة، والإخوان، استبْقِهم، وإني أرى أن تأخذ الفداءَ منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك، فيكونوا لك عضداً.

فقال رسول الله ﷺ: «ما تقول يابن الخطاب؟» قال: يا رسول الله! قد كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكِّنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه، وتمكِّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكِّن حمزة من فلانٍ ـ أخيه ـ حتى يضرب عنقه، حتى يعلم الله تعالى أنه ليست في قلوبنا مودَّةٌ للمشركين. هؤلاء صناديد قريش، وأئمتهم، وقادتهم، فاضربْ أعناقهم، ما أرى أن يكون لك أسرى.

وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله! انظر وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً.

فدخل رسول الله ﷺ البيت، فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال أناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، ثم خرج فقال:

«إن الله تعالى لَيُلَيِّنُ قلوب أقوامٍ فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله تعالى لَيَشُدُّ قلوب أقوامٍ فيه حتى تكون أشدَّ من الحجارة. مثلُك يا أبا بكر في الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة، ومثلك في الأنبياء مثل إبراهيم، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٦] ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى ابن مريم إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ٥/١١٨].

ومثلك يا عمر في الملائكة مثل جبريل، ينزل بالشدّة، والبأس، والنقمة على أعداء الله تعالى، ومثلك في الأنبياء مثل نوح، إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٧١/ ٢٦] ومثلك في الأنبياء مثل موسى إذ قال: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ١٠/ ٨٨].

لو اتفقتما ما خالفتكما، أنتم عالة، فلا يُفلِتَنَّ أحدهم إلا بفداء، أو ضرب عنق».

فقال عبد الله بن مسعود: يا رسول الله! إلا سهل بن بيضاء، فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فقال عبد الله: فما رأيتُني في يوم أخافُ أن تقع عليَّ الحجارةُ من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهل بن بيضاء».

فلما كان من الغد غدا عمر إلى رسول الله ﷺ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله! ما يبكيكما؟ فإن وجدتُ بكاء بكيت، وإلا تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «إن كاد لَيَمَسُّنا في خلاف ابن الخطَّاب عذاب عظيم، ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب، لقد عُرِض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرةٍ قريبة منه، وأنزل الله

تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ﴾ يبالغ في قتل الكفار ﴿فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ الفداء ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ ثوابها بقتلهم ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ بإحلال الغنائم والأسرى ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٧-٦٩].

وقسمت الغنائم مقفله إلى المدينة، فأعطى فارس القوم الذي يحميهم مثل الضعيف، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله! أتعطي فارس القوم الذي يحميهم مثل ما تعطي الضعيف؟ فقال رسول الله ﷺ: «وهل تُنصَرون إلا بضعفائكم؟!» ونادى مناديه ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن أسر أسيراً فهو له».

وما وجد في العسكر وما أخذوه بغير قتال قسمة بينهم، وكان السهمان على ثلاثمئة وسبعة عشر سهماً، الرجال ثلاثمئة وثلاثة عشر، والخيل فرسان، لهما أربعة أسهم، وثمانية نفر لم يحضروا القتال، ضرب لهم رسول الله ﷺ بسهامهم وأجورهم، ثلاثة من المهاجرين، وهم: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعيدُ بن زيد، فأما عثمان فخلَّفه رسول الله ﷺ على ابنته رقيّة، فماتت يوم قدوم زيد بن حارثة من بدر، وأما طلحة وسعيد فقد بعثهما رسول الله ﷺ يتحسَّسان خبر العير.

ومن الأنصار: أبو لبابة بن عبد المنذر، خلَّفه على المدينة، وعاصم بن عديٍّ خلَّفه على أهل قباء والعالية، والحارث بن حاطب أمره بأمر في بني عمرو بن عوف، وخوَّات بن جبير، والحارث بن الصمة كسرا في الروحاء.

وكانت قسمته ﷺ للغنائم مقفله إلى المدينة في الطريق.

رحيل رسول الله ﷺ إلى المدينة:

ارتحل رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة، مؤيداً، منصوراً، قرير العين بنصر الله تعالى، ومعه الأسارى من المشركين، فلما وصلوا إلى الصَّفراء،

توفي عبيدة بن الحارث رضي الله عنه من مصاب رجله، وقُتِل فيها صبراً النضر بن الحارث بن كلدة، قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولما بلغ رسول الله ﷺ عِرْقَ الظبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط، فقال: يا محمد مَنْ للصبية؟ قال: «النَّار». وصدق الله تعالى رسولَه في قوله لعقبة: «إن وجدتُك خارج مكة ضربتُ عنقَك صبراً».

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى دخل المدينة قبل الأسارى بيوم، قد خافه كلُّ عدوٍّ له بالمدينة وحولها، ودخل ﷺ من ثنية الوداع المدينة رجوعه من بدر يوم الأربعاء الثاني والعشرين من رمضان، وتلقاه الولائد بالدفوف وهن يقلن:

طلـــع البـــدر علينــــا ... مـــن ثنيـــات الـــوداع
وجـــب الشكـــر علينـــا ... مـــا دعـــــا لله داع

فأسلم بشرٌ كثير من أهل المدينة، وقالت اليهود: تيقّنّا أنه النبي الذي نجد نعته في التوراة، وحينئذ دخل عبد الله بن أبي بن سلول في الإسلام ظاهراً.

فداء الأسارى:

روى ابنُ سعد عن الشعبي قال: كان أهلُ مكة يكتبون، وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن له فداء دُفِع إليه عشرة من غلمان المدينة يعلِّمهم، فإذا حَذَقوا فهم فِداؤه، وكان زيد بن ثابت ممن عُلِّم.

وجعل رسول الله ﷺ فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمئة دينار أو أربعة آلاف درهم.

وادَّعى العباسُ أنه لا مال عنده، فقال رسول الله ﷺ: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل، وقلتَ لها: إن أصبتُ في سفري فهذا لبنيّ: الفضل، وعبد الله وقُثَم؟!» فقال: والله! إني لأعلمُ أنك رسول الله، إنَّ هذا الشيء ما علمه إلا أنا وأم الفضل.

ولما أُسِر نوفل يوم بدر قال له النبي ﷺ: «افدِ نفسك برماحك التي بِجُدّة» فقال: والله! ما علم أحدٌ أن لي بجدة رماحاً بعد الله غيري. أشهد أنك رسولُ الله، ففدى نفسه بها، وكانت ألف رمح.

وقال العباس لرسول الله ﷺ: لقد تركتني فقير قريش ما بقيت، وقال بلسان بعض الأسرى: إنا كنا مسلمين، وإنما خرجنا كرهاً، فعلامَ يؤخذ منا الفداء؟! فأنزل الله تعالى فيما قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٨/ ٧٠].

قال العباس حين أنزلت: لوددت أنك كنت أخذت مني أضعافها، فأتاني الله خيراً منها أربعين عبداً، كلٌّ في يده ماله يضرب به، وإني أرجو من الله المغفرة.

السيدة زينب تفدي زوجها أبا العاص بن الربيع:

أبو العاص بن الربيع من رجال مكة المعدودين مالًا، وأمانة، وتجارة، أمه هالة بنت خويلد، وخالته السيدة خديجة الكبرى، أم المؤمنين، سألت رسول الله ﷺ أن يزوِّجه قبل أن ينزل عليه الوحي فزوَّجه، وكانت تعدُّه بمنزلة ولدها، فلما أكرم الله رسوله ﷺ بنبوّته آمنت به خديجة، وبناته، فصدّقنه، ودِنَّ بدينه، وثبت أبو العاص على شركه.

وكان الإسلامُ فرَّق بين زينب حين أسلمت وبين أبي العاص، إلا أن رسول الله ﷺ كان لا يقدر أن يفرِّق بينهما؛ لأن الممتحنة نزلت في المدينة، فأقامت معه على إسلامها، وهو على شركه، حتى هاجر رسول الله ﷺ، فلما صارت قريش إلى بدر، صار فيهم أبو العاص بن الربيع، فأصيب في الأسارى، فكان بالمدينة عند رسول الله ﷺ.

ولما بعث أهلُ مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمالٍ، وبعثت فيه بقلادة لها، كانت خديجة

أدخلتها بها على أبي العاص بن الربيع حين بنى عليها. فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقّةً شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها فافعلوا» فقالوا: نعم، يا رسول الله! فأطلقوه، وردُّوا عليها الذي لها، وأخذ عليه العهد أن يرسل السيدة زينب إلى المدينة.

منُّه ﷺ على بعض الأسرى:

منَّ رسول الله ﷺ على نفرٍ من الأسرى بغير فداء، منهم: أبو عزّة الجمحي الشاعر، شكا للنبي ﷺ فقره، وحاجته، فمنَّ عليه، وأطلقه، وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحداً، ولكن عدوَّ الله أخلف بوعده، فعاد عليه خداعه في غزوة حمراء الأسد.

ومنهم وهب بن عمير بن وهب الجمحي، قدم أبوه عمير في فدائه، وحاول الفتك برسول الله ﷺ لاتِّفاقه مع صفوان بن أمية على ذلك، فأظهر الله تعالى رسوله عليه، فأعلمه به، فكان ذلك سبب إسلامه.

فقد كان عمير شيطاناً من شياطين قريش، مؤذياً لرسول الله ﷺ وأصحابه، فاتفق مع صفوان بن أمية بن خلف على قتل رسول الله ﷺ في المدينة، فسمَّ سيفه، وحين قدم رآه عمر رضي الله عنه فقال لأصحابه: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، ما جاء إلا لشرٍّ، وهو الذي حزر القوم يوم بدر، ثم دخل على رسول الله ﷺ فأخبره، قال: «فأدخِله عليَّ» فأخذ عمر بحمالة سيفه في عنقه، ثم دخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: «أرسله يا عمر! ادن يا عمير» فدنا ثم قال: اِنْعَموا صباحاً، وكانت تحيةَ أهل الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير! بالسلام تحية أهل الجنة» قال: أما والله يا محمد إن كنتُ بها لحديث عهد، قال: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئتُ لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه، قال: «فما بال السيف في عنقك؟» قال: قبّحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟! قال: «اصدقني، ما الذي جئت له؟»

قال: ما جئت إلا لذلك. قال: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحابَ القليب من قريش، ثم قلت: لولا دَيْنٌ عليّ وعيالٌ عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحملَ لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائلُ بينك وبين ذلك». قال عمير: أشهدُ أنك رسول الله، قد كنا يا رسولَ الله! نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله! إني لأعلمُ ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق. ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: «فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره» ففعلوا.

وبلغ صفوانَ خبر إسلامه، فحلف ألا يكلمه، وألا ينفعه بنفع أبداً، ورجع عمير إلى مكة، فدعا إلى الإسلام، وأسلم على يده ناسٌ كثير.

شهداء بدر:

استشهد من المسلمين يوم بدر مع رسول الله ﷺ من المهاجرين:

١ـ عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف القرشي. ٢ـ عمير بن أبي وقّاص أخو سعد الزُّهري. ٣ـ ذو الشّمالَيْن بن عبد عمرو بن نضلة الخزاعي. ٤ـ عاقل بن البُكَيْر الليثي. ٥ـ مهجع مولى عمر بن الخطاب حليف بني عديّ. ٦ـ صفوان بن بيضاء الفهري.

ومن الأنصار:

١ـ سعد بن خيثمة الأوسي. ٢ـ مبشر بن عبد المنذر الأوسيّ. ٣ـ يزيد ابن الحارث الخزرجي. ٤ـ عمير بن الحمام الخزرجي. ٥ـ رافع بن المعلّى الخزرجي. ٦ـ حارثة بن سراقة الخزرجي. ٧ـ عوف بن الحارث بن عفراء الخزرجي. ٨ـ معوذ بن الحارث بن عفراء الخزرجي.

قتلى بدر ممن كان أسلم، وبقي في صفوف المشركين:

نزل في الفتية الذين قتلوا في بدر وهم في صفوف المشركين ممن كان أسلم، ولم يهاجر، وحُبس وافتتن، وخرج يوم بدر، فظل في صفوف المشركين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٤/٩٧].

وهم: ١ـ الحارث بن زمعة بن الأسود. ٢ـ أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة. ٣ـ أبو قيس بن الوليد بن المغيرة. ٤ـ علي بن أمية بن خلف. ٥ـ العاص بن منبّه.

الحاضرون بدراً من المسلمين:

١ـ سيدنا محمد ﷺ سيد المرسلين. ٢ـ حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله. ٣ـ علي بن أبي طالب. ٤ـ زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ. ٥ـ أَنَسَةُ مولى رسول الله ﷺ (حبشي). ٦ـ أبو كبشة مولى رسول الله ﷺ فارسي. ٧ـ كنّاز بن الحُصَين أبو مرثد. ٨ـ مرثد بن أبي مرثد، حليفا حمزة بن عبد المطلب. ٩ـ عبيدة بن الحارث بن المطلب. ١٠ـ الطفيل بن الحارث بن المطلب. ١١ـ الحصين بن الحارث بن المطلب.

١٢ـ مِسطح واسمه عوف بن أُثاثة بن عبّاد بن المطّلب. ١٣ـ عثمان بن عفّان، لم يشهد بدراً، وضرب له ﷺ بسهم، فقد تخلف على امرأته رقيّة بنت سيدنا رسول الله ﷺ بأمرٍ منه.

١٤ـ أبو حذيفة بن عتبة، واسمه مِهشم. ١٥ـ سالم مولى أبي حذيفة. ١٦ـ عبد الله بن جحش. ١٧ـ عكاشة بن محصن. ١٨ـ شجاع بن وهب. ١٩ـ عقبة بن وهب. ٢٠ـ يزيد بن رُقَيْش. ١٠ـ أبو سنان بن محصن. ٢٢ـ سنان بن أبي سنان بن محصن. ٢٣ـ مُحرِز بن نضلة. ٢٤ـ ثَقْفُ بن

عمرو. ٢٥ـ مالك بن عمرو. ٢٦ـ مُدلِجُ بن عمرو. ٢٧ـ أبو مَخشي سُوَيد ابن مَخشي. ٢٨ـ عتبة بن غَزوان. ٢٩ـ خبّاب مولى عتبة بن غزوان. ٣٠ـ الزبير بن العوّام بن خويلد. ٣١ـ حاطب بن أبي بلتعة. ٣٢ـ سعد مولى حاطب بن أبي بلتعة. ٣٣ـ مصعب بن عمير بن هاشم. ٣٤ـ سُوَيْبط بن سعد ابن حريملة. ٣٥ـ عبد الرحمن بن عوف الزهري. ٣٦ـ سعد بن أبي وقاص الزهري. ٣٧ـ عمير بن أبي وقاص الزهري. ٣٨ـ المقداد بن عمرو بن ثعلبة. ٣٩ـ عبد الله بن مسعود. ٤٠ـ مسعود بن ربيعة بن عمرو. ٤١ـ ذو الشمالين بن عبد عمرو (لأنه كان أعسر). ٤٢ـ خبّاب بن الأرت. ٤٣ـ أبو بكر الصديق عبد الله بن عثمان. ٤٤ـ بلال بن رباح. ٤٥ـ عامر بن فهيرة. ٤٦ـ صهيب بن سنان. ٤٧ـ طلحة بن عبيد الله. ٤٨ـ أبو سلمة بن عبد الأسد. ٤٩ـ شمّاس بن عثمان. ٥٠ـ الأرقم بن أبي الأرقم. ٥١ـ عمار بن ياسر. ٥٢ـ مُعَتِّب بن عوف. ٥٣ـ عمر بن الخطاب. ٥٤ـ زيد بن الخطاب. ٥٥ـ مهجع مولى عمر بن الخطاب. ٥٦ـ عمرو بن سراقة. ٥٧ـ عبد الله بن سراقة. ٥٨ـ واقد بن عبد الله. ٥٩ـ خولي بن أبي خولي. ٦٠ـ مالك بن أبي خولي. ٦١ـ عامر بن ربيعة. ٦٢ـ عامر بن البُكَيْر. ٦٣ـ عاقل بن البكير. ٦٤ـ خالد بن البكير. ٦٥ـ إياس بن البكير. ٦٦ـ سعيد بن زيد[1]. ٦٧ـ عثمان بن مظعون. ٦٨ـ السائب بن عثمان بن مظعون. ٦٩ـ قدامة بن مظعون. ٧٠ـ عبد الله بن مظعون. ٧١ـ معمر بن الحارث. ٧٢ـ خنيس بن حذافة. ٧٣ـ أبو سبرة بن أبي رُهم. ٧٤ـ عبد الله بن مخرمة. ٧٥ـ عبد الله بن سهيل بن عمرو. ٧٦ـ عمير بن عوف. ٧٧ـ سعد بن خولة. ٧٨ـ أبو عبيدة ابن الجراح. ٧٩ـ عمرو بن الحارث. ٨٠ـ سهيل بن وهب. ٨١ـ صفوان بن وهب. ٨٢ـ عمرو بن أبي سرح. ٨٣ـ وهب بن سعد بن أبي سرح. ٨٤ـ طلحة بن عمرو. ٨٥ـ عياض بن زهير.

---

(١) خرجا مع رسول الله ﷺ، فردّهما من الروحاء، وضرب لهما بسهمين مع أصحاب بدر.

من شهد بدراً من الأنصار «الأوسيون»:

١ـ سعد بن معاذ بن النعمان. ٢ـ عمرو بن معاذ بن النعمان. ٣ـ الحارث بن أوس بن معاذ بن النعمان. ٤ـ الحارث بن أنس بن رافع. ٥ـ سعد بن زيد بن مالك. ٦ـ سلمة بن سلامة بن وقش. ٧ـ عبّاد بن بشر بن وقش. ٨ـ سلمة بن ثابت بن وقش. ٩ـ رافع بن يزيد. ١٠ـ الحارث بن خَزْمة بن عديّ. ١١ـ محمد بن مسلمة بن خالد. ١٢ـ سلمة بن أسلم بن حَريس. ١٣ـ أبو الهيثم بن التَّيِّهان. ١٤ـ عُبَيد بن التّيهان. ١٥ـ عبد الله بن سهل. ١٦ـ قتادة بن النعمان. ١٧ـ عبيد بن أوس. ١٨ـ نضر بن الحارث بن عبد. ١٩ـ معتّب بن عبد. ٢٠ـ عبد الله بن طارق. ٢١ـ مسعود بن سعد. ٢٢ـ أبو عبس بن جبير. ٢٣ـ أبو بُردة بنُ نيار. ٢٤ـ عاصم بن ثابت بن قيس. ٢٥ـ معتّب بن قشير. ٢٦ـ عمرو بن معبد بن الأزعر. ٢٧ـ سهل بن حُنَيْف. ٢٨ـ بحزج بن حنس. ٢٩ـ مبشّر بن عبد المنذر بن زنبر. ٣٠ـ رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر. ٣١ـ سعد بن عبيد بن النعمان. ٣٢ـ عويم بن ساعدة. ٣٣ـ رافع بن عُنجدة. ٣٤ـ عبيد بن أبي عبيد. ٣٥ـ ثعلبة بن حاطب. ٣٦ـ أبو لبابة بشير بن عبد المنذر[1]. ٣٧ـ الحارث ابن حاطب. ٣٨ـ حاطب بن عمرو. ٣٩ـ أُنَيس بن قتادة. ٤٠ـ معن بن عدّي ابن الجد. ٤١ـ ثابت بن أقرم بن ثعلبة. ٤٢ـ عبد الله بن سلمة بن مالك ٤٣ـ زيد بن أسلم بن ثعلبة. ٤٤ـ رِبعيّ بن رافع بن زيد. ٤٥ـ عاصم بن عدي بن الجد ردّه رسول الله ﷺ وضرب له بسهمه. ٤٦ـ عبد الله بن جبير بن النعمان. ٤٧ـ عاصم بن قيس بن ثابت. ٤٨ـ أبو ضياح بن ثابت بن النعمان. ٤٩ـ أبو حبّة بن ثابت بن النعمان. ٥٠ـ سالم بن عمير بن ثابت.

---

(١) قدم من الشام بعد قدومه ﷺ من بدر، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه، قال: وأجري؟ قال: «أجرك: أربعة عشر رجلاً».

٥١ـ الحارث بن النعمان بن أمية. ٥٢ـ خوّات بن جبير بن النعمان. ٥٣ـ منذر بن محمد بن عقبة. ٥٤ـ أبو عقيل بن عبد الله بن ثعلبة. ٥٥ـ سعد ابن خيثمة بن الحارث. ٥٦ـ منذر بن قدامة بن عرفجة. ٥٧ـ مالك بن قدامة ابن عرفجة. ٥٨ـ الحارث بن عرفجة. ٥٩ـ تميم مولى سعد بن خيثمة. ٦٠ـ جَبْر بن عتيك بن الحارث. ٦١ـ مالك بن نُمَيْلة. ٦٢ـ النعمان بن عَصَر.

من شهد بدراً من الأنصار «الخزرجيون»:

١ـ خارجة بن زيد بن أبي زهير. ٢ـ سعد بن ربيع بن عمرو بن أبي زهير. ٣ـ عبد الله بن رواحة بن ثعلبة. ٤ـ خلاد بن سويد بن ثعلبة. ٥ـ بشير ابن سعد بن ثعلبة. ٦ـ سماك بن سعد بن ثعلبة. ٧ـ سُبَيع بن قيس بن عيشة. ٨ـ عبّاد بن قيس بن عيشة. ٩ـ عبد الله بن عبس. ١٠ـ يزيد بن الحارث بن قيس. ١١ـ خُبَيب بن إساف بن عِتبة. ١٢ـ عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه. ١٣ـ حُرَيث بن زيد بن ثعلبة. ١٤ـ سفيان بن بشر. ١٥ـ تميم بن يَعار ابن قيس بن عديّ. ١٦ـ عبد الله بن عمير بن عدي. ١٧ـ زيد بن المزيّن بن قيس ابن عدي. ١٨ـ عبد الله بن عرفطة بن عديّ. ١٩ـ عبد الله بن ربيع بن قيس ابن عمرو. ٢٠ـ عبد الله بن عبد الله بن أبي. ٢١ـ أوس بن خولي بن عبد الله. ٢٢ـ زيد بن وديعة بن عمرو بن قيس. ٢٣ـ عقبة بن وهب بن كَلَدة. ٢٤ـ رفاعة بن عمرو بن زيد. ٢٥ـ عامر بن سلمة بن عامر. ٢٦ـ أبو حُمَيضة معبد بن عبّاد بن قُشَير. ٢٧ـ عامر بن العُكَير أو عاصم بن العكير. ٢٨ـ نوفل ابن عبد الله بن نضلة. ٢٩ـ عبادة بن الصامت بن قيس. ٣٠ـ أوس ابن الصامت بن قيس. ٣١ـ النعمان بن مالك بن ثعلبة. (قَوْقل). ٣٢ـ ثابت ابن هزّال بن عمرو. ٣٣ـ مالك بن الدُّخشم بن مَرضَخَة.

٣٤ـ ربيع بن إياس بن عمرو. ٣٥ـ ورقة بن إياس بن عمرو. ٣٦ـ عمرو ابن إياس. ٣٧ـ المجذَّر بن زِياد واسمه عبد الله. ٣٨ـ عُبادة بن الخَشخاش ابن عمرو. ٣٩ـ نحّاب بن ثعلبة بن حَزَمة. ٤٠ـ عبد الله بن ثعلبة بن حزمة. ٤١ـ عتبة بن ربيعة بن خالد. ٤٢ـ سماك بن أوس بن خَرَشَة بن لَوذان.

٤٣ـ المنذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن لوذان. ٤٤ـ أبو أُسيد مالك بن ربيعة بن البَدِيّ. ٤٥ـ مالك بن مسعود بن البَدِيّ. ٤٦ـ عبد ربه بن حق بن أوس. ٤٧ـ كعب بن حمار بن ثعلبة. ٤٨ـ ضمرة بن عمرو أو بشر. ٤٩ـ زياد بن عمرو أو بشر. ٥٠ـ بسبس بن عمرو أو عبد الله بن عامر. ٥١ـ خِراش بن الصمّة بن عمرو بن الجموح. ٥٢ـ الحباب بن المنذر بن الجموح. ٥٣ـ عمير بن الحمام بن الجموح. ٥٤ـ تميم مولى خراش بن الصمّة. ٥٥ـ عبد الله بن عمرو بن حرام. ٥٦ـ معاذ بن عمرو بن الجموح. ٥٧ـ معوّذ بن عمرو بن الجموح. ٥٨ـ خلاّد بن عمرو بن الجموح. ٥٩ـ عقبة بن عامر بن نابي. ٦٠ـ حبيب بن أسود. ٦١ـ ثابت بن ثعلبة بن زيد. ٦٢ـ عمير بن الحارث بن ثعلبة.

٦٣ـ بشر بن البراء بن معرور بن صخر بن مالك. ٦٤ـ الطفيل بن مالك ابن خنساء. ٦٥ـ الطفيل بن النعمان ابن خنساء. ٦٦ـ سنان بن صيفي بن صخر بن خنساء. ٦٧ـ عبد الله بن الجد بن قيس بن صخر. ٦٨ـ عتبة بن عبد الله بن صخر بن خنساء. ٦٩ـ جبّار بن صخر بن أميّة بن خنساء. ٧٠ـ خارجة ابن حُمَيّر. ٧١ـ عبد الله بن حُمَيّر.

٧٢ـ يزيد بن المنذر بن سرح بن خناس. ٧٣ـ معقل بن المنذر بن سرح ابن خناس. ٧٤ـ عبد الله بن النعمان بن بَلْدَمَة. ٧٥ـ الضحّاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة. ٧٦ـ سَوَاد بن زريق بن ثعلبة. ٧٧ـ معبد بن قيس بن صخر. ٧٨ـ عبد الله بن قيس بن صخر. ٧٩ـ عبد الله بن عبد مناف بن النعمان. ٨٠ـ جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان. ٨١ـ خُلَيدة بن قيس بن النعمان. ٨٢ـ النعمان بن سنان. ٨٣ـ يزيد بن عامر بن حديدة. ٨٤ـ سُلَيم بن عامر بن حديدة. ٨٥ـ قطبة بن عامر بن حديدة. ٨٦ـ عنترة مولى سُلَيم بن عامر.

٨٧ـ عَبس بن عامر بن عديّ. ٨٨ـ ثعلبة بن غَنَمة بن عديّ. ٨٩ـ أبو اليسر كعب بن عمرو. ٩٠ـ سهل بن قيس بن أبي كعب. ٩١ـ عمرو بن طَلق ابن زيد. ٩٢ـ معاذ بن جبل بن عمرو.

٩٣ـ قيس بن محصن بن خالد بن مخلَّد. ٩٤ـ الحارث بن قيس بن خالد بن مخلّد. ٩٥ـ جبير بن إياس بن خالد بن مخلّد. ٩٦ـ سعد بن عثمان ابن خَلَدة بن مخلّد. ٩٧ـ عقبة بن عثمان بن خلدة بن مخلّد. ٩٨ـ ذكوان بن عبد قيس بن خلدة بن مخلّد. ٩٩ـ مسعود بن خلدة بن عامر بن مخلّد. ١٠٠ـ عباد بن قيس بن عامر بن خالد. ١٠١ـ أسعد بن يزيد بن الفاكه بن زيد. ١٠٢ـ الفاكه بن بشر بن الفاكه بن زيد. ١٠٣ـ معاذ بن ماعص بن قيس ابن خلدة. ١٠٤ـ عائذ بن ماعص بن قيس بن خلدة. ١٠٥ـ مسعود بن سعد ابن قيس بن خلدة.

١٠٦ـ رفاعة بن رافع بن العجلان. ١٠٧ـ خلاد بن رافع بن مالك بن العجلان. ١٠٨ـ عبيد بن زيد بن عامر بن العجلان. ١٠٩ـ زياد بن لبيد بن ثعلبة. ١١٠ـ فروة بن عمرو بن وذْفة. ١١١ـ خالد بن قيس بن مالك بن العجلان. ١١٢ـ رجيلة بن ثعلبة بن خالد. ١١٣ـ عطية بن نُوَيرة بن عامر. ١١٤ـ خُلَيْفَة بن عديّ.

١١٥ـ رافع بن المعلّى بن لَوذان. ١١٦ـ خالد بن زيد بن كُلَيب. (أبو أيوب الأنصاري). ١١٧ـ ثابت بن خالد بن النعمان. ١١٨ـ عُمارة بن حزم ابن زيد. ١١٩ـ سراقة بن كعب بن عبد العزّى. ١٢٠ـ حارثة بن النعمان بن زيد. ١٢١ـ سُلَيم بن قيس بن قهد. ١٢٢ـ سُهَيل بن رافع بن أبي عمرو. ١٢٣ـ عَدِيُّ بن الزغباء. ١٢٤ـ مسعود بن أوس بن زيد. ١٢٥ـ أبو خزيمة ابن أوس بن زيد. ١٢٦ـ رافع بن الحارث بن سواد بن زيد. ١٢٧ـ عوف بن الحارث بن رفاعة بن سواد. ١٢٨ـ معاذ بن الحارث بن رفاعة. ١٢٩ـ معوّذ ابن الحارث بن رفاعة أمهم عفراء.

١٣٠ـ النعمان بن عمرو بن رفاعة (نعيمان). ١٣١ـ عامر بن مخلّد بن الحارث بن سواد. ١٣٢ـ عبد الله بن قيس بن خالد. ١٣٣ـ عُصَيمة الأشجعي. ١٣٤ـ ودية بن عمرو. ١٣٥ـ ثابت بن عمرو بن زيد بن عدي.

١٣٦ـ أبو الحمراء مولى الحارث بن رفاعة. ١٣٧ـ ثعلبة بن عمرو بن محصن. ١٣٨ـ سهل بن عَتيك بن عمرو بن النعمان. ١٣٩ـ الحارث بن الصّمة بن عمرو بن عتيك. ١٤٠ـ أُبَيّ بن كعب بن قيس. ١٤١ـ أنس بن معاذ بن أنس بن قيس. ١٤٢ـ أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام. ١٤٣ـ أبو شيخ أبي بن ثابت بن المنذر. (أخو حسان بن ثابت). ١٤٤ـ أبو طلحة زيد ابن سهل بن الأسود بن حرام. ١٤٥ـ حارثة بن سراقة بن الحارث بن عديّ. ١٤٦ـ عمرو بن ثعلبة بن وهب بن عديّ. ١٤٧ـ سليط بن قيس بن عمرو بن عتيك بن مالك بن عديّ. ١٤٨ـ أسيرة بن عمرو بن قيس بن مالك بن عدي. ١٤٩ـ ثابت بن خنساء بن عمرو بن مالك بن عديّ. ١٥٠ـ عامر بن أمية بن زيد بن الحسحاس بن مالك بن عدي. ١٥١ـ محرز بن عامر بن مالك بن عديّ. ١٥٢ـ سواد بن غزيّة بن أهيب حليفهم. ويقال سوَّاد.

١٥٣ـ قيس بن سكن بن قيس. ١٥٤ـ كعب بن الحارث بن ظالم. ١٥٥ـ سُلَيم بن ملحان. ١٥٦ـ حَرام بن مِلحان. ١٥٧ـ قيس بن أبي صعصعة عمرو بن زيد بن عوف. ١٥٨ـ عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف. ١٥٩ـ عُصَيمة بن أسد. ١٦٠ـ عمير بن عامر بن مالك بن خنساء. ١٦١ـ سراقة بن عمرو بن عطية بن خنساء. ١٦٢ـ قيس بن مخلّد بن ثعلبة. ١٦٣ـ النعمان بن عبد عمرو بن مسعود. ١٦٤ـ الضحّاك بن عبد عمرو بن مسعود. ١٦٥ـ سليم بن الحارث بن ثعلبة أخوهما لأمهما. ١٦٦ـ جابر بن خالد بن عبد الأشهل. ١٦٧ـ سعد بن سهيل بن عبد الأشهل. ١٦٨ـ كعب ابن زيد بن قيس. ١٦٩ـ بُجَيْر بن أبي بُجَير. ١٧٠ـ عتبان بن مالك بن عمرو ابن العجلان. ١٧١ـ مُلَيل بن وبرة بن خالد بن العجلان. ١٧٢ـ عصمة بن الحصين بن وبرة بن خالد بن العجلان. ١٧٣ـ هلال بن المعلى بن لَوذان.

من أسلم من أسرى بدر:

١ـ العباس بن عبد المطلب. ٢ـ عقيل بن أبي طالب. ٣ـ نوفل بن الحارث. ٤ـ أبو العاص بن الربيع. ٥ـ زرارة بن عمير العبدري. ٦ـ السائب

ابن أبي حبيش. ٧ـ خالد بن هشام المخزومي. ٨ـ عبد الله بن أبي السائب. ٩ـ المطلب بن حنطب. ١٠ـ أبو وداعة السهميّ. ١١ـ عبد الله بن أُبَي بن خلف الجمحي. ١٢ـ وهب بن عمير الجمحي. ١٣ـ سهيل بن عمرو العامري. ١٤ـ عبد الله بن زمعة أخو سودة. ١٥ـ قيس بن السائب. ١٦ـ نِسطاس مولى أمية بن خلف. ١٧ـ السائب بن عبيد. ١٨ـ عديّ بن الخيار. ١٩ـ الوليد بن الوليد بن المغيرة.

* * *

الفصل الثاني

غزواته ﷺ بعد بدر إلى غزوة أحد
ويتبعها حمراء الأسد

غزوة بني سُلَيْم بالكُدْر:

لما قدم رسول الله ﷺ من بدر لم يقم إلا سبع ليالٍ، فبلغه أن سُلَيماً وغطفان تجمع له، فاستخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطة الغفاري، أو ابن أم مكتوم، وفي رواية أبي داود: إن استخلاف ابن أم مكتوم كان على الصلاة بالمدينة دون القضايا والأحكام، ذلك أن الضرير لا يجوز له أن يحكم بين الناس؛ لأنه لا يدرك الأشخاص ولا يثبت الأعيان، ولا يدري لمن يحكم، ولا على من يحكم. فأمر القضايا والأحكام يجوز أن يكون فرضه لسباع، فلا خلاف.

وحمل لواءه ﷺ الأبيض سيدنا علي بن أبي طالب، فسار إليهم، فبلغ ماءً من مياههم يقال له: الكُدْر؛ لأن به طيراً في ألوانها كُدْرَةٌ، فلم يجد في المحالِّ أحداً، وأرسل نفراً من أصحابه في أعلى الوادي، واستقبلهم رسول في بطن الوادي، فوجد رِعاءً فيهم غلام يقال له: يسار، فسأله عن الناس، فقال: لا علم لي بهم، فأقام ﷺ ثلاث ليال، وقد ظفر بالنعم، وكانت خمسمئة بعير، فانحدر إلى المدينة، حتى إذا كان بصِرار على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق خمّس النعم، وقسّم أربعة أخماس على المسلمين، فأصاب كل رجل منهم بعيران، وكانوا مئتي رجل، وصار يسار في سهم رسول الله ﷺ، فأعتقه؛ لأنه رآه يصلي وغاب رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، وأقام بالمدينة شوالاً، وذا القعدة، وأفدى في إقامته تلك جُلَّ الأسارى من قريش.

غزوة السَّويق:

لما أصاب قريشاً في بدر ما أصابهم، ورجع فَلُّهم إلى مكة موتورين محزونين، حرَّم أبو سفيان على نفسه الطيب والنساء حتى يثأر من رسول الله ﷺ وأصحابه بمن أصيب من المشركين يوم بدر، فخرج في مئتي راكب من قريش ليبرَّ يمينه، حتى نزل بمحلّ، بينه وبين المدينة نحوُ بريد (اثنا عشر ميلاً) ثم أتى بني النضير ليلاً (يهود ينسبون إلى هارون عليه السلام) فأتى حُييّ بن أخطب، زعيم بني النضير، فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له، وخافه، فانصرف عنه إلا سلاَّم بن مِشكَم فأنزله عنده، وأقراه، وعَلَّمه من أخبار الناس، ثم خرج إلى أصحابه، فبعث رجالاً من قريش، فأتوا ناحية منها يقال له العُرَيض، فحرَّقوا نخلاً صغاراً، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما، فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين، فعلم بهم الناس، فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم في مئتين من المهاجرين والأنصار، واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر لخمس خلون من ذي الحجَّة، وجعل أبو سفيان وأصحابه يتخفَّفون للهرب، فيُلقون جُرُب السويق، وهي عامَّة أزوادهم، فيأخذها المسلمون، فسمِّيت غزوة السويق، ولم يلحقوهم، وانصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة، وكانت غيبته خمسة أيام.

السويق: قمح أو شعير يقلى، ثم يطحن، فيتزوَّد، ويستفّ تارة بسمن، أو بعسل، أو بما يُثرى به (يُبَلُّ).

غزوة بني قينقاع في شوال في السنة الثانية للهجرة:

وهم قوم عبد الله بن سلام كانت يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من مهاجَره ﷺ وكانوا حلفاء عبادة بن الصامت، وعبد الله بن أبيّ بن سلول، وكانوا أشجع يهود، فلما كانت غزوة بدر أظهروا البغي والحسد، ونبذوا العهد الذي كان رسول الله ﷺ عاهدهم وبني النضير وبني قريظة ألا يحاربوه، وألا يظاهروا عليه عدوه، وأن ينصروه ﷺ على من دَهمه من عدوِّه.

فبنو قينقاع أول اليهود نقضاً للعهد، وغدراً برسول الله ﷺ، وبينما هم على ما هم عليه من إظهار العداوة، ونبذ العهد قدمت امرأة مسلمة من العرب بِجَلَبٍ لها، وهو ما يجلب ليباع من إبل، أو غنم، أو غيرهما، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعل جماعةٌ منهم يراودونها عن كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها من ورائها، فعقده إلى ظهرها، وفي رواية: خلّه بشوكة، وهي لا تشعر، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجلٌ من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله، وشدَّت اليهودُ على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود، وغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم.

وقال رسول الله لهم محذِّراً: «يا معشر يهود! احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش من النقمة» أي: ببدر «وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني مرسلٌ، تجدون ذلك في كتابكم، وعهد الله تعالى إليكم». قالوا: يا محمد! إنك ترى أنّا قومك (تظننا أنّا مثل قومك) ولا يغرَّنك أنك لقيت قوماً، لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله! لئن حاربتنا لتعلمنّ أنّا نحن الناس. فقد كان بنو قينقاع أشجع اليهود، وأكثرهم أموالًا، وأشدّهم بغياً. فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢-١٣] وأنزل تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٨].

فقال ﷺ: «إنما أخافُ من بني قينقاع» فسار إليهم رسول الله ﷺ، وقد تحصَّنوا في حصونهم، واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، وحاصرهم خمس عشرة ليلة أشدّ الحصار إلى هلال ذي القعدة، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وكانوا أربعمئة حاسر، وثلاثمئة دارع، فسألوا رسول الله

ﷺ أن يخلي سبيلهم، وأن يجلوا من المدينة (يخرجوا منها) وأن لهم النساء والذُّرِّيَّة، وله ﷺ الأموال والسلاح، فأمر بهم فكتّفوا، ومشى عبادة بن الصامت حليفُهم إلى رسول الله ﷺ، وتبرَّأ إلى الله ورسولِه من حِلْفهم، وقال: يا رسول الله! أتولَّى الله ورسولَه والمؤمنين، وأبرأُ من حلف هؤلاء الرجال.

وقام عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمَّد! أحسِنْ في مواليَّ، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد! أحسِنْ في مواليَّ، فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ من خلفه (ذات الفضول) فقال رسول الله ﷺ: «ويحك! أرسِلني».

وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُلَلاً، أي: سواداً، ثم قال: «ويحك! أرسلني» قال: والله! لا أرسلك حتى تحسن في مواليَّ أربعمئة حاسر، وثلاثمئة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، إني والله! امرؤٌ أخشى الدوائر. فقال ﷺ: «خلّوهم لعنهم الله، ولعنه معهم» وقال له: «خذهم لا بارك الله لك فيهم». وتركهم من القتل، وأمر بهم أن يجلوا عن المدينة، فخرجوا بعد ثلاث، فلحقوا بأذرعات ـ بلد بالشام ـ ولم يَدُرِ الحول عليهم حتى هلكوا أجمعون بدعوته ﷺ في قوله لابن أبي: «لا بارك الله لك فيهم».

غزوة غطفان إلى نجد (ذي أمَرّ) في السنة الثالثة من الهجرة:

لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذي الحجّة، فبلغه أن جمعاً من بني ثعلبة وبني محارب بذي أمرّ، قد تجمّعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله ﷺ، وجمَعَهم رجلٌ منهم يقال له: دُعثور بن الحارث بن محارب، فندب رسول الله ﷺ المسلمين، وخرج في أربعمئة وخمسين، معهم عدة أفراس، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان، فأصابوا رجلاً منهم بذي القَصّة، يقال له: جَبّار من بني ثعلبة، فأُدخِل على

رسول الله ﷺ، فأخبره من خبرهم، وقال: لن يلاقوك، ولو سمعوا بسيرك هربوا في رؤوس الجبال، وأنا سائر معك، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فأسلم، وضمَّه رسول الله ﷺ إلى بلال، فأخذ به جَبّارٌ طريقاً، وهبط به عليهم، وسمع القوم بمسير رسول الله ﷺ، فهربوا في رؤوس الجبال، فبلغ ماءً يقال له: ذو أَمَرّ، فعسكر به.

وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابَه مطرٌ كثير، فابتلت ثياب رسول الله ﷺ وثيابُ أصحابه، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجر هناك، ونشر ثيابه لِتَجِفَّ، واضطجع، وذلك بمرأىً من المشركين، واشتغل المسلمون بشؤونهم، فبعث المشركون دعثوراً الذي هو سيِّد القوم، وأشجعهم، والمجمِّع لهم، فقالوا له: قد انفرد محمد، فعليك به. وفي لفظ قال لما رآه: قتلني الله إن لم أقتلْ محمداً. فبادر دعثور، وأقبل مشتملاً على السيف، حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف مشهوراً، فقال: يا محمَّد! من يمنعك مني اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله» ودفع جبريلُ في صدره، فوقع السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، وقال له: «من يمنعك مني؟» فقال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. والله! لا أُكثِّر عليك جمعاً أبداً، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفَه، ثم أتى قومه فقالوا: ما لك؟ ويلك! فقال: نظرتُ إلى رجل طويل، فدفع في صدري، فوقعت لظهري، فعرفت أنه مَلَك، وشهدتُ بأن محمداً رسول الله، والله! لا أُكثِّر عليه جمعاً، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام، وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ١١].

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، ولم يلق كيداً، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، وقيل غير ذلك.

قال البيهقي: سيأتي في غزوة ذات الرقاع قصة تشبه قصة دعثور، وهي

منع غورث بن الحارث، ولم يسلم، واستمر على دينه، ولكن عاهد النبي ﷺ ألا يقاتله.

غزوة الفُرْع من بُحران في السنة الثالثة للهجرة:

مكث رسول الله ﷺ بعد رجوعه من ذي أَمَرّ شهر ربيع الأول كلّه أو إلا قليلاً منه، فبلغه أن في بحران جمعاً كثيراً من بني سُلَيم. وبحران ـ موضع في الحجاز، بينه وبين المدينة ثمانية بُرد ـ فخرج في ثلاثمئة من أصحابه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ولم يظهر وجهاً للسير، وأحثَّ السير حتى بلغ بحران، فوجدهم قد تفرَّقوا في مياههم، فأقام أياماً. قال الواقدي: عشرة، وقال ابنُ إسحاق: شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى، ثم رجع، ولم يلق كيداً.

غزوة أحد في شوال سنة ثلاث للهجرة:

أُحُد: جبل من جبال المدينة، قيل: سُمِّي بذلك لتوحُّده، وانفراده عن غيره من الجبال. روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أُحُداً جبل يحبنا ونحبّه». وفي رواية ابن ماجه: وهو على تُرْعةٍ من تُرَع الجنة. ولا مانع أن تكون المحبةُ من الجبل على حقيقتها، فوضع الحُب فيه كما وضع التسبيح في الجبال المسبِّحة مع داود عليه السلام، وكما وضعت الخشية في الحجارة التي قال الله فيها: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/ ٧٤] وقيل: هو على حذف مضاف، أي: يحبنا أهله.

وسبب الغزوة: لمّا قتل الله تعالى مَن قتل من كفار قريش يوم بدر، ورجع فَلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيرهم، فأوقفها بدار النَّدوة فلم يحرِّكها ولا فرَّقها، مشى عبدُ الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى ـ وأسلموا بعد ذلك ـ فكلَّموا أبا سفيان، ومن كانت له في تلك العير تجارة من قريش،

فقالوا: إن محمداً قد وَتَركم (أي قتل رجالكم) وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، وقالوا: نحن طيِّبو النفوس أن تجهِّزوا بربح هذه العير جيشاً إلى محمد، فقال أبو سفيان: أنا أوَّل من أجاب لذلك، وبنو عبد مناف. وكان رأسُ مال تلك العير خمسين ألف دينار، وربحها خمسين ألف دينار، فإما أخرجوا الربح كله وإما نصفه، وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٦].

وتجهَّزت قريش لحرب رسول الله ﷺ، وبعثت عمرو بن العاص، وابن الزِّبعرى ـ وأسلما ـ ومسافع بن عبد مناف، وأبا عزّة الجمحي؛ الذي منَّ عليه رسول الله ﷺ يوم بدر إلى العرب يستنفرونها لحرب رسول الله ﷺ، فألَّبوا العربَ، وجمعوها، فاجتمع لهم من كنانة، وتهامة؛ والأحابيش، ومن قريش ثلاثة آلاف فيهم سبعمئة دارع، ومئتا فارس، ومن منافقي المدينة أبو عامر الراهب في خمسين رجلاً، وكتب العباس رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يعلمه بذلك مع رجل من بني غفار، فقدم عليه وهو بقباء، فقرأه عليه أُبيّ بن كعب، واستكتم أُبيّاً، ونزل ﷺ على سعد بن الربيع، فأخبره بكتاب العباس، فقال: والله! إني لأرجو أن يكون خيراً، فاستكتمه إياه، فلما خرج رسول الله ﷺ من عند سعد أتته امرأته، فقالت: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قال: ما أنتِ وذاك؟ لا أمّ لك! قالت: قد كنت أسمع عليكم، وأخبرت سعداً بما سمعت، فاسترجع، وقال: أراكِ كنتِ تسّمعين علينا، وانطلق بها إلى رسول الله ﷺ، فأدركه، فأخبره خبرها، وقال: يا رسول الله! إني خفتُ أن يفشوَ الخبر، فترى أني المفشي له، وقد استكتمتني إياه، فقال رسول الله ﷺ: «خلِّ عنها».

خرجت قريش من مكة لخمس مضين من شوال، وخرجوا بالنساء لئلا يفرُّوا، فخرج أبو سفيان بزوجته هند بنت عتبة، وخرج عكرمة بن أبي جهل

بأم حكيم بنت الحارث بن هشام، وخرج الحارث بن هشام بفاطمة بنت الوليد ابن المغيرة، وغيرهم من أشراف قريش، ومعهن الدفوف يبكين قتلى بدر، ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له: وحشي (وأسلما بعد ذلك) يقذف بحربة له قذف الحبشة قلّما يخطىء بها، فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزةَ عمَّ محمد بعمِّي طُعيمة بن عديّ فأنت حُرّ. وكانت هند بنت عتبة كلما مرّت بوحشي أو مرَّ بها تقول: وَيْها أبا دَسْمة اشفِ واستشفِ.

ولما وصلوا إلى الأبواء، قالت هند بنت عتبة لأبي سفيان: أوبحثتم قبر أمِّ محمد فإنها بالأبواء، فإن أسر أحداً منكم فاديتم كل إنسان بإرب من آرابها، فذكر ذلك لقريش، وقال: هذا الرأي. فقالت قريش: لا تفتح هذا الباب لئلا تفتح بنو بكر موتانا.

وقدم عمرو بن سالم الخزاعيُّ في نفر قد فارقوا قريشاً من ذي طَوى، فأخبروا النبي ﷺ الخبرَ، وانصرفوا. وشاع خبر قريش ومسيرُهم في الناس، وأرجفت اليهود والمنافقون، وبعث رسول الله ﷺ عينين له، فأتيا رسول الله ﷺ بخبرهم. ثم إنَّ قريشاً وصلت إلى المدينة، ونزلوا مقابل ذي الحليفة، وتركوا إبلهم وخيولهم ترعى في زروع المدينة حتى لم تبق بها خضراء.

وبعث رسول الله ﷺ الحُباب بن المنذر بن الجموح إليهم، فنظر، وعاد، وقد حزر عددهم، وما معهم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم! بك أجول وبك أصول». وباتت وجوهُ الأوس والخزرج ليلة الجمعة عليها السلاح في المسجد بباب رسول الله ﷺ خوفاً من بيات المشركين، وحرست المدينة حتى الصباح.

رؤيا رسول الله ﷺ:

روى الإمامُ أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تنفّل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد، فقال: «رأيتُ في سيفي «ذو الفقار» فلاً فأوّلته فلاً يكون فيكم (أي انهزاماً) ورأيتُ

أني مردف كبشاً، فأوَّلته كبش الكتيبة، ورأيت أني في درع حصينة، فأوَّلتها المدينة، ورأيتُ بقراً تذبح فَبَقْرٌ والله خير، فَبَقْر والله خير» فكان الذي قال رسول الله ﷺ(١).

وروى الطبراني والبزَّار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزل أبو سفيان وأصحابُه قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إني رأيتُ في المنام سيفي ذا الفقار انكسر، وهي مصيبة، ورأيت بقراً تذبح، وهي مصيبة، ورأيت عليَّ درعاً، وهي مدينتكم، لا يصلون إليها إن شاء الله تعالى».

وفي رواية: «فأما البقر فهي ناسٌ من أصحابي يقتلون، وأما الثَّلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجلٌ من أهل بيتي يُقْتَل». وفي رواية للبيهقي عند ابن شهاب قال: يقول رجال: كان الذي رأى بسيفه الذي أصاب وجهه.

قال أهل السير: رأى رسول الله ﷺ هذه الرؤيا ليلة الجمعة، فلما أصبح جاء أصحابَه فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، وذكر الرؤيا لهم وقال: «إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، ونجعلَ النساء والذّرّية في الآطام (الحصون المرتفعة)، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ مقام، وإن دخلوا علينا، قاتلناهم في الأزقة، فنحن أعلم بها منهم، ورُموا من فوق الصياصي والآطام» وكانوا قد شبّكوا المدينة من كل ناحية فهي كالحصن، وكان ذلك رأي أكابر المهاجرين والأنصار، ورأيَ عبد الله بن أبي بن سلول، فإن رسول الله ﷺ استشاره، ولم يستشره قبل ذلك، فقال: يا رسول الله! أقمْ بالمدينة، ولا تخرجْ، فوالله! ما خرجنا منها إلى عدوٍّ لنا قطُّ إلا أصاب منَّا، ولا دخلها إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله! فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم الصبيان بالحجارة من ورائهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا.

---

(١) مسند أحمد بشرح البنا (٥١/ ٢١).

وقال جماعةٌ من المسلمين، غالبهم أحداثٌ لم يشهدوا بدراً، وطلبوا الشهادة، وأحبُّوا لقاء العدوِّ، وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يوم أحد: يا رسول الله! اخرجْ بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنَّا جَبُنَّا عنهم. وقال حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك، وطائفة من الأنصار: إنا نخشى يا رسول الله! أن يظنَّ عدوُّنا أنَّا كرهنا الخروج إليهم جُبْناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأةً منهم علينا، وقد كنتَ يوم بدر في ثلاثمئة رجل، فظفَّرك الله تعالى عليهم، ونحن اليوم بشرٌ كثير، وقد كنّا نتمنَّى هذا اليوم، وندعو الله تعالى به، فساقه الله تعالى إلينا في ساحتنا، ورسول الله ﷺ لما يرى من إلحاحهم كاره، وقد لبسوا السلاح، وقال إياس بن أوس بن عتيك: نحن بنو عبد الأشهل، إنا لنرجو أن نكون البقر الذي يذبح. وقال غيره: هي إحدى الحسنَيَيْن: الظفر أو الشهادة، والله! لا تطمع العرب في أن تدخل علينا منازلنا.

وقال حمزة: والذي أنزل عليك الكتاب! لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة.

وقال النعمان بن مالك: يا رسول الله! لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده! لأدخلنَّها، فقال رسول الله ﷺ: «لِمَهْ؟» قال: لأني أحب الله تعالى ورسوله، وفي لفظ: لأني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولا أفرّ يوم الزحف، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت» فاستشهد يومئذ.

فلما أبوا إلا ذلك صلّى ﷺ الجمعةَ بالناس، فوعظهم، وأمرهم بالجدِّ والاجتهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، ففرح الناس بالشخوص إلى عدوِّهم، وكره ذلك المخرجَ بشرٌ كثير.

ثم صلى رسول الله ﷺ العصرَ بالناس، وقد حشدوا، وحضر أهل العوالي، ورفعوا النساء في الآطام، ودخل رسول الله ﷺ بيته، ومعه أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما، فعمَّماه، وألبساه، وقد صُفَّ الناسُ له ما بين

حجرته إلى منبره ينتظرون خروج رسول الله ﷺ، فجاء سعد بن معاذ، وأسيد ابن حضير، فقالا للناس: استكرهتم رسول الله ﷺ، وقلتم له ما قلتم، والوحيُ ينزلُ عليه من السماء، فردُّوا الأمر إليه، فما أمركم به فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوى ورأياً فأطيعوه.

فبينما هم على ذلك إذ خرج رسول الله ﷺ وقد لبس لأْمَتَه، ولبس درعاً فوق درع، فظاهر بين درعين، وأظهر الدرع، وحزم وسطه بِمِنْطَقَةٍ من أدم من حمائل سيفه، واعتمّ، وتقلّد السيف، وندم الناس على إكراهه، فقالوا: يا رسول الله! استكرهناك، ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد. فقال رسول الله ﷺ: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. انظروا ما آمركم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله تعالى، فلكم النصر ما صبرتم».

ثم عقد ثلاثة ألوية، فدفع لواء الأوس إلى أُسيد بن حُضَير، ولواءَ الخزرج إلى حُباب بن المنذر، أو إلى سعد بن عبادة، ودفع لواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم.

وركب رسولُ الله ﷺ فرسَه السّكب، وتقلّد القوس، وأخذ رمحاً بيده، وخرج في ألف، منهم مئة دارع، وخرج السَّعدان أمامه يعدوان سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، كل منهما دارع، والناس عن يمينه وشماله، حتى إذا انتهى إلى رأس الثنيّة رأى كتيبةً خشناء، كثيرة السلاح، لها صوتٌ عالٍ، فقال: «ما هذا؟» قالوا: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أُبيّ من يهود، غير يهود قينقاع فقال: «أسلَموا؟» فقيل: لا، فقال: «إنّا لا نستنصرُ بأهل الشّرك على أهل الشرك» فردَّهم.

وسار ﷺ، فعسكر بالشيخين، وهما أُطمان سمّيا باسم: شيخ، وشيخة، على الطريق الشرقية إلى أحد مع الحرّة، وعرض رسول الله ﷺ

عسكره، فاستصغر غلماناً، فردَّهم، وعرضوا عليه، وهم أبناءُ أربع عشرة سنة فرأى أنهم لم يبلغوا، ثم عرضوا عليه فيما بعد، وهم أبناء خمس عشرة، فأجازهم، وهم عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، ورافع بن خديج، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس بن قيظي، وأبو سعيد الخدري، وأوس بن ثابت، وسَعْد بن بجير، وسَعْدُ بن حبتة، ولعلّهما سعد واحد. وزيد بن جارية، وجابر بن عبد الله، وليس بجابر راوي الحديث، وعمرو بن حزم، وسمرة بن جندب، ثم أجاز رافع بن خديج لما قيل: إنه رام، فقال سَمُرَةُ بن جندب لزوج أمه؛ مُرَيُّ بن سنان: أجاز رسول الله ﷺ رافعَ بن خديج، وردَّني، وأنا أصرعه؟! فأعلم بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «تصارعا» فصرع سمرة رافعاً، فأجازه.

ونزل عبد الله بن أبي بن سلول، فلما فرغ العرض، وغابت الشمس أذن بلال بالمغرب، فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه، ثم أذن بالعشاء، فصلّى بهم، وبات بالشَّيخين، واستعمل على الحرس تلك الليلة محمد بن مسلمة في خمسين رجلاً يطوفون بالعسكر. وقال ﷺ: «من يحفظنا الليلة؟» فقام ذكوان بن عبد قيس، فلبس درعه، وأخذ درقته، فكان يحرس رسول الله ﷺ، لم يفارقه حتى السحر، وأدلج رسول الله ﷺ في السحر، فحانت صلاة الصبح بالشَّوط (بستان بين المدينة وأحد) فرجع عبد الله بن أبيّ بن سلول ومن معه من أهل النفاق، وهم ثلاثمئة رجل من الشوط، وهو يقول: عصاني، وأطاع الولدان ومن لا رأي له، ما ندري علامَ نقتل أنفسنا أيها الناس ها هنا؟ وتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، وهو يقول: يا قوم! أُذكِّركم الله ألا تخذُلوا قومكم ونبيكم عندما حضر عدوهم. يا قوم! تعالوا فقاتلوا في سبيل الله، أو ادفعوا. فقالوا: لو نعلم قتالاً ما أسلمناكم، لا نرى أن يكون قتال. ولئن أطعتنا لترجعنَّ معنا. فلما استعصوا عليه، وأبوا إلا الانصراف، قال: «أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله تعالى نبيَّه عنكم» وأنزل الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾

[آل عمران: ٣/ ١٧٩] وكان عبد الله بن عمرو في الخزرج كعبد الله بن أبي. قال مجاهد: ميَّزهم يوم أحد، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٧].

ولما رجع عبد الله بن أبي سُقِط في أيدي بني سَلِمة من الخزرج وبني حارثة من الأوس، وهمّا بالرجوع، وهمّا أن يقتتلا، فثبَّتهما الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٢] قال جابر بن عبد الله: فينا نزلتْ هذه، وما يسرني أنها لم تنزل لقول الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢].

ولما رجع ابن أُبيّ قالت الأنصار الأوسيون: يا رسول الله! ألا نستعين بحلفائنا من يهود، ويعنون بني قريظة؟ فقال ﷺ: «لا حاجة لنا فيهم».

وقال ﷺ لأصحابه: «من يخرج بنا على القوم من كثيب (طريق قريب) لا يمرُّ بنا عليهم؟» فقال أبو خيثمة أو (أبو حثمة): أنا يا رسول الله! فنفذ به من حرَّة بني حارثة وبين أموالهم حتى دخل في حائطٍ للمربع بن قيظي الحارثي، وكان رجلاً منافقاً ضريراً، فقام يحثي التراب في وجوههم، ويقول: إن كنت رسول الله فإني لا أُحِلّ لك أن تدخل حائطي، وأخذ حفنةً من تراب، ثم قال: والله! لو أعلم أني لا أصيبُ غيرك يا محمد! لضربت بها وجهك، فابتدر إليه سعد بن زيد، فضربه بالقوس على رأسه فشجَّه، وأراد القوم قتله، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتلوه. فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر». وغضب له ناسٌ من بني حارثة كانوا على مثل رأيه، لم يرجعوا مع من رجع مع عبد الله بن أبي، فهمَّ بهم أُسَيد بن حضير، حتى أومأ إليه رسول الله ﷺ بترك ذلك.

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشِّعب من أُحُد، فجعل ظهره وعسكره إلى أُحُد، واستقبل المدينةَ، وجعل عَيْنَيْنِ (الجبل) عن يمينه، وبات تلك الليلة، وصفّ المسلمين في الصباح بأصل أحد، وحانت الصلاة والمسلمون يرون المشركين، فأذَّن بلال، وأقام الصلاة، وصلى رسول الله ﷺ بأصحابه صفوفاً، ثم قام، وخطب الناس.

خطبة رسول الله ﷺ:

«أيها الناس! أوصيكم بما أوصاني الله تعالى به في كتابه من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذُخر لمن ذكر الذي عليه، ثم وطَّن نفسَه على الصبر، واليقين، والجدّ، والنشاط، فإنَّ جهادَ العدوِّ شديدٌ كريه، قليلٌ من يصبر عليه، إلا من عزم الله تعالى رشدَه، فإن الله تعالى مع من أطاعه، وإنَّ الشيطانَ مع من عصاه، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله تعالى، وعليكم بالذي آمركم به، فإني حريصٌ على رشدكم، وإن الاختلافَ، والتنازع، والتثبيط من أمر العجز والضعف مما لا يحبُّ الله تعالى، ولا يعطي عليه النصر، ولا الظفر.

يا أيها النَّاس! جُدِّد في صدري أنَّ من كان على حرام فرَّق الله تعالى بينه وبينه، ومن رغب له عنه غفر الله تعالى له ذنبه، ومن صلَّى عليَّ صلاةً صلى الله عليه وملائكته عشراً، ومن أحسن إلى مسلمٍ أو كافر وقع أجره على الله في عاجل دنياه وآجل آخرته، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فعليه الجمعة إلا صبيّاً، أو امرأةً، أو مريضاً، أو عبداً مملوكاً. ومن استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غنيٌّ حميد. ما أعلم من عملٍ يقرِّبكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقرِّبكم من النار إلا وقد نهيتكم عنه، وأنه قد نفث في روعي الروحُ الأمين أنه لن تموتَ نفسٌ حتى تستوفي أقصى رزقها لا ينقص منه شيء، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله ربكم، وأجملوا في طلب الرزق، ولا يحملنَّكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله تعالى، فإنه لا يقدر على ما عنده إلا بطاعته، قد بَيَّن لكم الحلالَ والحرام، غير أن بينهما شُبَهاً

من الأمر لم يعلمها كثيرٌ من الناس إلا من عصم الله تعالى، فمن تركها حفظ عرضه، ودينه، ومن وقع فيها كان كالراعي إلى جنب الحمى، أوشك أن يقع فيه، وليس ملكٌ إلا وله حمى، ألا وإنَّ حمى الله تعالى: محارمه، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعى له سائر جسده، والسلام عليكم».

تهيؤ المسلمين للقتال:

وتعبَّأ رسول الله ﷺ للقتال، وقال: «لا يقاتلنَّ أحدٌ حتى نأمره بالقتال» وهو في سبعمئة، وجعل على الجبل خمسين رامياً، يحمون جماعة المسلمين من خلفهم، وأمَّر عليهم عبد الله بن جُبَير، وقال ﷺ: «انضحوا الخيل عنَّا، لا يأتون من ورائنا، إن كانت لنا أو علينا اثبتوا مكانكم، لا نُؤتَيَنَّ من قِبَلكم، الزموا مكانكم لا تبرحوا عنه، وإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل في عسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا تَخَطَّفُنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسلَ إليكم، وإن رأيتمونا نُقتَل فلا تعينونا، ولا تدفعوا عنَّا، وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تُقْدِم على النَّبل، إنا لا نزال غالبين ما ثَبَتُّم مكانكم، اللهم! إني أشهدك عليهم».

وجعل على ميمنة الجيش: الزبيرَ بن العوام، وعلى ميسرته: المنذر بن عمرو الساعدي. وقال ﷺ: «من يحمل لواء المشركين؟» قيل: طلحة بن أبي طلحة، فقال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالوفاء منهم، فأخذه من عليٍّ، ودفعه إلى مصعب بن عمير العبدري لكون بني عبد الدار أصحاب اللواء في الجاهلية. وكان شعار المسلمين يومئذ: أَمِتْ، أَمِتْ.

تهيؤ المشركين للقتال:

صفّ المشركون بالسَّبِخَة، وتعبؤوا للحرب، وهم ثلاثة آلاف، معهم مئتا فارس، قد جنَّبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل: خالد بن الوليد، وعلى الميسرة: عكرمة بن أبي جهل، وعلى المشاة: صفوان بن أمية، وعلى

الرماة: عبد الله بن أبي ربيعة، وأسلموا كلهم. ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة العبدري، وقال أبو سفيان: يا بني عبد الدار! إنكم قد وليتم لواءنا ببدر فأصابنا ما قد رأيتم، فإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلّوا بيننا وبينه فنكفيكموه، فهمُّوا به، وقالوا: أنحن نسلم إليكم لواءنا؟! ستعلمون إذا التقينا كيف نصنع، وذلك الذي أراد أبو سفيان.

تحريض رسول الله ﷺ أصحابه على القتال:

وعرض رسول الله ﷺ سيفاً، فأخذه رجالٌ، فجعلوا ينظرون إليه، وفي رواية: فبسطوا أيديهم، كل إنسان يقول: أنا، فقال: «من يأخذه بحقه؟» فأحجم القوم، فقام رجالٌ، فأمسكه عنهم، طلبه عمر فأعرض عنه، ثم طلبه الزبير ثلاث مرات فأعرض عنه، ثم طلبه عليٌّ، فقال له رسول الله ﷺ: «اجلس» ثم قال رسول الله ﷺ: «من يأخذه بحقه؟» فقام إليه أبو دجانة، فقال: يا رسول الله! وما حقه؟ قال: «أن تضرب به في العدوِّ حتى ينحني». قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه. قال: «لعلك إن أعطيتكه تقاتل في الكيّول» (مؤخرة الجيش) قال: لا، فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، وكان له عصابةٌ حمراء يُعلَمُ بها عند الحرب يعتصب بها، فإذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل. فلما أخذ السيفَ من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، ثم جعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يتبختر: «إنها لِمشْيَةٌ يبغضها الله إلا في هذا الموطن» وجعل يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدَّهر في الكيّول ... أضرب بسيف الله والرسول

بدء الحرب:

نادى أبو سفيان بن حرب: يا معشر الأوس والخزرج! خلُّوا بيننا وبين

بني عمِّنا نصرف عنكم، فشتموه أقبح شتم، ولعنوه أشدَّ اللعن. وطلع أبو عامر الراهب في خمسين من قومه الذين ذهبوا معه إلى مكة، ونادى: يا معشر الأوس! أنا أبو عامر، فقالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق، بذلك سمّاه رسول الله ﷺ، فلما سمع ردَّهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ.

شجاعة الزبير:

وخرج رجل من المشركين على بعير له، فدعا للبراز، فأحجم الناس عنه حتى دعا ثلاثاً، فقام إليه الزبير، فوثب حتى استوى معه على البعير، ثم عانقه، فاقتتلا فوق البعير، فقال رسول الله ﷺ: «الذي يلي حضيض الأرض مقتول» فوقع المشركُ، فوقع عليه الزبير، فذبحه، فأثنى عليه رسول الله ﷺ، وقال: «لكل نبيٍّ حواريّ، وإنّ حواريّ الزبير». وقال ﷺ: «لو لم يبرز إليه الزبير لبرزتُ إليه» لما رأى من إحجام الناس عنه.

شجاعة عليّ:

وخرج رجلٌ من المشركين بين الصَّفَّين، طلحة بن أبي طلحة، بيده لواء المشركين، فطلب المبارزة مراراً، فلم يخرج إليه أحد، فقال: يا أصحاب محمد! إنكم تزعمون أن الله تعالى يعجِّلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجِّلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل أحدٌ منكم يعجِّلني بسيفه إلى النار، أو أعجِّلهِ بسيفي إلى الجنة؟! كذبتم، واللات والعزّى! لو تعلمون ذلك حقاً لخرج إليَّ بعضُكم، فخرج إليه عليُّ بن أبي طالب، فاختلفا ضربتين، فصرعه عليٌّ رضي الله عنه، فقطع رجله، ووقع على الأرض، وبدتْ عورته، فقال: يابن عمي! أنشدك الله والرحم، فرجع عنه، ولم يجهز عليه، فقال رسول الله ﷺ: «ما منعك أن تُجهِزَ عليه؟» فقال: ناشدني الله والرحم، فقال: «اقتله» فقتله، فحمل اللواء عثمان بن أبي طلحة.

نشوب الحرب:

ولما التقى الناس، ودنا بعضُهم من بعض، قامت هند بن عتبة في النسوة

اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها، يحرِّضن على القتال، يقلن:

نحـــن بنـــات طـــارق	نمشـــي علـــى النمـــارق
مشـــي القطـــا النـــوازق	والمســـك فـــي المفـــارق
والـــدرّ فـــي المخـــانـــق	إن تقبلـــوا نعـــانـــق
ونفـــرش النمـــارق	أو تـــدبـــروا نفـــارق

فـــراق غيـــر وامـــق

طارق: النجم، يعني: نحن بنات مَن بلغ العلو وارتفاع القدر كالنجم. النوازق: الخفاف. الوامق: المحب. وكان ﷺ إذا سمع تحريض هند يقول: «اللهم بك أحول (أُمنع) وبك أصول، وفيك أقاتل، حسبي الله، ونعم الوكيل».

وحملت خيلُ المشركين على المسلمين ثلاث مرات، كل ذلك تُنضح بالنبل، فترجع مفلولة، وكانت الرماة تحمي ظهور المسلمين، ويرشقون خيل المشركين بالنبل، فلا يقع إلا في فرس أو رجل فتولِّي هوارب.

وحمل المسلمون على المشركين فنهكوهم، وأضعفوهم قتلاً، فحمل حمزةُ على صاحب اللواء، فقطع يده وكتفه، حتى انتهى إلى مؤتزره، فرجع حمزة، وهو يقول: أنا ابنُ ساقي الحجيج، يعني: عبد المطلب، فأخذ اللواء أبو سعيد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرته فقتله، فحمله مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح فقتله، ثم حمله أخوه الحارث بن طلحة، فرماه عاصم فقتله، فكانت أمُّهما تسأل كل واحد منهما بعدما رمي: يا بني من أصابك؟ فيقول: سمعت رجلاً حين رماني يقول: خذها وأنا ابن أبي الأقلح، فنذرتْ إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر، وجعلت لمن جاء برأس عاصم مئة من الإبل. فحمل اللواء كلاب بن طلحة، فقتله الزبير، وقيل: قزمان، فحمله الجُلاس بن طلحة، فقتله طلحة بن عبيد الله، فحمله أرطأة بن شرحبيل:

فقتله علي بن أبي طالب، وقيل: حمزة، فحمله شريح بن قارظ، فقتل، فحمله أبو زيد بن عمرو بن عبد مناف، فقتله قزمان، فحمله ولد لشرحبيل ابن هاشم، فقتله قزمان أيضاً، ثم حمله صواب الحبشي غلامهم، فقاتل حتى قتله قزمان.

وجاس المسلمون في المشركين ضرباً، وأبو دجانة لا يمرُّ بشيء إلا أفراه، وفتك به، وفلق بسيف رسول الله ﷺ هام المشركين، وكان إذا كَلَّ شحذه بالحجارة، ثم يضرب به العدو كأنه منجل، وكان في المشركين رجلٌ لا يدعُ للمسلمين جريحاً إلا ذفَّف عليه، فجعل يدنو من أبي دجانة. قال الزبير: فدعوتُ الله أن يجمع بينهما، فالتقيا فاختلفا ضربتين، فضرب المشركُ أبا دجانة فاتّقاه بدرقته، فعضّت بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله.

قال الزبير: ثم رأيته حمل على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيفَ عنها، فقلتُ له: كل سعيك رأيتُه فأعجبني، غير أنك لم تقتل المرأة! قال: رأيت إنساناً يُحَمِّس الناس حمساً شديداً (يشجعهم) ويوقد الحرب، ويثيرها، فعمدت إليه، فلما حملت عليه بالسيف ولول، أي: دعا بالويل قائلاً: يا ويلاه! فعلمتُ أنه امرأة، فأكرمتُ سيفَ رسول الله ﷺ أن أضربَ به امرأة.

وقال كعب بن مالك: خرج رجلٌ من المشركين نحو المسلمين، وهو يقول: استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم، وإذا رجل من المسلمين قائم ينتظره، وعليه لأمته، فمضيت حتى كنت من ورائه، ثم قمت أقدر المسلم والكافر بنظري، فإذا الكافر أفضلهما عُدّةً وهيئة، قال: فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا، فضرب المسلمُ الكافر على حبل عاتقه ضربة بالسيف، فبلغت وركيه، وانفرق فرقتين، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال: كيف ترى يا كعب؟! أنا أبو دجانة.

واقتتل الناسُ قتالاً شديداً، وأبلى أبو دجانة، وطلحة بن عبيد الله، وعلي بن أبي طالب، وأنس بن النضر، وسعد بن الربيع، وأسد الله وأسد

رسوله حمزة بن عبد المطلب، وكان رضي الله عنه قتل من المشركين عدداً كان آخرَهم سباعُ بن عبد العزّى؛ الذي مرّ به، فلما رآه رضي الله عنه قال: هلمّ يابن مقطِّعة البظور! وفي رواية البخاري: يا سباع، يابن أم أنمار، مقطِّعة البظور، أتحادّ الله ورسوله؟! فشدَّ عليه، فلما التقيا ضربه حمزة فقتله، فكان كأمس الذاهب. وأكبَّ حمزة عليه ليأخذ درعه، قال وحشي: وكمنتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميتُه بحربتي، وقد انكشف الدرعُ عن بطنه، فهززتُ حربتي حتى إذا رضيت منها، دفعتها عليه، فوقعت في ثُنّته (موضع تحت السُّرَّة وفوق العانة) حتى خرجتْ من بين رجليه، فأقبل نحوي، فَغُلِب، فوقع، فأمهلته حتى إذا مات، جئته، فأخذتُ حربتي، ثم تنحيتُ عن العسكر، ولم يكن لي في شيءٍ حاجة غيرَه.

هزيمة المشركين:

ثم لمَّا قُتِل أصحابُ لواء المشركين واحداً بعد واحد، ولم يقدر أحدٌ يدنو منه انهزم المشركون، وولّوا، لا يلوون على شيء، ونساؤهم يدعون بالويل بعد فرحهم وضربهم بالدفوف، وألقين الدفوف، وقصدن الجبل كاشفات سيقانهن، يرفعن ثيابهن، وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح، وينتهبون الغنائم.

ما حصل للمسلمين بسبب مخالفة الرماة:

لما رأى أصحابُ عبد الله بن جبير ـ وهم الرماة ـ ما حصل للمشركين قالوا: أي قوم! الغنيمة، الغنيمة! لم تقيمون ها هنا في غير شيء؟! قد هزم الله تعالى العدو، وهؤلاء إخوانكم قد ظهروا، وهم ينتهبون عسكرهم، فادخلوا عسكر المشركين، فاغنموا مع إخوانكم. فقال عبد الله بن جبير ومَن وافقه: ألم تعلموا أنَّ رسول الله ﷺ قال لكم: «احموا ظهورنا ولا تبرحوا من مكانكم، وإذا رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن غنمنا فلا تشركونا، احموا ظهورنا»؟ فقال الآخرون: لم يُرِد رسول الله ﷺ هذا، وانطلقوا، فلم يبق مع أميرهم عبد الله بن جبير إلا دون العشرة، وذهب الباقون إلى عسكر

المشركين ينتهبون، ونظر خالد بن الوليد إلى الجبل وقلّة أهله، فكرَّ بالخيل، وتبعه عكرمة بن أبي جهل ـ وأسلما بعد ذلك ـ فحملوا على مَن بقي من الرماة فقتلوهم، وثبت أميرهم عبد الله، فقاتل حتى قُتِل فجرَّدوه، ومثّلوا به أقبح مُثْلَةٍ، وكانت الرماحُ قد شرعت في بطنه حتى خرقت ما بين سرَّته إلى خاصرته إلى عانته، وخرجت أحشاؤه، وأحاطوا بالمسلمين، فبينما المسلمون قد شغلوا بالنهب والغنائم إذ دخلت الخيول تنادي فرسانُها بشعارهم: يا للعُزّى! يا لَهُبَل! ووضعوا السيوفَ في المسلمين وهم آمنون، وكلٌّ في يديه، أو في حضنه شيء قد انتهبه. ولما رأى المشركون خيلَهم ظاهرةً رجعوا فشدُّوا على المسلمين، فهزموهم، فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً، وتفرَّق المسلمون في كلِّ وجه، وتركوا ما انتهبوا، وخلَّوا من أسروا، وانتقضت صفوفُ المسلمين، واستدارت رحاهم، وكرَّ الناسُ منهزمين يحطم بعضهم بعضاً. وصار الصحابة عند ترك الرماة مواقعهم ثلاث فرق، فرقة استمروا في الهزيمة إلى قرب المدينة، فما رجعوا حتى فرغ القتال، وهم قليل، وفرقة صاروا حيارى لما سمعوا ذلك، فصارت غاية الواحد منهم أن يذبَّ عن نفسه، أو يستمر على بصيرته في القتال إلى أن يقتل، وهم أكثر الصحابة وفيهم الجرحى، وفرقة ثبتت مع رسول الله ﷺ، ثم تراجع إليه القسم الثاني شيئاً فشيئاً لمّا عرفوا أنه حي، وصرخ الشيطان ـ لعنه الله ـ:

أي عباد الله! إخوانكم! فرجعت أولاهم، فاجتدلت هي وأخراهم، وهم يظنون أنهم من العدوِّ، فضرب بعضهم بعضاً من غير شعار يتنادون به في الحرب، وهو: أمت أمت، يتعارفون به في ظلمة الليل، وعند الاختلاط مما أصابهم من الدهش، والحيرة، ولم يزل لواءُ المشركين ملقى حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية، فأقامته، فلاثوا به، واجتمعوا عنده.

فكان أول النهار للمسلمين على الكفار كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم

مَن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٢].

فما كانت دولةٌ أسرعَ من دولة المشركين، وصرخ الشيطان عند جبل عَيْنَين، وقد تصور في صورة جُعال بن سراقة رضي الله عنه، وكان رجلاً صالحاً ممن أسلم قديماً: إن محمداً قد قتل، ثلاث صرخات، ولم يشكّ فيه، فوثب الناس على جعال ليقتلوه، فتبرأ من ذلك القول، وشهد له خوّات ابن جبير، وأبو بردة بأن جعالاً كان عندهما، وبجنبهما حين صرخ ذلك الصارخ: «أن محمداً قد قُتِل» قالت بعض الفرقة المتحيّرة: إن كان رسول الله ﷺ قد قُتِل، أفلا تقاتلون على دينكم، وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله شهداء؟! وقال جماعة: وهم الفئة المنهزمة: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان. يا قوم! إن محمداً قد قُتِل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، وانهزمت هذه الفرقة حتى دخلت المدينة، فلقيتهم أمُّ أيمن، فجعلت تحثو في وجوههم التراب، وتقول لبعضهم: هاك المغزل فاغزلْ به، وهلمَّ سيفك.

ثبات رسول الله ﷺ:

وثبت رسول الله ﷺ مكانه، ما زال عنه قدماً واحداً وإنه لفي وجه العدو تفيء إليه طائفة من أصحابه مرة، وتفترق مرةً عنه، وما زال يرمي عن قوسه حتى تقطّع وتره، وبقيت في يده قطعة تكون شبراً في سية القوس، فأخذ القوسَ عكاشة بن محصن ليوتره له، فقال: يا رسول الله! لا يبلغ الوتر، فقال: «مدَّه فَيَبلغ» قال عكاشة: فوالذي بعثه بالحق! لمددته حتى بلغ، وطويت منه لَيَّتَيْنِ، أو ثلاثاً على سِيَةِ القوس، ثم أخذ رسول الله ﷺ قوسَه، فما زال يرمي به، وأبو طلحة يستره متترّساً عنه حتى تحطّمت القوسُ، وصارت شظايا، وفنيت نبله، فأخذ القوسَ قتادةُ بن النعمان، فلم تزل عنده، ورمى رسول الله ﷺ بالحجارة، وكان أقرب الناس إلى العدوِّ، وهو ﷺ يدعو أصحابه إليه لما انكشفوا عنه إلى الجبل لا يلوون عليه، يقول:

«إليَّ يا فلان! أنا رسول الله» فما يعرِّج عليه أحدٌ، والنبل يأتيه ﷺ من كل ناحية، والله يصرف ذلك عنه.

وثبت معه ﷺ خمسة عشر رجلاً، ثمانية من المهاجرين: أبو بكر، وعمر، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح، وسبعة من الأنصار: الحباب بن المنذر، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصمَّة، وسهل بن حنيف، وسعد بن معاذ، وقيل: سعد بن عبادة، ومحمد بن مسلمة، ويقال: ثبت بين يديه يومئذ ثلاثون رجلاً، كلهم يقول: وجهي دون وجهك، ونفسي دون نفسك، وعليك السلام غير مودَّع.

وممن ثبت أبو طلحة الأنصاري، كان رجلاً رامياً شديد الرمي، فنثر كنانته بين يدي رسول الله ﷺ، وهو يحوز عنه بحجفته، وصار يقول: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوقاء، فلم يزل يرمي بها، وكان الرجلُ يمرُّ بالجعبة من النبل، فيقول ﷺ: «انثرها لأبي طلحة». وصار رسول الله ﷺ ينظر إلى القوم ليرى مواضع النبل، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله! بأبي أنت وأمي! لا تشرفْ يصبك سهمٌ من سهام القوم، نحري دون نحرك. ويتطاول أبو طلحة بصدره يقي رسول الله ﷺ.

وممن ثبت سعد بن أبي وقاص، يقول رضي الله عنه: أجلسني رسول الله ﷺ أمامه، فجعلت أرمي وأقول: اللهم! سهمك فارم به عدوَّك، ورسول الله ﷺ يقول: «اللهم استجبْ لسعد، اللهم! سدِّد رميته، وأجبْ دعوته» حتى إذا فرغتُ من كنانتي نثر رسول الله ﷺ ما في كنانته. وقال سعد: أخذت سهماً من كنانتي فرميت به رجلاً فقتلته، ثم أخذت سهماً فإذا هو سهمي الذي رميت به، فرميت به آخر فقتلته، ثم أخذت سهماً آخر فإذا هو سهمي الذي رميت به، فرميت به آخر فقتلته، ثم أخذت سهماً فإذا هو سهمي الذي رميت به فرميت به آخر فقتلته، فقلت: هذا سهمٌ مبارك، فكان

عندي في كنانتي لا يفارق كنانتي، وفي رواية: كان رسول الله ﷺ يعطيه إياه في كل مرة.

وما من سهم رماه سعد منها إلا ورسول الله ﷺ يقول له: «ارم فداك أبي وأمي» وكان ﷺ يفتخر بسعد فيقول: «هذا سعد خالي، فليرني امرؤ خاله» لأنه زهري، وأم النبي ﷺ زهرية.

وممن ثبت: أبو دجانة: ترّس دون رسول الله ﷺ، فصار يقع النبل على ظهره وهو منحنٍ، حتى كثر فيه النبل وهو لا يتحرك. وممن ثبت: سهل بن حنيف رضي الله عنه. وكان بايع النبيَّ ﷺ على الموت في يوم أُحد ثمانية: ثلاثة من المهاجرين، وهم: علي، والزبير، وطلحة. وخمسة من الأنصار: أبو دجانة، والحارث بن الصمّة، والحباب بن المنذر، وعاصم بن ثابت، وسهل بن حنيف، فلم يُقتل منهم أحد.

فكان ينضح بالنبل يومئذٍ عن رسول الله ﷺ، وقال ﷺ: «ثبّتوا سهيلاً» أي: أعطوه النبل.

وممن ثبت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، قاتل قتالاً شديداً: عن رسول الله ﷺ، وأصيب فوه، فَهُتِم، وجرح عشرين جراحة أو أكثر، وجرح في رجله، وكان يعرج منها.

وممن ثبت: مصعب بن عمير رضي الله عنه، قاتل دون رسول الله ﷺ حتى قتله ابن قمئة ـ لعنه الله ـ وهو يظنه رسول الله ﷺ.

وممن ثبت مع رسول الله ﷺ: أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، قالت رضي الله عنها: خرجتُ يوم أحد لأنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء، فيه ماء، أسقي به الجرحى، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو في الصحابة، والربح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزتُ إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال، وأذبُّ عنه بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى وصلت الجراحة

إليَّ. ورُؤي على عاتقها جرح أجوف له غور، فقيل لها: من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمئة، لما ولَّى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلُّوني على محمد، فلا نجوتُ إن نجا، فاعترضتُ له أنا ومصعب بن عمير، فضربني هذه الضربة، وضربته ضربات، ولكنَّ عدو الله كان عليه درعان. وقال ﷺ في حقِّها: «ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً يوم أُحُد إلا ورأيتُها تقاتل دوني». وقد جرحت رضي الله عنها اثني عشر جرحاً بين طعنة برمح، أو ضربة بسيف.

وقاتل عليٌّ عن رسول الله ﷺ دون رسول الله ﷺ فرقةً فيها عكرمة بن أبي جهل، فخذل وسطهم بالسيف يضرب به، وقد اشتملوا عليه حتى أفضى إلى آخرهم، ثم كرَّهم ثانياً حتى رجع من حيث جاء.

وكان الحبابُ بن المنذر يجوس المشركين كما تجاس الغنم، ثم اشتملوا عليه حتى قيل: قد قُتِل، ثم برز والسيف في يده، وافترقوا عنه.

ما فعله المشركون برسول الله ﷺ فكان له به عظيم الأجر:

وقع ﷺ في حفرةٍ من الحفر التي حفرت للمسلمين، حفرها أبو عامر الفاسق، والد حنظلة الغسيل، فأغمي عليه ﷺ، وجُحشت ركبتاه، فأخذ عليٌّ ـ كرم الله وجهه ـ بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً. وكان سببُ وقوعه ﷺ أنَّ ابن قمئة لعنهُ الله علاه ﷺ بالسيف، فلم يؤثر السيف فيه للدِّرعين اللذين كانا عليه ﷺ، إلا أن الخبيث ابن قمئة ضربه على وجهه فشجَّ وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ولما رماه قال له: خذها وأنا ابن قمئة، فقال له رسول الله ﷺ: «أقمأك الله عز وجل» فسلَّط الله تعالى عليه تيس جبل، فلم يزلْ ينطحه حتى قطّعه قطعةً قطعةً، وذلك بعد الوقعة. ورمى عتبةُ بن أبي وقّاص ـ لعنه الله ـ رسول الله ﷺ بأربعة أحجار، فكسر حجرٌ منها ربَاعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، ورمى وجهه، فقال: «اللهم لا يحول عليه الحول حتى يموت كافراً» فما حال عليه الحولُ حتى مات كافراً في النَّار.

وشجَّه عبد الله بن شهاب الزهري، وأسلم بعد ذلك في وجهه، وسال الدمُّ من الشجّة حتى أخضل الدم لحيته الشريفة ـ نفسي له الفداء ـ ورمته جماعةٌ كثيرة بالحجارة حتى وقع لشقّه، وكسرت البيضة على رأسه ﷺ، وجعل ﷺ يمسح الدم عن وجهه، وهو يقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟!» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٨] وقال الأوزاعي: بلغنا أنه لما جرح ﷺ يوم أحد، أخذ شيئاً فجعل ينشِّف فيه دمه ليمنعه من النزول على الأرض، ويقول: «لو وقع منه شيء على الأرض لنزل عليهم العذاب من السماء» ثم قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». فاعتذر عنهم، وتضرَّع إلى الله أن يمهلَهم حتى يكون منهم أو من ذريتهم من يؤمن، وقد حقق الله رجاءه. وهذا دعاءٌ لهم بالتوبة من الشرك حتى يغفر لهم، وليس دعاءً لهم بغفران الشرك، فلا يشكل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤/ ٤٨] ولا قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٣].

وقال أبو بكر رضي الله عنه: انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ، وقد كسرت رباعيته، وشجَّ وجهه، ودخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر، وإلى جانبي أبو عبيدة بن الجراح، فقال رسول الله ﷺ: «عليكما صاحبكما» يريد: طلحة وقد نزف الدم، فتركناه، وذهبتُ لأنزع ذلك من وجه رسول الله ﷺ، فقال أبو عبيدة: أقسمتُ عليك بحقي لما تركتني، فتركته، وكره أن يتناولها بيده، فيؤذيَ رسول الله ﷺ، فأزمَّ عليها بفيه، فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيّته مع الحلقة، وذهبت لأصنع ما صنع، فقال: أقسمت عليك بحقِّي لما تركتني، ففعل كما فعل في المرة الأولى، فوقعت ثنيَّته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتماً، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ، ثم أتينا طلحة في بعض الحفر، فإذا به بضع وسبعون، أو أقل، أو أكثر من طعنة، وضربة، ورَمية، وإذا قد قطعت أصبعه، فأصلحنا

من شأنه، فنضح أبو بكر الماء في وجهه حتى أفاق، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقال: خيراً، هو أرسلني إليك، قال: الحمد لله، كلّ مصيبة بعده جلل.

ولما نزعت الحلقتان من وجنة رسول الله ﷺ جعل الدم يَسْرُب كما يسرب الشنُّ، فجعل مالك بن سنان يأخذ الدم بفيه، ويمجه منه، ويزدرده، فقال له: «أتشرب الدم؟» قال: نعم، يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «من مسَّ دمي دمه لم تمسّه النار».

وانحاز ﷺ إلى الجبل لينظر أمر الناس، وليعرفه أصحابُه فيقصدوه، وبقي معه أحد عشر رجلاً من الأنصار، وطلحة بن عبيد الله، وهو يصعد في الجبل، فلحقهم المشركون، فقال: «ألا أحدٌ لهؤلاء؟» فقال طلحة: أنا يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «كما أنت يا طلحة» فقال رجلٌ من الأنصار: فأنا يا رسول الله! فقاتل عنه، وصَعِد رسول الله ﷺ، ومن بقي معه، ثم قتل الأنصاري فلحقوه، فقال: «ألا رجل لهؤلاء؟» فقال طلحة مثل قوله، فقال رسول الله ﷺ مثل قوله، فقال رجلٌ من الأنصار: فأنا يا رسول الله! فقاتل وأصحابُه يصعدون في الجبل، ثم قُتِل الأنصاري فلحقوه، فلم يزل يقول مثل قوله الأول، ويقول طلحة: أنا يا رسول الله، فيحبسه، ويستأذنه رجلٌ من الأنصار للقتال، فيأذن له، فيقاتل مثل ما كان قبله، حتى لم يبق معه إلا طلحة، فغشوهما، فقال رسول الله ﷺ: «من لهؤلاء يا طلحة»؟ فقال: أنا، فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله، وأصيبت أنامله، فقال: حسّ، فقال: «لو قلت باسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جوِّ السماء».

ثم أراد رسول الله ﷺ أن يعلو الصخرة التي في الشِّعب، فلما ذهب لينهض لم يستطع لكثرة ما خرج من دم رأسه الشريف ووجهه، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض به حتى استوى عليها، فقال رسول الله ﷺ: «أوجب طلحة حين صنع برسول الله ما صنع».

وروى البخاريُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتدَّ غضبُ الله على قوم فعلوا بنبيِّه» يشير على رباعيته «اشتدَّ غضبُ الله على رجل يقتلُه رسول الله ﷺ في سبيل الله» وفي رواية ابن عباس: «اشتد غضبُ الله على قومٍ دَمَّوا وجه نبي الله ﷺ»[1].

وفي البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: كانت فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ تغسله (أي: الجرح) وعليٌّ يسكب الماء بالمِجَنّ، فلما رأتْ فاطمة أن الماء لا يزيد الدَّم إلا كثرةً، أخذت قطعةً من حصير فأحرقتها، وألصقتها، فاستمسك الدم. وكسرت ربَاعيَته يومئذ، وجُرح وجهه، وكسرت البيضة على رأسه[2].

حضور الملائكة يوم أحد:

قال الصَّالحي: روى البيهقي عن عروة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٢] كان الله تعالى وعدهم على الصبر والتقوى أن يمدَّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوَّمين، وكان قد فعل، أي: في بدر، فلما عصوا أمر رسول الله ﷺ، وتركوا مصافَّهم، وتركت الرماةُ عهدَ رسول الله ﷺ ألا يبرحوا منازلهم، وأرادوا الدنيا، رفع عنهم مدد الملائكة، وأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٢] فصدق الله وعده، وأراهم الفتح، فلما عصوا أعقبهم البلاء.

وروى البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشدِّ القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد[3].

---

(١) البخاري (٥/ ١٢٩).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) البخاري (٥/ ١٢٤).

وقال البيهقي في تفسير قول مجاهد رحمه الله: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر، قال: مراده لم يقاتلوا يوم أحد عن القوم حين عصوا رسول الله ﷺ، ولم يصبروا على ما أمرهم به.

وروى الطبراني وغيره من طريق محمود بن لبيد، قال الحارث بن الصمّة: سألني رسول الله ﷺ وهو في الشعب عن عبد الرحمن بن عوف، فقلت: رأيته إلى جنب الجبل، فقال: «إن الملائكة تقاتل معه» قال الحارث: فرجعت إلى عبد الرحمن فوجدتُ بين يديه سبعةً صرعى، فقلت: ظفرت يمينك، أكلَّ هؤلاء قتلت؟! قال: أما هذا وهذا فأنا قتلتهما، وأما هؤلاء فقتلهم من لم أره، فقلت: صدق الله ورسوله.

وروى ابنُ إسحاق، والبيهقي، وابن عساكر عن عبد الله بن عوف، عن عمير بن إسحاق، قال: لما كان يوم أحد انكشفوا عن رسول الله، وسعد يرمي بين يديه، وفتىً ينبِّل له، كلما ذهب نبلُه أتاه بها، قال: «ارمِ أبا إسحاق» فلما فرغوا نظروا مَن الشاب فلم يروه، ولم يُعرَف.

إرسال النعاس على الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٤] الآية.

روى البخاري عن أنس عن أبي طلحة رضي الله عنهما قال: كنتُ فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه[1].

وروى إسحاقُ بن راهويه عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: والله! إن النعاسَ ليغشاني، وفي رواية: لقد رأيتُني مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد حين اشتدَّ علينا الخوف، وأُرسل علينا النومُ، فما منا أحدٌ إلا وذقنه في صدره،

(١) بخاري (٥/ ١٢٧).

فوالله! إنِّي لأسمعُ كالحلم قولَ معتَّب بن قشير: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا، فحفظتُها، فأنزل الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ إلى قوله: ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٤] كقول مُعتّب بن قشير.

وقال محمد بن إسحاق: أنزل الله تعالى النعاس أمنةً منه لأهل اليقين، فهم نيامٌ لا يخافون، والذين أهمَّتهم أنفسهم أهل النفاق والريب في غاية الخوف، والذُّعر.

رجوع بعض المسلمين بعد توليهم إلى رسول الله ﷺ:

روى ابنُ المنذر عن كُلَيب بن شهاب قال: خطبنا عمر، فكان يقرأ على المنبر آل عمران ويقول: إنّها أُحُدِيّة، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٥] قال: لما كان يوم أحد هُزِمنا، ونفرت حتى صعدت في الجبل، فلقد رأيتني أنزو كأنني أروى، فسمعت يهودياً يقول: قُتِل محمد، فقلت: لا أسمع أحداً يقول: قتل محمد إلا ضربت عنقه، فنظرتُ فإذا رسول الله ﷺ والناس يتراجعون إليه.

قال ابن إسحاق: وكان أولَ من أقبل من المسلمين بعد التولية: قيسُ بن محرّث، مع طائفة من الأنصار، فصادفوا المشركين، فضاربهم قيس، فما قتله المشركون إلا بالرِّماح.

ونادى الحباب بن المنذر: يا آل سلمة! فأقبلوا عليه عنقاً واحداً، أي جماعة واحدة: لبيك داعيَ الله!.

وكان عباس بن عبادة، وخارجة بن زيد، وأوس بن أرقم يرفعون أصواتهم.

أما عباس فقال: يا معشر المسلمين! اللهَ ونبيَّكم! هذا الذي أصابكم بمعصية نبيكم، فوعدكم النصر ما صبرتم. ثم نزع مِغفَره، وخلع درعه،

وقال خارجة: هل لك فيها؟ قال: لا، أنا أريد الذي تريد، فخالطوا القوم، وعباس يقول: ما عذرنا عند ربنا إن أصيب رسول الله ﷺ وفينا عين تطرف؟! فيقول خارجة: لا عذر لنا عند ربنا، ولا حُجَّة. فقتل سفيان بن عبد شمس عبّاساً، وأخذت خارجةَ الرماحُ، فجرح بضعة عشر جرحاً، وأجهز عليه صفوان بن أمية، وأسلم، وقُتِل أوس بن أرقم.

ومرَّ مالك بن الدّخشم على خارجة بن زيد، وهو قاعد في أمعائه، وبه ثلاثة عشر جرحاً، كلها قد خلصت إلى مقتل، فقال: أما علمت أن محمداً قد قُتِل؟ فقال خارجة: إن كان رسول الله ﷺ قد قُتِل، فإن الله حيٌّ لا يموت، فقد بلَّغ رسول الله ﷺ، فقاتِل عن دينك!.

ومرَّ على سعد بن الربيع، وبه اثنتا عشرة جراحة كلُّها قد خلصت إلى مقتل، فقال: أعَلِمتَ أن محمداً قد قُتل؟ فقال سعد: أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ، قد بلَّغ رسالة ربه، فقاتِلْ عن دينك، فإن الله حيٌّ لا يموت.

قالوا: وكان أوَّل من عَرف رسول الله ﷺ بعد تولِّي المسلمين، وقول الناس: قُتِل رسول الله ﷺ كما ذكر الزهري: كعبُ بن مالك، قال: رأيت عينيّ رسول الله ﷺ تزهران (تتلألآن) من تحت المغفر، فناديتُ بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليَّ أن اسكت، ودعا بلأمة كعب، وكانت صفراء، أو بعضها، فلبسها، ونزع لأمته، فلبسها كعب.

روى الطبراني بسند رجاله ثقات عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد، وصرنا إلى الشِّعب، كنتُ أول من عرف رسول الله ﷺ، فقلت: هذا رسول الله ﷺ: فأشار إليَّ بيده أن اسكت، ثم ألبسني لأمته، ولبس لأمتي، فلقد ضُرِبت حتى جرحت عشرين جراحة، كل من يضربني يحسبني رسول الله ﷺ، فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ أقبلوا عليه، ولما رأوه سالماً كأنَّهم لم يصبْهم شيءٌ حين رأوه، وفرحوا بذلك فرحاً

شديداً، فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به إلى الشِّعب.

معجزات

مقتل حنظلة بن أبي عامر (معجزة):

روى محمود بن لبيد، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن الزبير، قالوا: لما انكشف المشركون يوم أُحُد، ضرب حنظلة فرسَ أبي سفيان بن حرب، فوقع على الأرض، فصاح وحنظلة يريد ذبحه، فأدركه الأسود بن شداد، فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه، ومشى إليه حنظلة في الرمح، أي: النافذ فيه، ثم ضربه الأسود ثانية فقتله. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إني رأيت الملائكة تغسِّله بين السماء والأرض بماء المزن في صِحافِ الفضَّة». قال أبو أُسَيد الساعدي: فذهبنا إليه فإذا رأسه يقطر ماءً. فقال رسول الله ﷺ: «فاسألوا أهلَه: ما شأنه؟» فسألوا زوجته عنه، فقالت: خرج وهو جُنُبٌ حين سمع الهاتف، فقال رسول الله ﷺ: «فلذلك غسّلته الملائكة».

وزوجته جميلة بنت أُبَيّ بن سلول، دخل عليها في تلك الليلة التي في صبيحتها أُحُد، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فأذن له، فلما صلَّى الصبح غدا يريد رسول الله ﷺ، فلزمته جميلة، فعاد، فكان معها، فأجنب منها، وقد أرسلت إلى أربعة من قومها، فأشهدتهم على الدخول بها خشية أن يكون في ذلك نزاع، فقيل لها: لم أشهدت؟ فقالت: رأيت كأنَّ السماء فُرِجت فدخل فيها، ثم أطبقت، فقلت: هذه الشهادة، وعلقت بعبد الله بن حنظلة، رضي الله عنهم.

مقتل عمرو بن الجموح رضي الله عنه (معجزة):

كان عمرو أعرج، شديد العرج، وكان له بنون أربعةٌ مثل الأُسْد، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، وهم: خلاَّد، ومعوَّذ، ومعاذ، وأبو أيمن، فلما كان يومُ أحد أرادوا حبسه، وقالوا: إن الله قد عذرك، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إنَّ بنيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج

معك فيه، فوالله! إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال له رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد عذرك الله تعالى، فلا جهاد عليك» وقال لبنيه: «ما عليكم ألا تمنعوه؟! لعلَّ الله أن يرزقه الشهادة» فخرج وهو يقول مستقبل القبلة: اللهم! لا تردني إلى أهلي خائباً، فَقُتِل شهيداً.

وفي رواية: فمرَّ عليه رسول الله ﷺ فقال: «كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحةً في الجنة».

إنّه من أهل الجنة (معجزة):

روى الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقره الذهبي، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن عمرو بن قيس كان له رباً في الجاهلية، وكان يمنعه ذلك الربا من الإسلام حتى يأخذه، فجاء ذات يوم ورسول الله ﷺ وأصحابه بأحد، فقال: أين سعد بن معاذ؟ فقيل: بأحد، فقال: أين بنو أخيه؟ قيل: بأحد. فسأل عن قومه، قالوا: بأحد، فأخذ سيفه، ورمحه، ولبس لأمته، ثم ذهب إلى أحد، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو! قال: إني قد آمنتُ، فحمل فقاتل، فَحُمل إلى أهله جريحاً، فدخل عليه سعد بن معاذ، فقال له: جئتَ غضباً لله ولرسوله أم حميّةً لقومك؟ قال: بل جئتُ غضباً لله ولرسوله. زاد في رواية: ثم لم يلبث أن مات في أيديهم، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: «إنه من أهل الجنة». فقال أبو هريرة: فدخل الجنة وما صلَّى لله صلاة[١]. وهو الأصيرم.

عين قتادة بن النعمان (معجزة):

أصيبت يوم أحد عينُ قتادة بن النعمان الأوسي رضي الله عنه، حتى وقعت على وجنته، وقيل: صارت في يده، فأتى بها رسول الله ﷺ، فقال له: «إن شئتَ صبرتَ ولك الجنة، وإن شئتَ رددتها، ودعوتُ الله لك فلم

(١) المستدرك (٣/ ٢٨).

تفقد منها شيئاً» فقال: يا رسول الله! إن الجنة لَجزاء جميل، وعطاء جليل، ولكنِّي رجلٌ مبتلى بحبِّ النساء، وأخاف أن يقلن أعور، فلا يُرِدْنَني، ولكن تردَّها وتسأل الله لي الجنة، فقال: «أفعل يا قتادة». وفي رواية: وإنَّ لي امرأةً أحبها، وأخشى إن رأتني أن تَقْذَرني، فأخذها رسول الله ﷺ بيده وردَّها إلى موضعها، وقال: «اللهم! اكسه جمالاً». وسبب وقوعها على وجنته: ما رواه الطبراني عن قتادة رضي الله عنه قال: كنت أتَّقي السِّهام بوجهي دون وجهه ﷺ، فكان آخرها سهماً ندرت منه حدقتي، فأخذتُها بيدي، وسعيتُ بها إلى رسول الله ﷺ، فلما رآها في كفِّي دمعت عيناه، فقال: «اللهم! قِ قتادة كما وقى وَجْهَ نبيك» وردّها إلى موضعها، وقال: «اللهم اجعلها أحسنَ عينيه وأحدَّهما» أقواهما نظراً، فكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى.

نحر كلثوم بن الحصين (معجزة):

رُمي أبو رُهْم الغفاري كلثوم بن الحصين بن خالد بسهم، فوقع في نحره، فبصق عليه رسول الله ﷺ، فبرىء.

العرجون (معجزة):

انقطع سيف عبد الله بن جحش، فأعطاه ﷺ عرجون نخلة، فعاد في يده سيفاً، فقاتل به حتى قتل رضي الله عنه، وكان ذلك السيف يُسمَّى العرجون، ولم يزل يُتوارث حتى بيع من أمير من أمراء المعتصم بن الرشيد. وهذا نحو حديث عكاشة بن محصن الأسدي السابق في غزوة بدر، إلا أن سيف عكاشة اسمه العون، وهذا اسمه: العرجون.

عبد الله بن عمرو بن حرام (معجزة):

روى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر! أما علمت أن الله عز وجل أحيا أباك، فقال له: تمنَّ عليَّ، فقال: أُرَدُّ إلى الدنيا فأُقتَل مرةً أخرى، فقال: إنِّي قضيتُ الحكم أنهم إليها

لا يرجعون»[١]. وفي رواية: «إن الله كلَّم أباك كِفاحاً، فقال: سَلْني أعطك، فقال: أن أُرَدَّ إلى الدنيا فأُقتلَ فيك ثانية، فقال الربُّ عز وجل: إنه سبق أنهم لا يرجعون إلى الدنيا، قال: أي ربِّ فأبلِغ مَن ورائي، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٩].

وروى أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: لما قُتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه، قال: فجعل القوم ينهونني ورسول الله ﷺ لا ينهاني، قال: فجعلت عمتي فاطمة بنت عمرو تبكي، فقال رسول الله ﷺ: «أتبكين أو لا تبكين، ما زالت الملائكة تظلّه بأجنحتهم حتى رفعتموه»[٢] وفي رواية: «تبكيه أو لا تبكيه، ما زالت الملائكة تظلّه بأجنحتها حتى رُفِع».

قتلى أُحُد (معجزة):

روى مسلم عن ابن مسعود، وأبو داود عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحَهم في جوف طير خُضْرٍ، ترِدُ أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلَّقة في ظِل العرش، فلما وجدوا طيبَ مأكلهم، ومشربهم، ومقيلهم، قالوا: من يبـلِّغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب؟ فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم قال: فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٩][٣]».

وروى البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى المشركين ليقاتلهم، فقال لي أبي عبد الله: يا جابر! ما عليك أن تكون في نظَّاري المدينة حتى تعلم إلى ما يصير أمرنا، فإني والله! لولا أني أترك بنات لي بعدي لأحببتُ أن تقتل بين يديَّ. قال: فبينما أنا في النَّظَّارين إذ

---

(١) مسند أحمد بشرح البنا (٢٢/ ٣٠٨،٣٠٧).
(٢) المصدر السابق.
(٣) سنن أبي داود (٣/ ١٥).

جاءت عمَّتي بأبي وخالي، عادلتهما على ناضح، فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا، وجاء رجلٌ ينادي: ألا إنَّ رسول الله ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوها في مصارعها حيث قتلت، قال: فرجعنا بهما فدفنَّاهما في القتلى حيث قُتِلا، وقال رسول الله ﷺ: «ادفنوا عبد الله بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد» ويقال: إنما أمر بذلك لما كان بينهما من الصفاء، فقال: «ادفنوا هذين المتحابَّيْن في الدنيا في قبر واحد».

وقال جابر رضي الله عنه: استُصرخنا إلى قتلانا بأحد، وذلك حين أجرى معاوية رضي الله عنه العين وسط مقبرة شهداء أحد، وأمر الناس بنقل موتاهم، فأتيناهم، فأخرجناهم طرايا تنثني أطرافهم، وذلك على رأس أربعين سنة، وفي رواية: فرأيت أبي في حفرته كأنه نائم، فوجدنا النمرة كما هي، ووجدنا الحرمل على رجليه على هيئته التي دفن عليها، وبين ذلك ست وأربعون سنة[1]، مع أن أرض المدينة سبخة يتغيَّر الميت في قبره من ليلة، وإنما لم يتغيروا لأن الأرض لا تأكل لحوم شهداء المعركة، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

حمزة بن عبد المطلب:

فقد رسول الله ﷺ حمزة، فجعل يقول: «ما فعل عمِّي؟» فقال رجل: رأيتُه بتلك الصخرات وهو يقول: أنا أسدُ الله وأسد رسوله، اللهم! إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء النفر، يعني: أبا سفيان وأصحابَه، وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء، أي: بمخالفتهم أمر رسول الله ﷺ، وتركهم أمكنتهم. فجاء رسول الله ﷺ نحوه، فلما رأى جثَّته بكى، ولما رأى ما مُثِّل به شهق، وكره أن ينظر إليه، وقال: «أحتسبك عند الله» وكان قد بُقر بطنُه، واسْتُخْرِج كبده، وجُدع أنفه، وقُطعت أذناه ومذاكيره، ثم قال: «ألا كَفَنٌ؟» فقام رجلٌ من الأنصار فرمى بثوبه عليه، ثم قام آخر فرمى بثوبه عليه، فقال ﷺ: «يا جابر!

---

(١) دلائل النبوة (٣/ ٢٩٥).

هذا الثوبُ لأبيك، وهذا لعمّي».

وفي رواية لأحمد، والبزار، والطبراني بسند رجاله ثقاتٌ عن ابن عباس: أن صفيَّة رضي الله عنها أتتْ بثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئتُ بهما لأخي حمزة، فقد بلغني مقتله، فكفِّنوه فيهما، قال: فجئنا بالثوبين لنلفَّه فيهما، فإذا إلى جنبه رجلٌ من الأنْصار فُعل به مثلَ ما فُعل بحمزة، فوجدنا غضاضةً وحياءً أن نكفِّن حمزة في ثوبين، والأنصاريُّ لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوبٌ وللأنصاريّ ثوبٌ، فكان أحدُهما أكبر من الآخر، فأقرعنا بينهما فكفَّنَّا كلاً منهما في الثوب الذي طاوله. وفي رواية: فكفّن في نمرة إذا خمر رأسه بدت رجلاه، وإذا خمّرت رجلاه بدا رأسه، فخمّر رأسه.

وقال ﷺ: «رحمةُ الله عليك، فإنك كنت كما علمتُك فَعولاً للخيرات، وَصولاً للرّحم، لولا أن تجزعَ صفيّةُ ونساؤنا، وتكون سُنَّةً بعدي لتركنا حمزة، ولم ندفنه حتى يحشر من بطون الطير والسِّباع» ثم قال: «أبشروا جاءني جبريل، فأخبرني أن حمزة مكتوبٌ في أهل السموات السبع: حمزة ابن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله»، وقال: «لئن ظفَّرني الله تعالى على قريش في موطنٍ من المواطن لأمثّلنَّ بسبعين منهم مكانك».

فلما رأى المسلمون حُزْنَ رسول الله ﷺ وغيظَه على من فعل بعمِّه ما فعل، قالوا: والله! لئن ظفَّرنا الله تعالى بهم يوماً من الدَّهر لنمثّلن بهم مُثلة لم يمثِّلها أحدٌ من العرب. فنزل جبريل عليه السلام والنبي ﷺ واقفٌ بخواتيم سورة النّحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٦/١٢٦] فكفّر النبي ﷺ عن يمينه، وأمسك عن الذي أراد، وصبر.

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب شقيقة حمزة لتنظر إليه، فكره رسول الله ﷺ أن تراه، فقال: «المرأةَ، المرأةَ» فقال الزبير بن العوام: فتوسَّمت أنها أمي صفيَّة، فقال له رسول الله ﷺ: «اِلْقَها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها»

فخرج يسعى، فأدركها قبل أن تنتهي إلى القتلى، فردَّها، فلكمت في صدره، وكانت امرأة جلدة، وقالت: إليك عني لا أرضى لك، فقال: يا أُمّه! إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي، قالت: ولم؟ وقد بلغني أنه قد مُثِّل بأخي، وذلك في الله فما أرضاني بما كان في الله من ذلك فلأصبرنَّ، وأحتسبنَّ إن شاء الله تعالى. فجاء الزبيرُ، فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال: «خلِّ سبيلها» فجاءت، واسترجعت، واستغفرت له.

صلاته ﷺ على القتلى:

روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال عن شهداء أحد: أمر النبيُّ ﷺ بدفنهم في دمائهم، ولم يغسَّلوا، ولم يُصَلَّ عليهم[1] وهي أثبت الروايات، وفي رواية عن عقبة بن عامر: أن النبي ﷺ خرج يوماً، فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر... الحديث[2].

وفي رواية عن جابر رضي الله عنه قال: ثم جيء بحمزة فصلّى عليه، ثم جيء بالشهداء فيوضعون إلى جانب حمزة رضي الله عنه، فيصلى عليهم، ثم يرفعون، ويترك حمزة حتى صلى على الشهداء كلهم. أخرجه الحاكم في مستدركه[3]. وفي رواية للحاكم أيضاً عن عقبة بن عامر الجهني: أن النبي ﷺ صلَّى على قتلى أحد صلاته على الميت[4].

دفن الشهداء:

روى البخاري عن جابر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يجمعُ بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: «أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟» فإذا أشير له إلى أحدهما قدَّمه في اللحد، أي: قبل

---

(١) بخاري (٢/١٠٩).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المستدرك (١/٣٦٦).
(٤) المصدر السابق.

صاحبه[١]. وفي رواية للحاكم: وكان ﷺ يجمع الثلاثة والاثنين في قبر واحد، وكفَّن الرجلين والثلاثة في الثوب الواحد[٢]. وردَّ رسول الله ﷺ القتلى الذين حملوا إلى المدينة إلى مضاجعهم، فدفنوا فيها، خلا واحداً دفن قبل أن يدركه المنادي، وهو شماس بن عثمان المخزومي رضي الله عنه.

زيارة شهداء أحد:

روى الحاكم عن ابن أبي فروة مرسلاً: أنَّ النبي ﷺ زار قبور الشهداء بأحد، فقال: «اللهم! إن عبدك ونبيك يشهد أن هؤلاء شهداء، وأنه من زارهم، وسلَّم عليهم إلى يوم القيامة ردُّوا عليه».

قال العطاف المخزومي ـ أحد رواة الحديث ـ وحدثتني خالتي: أنها زارتْ قبور الشهداء، قالت: وليس معي إلا غلامان يحفظان عليَّ الدابة، قالت: فسلَّمت عليهم، فسمعتُ رد السلام، قالوا: والله إنا نعرفكم كما يعرف بعضُنا بعضاً، قالت: فاقشعررت، فقلت: يا غلام! أدن بغلتي، فركبت[٣].

مقتل أبي بن خلف (معجزة):

لما كان يوم أحد قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إني أخشى أن يأتي أبيُّ ابن خلف من خلفي، فإذا رأيتموه فآذنوني به». وكان رسول الله ﷺ لا يلتفتُ في القتال وراءه. فلما أُسند رسول الله ﷺ في الشِّعب رآه، وهو مقنَّع بالحديد يركض على فرسه، وقد رآه رسول الله ﷺ وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا. فاستقبله مصعب بن عمير يقي رسول الله ﷺ بنفسه، فقتل مصعباً، وقد سبق أن الذي قتله عبد الله بن قمئة، فقال القومُ:

---

(١) بخاري (٢/ ١١٠).
(٢) المستدرك (١/ ٣٦٥).
(٣) المستدرك (٣/ ٢٩).

يا رسول الله! ما كنت صانعاً حين يغشاك أبيّ فقد جاءك، فإن شئت يعطف عليه رجلٌ منّا، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه، وخلُّوا طريقه». فلما دنا من رسول الله ﷺ قال: يا كذَّاب أين تفرُّ؟ فتناول رسول الله ﷺ الحربةَ من الحارث بن الصِّمَّة، ويقال: من الزبير بن العوّام، فلما أخذها رسول الله ﷺ انتفض بها انتفاضةً تطاير عنه أصحابُه تطايُرَ الشّعراء من ظهر البعير إذا انتفض بها [والشّعراء: ذباب أزرق، أو أحمر يقع على الإبل، والحمر، والكلاب] ولم يكن أحدٌ يشبه رسول الله ﷺ إذا جدَّ الجدُّ، ثم استقبله بها فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ منها مراراً عن فرسه، وجعل يخور كما يخور الثور، وفي لفظ: فخدشه في عنقه خدشاً غير كبير، فاحتقن الدم. فرجع إلى قومه فقال: قتلني والله محمد! فقالوا: ذهب واللهِ فؤادك، والله! إنْ بك بأس، ما أجزعك! إنما هو خَدْش، ولو كان هذا الذي بك بعين أحدنا ما ضرّه. فيقول: لا، واللات والعزّى! لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون، إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، والله! لو بصق عليَّ لقتلني، فمات عدُوُّ الله بسرف وهم قافلون، وقال رسول الله ﷺ يومئذ: «اشتد غضبُ الله عز وجل على رجلٍ قتله رسول الله ﷺ، فسحقاً لأصحاب السعير».

مقتل قُزمان (معجزة):

قال عاصم بن عمر بن قتادة: كان قزمان رجلاً غريباً لا ندري ممن هو، وكان يظهر الإسلام، وكان يُعرف بالشجاعة، وكان رسول الله ﷺ يقول فيه إذا ذُكر له: «إنّه من أهل النار». فتأخَّر يوم أحد، فعيَّرته نساءُ بني ظَفَر فإنه كان حليفاً لهم، فأتى رسول الله ﷺ وهو يسوّي الصفوف حتى انتهى إلى الصفِّ الأوَّل، فكان أول من رمى من المسلمين بسهم، فجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح وَيَكُتُّ كتيت الجمل، ثم فعل بالسيف الأفاعيل حتى قتل سبعة أو تسعة، وأصابته جراحة فوقع، فناداه قتادة بن النعمان: يا أبا الغيداق! هنيئاً لك الشهادة، وجعل رجالٌ من المسلمين يقولون له: والله! لقد أبليت اليوم يا قُزمانُ! فأبشر! قال: بماذا أبشر؟ فوالله! ما قاتلتُ إلا عن أحساب

قومي، ولولا ذلك ما قاتلت. فجعل ذُباب سيفه في صدره، أي: بين ثدييه، ثم تحامل عليه حتى قتل نفسه، وعند ذلك جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ وقال: أشهد أنك رسول الله ﷺ قال: «وما ذاك»؟ قال: الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أصحاب النار فعل كذا وكذا. وقال ﷺ: «إن الله تعالى يؤيِّد هذا الدِّين بالرجل الفاجر».

رجوع قريش إلى مكة:

قال ابنُ إسحاق، وغيره: لما تحاجز الفريقان، وأراد أبو سفيان الانصراف، أقبل على فرس حتى أشرف على المسلمين في عُرض الجبل، فنادى بأعلى صوته: أفي القوم محمد؟ ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن الخطَّاب؟ فقال: «لا تجيبوه». ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه، وعلم قومه أنَّ قيام الإسلام بهم، فقال أبو سفيان بعد أن رجع إلى أصحابه: أما هؤلاء فقد قتلوا، وقد كُفيتموهم إذ لو كانوا أحياءَ لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه، فقال: يا رسول الله! ألا أجيبه؟ قال: «بلى». فنهى عن إجابته في الأول والثاني، وأذن في الثالث، فقال عمر: كذبت، يا عدوَّ الله! قد أبقى اللهُ لك ما يخزيك، إن الذين عددتَ لأحياءُ كلُّهم. فقال أبو سفيان: اعلُ هُبَل، وأظهر دينك، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: «قم يا عمر! فأجبه» فقال: الله أعلى وأجلّ، فقال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر، ألا إن الأيام دُوَلٌ، وإن الحرب سجال، وحنظلة بحنظلة، وفلانٌ بفلان، فقال رسول الله ﷺ لعمر: «قل: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار» فقال أبو سفيان: إنكم لتقولون ذلك، لقد خبنا إذاً وخسرنا، لنا العزّى ولا عزى لكم. فقال رسول الله ﷺ: لعمر «قل: الله مولانا ولا مولى لكم» فقال أبو سفيان: إنها قد أنْعَمَتْ فَعال (عن الآلهة) هلمّ يا عمر! فقال رسول الله ﷺ لعمر: «ائته، فانظر ما شأنه» فجاءه، فقال أبو سفيان: أَنشُدك بالله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال: اللهم! لا، وإنه ليسمعُ

كلامك الآن. قال: أنت عندي أصدق، وأبرّ من ابن قمئة، لقولِ ابن قمئة لهم: إني قتلت محمداً. ثم قال أبو سفيان، ورفع صوته: إنكم واجدون في قتلاكم مُثلاً، والله ما رضيت، ولا نهيت ولا أمرت إلا أن موعدكم بدرُ الصفراء على رأس الحول. فقال رسول الله ﷺ: «قل: نعم بيننا وبينكم موعد».

ثم ارتحل القومُ، وساروا، وبعث رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أو سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه، فقال له: «اخرج في آثار القوم، فانظرْ ماذا يصنعون، وماذا يريدون، فإن كانوا قد جنّبوا الخيل (أي: جعلوها منقادة بجانبهم) وامتطوا الإبل (أي: ركبوا مطاها: ظهورَها) فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده! إن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، لأناجزنَّهم».

قال عليٌّ، أو سعد: فخرجتُ في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، وتوجَّهوا إلى مكة بعدما تشاوروا في نهب المدينة، فأشار عليهم صفوان ألا تفعلوا، فإنكم لا تدرون ما يغشاهم.

ثم بعد ذهاب القوم فزع المسلمون إلى قتلاهم يتفقدونهم، فقال رسول الله ﷺ: «مَن رجلٌ ينظر ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟» وذلك لأن النبي ﷺ رأى الأسنّة قد أشرعت إليه. فقال رجلٌ من الأنصار، وهو أبي بن كعب رضي الله عنه: أنا أنظره لك يا رسول الله! فقال له: «إن رأيت سعدَ بن الربيع فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟» فنظر أبيٌّ فوجده جريحاً وبه رمق، أي: بقية روح، فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ فقال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول: جزاك الله تعالى عَنّا خير ما جزى نبيّاً عن أمّته، وقل له: إني أجدُ ريح الجنة، وأبلغْ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن يُخْلَصْ إلى رسول الله ﷺ

وفيكم عين تطرف. ثم لم يبرح أن مات، فجاء رسول الله ﷺ فأخبرَه خبره.

دعاؤه ﷺ بعد الغزوة يوم أحد:

روى الحاكم عن رفاعة بن رافع الزرقي قال: لما كان يومُ أحد انكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثني على ربي» فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: «اللهم! لك الحمدُ كلُّه، اللهم! لا قابضَ لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضِلَّ لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرِّب لما باعدت، ولا مباعِد لما قرّبت، اللهم! ابسطْ علينا من بركاتك، وفضلك، ورحمتك، ورزقك، اللهم! إني أسألك النعيم يوم العَيْلة، اللهم! إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم! إني أسألك الأمن يوم الخوف، اللهم! إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، وشرَّ ما منعتنا، اللهم! حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر، والفسوق، والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم! توفَّنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم! قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدُّون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك، وعذابك، إله الحق، آمين».

رحيل النبي ﷺ إلى المدينة:

لما فرغ رسول الله ﷺ من دَفْن أصحابه رضي الله عنهم ركب فرسه، وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة، فلقيته حمنةُ بنت جحش، فقال لها رسول الله ﷺ: «يا حَمْن! احتسبي». قالت: من يا رسول الله؟ قال: «خالك حمزة بن عبد المطّلب» قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له بالشهادة، ثم قال لها: «احتسبي». قالت: من يا رسول الله؟ قال: «أخوك عبد الله بن جحش» قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له الشهادة، ثم قال لها: «احتسبي»، قالت: مَن يا رسول الله؟ قال: «زوجك مصعبُ بن عُمَير» فقالت: واحزناه! واعقراه! وصاحت، وولولت، فقال رسول الله ﷺ: «إن زوج المرأة منها لبمكان» لما رأى من تثبتها على أخيها،

وخالها، وصياحها على زوجها، ثم قال لها: «لم قلتِ هذا»؟ قالت: يا رسول الله ذكرت يتم بنيه فراعني، فدعا لها رسول الله ﷺ ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخلف.

أرأيت إلى هذا النبي العظيم كيف مهَّد لها، فلم يخبرها عن زوجها ابتداء، بل ذكر لها خالها أولاً، ثم أخاها، ثم زوجها؟!

ومرَّ رسول الله ﷺ بامرأةٍ من بني دينار قد أصيب أبوها، وزوجها، وأخوها مع رسول الله ﷺ بأُحُد، فلما نُعُوا إليها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أمَّ فلان! هو بحمد الله كما تحبّين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير بها إليه، فلما رأته قالت: كلُّ مصيبةٍ بعدك جلل.

وعن بشير بن عفرة رضي الله عنه قال: أصيب أبي يوم أُحُد، فمرَّ بي النبي ﷺ وأنا أبكي، فقال: «أما ترضى أن تكون عائشة أمَّك، وأنا أكون أباك؟!».

ومرَّ ﷺ بأمِّ سعد بن معاذ، فلما رأته جاءت تعدو نحوه، ووقف على فرسه، وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه، فقال سعد: يا رسول الله! أمِّي، فقال: مرحباً بها، فدنتْ حتى تأمَّلت رسول الله ﷺ، وقالت: أما إذ رأيتك سالماً فقد أشوت المصيبة، أي: لم تبلغ المقتل، فعزَّاها رسول الله ﷺبولدها عمرو بن معاذ، ثم قال: «يا أمّ سعد! أبشري وبشِّري أهليهم: أنَّ قتلاهم ترافقوا في الجنّة جميعاً، وقد شُفِّعوا في أهليهم». قالت: رضينا يا رسول الله، ومَن يبكي عليهم بعد هذا؟! ثم قالت: يا رسول الله! ادع لمن خُلّفوا، فقال: «اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجْبُرْ مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خلّفوا» ثم قال: «خلِّ يا أبا عمرو» يعني: سعد بن معاذ «الدابّة» فخلّى الفرس، فتبعه الناس، فقال: يا أبا عمرو! إن الجراح في أهل دارك فاشية، فمن كان مجروحاً فليقرّ في داره، وليداوِ جُرحه، ولا يبلغ معي بيتي عزيمةً مني. فنادى منهم سعد عزيمة من رسول الله ﷺ: ألا يتبع رسول

الله ﷺ جريح من بني عبد الأشهل. ومضى سعدٌ مع رسول الله ﷺ حتى جاء بيته، فما نزل نبيُّ الله ﷺ عن فرسه إلا حملاً، واتّكأ على سعد بن عبادة وسعد بن معاذ حتى دخل بيته.

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: «اغسلي عن هذا دمَه، فوالله! لقد صدقني اليوم» وناولها علي بن أبي طالب سيفه فقال: وهذا فاغسلي عنه دمَه، فوالله! لقد صدقني اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «لئن كنت صدقتَ القتال، لقد صدقه معك سهل بن حنيف، وأبو دجانة».

وصلى رسول الله ﷺ المغرب وصلى العشاء، ثم رجع إلى بيته، وقد صُفَّ له الرجال، ما بين بيته إلى مصلاه يمشي وحده، وباتت وجوهُ الأوس والخزرج على بابه في المسجد يحرسونه فرقاً من قريش أن تكُرَّ.

وشمت المنافقون، وسُرُّوا بما أصاب المسلمين، وجعل عبد الله بن أبي يقول لابنه الجريح: ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأي عصاني محمد، وأطاع الولدان، والله! لكأني كنت أنظرُ إلى هذا، فردَّ عليه ولده بقوله: الذي صنع الله تعالى لرسوله وللمسلمين خير. وجعل المنافقون يخذِّلون عن الرسول أصحابه، ويأمرونهم بالتفرُّق عنه.

وأظهر اليهود القول السيىء، فقالوا: ما محمدٌ إلا طالبُ ملك، ما أصيب هكذا نبيٌّ قطُّ.

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك، فمشى إلى رسول الله ﷺ ليستأذنه في قتل من قال من اليهود والمنافقين، فقال ﷺ: «يا عمر! إن الله تعالى مظهرُ دينِه، ومُعِزُّ نبيّه، ولليهود ذمةٌ فلا أقتلهم» قال: فهؤلاء المنافقون؟ قال: «أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قال: بلى يا رسول الله! إنما يفعلون ذلك تعوُّذاً من السيف، فقد بان لنا أمرهم، فقال: «إني نهيتُ عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمداً رسول

الله. يابن الخطاب! إنَّ قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن».

عدد القتلى يوم أحد:

جملةُ القتلى من المسلمين يوم أحد سبعون، أربعة من المهاجرين، وهم: حمزة، ومصعب بن عمير، وعبد الله بن جحش، وشمّاس بن عثمان. وقد دفن الثلاثة جميعاً في قبر واحد، وأما شمّاس فإنه دفن في المدينة قبل أن يصل المنادي إليها بإعادة من حمل من أرض المعركة. وستة وستون من الأنصار.

وقيل: ثمانون: أربعة وسبعون من الأنصار، وستة من المهاجرين، قال الحافظ ابن حجر: لعل الخامس سعد مولى حاطب بن أبي بلتعة، والسادس: ثقيف بن عمرو، حليف بني عبد شمس.

ومن الأنصار:

١ـ عمرو بن معاذ بن النّعمان. ٢ـ الحارث بن أنس بن رافع. ٣ـ عمارة ابن يزيد بن السكن. ٤ـ سلمة بن ثابت بن وقش. ٥ـ عمرو بن ثابت بن وقش. ٦ـ ثابت بن وقش. ٧ـ رفاعة بن وقش. ٨ـ حُسَيْل بن جابر (اليمان أبو حذيفة). ٩ـ صيفيّ بن قيظي. ١٠ـ حباب بن قيظي. ١١ـ عبّاد بن سهل. ١٢ـ الحارث بن أوس بن معاذ. ١٣ـ إياس بن أوس بن عتيك. ١٤ـ عُبيد بن التيّهان. ١٥ـ حبيب بن يزيد بن تيم. ١٦ـ يزيد بن حاطب بن أمية. ١٧ـ أبو سفيان بن الحارث بن قيس. ١٨ـ حنظلة بن أبي عامر الغسيل. ١٩ـ أنيس بن قتادة. ٢٠ـ أبو حيّة بن عمرو بن ثابت. ٢١ـ عبد الله ابن جبير (أمير الرماة). ٢٢ـ خيثمة أبو سعد بن خيثمة. ٢٣ـ عبد الله بن سلمة. ٢٤ـ سُبَيع بن حاطب بن الحارث. ٢٥ـ عمرو بن قيس بن زيد. ٢٦ـ قيس بن عمرو بن قيس. ٢٧ـ ثابت بن عمرو بن زيد. ٢٨ـ عامر بن مخلد. ٢٩ـ أبو هبيرة بن الحارث بن علقمة. ٣٠ـ عمرو بن مطرّف بن علقمة. ٣١ـ أوس بن ثابت بن المنذر. ٣٢ـ أنس بن النضر. ٣٣ـ قيس بن

مُخَلَّد بن زيد بن أبي زهير. ٣٤ـ كيسان عبد لبني مازن بن النجار. ٣٥ـ سُليم بن الحارث. ٣٦ـ نعمان بن عبد عمرو. ٣٧ـ خارجة بن زيد بن أبي زهير. ٣٨ـ سعد بن الربيع بن عمرو دفنا معاً. ٣٩ـ أوس بن الأرقم بن زيد. ٤٠ـ مالك بن سنان بن عبيد (والد أبي سعيد الخدري). ٤١ـ سعيد بن سُويد بن قيس. ٤٢ـ عتبة بن ربيع بن رافع. ٤٣ـ ثعلبة بن سعد بن مالك. ٤٤ـ ثَقْفُ بن فروة بن البَدي. ٤٥ـ عبد الله بن عمرو بن وهب. ٤٦ـ ضمرة الجهني حليف رهط سعد بن عبادة. ٤٧ـ نوفل بن عبد الله. ٤٨ـ عباس بن عبادة بن نضلة. ٤٩ـ نعمان بن مالك بن ثعلبة. ٥٠ـ المجذّر بن زياد. ٥١ـ عبادة بن الحسحاس. دفن الثلاثة نعمان والمجذر وعبادة في قبر واحد. ٥٢ـ رفاعة بن عمرو. ٥٣ـ عبد الله بن عمرو بن حرام. ٥٤ـ عمرو ابن الجموح بن زيد دفنا معاً. ٥٥ـ خلَّاد بن عمرو بن الجموح. ٥٦ـ مولى عمرو بن الجموح أبو أيمن. ٥٦ـ سُليم بن عمرو بن حديدة. ٥٧ـ عَنترة مولى سليم بن عمرو. ٥٨ـ سهل بن قيس بن أبي كعب. ٥٩ـ ذكوان بن عبد قيس. ٦٠ـ عبيد بن المعلّى بن لَوْذان. ٦١ـ مالك بن نُميلة. ٦٢ـ عبد الله بن جُشَم بن مالك. ٦٣ـ مالك بن إياس. ٦٤ـ إياس بن عديّ. ٦٥ـ عمرو بن إياس.

والذين قتلوا من المشركين قيل ثلاثة وعشرون، وذكر ابن هشام: اثنين وعشرين.

الحِكَم الناتجة عن الغزوة:

وأنزل الله تعالى قصة أحد في آل عمران في قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢١] وقد ذكر الله تعالى الحكمة فيما أصاب المؤمنين بمخالفتهم أمر النبي ﷺ، وعرَّفهم سوء عاقبة المعصية، وشؤمَ ارتكاب المخالفة بما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ ألا يبرحوا عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن

بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٢].

ومن الحِكَم في ذلك: أن عادة الله جرت أنَّ الرسل تُبتلى، ثم تكون العاقبة لهم، ولو انتصروا دائماً لدخل في المسلمين من ليس منهم، ولم يتميَّز الصادق من غيره، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٤] ولو انغلبوا دائماً لم يحصل المقصودُ من البعثة، فاقتضت الحكمةُ الجمعَ بين الأمرين ليتميَّز الصادق من الكاذب، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٩]. وذلك: أن نفاق المنافقين كان خفيّاً ومستوراً عن المسلمين، فلمَّا جرتْ هذه القصة، وأظهر أهلُ النفاق ما أظهروه من الفعل والقول كانخذالهم، وقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٧] عاد ما كانوا يضمرونه، ويتكلَّمون به فيما بينهم، ويخفونه عن المسلمين مصرَّحاً به، وعرف المسلمون أن لهم عدوّاً في دورهم، فاستعدُّوا لهم، وتحرَّزوا منهم.

ومن الحِكَم في ذلك أيضاً: أن في تأخير النصر في بعض المواطن هَضْماً للنفس، وكَسْراً لشماختها، وتكبُّرها، وتعاظمها، فلما ابتلي المؤمنون صبروا، وجزع المنافقون.

ومن الحِكَم أيضاً: أنَّ الله تعالى هيَّأ لعباده المؤمنين منازلَ في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيَّض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٢].

ومنها أيضاً: أنَّ الشهادة من أعلى مراتب الأولياء، فساقهم الله إليها إكراماً لهم حيث اتخذ منهم شهداء، وكانوا يتمنونها قبل لقاء العدو، كما

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٣].

ومنها أيضاً: أن الله تعالى أراد إهلاك أعدائه، فقيّض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤١].

ومنها: أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا أصيبوا ببعض العوارض الدنيوية من الجراحات، والآلام، والأسقام تعظيماً لأجورهم تأسَّى بهم أتباعهم في الصبر على المكاره، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٥].

غزوة حمراء الأسد:

لما رجع رسول الله ﷺ من أُحد يوم السبت باتت وجوه الأوس والخزرج على بابه خوفاً من كَرّة العدوِّ، فلما طلع الفجرُ من يوم أُحُد أذَّن بلال، وجلس ينتظر خروجَ النبي ﷺ، فأتى عبد الله بن عمرو المزني يطلب النبي ﷺ، فلما خرج قام إليه، وأخبره أنه أقبل من أهله حتى إذا كان بمَلَل(١) موضع في طريق مكة بين الحرمين يبعد عن مكة ثمانيةً وعشرين ميلاً إذا قريش قد نزلوا، فسمع أبا سفيان وأصحابه يقولون: ما صنعتم شيئاً، أصبتم شوكة القوم وحَدَّهم، ثم تركتموهم ولم تبيدوهم، فقد بقي فيهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا نستأصل من بقي، وصفوانُ بن أميّة يأبى ذلك عليهم، ويقول: يا قوم! لا تفعلوا، فإنَّ القوم قد غضبوا، وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلَّف من الخزرج، فارجعوا والدولة لكم فإنِّي لا آمنُ إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم. فقال ﷺ: «أرشدهم صفوانُ، وما كان برشيد، والذي نفسي بيده لقد سُوِّمت لهم الحجارة، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب».

---

(١) هي قرية الفريش اليوم.

ودعا ﷺ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فذكر لهما ما أخبره به المزنيّ فقالا: يا رسول الله! اطلب العدوَّ لا يقتحمون (يدخلون) على الذّرّيّة.

فلما صلى الصبح ندب النَّاس، وأذَّن مؤذِّنُ رسول الله ﷺ بالخروج، وأمر بلالاً أن ينادي أنَّ رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوِّكم، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس.

وأراد ﷺ بذلك إظهار الشدة للعدوِّ، فيعلمون من خروجهم مع كثرة جراحاتهم أنهم على غاية من القوّة، والرسوخ في الإيمان، وحبِّ النبي ﷺ، وأراد أيضاً الزيادةَ في تعظيم من شهد أحداً، وخاف اختلاطَ المنافقين بهم فيمنُّون عليهم بخروجهم معهم، وهم مسلمون ظاهراً، فلا يمكنه منعهم.

فكان خروجه ﷺ بمن شهد أحداً إرهاباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنُّوا به قوةً، وأن الذي أصابهم لم يوهنْهم عن عدوِّهم، ولم يشتغلوا بمداواة جراحاتهم مع أن منهم من كان به بضع وسبعون جراحة.

قال أُسيد بن حُضير وبه تسع جراحات، وهو يريد أن يداويها لما سمع النداء: سمعاً وطاعةً لله ورسوله، ولم يعرِّج على دواء جرحه.

وخرج من بني سَلِمة أربعون جريحاً بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً، وبخراش بن الصِّمّة عشر جراحات، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحاً، وبقطبة بن عامر تسع جراحات، ووثب المسلمون إلى سلاحهم، وما عرَّجوا على دواء جراحاتهم.

وخرج ﷺ وهو مجروحٌ، وفي وجهه الشريف أثر الحلقتين، ورَباعيته مكسورة، وشفته السفلى مشقوقة، وركبتاه مجروحتان من وقعة الحفيرة، ولقيه طلحة بن عبيد الله فقال له: «يا طلحة! أين سلاحك؟» فقال: قريب، فذهب وأتى به، وبه بضع وسبعون جراحة، منها سبعة في صدره، وقال: ولأنا أَهَمُّ بجراحات رسول الله ﷺ مني بجراحي. ثم أقبل رسول الله ﷺ على

طلحة فقال: «أين تُرى القوم الآن»؟ قال: هم بالسَّيَّالة[1] (قرية بينها وبين المدينة سبعة وأربعين كيلاً في جنوبها الغربي، وكانت السيالة إحدى محطّات رسول الله ﷺ تعرف اليوم بأبيار مرزوق، أو أبيار الصفا) فقال ﷺ: «وذلك الذي ظننت، أما إنهم يا طلحة! لن ينالوا منّا مثلها حتى يفتح الله علينا مكة».

وكان جابر بن عبد الله أتى النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله! إن مناديَك نادى ألا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس، وقد كنتُ حريصاً على الحضور، ولكنّ أبي خلَّفني على أخواتٍ لي تسع، وقال: يا بني! لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النِّسوة ولا رجل معهنَّ، وأخاف عليهن وهن نُسَيّاتٌ ضعاف، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلَّف على إخوتك، وأنا خارجٌ مع رسول الله ﷺ لعلَّ الله تعالى يرزقني الشهادة، وكنت رجوتُها، فتخلَّفتُ عليهن، فاستأثَر عليّ بالشهادة، فأذن لي يا رسول الله أسر معك، فأذن له رسول الله ﷺ. قال جابر: فلم يخرجْ معه أحد لم يشهد القتال بالأمس غيري، واستأذنه رجالٌ لم يحضروا القتال، فأبى ذلك عليهم.

ودعا رسول الله ﷺ بلوائه وهو معقود لم يُحَلّ من الأمس، فدفعه إلى عليٍّ بن أبي طالب، ويقال: دفعه إلى أبي بكر الصديق، واستخلف على المدينة ابنَ أم مكتوم.

ومضى رسول الله ﷺ بأصحابه، وبعث طليعةً في آثار القوم سليطاً ونعمان ابني سفيان من بني سهم وشخصاً آخر، فلحق اثنان منهم القوم بحمراء الأسد، والمشركون يهمون بالرجوع، وصفوان ينهاهم عن ذلك، فبصروا بالرجلين، فعطفوا عليهما، فقتلوهما، ومضوا.

وكان عبد الله بن سهل ورافع بن سهل من بني عبد الأشهل رجعا من أحد، وبهما جراحٌ كثيرة، وعبد الله أثقل الاثنين من الجراح، فلمّا سمعا

---

(١) موضع قريب من الفريش.

بخروج النبيِّ، وأمره به، قال أحدهما لصاحبه: واللهِ! إن تركنا غزوةً مع رسول الله ﷺ لَغَبْنٌ، واللهِ! ما عندنا دابّةٌ نركبها، وما ندري كيف نصنع؟ قال عبد الله: انطلق بنا. قال رافع: والله! ما بي مشيٌ، قال أخوه: انطلق بنا نتجارّ، ونقصد رسول الله ﷺ. فخرجا يتزاحفان، فضعف رافع، فكان عبد الله يحمله على ظهره عقبة، ويمشي الآخر عُقْبة، ولا حركة به، حتى أتيا رسول الله ﷺ عند العشاء وهم يوقدون النيران، فأتي بهما إلى رسول الله ﷺ، وعلى حرسه تلك الليلة عبّاد بن بشر، فقال: «ما حبسكما؟» فأخبراه بعلَّتهما، فدعا لهما بخير، وقال: «إن طالت بكم مدة، كانت لكم مراكب من خيل، وبغال، وإبل، وليس ذلك بخير لكم».

وكان رسول الله ﷺ يأمرهم في النهار بجمع الحطب، فإذا أمسوا أمر أن توقد النيران، فيوقد كل رجل ناراً، فلقد أوقدوا خمسمئة نار حتى رُؤيت من مكان بعيد، وذهب ذكر معسكر المسلمين ونيرانهم في كل وجه، وكان ذلك مما كبت الله به عدوَّهم.

ووصل النبيُّ ﷺ إلى حمراء الأسد، فوجد الرجلين الذين كان قتلهما كفار مكة، فدفنهما، وأقام عليه الصلاة والسلام بحمراء الأسد: الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء. وفي ليالي تلك الأيام كانوا يوقدون تلك النيران.

ولقي رسول الله ﷺ في حمراء الأسد معبداً الخزاعي، وهو يومئذ مشرك، وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة نُصْح للنبي ﷺ، أي: موضع سرِّه، فقال: يا محمد! والله لقد عزَّ علينا ما أصابك في نفسك، وما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله تعالى أعلى كعبك، وأن المصيبةَ كانت بغيرك.

ثم مضى معبدٌ تاركاً رسول الله ﷺ بحمراء الأسد، حتى أتى أبا سفيان ابن حرب ومَن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعةَ إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: أَصَبْنَا خير أصحابه، وقادتَهم، وأشرافَهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لَنَكُرَّنَّ على بقيّتهم، فلنفرُغَنَّ منهم.

فلما رأى أبو سفيانَ معبداً، قال: هذا معبد، وعنده الخبر، ما وراءك يا معبد؟ قال: تركت محمداً وأصحابَه قد خرج يطلبكم في جمع لم أَرَ مثله قطُّ، يتحرّقون عليكم تحرُّقاً، وقد اجتمع معه مَن كان تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم، وغضبوا لقومهم غضباً شديداً، وندموا على ما فعلوا. فيهم من الحنق عليكم شيء لم أَرَ مثله قطُّ. قال: ويلك! ما تقول؟ قال: والله! ما أرى أن ترحل حتى ترى نواصيَ الخيل، قال: فوالله! لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصل بقيَّتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، ووالله! لقد حملني على ما رأيتُ أن قلتُ فيهم أبياتاً من شعر، قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كادت تُهَدّ من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل[1]

تُردي[2] بأسد كرام لا تنابلة[3] ... عند اللقاء ولا ميل[4] معازيل[5]

فظلت عدواً أظن الأرض مائلة ... لما سموا برئيس غير مخذول

فقلت: ويل ابن حرب من لقائكم ... إذا تغطمطت[6] البطحاء بالجيل[7]

إني نذير لأهل البسل[8] ضاحية[9] ... لكل ذي إربة[10] منهم ومعقول

من جيش أحمد لا وحشٍ[11] تنابلة ... وليس يوصف ما أنذرتُ بالقيل

---

(١) الجرد من الخيل: ما رقّ شعره وقصر.
(٢) تردي: تسرع.
(٣) تنابلة: قصار.
(٤) الأميل: الذي لا رمح أو لا ترس معه. والأبابيل: الجماعات.
(٥) المعازيل: الذين لا سلاح معهم.
(٦) تغطمطت: اهتزت وارتجت.
(٧) الجيل: الصنف من الناس.
(٨) البسل: الحرام.
(٩) ضاحية: البارزة للشمس.
(١٠) إربة: العقل.
(١١) وحش: رذالة الناس وأخساؤهم.

فثنى ذلك مع كلام صفوان أبا سفيان ومن معه، وفَتَّ أكبادهم، فانصرفوا سراعاً خائفين من الطلب، ومرَّ ركبٌ من عبد القيس بأبي سفيان يريدون المدينة للميرة، فعرض عليهم أن يوقر لهم أباعرهم زبيباً إذا وفدوا عكاظ مقابل تبليغ رسول الله ﷺ رسالة منه، فقال: إذا وافيتم محمداً فأخبروه أنَّا قد جمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، وأنَّا في آثاركم.

وقدم الركبُ برسول الله ﷺ بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

وأخذ رسول الله ﷺ في وجهه ذلك قبل رجوعه إلى المدينة معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، وكان لجأ إلى عثمان بن عفان، فاستأذن له رسول الله ﷺ، فأمَّنه على إن وُجِد بعد ثلاثٍ قُتِل، فأقام بعد ثلاثٍ، وتوارى، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، وعمّار بن ياسر رضي الله عنهما وقال: «إنكما ستجدانه بموضع كذا وكذا» فوجداه، فقتلاه.

وأخذ أيضاً أبا عزّة الجمحي، وكان رسول الله ﷺ أسره ببدر، ثم منَّ عليه، فقال: يا رسول الله! أقلني، فقال رسول الله ﷺ: «والله! لا تمسح عارضَيْك بمكة، وتقول: خدعتُ محمداً مرتين، اضرب عنقه يا زبير» فضرب عنقه.

وروى ابن هشام عن سعيد بن المسيب أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن لا يُلدَغُ من جُحْرٍ مرَّتين». وانصرف رسول الله ﷺ بعد أن أقام بحمراء الأسد: الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء. وغاب عن المدينة خمساً، وأنزل الله سبحانه وتعالى الآيات من آل عمران: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٢].

* * *

الفصل الثالث

غزواته ﷺ بعد أحد إلى ما قبل صلح الحديبية

غزوة بني النضير:

كانت في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، وقيل: كانت قبل وقعة أحد، وبه قال البخاري، لكن ابن كثير قال: والصَّواب إيرادها بعد أُحُد، كما ذكر ذلك ابنُ إسحاق وغيرُه من أئمة المغازي.

واختُلِف في سببها، فذكر جُلُّ أهل المغازي أنَّ عمرو بن أميّة الضمري رضي الله عنه أقبل من بئر معونة، حتى إذا كان بقناة (وادٍ) لقي رجلين من بني عامر بن صعصعة، قد كان النبي ﷺ وادعهما، فنسبهما، فانتسبا، فقال معهما (نام) حتى إذا ناما، وثب عليهما، فقتلهما.

ثم خرج حتى ورد على رسول الله ﷺ في قدر حلب شاةٍ، فأخبره خبرهما، فقال رسول الله ﷺ: «بئس ما صنعتَ. قد كان لهم منَّا أمانٌ وعهد». فقال: ما شعرتُ، كنتُ أراهما على شِرْكهما، وكان قومهُما قد نالوا منَّا ما نالوا من الغدر بنا، وجاء بِسَلَبِهما، فأمر رسول الله ﷺ بسلبهما فَعُزِل حتى يبعث به مع ديتهما.

وكان بين بني النضير وبني عامر عَقدٌ وحِلْف، فسار رسول الله ﷺ يوم السبت، فصلّى في مسجد قُباء، ومعه رهطٌ من المهاجرين والأنصار، ثم جاء بني النضير ومعه دون العشرة من أصحابه، فوجدهم في ناديهم، فجلس رسول الله ﷺ يكلِّمهم أن يعينوه في دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أميّة، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم! ما أحببت، قد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا، اجلس حتى تطعم، وترجع بحاجتك، ونقوم، فنتشاور، ونصلح أمرنا فيما جئتنا به، ورسول الله ﷺ مستندٌ إلى بيتٍ من بيوتهم، ثم خلا بعضهم ببعض فتناجَوْا، فقال حُييُّ بن أخطب: يا معشر يهود! قد جاءكم محمد في نفرٍ من أصحابه، لا يبلغون عشرة، ومعه أبو بكر،

وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وطلحة، وسعد بن معاذ، وأسيد بن الحضير، وسعد بن عبادة، فاطرحوا عليه حجارةً من فوق هذا البيت الذي هو تحته فاقتلوه، ولن تجدوه أخلى منه الساعة، فإنه إن قُتِل تفرَّق عنه أصحابه، فلحق من كان معه من قريش بحرمهم، وبقي من كان ها هنا من الأوس والخزرج، فما كنتم تريدون أن تصنعوا يوماً من الدهر فمن الآن.

فقال عمرو بن جَحَّاش النَّضريُّ: أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة، وقال لهم سلاَّم بن مِشكَم: يا قوم! أطيعوني هذه المرَّة، وخالفوني الدَّهر، والله! لئن فعلتم ليُخَبَرَنَّ بأنَّا قد غدرنا به، وإنَّ هذا نقضٌ للعهد الذي بيننا وبينه، فلا تفعلوا، وهيَّأ عمرو بن جحَّاش الصخرة ليرسلها على رسول الله ﷺ، ويدحرجها، فلما أشرف بها جاء رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما همُّوا به، فنهض رسول الله ﷺ سريعاً كأنه يريد حاجة، وتوجَّه نحو المدينة، وجلس أصحابُه يتحدَّثون، وهم يظنُّون أنه قام يقضي حاجة.

فبينا اليهودُ على ذلك، إذ جاء جاءٍ من اليهود من المدينة، فلما رأى أصحابَه يأتمرون بأمر النبي ﷺ قال لهم: ما تريدون؟ قالوا: نريد أن نقتل محمَّداً، ونأخذ أصحابه، فقال لهم: وأين محمد؟ قالوا: هذا محمدٌ قريب، فقال لهم صاحبُهم: والله! لقد تركتُ محمداً داخل المدينة، فَسُقِط في أيديهم، واستبطأ الصَّحابةُ الذين كانوا مع رسول الله ﷺ النبي ﷺ، وراثَ (أبطأ) عليهم خبره، فلما يئسوا من ذلك، قال أبو بكر: ما مُقامنا ها هنا بشيء، لقد توجَّه رسول الله ﷺ لأمرٍ، فقاموا في طلبه.

فقال حُييُّ بن أخطب: لقد عَجّل أبو القاسم، كنَّا نريدُ أن نقضيَ حاجته، ونَقريه، وندمت يهود على ما صنعوا، فقال لهم كنانة بنُ صُوَيراء: هل تدرون لم قام محمد؟ قالوا: لا، والله! ما ندري، وما تدري أنت! قال: بلى، والتوراة! إني لأدري، قد أُخبِر بما هممتم به من الغدر،

وإنه لآخر الأنبياء، وكنتم تطمعون أن يكون من بني هارون، فجعله الله حيث شاء، وإنَّ كتبنا والذي درسناه في التوراة التي لم تغيّر ولم تبدَّل: أنَّ مولده بمكة، وأنَّ هجرته يثرب، وصفته بعينها، ما تخالف حرفاً مما في كتابنا، وما يأتيكم به أولى في محاربته إياكم، ولكأني أنظرُ إليكم ظاعنين، يتضاغى (يتصايح) صبيانكم، قد تركتم دوركم خلوفاً وأموالكم، وإنما هي شرفكم، فأطيعوني في خصلتين، والثالثة لا خير فيها» قالوا: ما هما؟ قال: «تسلمون، وتدخلون مع محمد، فتأمنون على أموالكم وأولادكم، وتكونون من علية أصحابه، وتبقى بأيديكم أموالكم، ولا تخرجون من دياركم» قالوا: لا نفارق التوراة، وعهد موسى، قال: فإنه مرسِلٌ إليكم اخرجوا من بلدي، فقولوا نعم؛ فإنه لا يستحلُّ لكم دماً، ولا مالاً، وتبقى أموالكم لكم، إن شئتم بعتم، وإن شئتم أمسكتم» قالوا: أمَّا هذا فنعم. قال سلاَّم بن مشكم: «قد كنتُ لما صنعتم كارهاً، وهو مرسلٌ إلينا أن اخرجوا من داري، فلا تُعقّب يا حُييُّ كلامه، وأنعم له بالخروج، واخرج من بلاده. قال: أفعل، أنا أخرج.

فلما انتهى أصحابُ رسول الله ﷺ إليه وجدوه قد أرسل إلى محمد بن مسلمة يدعوه، فقال أبو بكر: يا رسول الله! قُمتَ ولم نشعر، فقال رسول الله ﷺ: «همَّتْ يهود بالغدر بي، فأخبرني اللهُ تعالى، فقمت».

وأنزل الله تعالى في ذلك قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥/ ١١].

ولما جاء محمد بن مسلمة رسول الله ﷺ قال: «اذهب إلى يهود بني النضير، فقل لهم: إنَّ رسول الله ﷺ أرسلني إليكم: أن اخرجوا من بلدي».

فلما جاءهم قال: إنَّ رسول الله ﷺ أرسلني إليكم برسالة، ولست

أذكرها لكم حتى أعرِّفكم بشيءٍ تعرفونه في مجلسكم، فقالوا: ما هو؟ قال: أُنشدكم بالتوراة التي أنزلت على موسى: هل تعلمون أني جئتُكم قبل أن يُبعثَ محمد وبينكم التوراة، فقلتم لي في مجلسكم هذا: يا بن مسلمة! إن شئت أن نغدِّيك غدَّيناك، وإن شئت أن نهوِّدك هوَّدناك، فقلت لكم: بل غدُّوني ولا تهوِّدوني، فإني والله! لا أتهوَّد أبداً، فغدَّيتموني في صحفةٍ لكم، وقلتم لي: ما يمنعك من ديننا إلا أنه دين يهود، كأنك تريدُ الحنيفيَّة التي سمعت بها، أما إن أبا عامر الراهب ليس بصاحبها، أتاكم صاحبُها الضَّحوك القتَّال، في عينيه حمرة، ويأتي من قبل اليمن يركب البعير، ويلبس الشَّملة، ويجتزىء بالكسرة، وسيفه على عاتقه، ينطق بالحكمة، كأنه وشيجتكم هذه، والله! ليكوننَّ في قريتكم هذه سلْبٌ، وقتلٌ، ومَثْل، قالوا: اللهم! نعم، قد قلنا ذلك، وليس به، قال: قد فرغت: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم يقول لكم: إنكم قد نقضتم العهدَ الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي، وأخبرهم بما كانوا همّوا به، وظهورِ عمرو بن جحّاش على البيت ليطرحَ الصخرة، فأُسكِتوا، فلم يقولوا حرفاً، ويقول: اخرجوا من بلدي، وقد أجَّلتكم عشراً، فمن رؤي بعد ذلك ضربتُ عنقَه.

قالوا: يا محمد! ما كنَّا نرى أن يأتي بهذا رجلٌ من الأوس. قال محمد بن مسلمة: تغيَّرت القلوبُ. فمكثوا على ذلك أياماً يتجهَّزون، وأرسلوا إلى ظهرهم (الدواب التي تحملِ الأثقال) بذي الجَدْر (مسرح على ستة أميال من المدينة بناحية قباء) يُجلَب لهم، وتكاروَا من ناسٍ من أشجع إبلاً، وجَدُّوا في الجَهاز، فبينما هم على ذلك إذ جاءهم رسولا عبد الله بن أُبيّ بن سلول: سُوَيد، وداعس، فقالا: يقول عبد الله بن أبيّ: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا في حصونكم، فإنَّ معي ألفين من قومي وغيرَهم من العرب يدخلون معكم حصنكم، فيموتون عن آخرهم قبل أن يوصَلَ إليكم، وتُمِدُّكم قريظةُ فإنهم لن يخذلوكم، ويُمِدُّكم

حلفاؤكم من غطفان. وأرسل ابنُ أُبَي إلى كعب بن أسد القُرظيّ يكلِّمه أن يُمِدَّ أصحابَه، فقال: لا ينقض رجلٌ واحدٌ منّا العهد.

فيئس ابنُ أُبَيّ من بني قريظة، وأراد أن يلحم الأمر فيما بين النَّضير ورسول الله ﷺ، فلم يزل يرسل إلى حيي بن أخطب، فقال حُيَيّ: أنا أرسل إلى محمد أعلمه أنا لا نخرجُ من دارنا وأموالنا، فليصنع ما بدا له، وطمع حُيَيّ فيما قال ابن أُبَيّ، فقال له سلاَّم بن مشكم: مَنّتك (كذبتك) نفسُك، والله! يا حُيَيّ الباطل، ولولا أن يسفَّه رأيك لاعتزلتك بمن أطاعني من يهود، فلا تفعل يا حُيَيّ، فوالله! إنك لتعلم، ونعلم معك أنه لرسول الله، وأن صفتَه عندنا، وأنّا لم نتَّبعه، وحسدناه، حيث خرجت النبوّة من بني هارون، فتعال فلنَقْبَلْ ما أعطانا من الأمن، ونخرج من بلاده، وقد عرفت أنك خالفتني في الغدر به، فإذا كان أوانُ الثمر جئنا، أو جاء أحدٌ منّا إلى ثمره، فباع أو صنع ما بدا له، ثم انصرف إلينا فكأنّا لم نخرج من بلادنا إذا كانت أموالنا بأيدينا، إنّا إنما شرفنا على قومنا بأموالنا وفعالنا، فإذا ذهبت أموالُنا من أيدينا كنّا كغيرنا من اليهود في الذِّلَّة والإعدام، وإن محمداً إن سار إلينا، فحاصرنا في هذه الصياصي يوماً واحداً، ثم عرضنا عليه ما أرسل به إلينا لم يقبله، وأبى علينا.

قال حُيَيّ: إنَّ محمداً لا يَحصُرنا إلا إن أصاب منّا نهزة (فرصة) وإلا انصرف، وقد وعدني ابنُ أُبَيّ ما قد رأيت.

قال سلاَّم: ليس قولُ ابن أُبَيّ بشيء، إنّما يريدُ ابنُ أُبَيّ أن يورِّطك في الهلكة حتى تحارب محمداً، ثم يجلس في بيته، ويتركك، قد أراد من كعب بن أسدٍ النَّصرَ، وأبى كعبٌ، وقال: لا ينقضُ هذا العهدَ رَجلٌ من بني قريظة وأنا حيٌّ، وإلا فابنُ أُبَيّ قد وعد حلفاءه من بني قينقاع مثل ما وعدك حتى حاربوا، ونقضوا العهد، وحصروا أنفسهم في صياصيهم، وانتظروا نصرَ ابنِ أُبَيّ، فجلس في بيته، وسار إليهم محمدٌ، فحصرهم

حتى نزلوا على حُكمِه، فابنُ أُبَيّ لا ينصر حلفاءه، ونحن لم نزل نضربه بسيوفنا مع الأوس في حروبهم كلها إلى أن انقطعت حروبهم، وقدم محمد فحجز بينهم، وابنُ أبيّ لا هو على دين يهود، ولا هو على دين محمد، ولا هو على دين قومه، فكيف تقبل منه قوله؟ قال حُيَيّ: تأبى نفسي إلا عداوة محمد وإلا قتاله. قال سلاَّم: فهو والله! إجلاؤنا من أرضنا، وذهاب أموالنا وشرفنا، وسَبْيُ ذرارينا، مع قتل مقاتلتنا. فأبى حُيَيّ إلا محاربة النبي ﷺ، فقال له ساموك بن أبي الحقيق، وكانت به جِنّةٌ: يا حُيَيّ أنت رجل مشؤوم، تهلك بني النضير، فغضب حُيَي، وقال: كل بني النضير قد كلّمني حتى هذا المجنون، فضربه إخوته، وقالوا لِحُيَيّ: أَمْرُنا لأمرك تَبَعٌ، لن نخالفك.

فأرسل حُيَيٌّ أخاه جُدَيّ بن أخطب إلى رسول الله ﷺ يقول له: إنَّا لا نبرحُ من ديارنا، فاصنع ما أنت صانع، وأمره أن يأتي ابن أُبَيّ فيخبره برسالته إلى رسول الله ﷺ، ويأمره أن يتعجّل ما وعد من النَّصر.

فذهب جُدَيُّ بن أخطب إلى رسول الله ﷺ بالذي أرسله حُيَيّ، فجاءَ رسول الله ﷺ وهو جالسٌ بين أصحابه فأخبره، فأظهر رسول الله ﷺ التكبير، وكبّر المسلمون لتكبيره، وقال: «حاربت يهود».

وخرج جُدَيّ حتى دخل على ابن أُبَيّ، وهو جالسٌ في بيته، ومعه نفرٌ من حلفائه، وقد نادى منادي رسول الله ﷺ يأمرهم بالمسير إلى بني النضير، فدخل عبد الله بن عبد الله بن أُبَي على أبيه وعلى النَّفر الذين معه، وعنده جُدَيّ بن أخطب، فلبس درعه، وأخذ سيفه، وخرج يعدو.

قال جُدَيّ: لما رأيتُ ابنَ أبيٍّ جالساً في ناحية البيت، وابنه عليه السلاح، يئستُ منه، ومن نصره، فخرجت أعدو إلى حُيَيّ فقال: ما وراءك؟ قال: فقلت: الشَّرّ. ساعةَ أخبرتُ محمداً بما أرسلتَ إليه أظهر التكبير، وقال: حاربت يهود، قال: وجئتُ ابنَ أُبَيّ فأخبرته، ونادى

منادي محمد بالمسير إلى بني النضير، فقال حُيَيّ: وما ردَّ عليك ابنُ أُبَيّ؟ قال جُدَيّ: لم أر عنده خيراً. قال: أنا أرسل إلى حلفائي من غطفان، فيدخلون معكم.

وسار رسول الله ﷺ في أصحابه إلى بني النضير وكان بينهم وبين المدينة نحو ميلين في حوالي المدينة من ناحية قباء، واستخلف على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم، وحمل رايته عليُّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، وحُمِلت مع رسول الله ﷺ قُبّةٌ من خشب عليها مُسوح (أكسية من شعر) أرسل بها سعد بن عبادة، وصلى رسول الله ﷺ العصر بِفِناء بني النضير، فلما رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا على جُدُر حصونهم معهم النّبل والحجارة، واعتزلتهم بنو قريظة، فلم يعينوهم بسلاح، ولا رجال، ولم يقربوهم، فجعلت بنو النضير يرمون ذلك اليوم بالنّبل والحجارة، ولما جاء وقتُ العشاء رجع رسول الله ﷺ إلى بيته في عشرة من أصحابه عليه الدِّرع، وهو على فرس، واستعمل على العسكر عليَّ بن أبي طالب، ويقال: أبا بكر، وبات المسلمون يحاصرونهم، ويكبِّرون حتى أصبحوا، ثم أذَّن بلال بالفجر، فغدا رسول الله ﷺ في أصحابه الذين كانوا معه فصلَّى بالناس، وأمر بلالاً فضرب القبّة، ودخلها رسول الله ﷺ، وكان رجلٌ من يهود يقال له عَزْوَك وكان أعسر رامياً، فرمى فبلغ نبله قبة النبي ﷺ فأمر بقبته فنقلت حتى تباعدت من النَّبل.

وأمسوا فلم يقربهم ابنُ أُبيّ، ولا أحدٌ من حلفائه، وجلس في بيته، ويئس بنو النضير من نصره، وجعل سلاَّم بن مشكم، وكنانة بن صويراء يقولان لِحُيَيّ: أين نصرُ ابنِ أُبيّ الذي زعمت؟! قال حُيَيّ: ما أصنع؟! هي ملحمةٌ كتبت علينا.

ولزم رسول الله ﷺ حصارهم ستَّ ليالٍ، أو خمسة عشر يوماً، أو قريباً من عشرين، وأمر رسول الله ﷺ بقطع نخلِ بني النضير، واستعمل

على قطعها أبا ليلى المازني، وعبدَ الله بن سلام، وكان أبو ليلى يقطع العجوة، وكانت أحرق لهم، وكان عبد الله بن سلام يقطع اللون، وكانت العجوة خير أموالهم، فلما قطعت شقَّ النساءُ الجيوب، وضربن الخدود، ودعون بالويل، وحُرِّق بعضُ نخيلهم، فنادوا: يا محمد! إنك كنت تنهى عن الفساد، فلم تقطع النخل وتحرِّقها؟! أهو فسادٌ أم صلاح؟ حتى إنَّ بعضَ المسلمين وقع في نفوسهم من هذا الكلام شيء، فخافوا أن يكون فعلُهم ذلك فساداً، وبعض المسلمين قالوا: بل نقطع لنغيظهم بذلك، والذين وقع في نفوسهم، وتوقّفوا لم يكونوا سمعوا أمر النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فاعتقدوا أن ذلك كان باجتهاد القاطعين، حتى أنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥٩/٥] واللينة: أنواع التمر ما عدا العجوة والبرني، وقيل: اللينة: كرام النخل، وقيل: كل الأشجار للينها.

وأرسل حُيَيّ إلى رسول الله ﷺ: نحن نعطيك الذي سألتَ، ونخرج من بلادك، فقال رسول الله ﷺ: «لا أقبله اليوم، ولكن اخرجوا منها، ولكم ما حملت الإبل إلا الحلْقَة (السلاح)»، فقال سلّام بن مشكم: اقبل ـ ويحك ـ من قبل أن تقبل شرّاً من ذلك. فقال حُيَيّ: ما يكون شرّاً من هذا؟ قال سلَّام بن مشكم: تُسبى الذُّرِّيَّة، وتقتل المقاتلة مع الأموال، والأموال أهون علينا. فأبى حُيَيّ أن يقبل يوماً أو يومين، فلما رأى ذلك يامين بن عُمَيْر وأبو سعد بن وهب، قال أحدُهما لصاحبه: والله! إنك لتعلم أنه رسول الله ﷺ، فما ننتظر أن نسلم فنأمن على دمائنا، وأموالنا؟ فنزلا من الليل، فأسلما، وحرزا أموالهما، ودماءهما، ثم نزلت يهود على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة، وجعل يامين بن عمير لرجل عشرة دنانير، أو أوسقاً من تمر حتى قتل عمرو بن جحَّاش غيلةً، فسرّ رسول الله ﷺ بقتله، وولي إخراج بني النضير محمد بن مسلمة رضي الله عنه، فقالوا: إنَّ لنا ديوناً على الناس إلى آجال، فقال رسول الله ﷺ: «تعجّلوا

وَضَعوا». وكانوا في حصارهم يخربون بيوتهم بأيديهم لينقلوا ما استحسنوه من خشب وغيره، وكان المسلمون يخربون بيوتهم مما يليهم، ويحرقون، حتى وقع الصلح، فكان أهلها يخربون من داخلها، والمؤمنون من خارجها نكالاً وخزياً لهم، وقيل: كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم حسداً وبغضاً للمسلمين أن يسكنوها بعدهم، فكان الرجلُ يهدم بيته عن نجاف بابه (أسكفته).

خروج بني النضير:

قال ابنُ إسحاق: خرج يهود بني النضير، فحملوا النساء والصبيان على الهوادج، وعليهن الديباج، والحرير، وقُطُفُ الخزّ الخضر، والحمر، وحُلِيّ الذهب، والفضة، والمعصفر، وأظهروا تجلُّداً عظيماً، ومرُّوا على ديار بلحارث بن الخزرج، ثم على الجَبَلِيّة (مكان)، ثم على الجسر (مكان) حتى مرّوا بالمصلّى «لعله مسجد الغمامة» ثم شقّوا سوقَ المدينة، ومعهم الدفوف، والمزامير، والقيان يعزفن خلفهم تجلّداً، وفخراً لم يُر مثله، وصفَّ لهم الناس، فجعلوا يمرُّون قطاراً في أثر قطار، تحمَّلوا على ستمئة بعير، وحزن المنافقون لخروجهم أشدّ الحزن، فنزل أكثرهم بخيبر منهم حُيَي بن أخطب، وسلاَّم بن أبي الحقيق، وكنانة بن صويراء، فدان لهم أهلُها، وذهبت طائفةٌ منهم إلى الشام إلى أذرعات، وأريحا.

وأخذوا معهم مَسْكَ (جلد) جمل، جعلوا فيه أموالهم، وقالوا: هذا مما نُعِدُّه لخفض الأرض ورفعها، فإن تكن النخل قد تركناها فإنا نقدم على نخل بخيبر.

وقبض رسول الله ﷺ ما تركه بنو النضير من الأموال، والدروع، والسلاح، وكانت له ﷺ خاصةً به ينفق منها على أهله ونوائبه؛ لأن المسلمين لم يوجفوا عليهم بخيل ولا ركاب، ولم يقع قتالٌ بينهم، وكان ﷺ ينفق، ويدَّخر قوت سنة من الشعير الذي كان يزرع تحت النخيل والتمر لأزواجه وبني عبد المطَّلب، وما فضل جعله في السلاح، والكراع

(الخيل)، وإلى هذا ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى، وذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى إلى أنه ﷺ خمَّسها، وقسمها بين المهاجرين ليرفع بذلك مؤنتهم (مشقتهم) عن الأنصار، وإن كان الأنصار يرون ذلك من أعظم النعم.

ودعا رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شمَّاس فقال: «ادعُ لي قومك» قال: الخزرج؟ فقال ﷺ: «الأنصارَ كلها» فدعا له الأوس والخزرج، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار، وما صنعوا بالمهاجرين، وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم، وإيثارهم إياهم على أنفسهم، ثم قال: «إن أحببتُم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليَّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم، وخرجوا من دوركم». فقال سعد بن عبادة رضي الله عنه وسعد بن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله! بل تقسم بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا، وقالت الأنصار كلُّها: رضينا وسلَّمنا يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار». وقسم ما أفاء الله، وأعطى المهاجرين، ولم يعطِ أحداً من الأنصار شيئاً، غير أنه أعطى أبا دجانة، وسهل بن حُنيف لحاجتهما. وأعطى سعد بن معاذ رضي الله عنه سيف ابن أبي الحقيق، وكان سيفاً له ذِكْرٌ عندهم.

وفيهم نزلت سورة الحشر. روى الشيخان عن سعيد بن جبير قال: قلتُ لابن عباس: سورة الحشر، فقال: قل سورة النَّضير.

غزوة بدر الموعد:

سببها: قولُ أبي سفيان لما أراد الانصرافَ يوم أُحُد: موعدُ ما بيننا وبينكم بدر رأس الحول، نلتقي فيه فنقتتل، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: «قل: نعم إن شاء الله» فافترق الناس على ذلك.

وكانت بدر مجتمعاً للعرب، وسوقاً تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثمانٍ خلون منه، فإذا مضت تفرَّق الناس إلى بلادهم.

فلما دنا الموعدُ كره أبو سفيان الخروجَ إلى رسول الله ﷺ، وأحبَّ ألا يوافيَ رسول الله ﷺ، ولكنه كان يريدُ أن يُسمعَ النبي ﷺ أنه يريد أن يغزوه في جمعٍ كثيف، فيبلغ أهل المدينة عنه أنه يجمع الجموع، وتسير في العرب، فيخشاه المسلمون.

وقدم نعيم بن مسعود الأشجعي مكة فَبَصَّر أبا سفيان وقريشاً بتهيُّؤ المسلمين لحربهم، وكان عامَ جدب، فأعلمه أبو سفيان بأنه كارهٌ للخروج إلى لقاء المسلمين، واعتلَّ بجدب الأرض، وجعل لنعيم عشرين فريضةً (بعيراً) توضع تحت يد سهيل بن عمرو على أن يخذِّل المسلمين عن المسير لموعده، وحمله على بعير، فقدم المدينة، وأرجف بكثرة جموع أبي سفيان حتى أرعب المسلمين، وقذف الرعبَ في قلوبهم، ولم يبق لهم نيَّةٌ في الخروج، واستبشر المنافقون واليهود، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ حتى خشي ألا يخرج معه أحد، وجاءه أبو بكر وعمر وقد سمعا ما سمعا، وقالا: يا رسول الله! إن الله تعالى مظهرُ دينِه، ومعزّ نبيّه، وقد وعدنا القومُ موعداً لا نحبُّ أن نتخلَّف عنه، فيرون أنَّ هذا جُبْنٌ، فَسِرْ لموعدهم، فوالله! إن في ذلك لَخِيرةً، فَسُرَّ رسول الله ﷺ بذلك، ثم قال: «والذي نفسي بيده! لأخرجنَّ وإن لم يخرجْ معي أحد». فنصر الله تعالى المسلمين، وأذهب عنهم ما كان الشيطانُ رعَّبهم.

وخرج رسول الله ﷺ في ألفٍ وخمسمئة، فيهم عدة أفراس، وحمل اللواء علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وخرج المسلمون بتجارات لهم إلى بدر، فربحت ربحاً كثيراً. فانتهوا إلى بدر ليلة هلال ذي القعدة، وقام السوقُ صبيحة الهلال، فأقاموا ثمانية أيام، والسوق قائمة، وأقام رسول الله ﷺ على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده.

وأتاه مخشيُّ بن عمرو الضمري، وهو الذي كان وادعه على بني ضمرة في غزوة ودَّان، وأصحاب رسول الله ﷺ أكثر أهل الموسم، فقال: يا محمد! لقد أُخبرنا أنه لم يبق منكم أحد، فما أعلمكم إلا أهلُ الموسم، فقال رسول الله ﷺ: «وإن شئت مع ذلك رددنا ما كان بيننا وبينك» فقال: لا، والله! ما لنا بذلك من حاجة، بل نكفُّ أيدينا عنكم، ونتمسك بحلفِك.

وقال أبو سفيان لقريش: قد بعثنا نُعيم بن مسعود لأن يخذِّل عنا أصحاب محمد عن الخروج، وهو جاهد، ولكن نخرج نحن فنسير ليلة أو ليلتين، ثم نرجع، فإن كان محمد لم يخرج بلغه أنا خرجنا فرجعنا؛ لأنه لم يخرج، فيكون هذا لنا عليه، وإن كان خرج أظهرنا أن هذا عامُ جدب، ولا يصلحنا إلا عامٌ عَشِبٌ. قالوا: نعم ما رأيت.

فخرج في قريش وهم ألفان، ومعه خمسون فرساً، حتى انتهوا إلى مِجَنّة (سوق بقرب مكة) من ناحية الظهران، ثم قال: ارجعوا لا يصلحنا إلا عامٌ خِصبٌ غَيداق، نرعى فيه الشجر، ونشرب فيه اللبن، وإنَّ عامكم هذا عامُ جدب، وإني راجعٌ فارجعوا. فسمَّى أهل مكة ذلك الجيش «جيش السويق».

وانطلق معبد الخزاعي بعد انقضاء سوق بدر إلى مكة، فأخبر بكثرة المسلمين، وأنهم أهلُ ذلك الموسم، وأنهم ألفان، وأخبر بما قال رسول الله ﷺ للضَّمري. فقال صفوان بن أمية لأبي سفيان: قد والله! نهيتك يومئذٍ أن تعد القوم، وقد اجترؤوا علينا، ورأوا أنا قد أخلفناهم، وإنما خلَّفنا الضَّعفُ عنهم.

وأخذوا في الكيد والنفقة في قتال رسول الله ﷺ، واستجلبوا من حولهم من العرب، وجمعوا الأموال العظام، وضربوا البعث على أهل مكة، فلم يترك أحد منهم إلا أن يأتي بمال، ولم يُقبل من أحدٍ منهم أقلَّ من أوقيّة لغزو الخندق.

أما رسول الله ﷺ فقد انصرف إلى المدينة.

غزوة دومة الجندل:

سببها: إرادته ﷺ أن يدنو إلى أدنى الشام لإفزاع قيصر، لمَا ذكر له أن بها جمعاً عظيماً، وأنهم يظلمون مَن مرَّ بهم، وأنهم يريدون الدُّنوَّ من المدينة. وهي بلدةٌ بينها وبين دمشق خمس ليال.

فندب النبيُّ ﷺ الناسَ إلى الخروج، وخرج في ألف من أصحابه، فكان يسير الليل، ويكمن النَّهار، ومعه دليل خرِّيت من بني عُذرة، يقال له: مدكور، خبير بطرق الصحراء الخفيّة، ومضايقها، وسار مُغِذّاً للسير، فلما دنا رسول الله ﷺ من دومة الجندل قال له الدليل: يا رسول الله! إنَّ سوائمهم ترعى عندك، فأقمْ لي حتى أطَّلع لك.

فخرج العذريّ طليعةً وحده، حتى وجد آثار النَّعم والشاء، وهم مغرِّبون، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره، وقد عرف مواضعَهم، فسار رسول الله ﷺ إليهم حتى هجم على رعائهم، فأصاب رسول الله ﷺ منها، وفرَّ باقيهم، فتفرق أهلُ دومة الجندل، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم، فلم يجدْ بها أحداً، فأقام أياماً، وبعث السرايا، فعادت كلُّ سرية بإبل، ولم تلق أحداً، إلا رجلاً منهم جيء به إلى النبي ﷺ، فسأل عن أصحابه، فقال: هربوا أمس لما سمعوا أنك أخذتَ نعمهم، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلامَ أياماً، فأسلم، ورجع إلى المدينة في العشرين من ربيع الآخر سنة خمس من الهجرة.

غزوة المريسيع، أو بني المصطلِق سنة خمس:

والمريسيع: ماءٌ لبني خزاعة، بينه وبين الفُرع مسيرة يوم، والفُرع: من أعمال المدينة.

والمصطلق: لقب لجذيمة جد الحارث بن أبي ضرار، من: الصلق، وهو رفع الصوت.

وسببها: أن الحارث بن أبي ضرار ـ سيد بني المصطلق ـ جَمَع لحرب رسول الله ﷺ من قدر عليه من قومه ومن العرب، فتهيؤوا للمسير إليه، وكانوا ينزلون ناحية الفُرع، فبلغ خبرَهم رسول الله ﷺ، فبعث بُريدةَ بن الحصَيب الأسلمي يعلم ذلك، واستأذن رسول الله ﷺ أن يقول، فأذن له، فخرج حتى وَرَدَ عليهم ماءهم، فوجد قوماً مغرورين قد تألّبوا، وجَمَّعوا الجموع، فقالوا: مَن الرجل؟ قال: رجل منكم قدمت لمَا بلغني عن جمعكم لهذا الرجل، فأسير في قومي، ومن أطاعني، فنكون يداً واحدة حتى نستأصله. قال الحارث: فنحن على ذلك فعجِّل علينا. قال بريدة: أركب الآن فآتيكم بجمع كثيف من قومي، فسرُّوا بذلك، ورجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره خبر القوم، فندب الناسَ إلى الخروج.

وقاد المسلمون ثلاثين فرساً، وخرج مع رسول الله ﷺ بشرٌ كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزاةٍ قطُّ مثلها، ليس بهم رغبةٌ في الجهاد إلا ليصيبوا من عرض الدنيا، ولقرب السفر عليهم، ومرَّ برسول الله ﷺ رجلٌ جاء إليه ليسلم على يديه، فسأله عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، فقال له: «الصلاة على وقتها».

وأصاب رسول الله ﷺ عيناً للمشركين، فسأله عنهم، فلم يذكر من شأنهم شيئاً، وعرض عليه الإسلام فأبى، فَضُرِبت عنقُه.

وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع، وقد بلغ القومَ مسيرُ رسول الله ﷺ إليهم، وقتله عينهم، فتفرَّق عن الحارث من كان قد اجتمع عليه.

وتهيأ الحارثُ للقتال، وصفَّ رسول الله ﷺ أصحابَه، وأمر عمر بن الخطاب فنادى في الناس: «قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم» ففعل عمر ذلك، فأبوا، فتراموا بالنبل ساعة، فكان أول من رمى رجلٌ منهم بسهم، فرمى المسلمون ساعة بالنبل، ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابَه أن يحملوا، فحملوا حملةَ رجل واحد، فما أفلت من

المشركين إنسان، وقتل عشرة منهم، وأُسر سائرهم، وسبى رسول الله ﷺ الرجال، والنساء، والذُّرِّيَّة، والنَّعم، والشَّاء.

وما قُتِل من المسلمين إلا رجل واحد يقال له: هشام بن صُبابة، أصابه رجلٌ من الأنصار يقال له: أوس يرى أنه من المشركين، فقتله خطأً فأمر رسول الله ﷺ بإخراج ديته، فقبضها أخوه مقيس بن صُبابة، وعدا على قاتل أخيه فقتله، فارتدَّ، ولحق بالمشركين، فأهدر النبيُّ ﷺ دمه، فَقُتِل يوم الفتح.

أمر رسول الله ﷺ بالأسارى فكتِّفوا، واستعمل عليهم بريدة بن الحصيب، وأمر بما وجد في رحالهم، فجمع، وسيقت النَّعَم والشاء، وأخرج الخمس من جميع المغنم، وكان يليه محميَّةُ بن جزء الزبيدي، فالأخماس كلُّها عنده، والصَّدقات على حِدتها، وأهل الفيء بمعزل عن الصدقة، وأهل الصدقة بمعزل عن الفيء، وكان يعطي من الصدقة اليتيم، والمسكين، والضعيف، فإذا احتلم اليتيمُ نقل إلى الفيء، وأخرج من الصدقة، ووجب عليه الجهاد، فإن كره الجهاد، وأباه؛ لم يُعْطَ من الصدقة شيئاً، وخليِّ بينه وبين أن يكتسب لنفسه. وفرَّق ﷺ السَّبي، فصار في أيدي الرجال، وقسَّم المتاع، والنَّعم، والشاء، وعُدِلت الجزور بعشر من الغنم، وبيعت رثَّة المتاع فيمن يريد، وأسهم للفرس سهمان، ولصاحبه سهم، وللراجل سهم. وكانت الإبل ألفي بعير، والشاء خمسة آلاف شاة، وكان السبي مئتي أهل بيت. وصارت جويرية بنت الحارث ـ سيد القوم ـ في سهم ثابت بن قيس بن شمَّاس وابن عمٍّ له، فكاتبها على تسع أواق من ذهب.

تزوُّجه ﷺ بجويرية:

قال الصَّالحي: روى ابنُ إسحاق، والإمام أحمد، وأبو داود، ومحمد ابن عمر عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كانت جويرية امرأةً حلوة،

مُلاَّحة، لا يكاد يراها أحدٌ إلا أخذتْ بنفسه، فبينما النبي ﷺ عندي، ونحن على الماء إذ دخلتْ عليه جويرية تسأله في كتابتها، فوالله! ما هو إلا أن رأيتها، فكرهت دخولَها على النبي ﷺ، وعرفتُ أنه سيرى منها مثل الذي رأيت.

فقالت: يا رسول الله! إني امرأةٌ مسلمة، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وأنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيِّد قومه، أصابنا من الأمر ما قد علمتَ، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شمَّاس وابن عمٍّ له، فتخلَّصني من ابن عمه بنخلات له بالمدينة، فكاتبني ثابت على ما لا طاقةَ لي به، وما أكرهني على ذلك إلا أني رجوتُك صلى الله عليك، فأعنِّي في مكاتبتي، فقال رسول الله ﷺ: «أوَخيرٌ من ذلك؟» فقالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أُؤدِّي عنك كتابتك، وأتزوّجك» قالت: نعم، يا رسول الله! قد فعلت.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت بن قيس فطلبها منه، فقال ثابت: هي لك يا رسول الله! بأبي وأمّي. فأدَّى رسول الله ﷺ ما كان عليها من كتابتها، وأعتقها، وتزوَّجها، وخرج الخبرُ إلى الناس ورجال بني المصطلق قد اقتُسِموا، ومُلِكوا، ووُطِئت نساؤهم، فقال المسلمون: أصهارُ رسول الله ﷺ، فأعتقوا ما بأيديهم من ذلك السبي، قالت عائشة رضي الله عنها: فأُعتق مئة أهل بيت بتزوج رسول الله ﷺ إياها، فلا أعلمُ امرأةً أعظم بركة على قومها منها.

ما ظهر من ابن أُبي في الغزوة من النفاق:

بينما المسلمون على ماء المريسيع وقد انقطع الحرب، وهو ماءٌ ظَنون (قليل) إنما يخرج في الدَّلو نصفُه، أتى سِنان بن وَبر الجُهني وعلى الماء جمعٌ من المهاجرين والأنصار، فأدلى دلوه، وأدلى جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطاب، فالتبست دلوُ سنان ودلوُ جهجاه،

وتنازعا، فضرب جهجاه سناناً، فسال الدم، فنادى سنان: يا لَلأنصار! ونادى جهجاه: يا للمهاجرين! وفي لفظ: يا لَقريش! فأقبل جمعٌ من الحيَّيْن، وشهروا السلاح حتى كادت أن تكون فتنة عظيمة، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟!» فأخبر بالحال فقال: «دعوها فإنها منتنة، ولينصر الرجل أخاه ظالماً كان أو مظلوماً، فإن كان ظالماً فلينهه، وإن كان مظلوماً فلينصره»، وإن جماعةً من المهاجرين كلَّموا عبادة بن الصامت، وجماعةً من الأنصار كلَّموا سناناً، فترك حقَّه.

وكان عبد الله بن أُبَيّ جالساً مع عشرة من المنافقين: مالك، وسويد، وداعس، وأوس بن قيظي، ومعتّب بن قشير، وزيد بن اللُّصَيت، وعبدُ الله ابن نَبْتَل، وفي القوم زيد بن أرقم رضي الله عنه، وهو غلامٌ لم يبلغ الحلم، أو قد بلغ، فبلغ ابنَ أُبَيّ صياحُ جهجاه: يا آل قريش! فغضب ابنُ أُبَيٍّ غضباً شديداً وقال: والله! ما رأيتُ كاليوم قط، والله! إن كنت لكارهاً لوجهي هذا، ولكن قومي غلبوني، أو قد فعلوها؟ لقد نافرونا، وكاثرونا في بلدنا، وأنكروا مِنَّتَنَا، والله! ما صِرْنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل «سَمِّن كلبك يأكلك» والله! لقد ظننتُ أني سأموت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما هتف به جهجاه، وأنا حاضر، لا يكون لذلك مني غِيَرٌ، والله! لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل. ثم أقبل على مَن حضر من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أنزلتموهم بلادكم فنزلوا، وأسهمتموهم في أموالكم حتى استغنوا، أما والله! لو أمسكتم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير بلادكم، ثم لم يرضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقُتِلتُم دونهم، فأفنيتم أولادكم، وقللتم وكثروا.

فقام زيد بن أرقم بهذا الحديث كله إلى رسول الله ﷺ، فوجد عنده نفراً من المهاجرين والأنصار، فأخبره الخبر، وكره رسول الله ﷺ خبرَه، وتغيَّر وجهُه، فقال رسول الله ﷺ: «يا غلام! لعلَّك غضبتَ عليه!» قال: لا والله! يا رسولَ الله، فقد سمعتُه منه، قال: «لعلَّه أخطأ سمعُك؟» قال:

لا والله! يا رسول الله. قال: «فلعلَّه شُبِّه عليك؟» قال: لا، والله! يا رسول الله.

وشاع في العسكر ما قال ابنُ أُبَي، وليس للناس حديثٌ إلا ما قال، وجعل الرهط من الأنصار يؤنِّبون الغلامَ، ويلومونه، ويقولون: عَمَدتَ إلى سيِّد قومِك تقول عليه ما لم يقل، وقد ظلمتَ، وقطعتَ الرَّحم! فقال زيد: والله! لقد سمعتُ ما قال، والله! ما كان في الخزرج رجلٌ واحدٌ أحبَّ إليَّ من عبد الله بن أُبَيّ، ولو سمعتُ هذه المقالة من أبي لنقلتها إلى رسول الله ﷺ، وإنِّي لأرجو أن ينزل اللهُ على نبيِّه ما يصدِّق حديثي.

فقال عمر بن الخطّاب: يا رسول الله! مُر عبَّاد بن بشر ـ ويقال: محمد بن مسلمة ـ فليأتك برأسه، فكره رسول الله ﷺ هذه المقالة، وقال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتُلُ أصحابه» وقام النَّفر الذين سمعوا قولَ النبي ﷺ وردّه على الغلام، فجاؤوا إلى ابن أُبَي، فأخبروه. وقال أوسُ بن خولي: يا أبا الحباب! إن كنت قُلتَه فأخبِر النبي ﷺ فليستغفر لك، ولا تجحدْه، فينزلَ فيك ما يكذِّبك، وإن كنتَ لم تَقُلْه فأتِ رسول الله ﷺ فاعتذر له، واحلفْ له ما قلته، فحلف بالله العظيم ما قال من ذلك شيئاً، ثم مشى ابنُ أبيٍّ إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «يابنَ أبي! إن كانت سلفت منك مقالةٌ فَتُبْ» فجعل يحلف بالله: ما قلت ما قال زيدٌ، ولا تكلَّمت به! فقال مَن حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ: عسى أن يكون الغلامُ أوهمَ في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل! حَدَباً على ابن أُبَي، ودَفْعاً عنه، وكان شريفاً في قومه عظيماً. فظانٌّ يظنُّ أنه قد صدق، وظانٌّ يظنُّ به السّوء.

قال الصّالحي: روى محمد بن عمر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب قال: لما كان من أمر ابن أُبَي ما كان، جئتُ رسول الله ﷺ وهو في فيء شجرة، عنده غلام أسود يغمز ظهره، فقلت:

يا رسول الله! كأنك تشتكي ظهرك! فقال: «تقحّمت بي الناقة الليلة» فقلت: يا رسول الله! ائذن لي أن أضربَ عُنُقَ ابن أبي، فقال رسول الله ﷺ: «أوكنت فاعلاً؟!» قلت: نعم، والذي بعثك بالحق. قال رسول الله ﷺ: «إذاً لأُرعِدَتْ له آنفٌ بيثرب كثيرة، لو أمرتُهم بقتله قتلوه» قلت: يا رسول الله! فمرْ محمد بن مسلمة يقتله، قال: لا يتحدث الناسُ أنّي أقتلُ أصحابي، قلت: فَمُرْ الناسَ بالرحيل، قال: «نعم». قال: فأذَّنت بالرحيل في الناس، ويقال: لم يشعر أهلُ العسكر إلا برسول الله ﷺ قد طلع على ناقته القصواء، وكانوا في حرٍّ شديد، وكان لا يروح حتى يَبْرُدَ، إلا أنه لما جاءه خبر ابن أُبي رحل في تلك الساعة، فكان أوَّلَ من لقيه سعدُ بن عبادة، ويقال: أُسيد بن حُضير، فقال: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فقال النبي ﷺ: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». قال: يا رسول الله! قد رحلتَ في ساعةٍ مُنْكَرَةٍ لم تكن ترحلُ فيها! فقال رسول الله ﷺ: «أولم يبلغْك ما قال صاحبكم؟» قال: أيُّ صاحب يا رسول الله؟ قال: «ابن أُبي، زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذلَّ». قال: فأنت يا رسول الله! تخرجه إن شئت، فهو الأذلُّ وأنت الأعزُّ، والعزة لله، ولك، وللمؤمنين. ثم قال: يا رسول الله! ارفُق به، فوالله! لقد جاء الله تعالى بك وإنَّ قومَه لينظِمون له الخرز، فما بقيت عليهم إلا خرزةٌ واحدة عند يوشع اليهودي، قد أرِبَ بهم فيها لمعرفته بحاجتهم إليها، فجاء الله تعالى بك على هذا الحديث، فلا يرى إلا أن قد سلبته ملْكُه.

وبلغ عبدَالله بن عبدالله بن أُبَى مقالةُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إن كنت تريدُ أن تقتل أبي فيما بلغك عنه فمرني به، فوالله! لأحملن إليك رأسَه قبل أن تقوم من مجلسك هذا، والله! لقد علمتِ الخزرجُ ما كان فيها رجلٌ أبرَّ بوالديه مني، وما أكل طعاماً منذ كذا وكذا من الدهر، ولا شرب شراباً إلا بيدي، وإني لأخشى يا رسول الله! أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي

يمشي في الناس، فأقتله، فأدخل النّار. وعفوُك أفضل، ومَنُّك أعظم» فقال رسول الله ﷺ: «يا عبد الله ما أردت قتله، ولا أمرتُ به، ولَنُحْسِنَنَّ له صحبته ما كان بين أظهرنا» فقال عبد الله: يا رسول الله! إن أبي كانت أهلُ هذه البُحَيرة قد اتّسقوا عليه ليتوِّجوه عليهم، فجاء اللهُ تعالى بك، فوضعه الله، ورفعنا بك، ومعه قوم يطوفون به يذكِّرونه أموراً قد غلب الله عليها.

ثم مَشَى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصَدْرَ يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض، فوقعوا نياماً، ولم ينزل أحدٌ عن راحلته إلا لحاجة، أو لصلاة، وإن رسول الله ﷺ يستحثُّ راحلته، ويخلفها بالسَّوط في مَرَاقِّها، وإنما فعل ذلك ليشغلَ الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أُبَيّ.

ولمَّا سرَّح الناسُ ظهرهم قُرْب المدينة، هاجت ريحٌ تكاد تدفن الراكب، فقال رسول الله ﷺ: «بعثت هذه الريح لموت منافق» فلما قدمنا المدينة أُذِّن: قد مات عظيمٌ من عظماء المنافقين. وكان موته للمنافقين غيظاً شديداً، فقد كان كهفاً لهم.

وقال عبادةُ بن الصامت رضي الله عنه لابن أُبَي: يا أبا الحباب! مات خليلك! قال: أيُّ خليل؟ قال: مَن موتُه فتحٌ للإسلام وأهله. قال: مَن؟ قال: زيد بن رفاعة بن التابوت. قال: واويلاه! كان والله، وكان! فقال عبادة: قد اعتصمت بالذَّنب الأبتر. قال: من أخبرك يا أبا الوليد بموته؟ قال: قلتُ: رسول الله ﷺ أخبرنا أنه مات هذه الساعة. فسُقِطَ في يديه، وانصرف كئيباً حزيناً.

فقد ناقة رسول الله ﷺ القصواء:

فقدت ناقةُ رسول الله ﷺ القصواء من بين الإبل، فجعل المسلمون يطلبونها في كل وجه، فقال زيد بن اللُّصَيت، وكان منافقاً، وهو في

جماعة من الأنصار، فقال: أين يذهب هؤلاء في كل وجه؟ قالوا: يطلبون ناقة رسول الله ﷺ قد ضلَّت، قال: أفلا يخبره الله بمكانها؟ فأنكر عليه القوم، فقالوا: قاتلك الله يا عدوَّ الله! نافقت، ثمَّ أقبل عليه أُسيد بن حُضير، فقال: والله! لولا أني لا أدري ما يوافق رسول الله ﷺ من ذلك لأنفذتُ خصيتك بالرمح يا عدوَّ الله! فلم خرجت معنا وهذا في نفسك؟ قال: خرجتُ لأطلب من عَرَض الدنيا، ولعمري إن محمداً ليخبرنا بأعظم من شأن الناقة يخبرنا عن أمر السماء.

ووقعوا به جميعاً، وقالوا: والله! لا يكون منك سبيلٌ أبداً، ولا يُظِلُّنا وإياك ظلٌّ أبداً، ولو علمنا ما في نفسك ما صحبتنا ساعةً من نهار، فوثب هارباً منهم أن يقعوا به، ونبذوا متاعه، فعمد لرسول الله ﷺ، فجلس معه فراراً من أصحابه متعوِّذاً به، وقد جاء رسول الله ﷺ خبرُ ما قال من السماء، فقال رسول الله ﷺ والمنافق يسمع: «إن رجلاً من المنافقين شَمِتَ أن ضلَّت ناقةُ رسول الله ﷺ، وقال: ألا يخبره الله بمكانها؟ فلعمري إن محمداً لَيخبرنا بأعظم من شأن الناقة، ولا يعلم الغيبَ إلا الله تعالى، وإن الله تعالى قد أخبرني بمكانها، وإنها في هذا الشِّعب مُقابِلَكُم، قد تعلَّق زمامُها بشجرة، فاعمِدوا نحوها». فذهبوا فأتوا بها من حيث قال رسول الله ﷺ، فلما نظر المنافق إليها سُقِط في يده، فقام سريعاً إلى رفقائه الذين كانوا معه، فإذا رحلُه منبوذ، وإذا هم جلوسٌ لم يقم رجلٌ منهم من مجلسه، فقالوا له حين دنا: لا تدنُ منَّا! فقال: أكلِّمكم، فدنا، فقال: أنشدكم الله هل أتى أحدٌ منكم محمداً فأخبره بالذي قلت؟ قالوا: لا والله! ولا قمنا من مجلسنا. قال: فإني وجدتُ عند القوم ما تكلَّمت به، وتكلَّم به رسول الله ﷺ، فأخبرهم بما قال رسول الله ﷺ، وأنه قد أُتي بناقته، وقال: إني قد كنت في شكٍّ من شأن محمد، فأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ، فكأني لم أسلم إلا اليوم، قالوا: فاذهب إلى رسول الله ﷺ، يستغفر لك، فذهب إلى رسول الله ﷺ، واستغفر له، واعترف بذنبه.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى وادي العقيق تقدَّم عبد الله بن عبد الله ابن أُبيّ، فجعل يتصفَّح الرِّكاب (المَطِيّ) [الواحدة: راحلةٌ من غير لفظها] حتى مرَّ أبوه، فأناخ به، ثم وطىء على يد راحلته، فقال أبوه: ما تريد يا لُكَع (كلمة تُستعمل في الحمق، والذم)؟ قال: والله! لا تدخل حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، لتعلم أيهما الأعزُّ من الأذل: أنت أم رسول الله ﷺ فمن مرَّ به من المسلمين يرفده (يعينه) عبد الله بن عبد الله، ويمنع غير ذلك، فيقول: تصنع هذا بأبيك؟ حتى مرَّ به رسول الله ﷺ، فسأل عنه، فقيل: عبد الله بن عبد الله بن أُبَي يأبى أن يأذن لأبيه حتى تأذن له، فمرَّ رسول الله ﷺ وعبد الله واطىء على يد راحلة أبيه، وابنُ أُبَيّ يقول: لأنا أذلُّ من الصبيان، لأنا أذلُّ من النساء، فقال رسول الله ﷺ: «خلِّ عن أبيك» فخلَّى عنه.

حِمى رسول الله ﷺ:

ولما مرَّ رسول الله ﷺ بالنَّقيع (موضع على أربعة بُرُدٍ من المدينة) منصرفَه من المريسيع، ورأى سعةً، وكلأً، وغدراناً كثيرة، فسأل عن الماء، فقيل: يا رسول الله إذا صِفنا (دخلنا في الصيف) قلّت المياه، وذهبت الغدر، فأمر رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة أن يحفر بئراً، وأمر بالنقيع أن يُحمى، واستعمل عليه بلال بن الحارث المزني، فحماه لخيل المسلمين وإبلهم التي كانوا يغزون عليها، وأذن للمرأة والرجل الضعيف تكون له الماشية، وهو يضعف عن التحوُّل أن يرعى في الحمى.

نهيه ﷺ عن طروق النساء ليلًا:

قال جابر رضي الله عنه: كنت رفيقَ عبد الله بن رواحة في غزوة المريسيع، فأقبلنا حتى انتهينا إلى وادي العقيق في وسط الليل، فإذا الناسُ يعرِّسون، فقلنا: أين رسول الله ﷺ؟ قالوا: تقدَّم الناسَ وقد نام، فقال لي عبد الله: يا جابر! هل لك بنا في التقدُّم والدخول على أهلنا؟

فقلت: يا أبا محمد! لا أحب أن أخالفَ الناس لا أرى أحداً تقدَّم. قال ابنُ رواحة: والله! ما نهانا رسول الله ﷺ عن التقدُّم. قال جابر: فقلت: أما أنا فلستُ ببارح. فودَّعني، وانطلق إلى المدينة، فأنظر إليه على ظهر الطريق ليس معه أحد: فطرق أهله بني الحارث بن الخزرج، فإذا مصباحٌ في وسط بيته، وإذا مع امرأته إنسانٌ طويل، فظنَّ أنه رجل، وسُقِطَ في يديه، وندم على تقدُّمه، وجعل يقول: الشيطان مع الغِرّ، فاقتحم البيت رافعاً سيفه، وقد جرَّده من غمده يريد أن يضربهما، ثم فكّر، فغمز امرأته برجله، فاستيقظت، فصاحت وهي تَوْسن، فقال: أنا عبد الله، فمن هذا؟ قالت: رُجَيْلَة ماشطتي، سمعنا بقدومكم فباتت عندي، فبات، فلما أصبح خرج معترضاً لرسول الله ﷺ، فلقيه ببئر أبي عنبة، ورسول الله ﷺ يسيرُ بين أبي بكر وبشير بن سعد، فالتفت رسول الله ﷺ إلى بشير، فقال: «يا أبا النعمان!» قال: لبيك، إنَّ وجه عبد الله ليخبرك أنه قد كره طروقَ أهله.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «خَبَرَكَ يابن رواحة؟» فأخبره كيف تقدَّم وما كان من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تطرقوا النساء ليلاً». قال جابر: فكان ذلك أولَ ما نهى عنه رسول الله ﷺ.

ودخل رسول الله ﷺ المدينة مؤيّداً منصوراً، وكانت مدة غيبته شهراً إلا ليلتين.

ما نزل في زيد بن أرقم وابن أبي في غزوة المريسيع:

روى محمد بن عمر عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يسير، وزيد بن أرقم يعارض رسول الله ﷺ براحلته، يريد ثَنيه عن المسير، ورسول الله ﷺ يستحثُّ راحلته: «حَلْ حَلْ» وهو مُغِذٌّ في السير، إذ نزل عليه الوحي، قال زيد بن أرقم: فما هو إلا أن رأيتُ

رسول الله ﷺ تأخذه البرحاء، ويعرق جبينه، وتثقل يدا راحلته، حتى ما تكاد تنقلهما، عرفت أن رسول الله ﷺ يُوحى إليه، ورجوت أن ينزلَ الله تعالى تصديقي. قال زيد: فسرِّي عن رسول الله ﷺ، فأخذ بأذني وأنا على راحلتي حتى ارتفعت عن مقعدي ورفعها إلى السماء، وهو يقول: «وَفَت أذنك يا غلام، وصدَّق الله حديثك». ونزلت سورة «المنافقون» في ابن أُبَي من أوَّلها إلى آخرها، وجعل بعد ذلك ابنُ أبيّ إذا أحدث حدثاً كان قومه هم الذين يعاقبونه، ويأخذونه، ويعنِّفونه. فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه شأنهم: «كيف ترى يا عمر! إني والله! لو قتلتُه يوم قلتَ لي: اقتله، لأُرعِدَت له آنُفٌ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» قال عمر: قد والله! علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

قدوم الحارث بن أبي ضرار، وسبب إسلامه:

أقبل أبو الحارث بن أبي ضرار في فداء السيدة جويرية ابنته، فلما كان بالعقيق نظر إلى إبله التي يفدي بها ابنته، فرغب في بعيرين منها كانا من أفضلهما، فغيَّبهما في شِعب من شِعاب العقيق، ثم أقبل إلى رسول الله ﷺ بسائر الإبل، فقال: يا محمد! أصبتم ابنتي، وهذا فداؤها، فقال رسول الله ﷺ: «فأين البعيران اللذان غيّبتَ بالعقيق بشِعب كذا؟» فقال الحارث: أشهد أنك رسول الله، ولقد كان مني في البعيرين، وما اطلع على ذلك إلا الله تعالى، فأسلم، ثم أمره رسول الله ﷺ أن يخبر ابنته بإسلامه، فقالت له: أحسنت، وأجملت، فقال لها أبوها: يا بنيَّة! لا تفضحي قومَك، يعني: بالرِّقّ، فقالت: اخترتُ الله ورسوله، فرضي أبوها بذلك.

وقع في غزوة المريسيع حديث الإفك، وقيل: فيها نزلت آية التيمم. وقيل: في غزوة ذات الرقاع، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت:

خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره (قال ابن عبد البر: هي

غزوة بني المصطلق) حتى إذا كُنّا بالبيداء، أو بذات الجيش، انقطع عقدٌ لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناسُ معه، وليسوا على ماء، فأتى الناسُ إلى أبي بكر الصديق، فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟! أقامتْ برسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضعٌ رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبستِ رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، فقالت عائشةُ: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكانُ رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، فتيمَّموا، فقال أُسَيد بن الحُضَير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر! قالت: فبعثنا البعير الذي كنتُ عليه، فأصبنا العقدَ تحته[(١)].

حديث الإفك:

في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه، فَأَيَّتُهُنَّ خرج سهمها، خرج بها رسول الله ﷺ معه.

قالت عائشة: فخرجتُ مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أُحمل في هودجي، وأُنزلَ فيه، مسيرَنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل، ودنونا من المدينة آذن ليلةً بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيتُ من شأني أقبلت إلى الرحل، فلمستُ صدري فإذا عِقدي من جَزْع ظَفارِ قد انقطع، فرجعتُ، فالتمستُ عِقدي، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهطُ الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنتُ أركب، وهم يَحسِبون أني فيه.

---

(١) بخاري (١/ ٨٧).

قالت: وكان النساء إذ ذاك خِفافاً لم يُهَبَّلنَ، ولم يغْشَهُنَّ اللحم، إنما يأكلن العُلْقَةَ (القليل) من الطعام، فلم يستنكر القومُ ثقلَ الهودج حين رحلوه، ورفعوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السِّنِّ، فبعثوا الجمل، وساروا، ووجدت عِقدي بعدما استمرَّ الجيش، فجئتُ منازلهم، وليس بها داعٍ ولا مجيبٌ، فتيمَّمتُ منزلي الذي كنتُ فيه، وظننتُ أن القومَ سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فبينا أنا جالسةٌ في منزلي غلبتني عيني، فنمت، وكان صفوان بن المعطَّل السلمي ثم الذَّكواني، قد عرَّس من وراء الجيش (التعريس: النزول آخر الليل في السفر لنوم، أو استراحة) فادَّلج (سار آخر الليل) فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يُضرَب الحجابُ عليَّ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمّرت وجهي بجلبابي، ووالله! ما يكلِّمني كلمة، ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطِىء على يدها فركبتُها، فانطلق يقودُ بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة (وقت شدّة الحر) فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولَّى كِبْرَه: عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيتُ حين قدمنا المدينة شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك (الكذب)، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبُني في وجعي أني لا أعرفُ من رسول الله ﷺ اللطفَ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخلُ رسول الله ﷺ فيسلِّم، ثم يقول: «كيف تيكم؟» فذاكَ يريبني، ولا أشعر بالشَّرِّ، حتى خرجت بعدما نَقَهتُ (المعافى من المرض، وهو قريب عهد به لم يشف تماماً)، وخرجت معي أمُّ مِسْطَح قِبَلَ المناصع، وهو مُتَبَرَّزُنا (مكان قضاء الحاجة) ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتَّخذ الكُنُف قريباً من بيوتنا، وأمْرُنا أمر العرب الأُوَل في التَّنزُّه، وكنا نتأذَّى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا. فانطلقت أنا وأمُّ مِسْطَح، وهي بنت أبي رُهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر

ابن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مِسْطح بن أُثاثة بن عبَّاد بن المطلب، فأقبلتُ أنا وبنت أبي رهم قِبَل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرتْ أمُّ مسطح في مِرطها (كساء من صوف)، فقالت: تعس مسطح! فقلتُ لها: بئس ما قلتِ! أتسبِّين رجلاً قد شهد بدراً؟! قالت: أي هنتاه (أي: يا هذه، أو: يا بلهاء) أولم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مرضاً إلى مرضي، فلمَّا رجعتُ إلى بيتي، دخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلَّم، ثم قال: «كيف تيكم؟» قلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذ أريدُ أن أتيقَّن الخبرَ مِن قِبَلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ. فجئت أبويَّ، فقلت لأمي: يا أمَّتاه! ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنيَّةُ! هوِّني عليك، فوالله! لقلَّما كانت امرأةٌ قطُّ وضيئة عند رجل يحبُّها، ولها ضرائر، إلا كثَّرن عليها. قالت: قلتُ: سبحان الله! وقد تحدَّث الناسُ بهذا؟ قالت: فبكيْتُ تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأُ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحتُ أبكي، ودعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب، وأسامةَ بن زيد حين استلبث الوحي، يستشيرهما في فِراق أهله. قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الوُدِّ، فقال: يا رسول الله! هم أهلُك، ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيِّق اللهُ عليك والناسُ سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «أي بريرة! هل رأيتِ من شيء يريبك من عائشة؟» قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق! إن رأيتُ عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جاريةٌ حديثة السِّنِّ، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الدَّاجنُ فتأكله. قالت: فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فاستعذر (أي: طلب النصرة، أو: لا يلمني إن كافأت من آذاني على قبيح فعاله) من عبد الله بن أُبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يامعشر المسلمين! من

يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله! ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله! إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عبادة ـ وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن اجتهلته الحميَّة ـ فقال لسعد بن معاذ: كذبتَ لَعَمْرُ الله لا تقتله، ولا تقدر على قَتْله، فقام أسيد بن حضير ـ وهو ابن عم سعد بن معاذ ـ فقال لسعد بن عبادة: كذبتَ لَعَمر الله لنقتلنَّه، فإنك منافقٌ تجادل عن المنافقين، فثار الحيَّان: الأوس والخزرج حتى همُّوا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفِّضهم حتى سكتوا، وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيتُ ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنَّان أن البكاء فالقٌ كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذنت عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلستْ تبكي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسَلَّم، ثم جلس قالت: ولم يجلسْ عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبثت شهراً لا يُوحى إليه في شأني بشيء. قالت: فتشهَّد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد يا عائشة! فإنه قد بلغني عنكِ كذا وكذا، فإن كنت بريئةً فسيبرِّئك الله، وإن كنت أَلْمَمْتِ بذنبٍ فاستغفري الله، وتُوبي إليه، فإن العبدَ إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه». فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أُحِسُّ منه قطرة، فقلتُ لأبي: أجبْ عني رسول الله ﷺ فيما قال. فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ، فقالت: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلتُ وأنا جاريةٌ حديثة السنِّ، لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله! لقد عرفتُ أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقرَّ

في نفوسكم، وصدَّقتم به، فإن قلتُ لكم إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدِّقوني بذلك، ولئن اعترفتُ لكم بأمر، والله يعلم أني بريئة، لَتصدِّقونني، وإني والله! ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٢/١٨].

قالت: ثم تحوّلتُ، فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة، وأنَّ الله مبرِّئي ببراءتي، ولكن والله! ما كنت أظنُّ أن يُنزَل في شأني وحيٌ يُتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلَّم الله عز وجل فيَّ بأمر يُتلى، ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يُبرِّئني الله بها، قالت: فوالله! ما رام رسول الله ﷺ مجلسَه، ولا خرج من البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء (الشِّدَّة) عند الوحي حتى إنه ليتحدَّر عنه مثلُ الجُمان (اللؤلؤ) من العرق في اليوم الشَّاتي من ثقل القول الذي أُنزل عليه، قالت: فلمَّا سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أوَّل كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة! أمَّا الله فقد برَّأك». فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله! لا أقومُ إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي. قالت: فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ٢٤/ ١١] عشر آيات، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات في براءتي.

قالت: فقال أبو بكر: ـ وكان ينفق على مسطح لقرابته منه، وفقره ـ والله! لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٤/ ٢٢] فقال أبو بكر: والله! إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبداً[1].

---

(١) مسلم (٤/ ٢١٣٠).

وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين، وأقيم الحدُّ على من أقيم عليه كمسطح، وحسان، وحمنة رضي الله عنهم.

وروى مسلم عن عروة قال: قالت عائشة: والله! إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله! فوالذي نفسي بيده! ما كَشَفْتُ عن كنف أنثى (كناية عن عدم جماع النساء جميعهن) قطُّ. قالت: ثم قُتِل بعد ذلك شهيداً في سبيل الله(١).

غزوة الخندق:

تسمى: غزوة الأحزاب، وكانت في سنة أربع كما في البخاري، وقيل: سنة خمس للهجرة في شوَّال، وبه جزم أهل المغازي والسِّير.

وسببها: خروج حيي بن أخطب، وكنانة بن أبي الحُقَيق، وهَوذة بن قيس الوائلي في جماعة سواهم من اليهود بعد إجلائهم (بني النضير) عن المدينة، واستقرارهم في خيبر إلى مكة، فدعوا قريشاً، وغطفان، ومن يسير في فلكهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: نحن معكم حتى نستأصلَ محمد، جئنا لنحالفكم على عداوته، وقتاله.

وسألهم أبو سفيان قائلاً: يا معشر يهود! أنتم أهلُ الكتاب الأوَّل والعلم، أخبرونا عما أصبحنا نختلفُ فيه نحن ومحمد: أدينُنا خيرٌ أم دينه؟ فقالت يهود: اللهم! أنتم أولى بالحق منه. فأنزل الله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٥١-٥٢].

فلما قالت يهود ذلك لقريش سرَّهم، ونَشِطوا إلى ما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فاتَّعدوا لذلك وقتاً أقّتوه.

---

(١) مسلم (٤/ ٢١٣٧).

ثم خرجت يهود إلى غطفان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وجعلوا لهم تمر خيبر سنةً إن هم نصروهم، وأخبروهم أنَّ قريشاً قد تابعوهم على ذلك، واجتمعوا معهم فيه.

ثم خرجت يهود إلى بني سُلَيم، فوعدوهم المسير معهم إذا خرجت قريش.

خروج قريش:

دعت قريش العربَ إلى نصرها، وألَّبوا أَحابيشهم، ومن تبعهم، وخرجوا في أربعة آلاف، ولاقتهم بنو سليم بِمَر الظهران في سبعمئة، وخرجت بنو أسد بن خزيمة وقائدهم طلحة بن خويلد، وأسلم بعد ذلك، وخرجت بنو فزارة، وهم ألفٌ، يقودهم عُيَيْنَةُ بن حصن، وخرجت أشجع وقائدها مسعود بن رُخَيلة في أربعمئة، وأسلم بعد ذلك، وخرجت بنو مُرّة في أربعمئة، يقودهم الحارث بن عوف المُرِّي، وأسلم بعد ذلك، وخرجت غطفان. فكان عدد من حضر الخندق من المشركين عشرة آلاف بِإمرة أبي سفيان بن حرب، وأسلم بعد ذلك.

وأما ما كان من أمر سيدنا رسول الله ﷺ فإنَّ خزاعة لما علمت بتجهيز قريش أتى ركبهم إلى المدينة في أربع ليال حتى أخبروا رسول الله ﷺ بذلك، فندب الناسَ، وشاورهم في الأمر: أيبرز من المدينة، أم يكون فيها، ويحاربهم عليها، وفي طرقها؟ فأشار سلمان على رسول الله ﷺ بالخندق، وقال: يا رسولَ الله! إنا كنا بأرض فارس إذا تخوَّفنا الخيلَ خندقنا علينا، فأعجبهم ذلك، وأحبُّوا الثبات في المدينة، وأمرهم رسول الله ﷺ بالجدِّ، ووعدهم النصر إذا هم صبروا، واتقوا، وأمرهم بالطاعة. ولم تكن العربُ تخندق عليها.

وركب رسول الله ﷺ فرساً له ومعه عدَّةٌ من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، فارتاد موضعاً ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل

سلعاً الجبل خلف ظهره، ويخندق من طرف الحرَّة الشرقية إلى طرف الحرَّة الغربية، وخطَّ ﷺ لكل عشرة من الناس عشرة أذرع، وفي رواية: أربعون ذراعاً، يعملون فيها، وكان سلمان رضي الله عنه يعمل عمل عشرة، فتنافس فيه المهاجرون والأنصار، فقال المهاجرون: سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منَّا، فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منَّا أهل البيت». وحفر رسول الله ﷺ، وحمل التراب على ظهره، حتى إن الغبار علا ظهرَه وعُكَنَه[١]، وكان مَن فرغ من حصته عاد إلى غيره، فأعانه، حتى كمل الخندق، ولم يتأخر عن العمل في الخندق أحدٌ من المسلمين، وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ينقلان التراب في ثيابهما من العجلة، وكانا لا يفترقان في عملٍ، ولا مسيرٍ، ولا منزل.

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد، والبخاري عن أنس رضي الله عنهما قالا: كنّا مع رسول الله ﷺ في الخندق وهم يحفرون، ونحن ننقلُ التراب على أكتادنا[٢] فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار»، وفي رواية: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال: «اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة» فقالوا مجيبين له: نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً[٣].

آيات النبوة أثناء حفر الخندق:

وقع في حفر الخندق آياتٌ من أعلام نبوته ﷺ، منها:

---

(١) العكن: ثنيات البطن من الجوانب.
(٢) الكتد: أعلى الظهر.
(٣) بخاري (٥/ ١٣٧).

١ ـ أمر الصخرة:

روى البخاري عن جابر رضي الله عنه فقال: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كُدْيَةٌ شديدة، فجاؤوا النبيَّ ﷺ، فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازلٌ» ثم قامَ وبطنه معصوبٌ بحجرٍ ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعولَ، فضرب فعاد كثيباً أهيل، أو أهيم[١]. أي: يسيل.

وفي رواية للبراء بن عازب رضي الله عنهما: عرضتْ لنا في بعض الخندق صخرةٌ، لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك للنبي ﷺ، فجاء، وأخذ المِعْوَل من سلمان رضي الله عنه، فقال: «باسم الله» ثم ضربها، فنثر ثلثها، وخرج نورٌ أضاء ما بين لابتي المدينة فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله! إني لأبصرُ قصورَها الحمرَ الساعةَ من مكاني» ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر، فبرِقت بَرْقَةٌ من جهة فارس، أضاءت ما بين لابَتَيْها، فقال: «الله أكبر! أُعطيت مفاتيحَ فارس، والله! إنِّي لأُبْصِر قصرَ المدائنِ الأبيضَ الآن» أي: مدائن كسرى، وفي رواية: «والله! إني لأُبصِر قصورَ الحيرة، ومدائنَ كسرى كأنها أنياب الكلاب من مكاني هذا، وأخبرني جبريل أنَّ أمتي ظاهرةٌ عليها، فأبْشِروا بالنّصر» فَسُرَّ المسلمون، ثم ضرب الثالثة وقال: «باسم الله» فقطع بقية الحجر، وخرج نورٌ من قبل اليمن، فأضاء ما بين لابتي المدينة حتى كأنه مصباحٌ في جوف ليلٍ مظلم، فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيحَ اليمن، والله! إني لأُبصر أبوابَ صنعاء من مكاني الساعة»[٢].

وقد حكى الله عن المنافقين أنهم حين سمعوا ذلك قالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً.

---

(١) بخاري (٥/١٣٨).

(٢) مسند أحمد بشرح البنا (٢١/٧٨).

٢ـ تكثير الطعام:

ومن أعلام نبوّته: تكثير طعام جابر رضي الله عنه.

روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما حفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خَمَصاً شديداً، فانكفأت إلى امرأتي، فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً، فأخرجت إليَّ جراباً فيه صاعٌ من شعير، ولنا بُهَيْمَةٌ داجنٌ، فذبحتُها وطَحَنَتِ الشعير، ففرغَتْ إلى فراغي، وقَطَّعتها في برمتها، ثم ولَّيتُ إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه، فجئته، فساررتُه، فقلت: يا رسول الله! ذبحنا بُهَيمةً لنا، وطحنّا صاعاً من شعير كان عندنا، فتعالَ أنت ونفرٌ معك، فصاح النبيُّ ﷺ فقال: «يا أهل الخندق! إن جابراً قد صنع سُوراً (أي: طعاماً يدعو إليه الناس) فحيَّهلا بكم» فقال رسول الله ﷺ: «لا تُنْزِلُنَّ برمتكم ولا تَخبِزُنَّ عجينكم حتى أجيء» فجئت، وجاء رسول الله ﷺ يَقْدُم الناسَ، حتى جئتُ امرأتي فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلتُ الذي قلتِ، فأخرجتْ له عجيناً، فبصق فيه، وبارك، ثم عمد إلى بُرمتنا فبصق وبارك، ثم قال: «ادع خابزة فلتخبز معي، واقدحي من برمتكم، ولا تُنزلوها» وهم ألف، فَأُقسِم بالله لقد أكلوا حتى تركوه، وانحرفوا، وإنَّ بُرمتَنا لَتَغِطّ (تفور) كما هي، وإنَّ عجيننا لَيُخْبَزُ كما هو(١).

٣ـ جفنة بشير بن سعد:

روى ابن إسحاق قال:

جاءت ابنةٌ لبشير بن سعد أُختِ النعمان بجفنة من تمرٍ لأبيها، وخالها عبد الله بن رواحة ليتغدَّيا به، فقال لها ﷺ: «هاتيه» فصبَّته في كفّيه، فما ملأهما، ثم أمر بثوب فبسط له، ثم قال لإنسان: «اصرخْ في أهل الخندق: أن هلمّوا إلى الغداء» فاجتمعوا عليه، فجعلوا يأكلون،

---

(١) بخاري (٥/١٣٩).

وجعل التمرُ يزيدُ حتى صدروا عنه، وإنه ليسقطُ من أطراف الثوب[١].

٤ـ قعبة أم عامر:

روى ابن عساكر عن عبيد الله بن أبي بردة رضي الله عنه قال: أرسلتْ أمُّ عامر الأشهليّة بقعبةٍ فيها حَيْسٌ إلى رسول الله ﷺ، وهو في قبّته عند أم سلمة، فأكلت أم سلمة حاجتَها، ثم خرج بالقعبة، ونادى منادي رسول الله ﷺ إلى عشائه، فأكل أهلُ الخندق حتى نهلوا منها، وهي كما هي[٢].

٥ـ بركة يده ﷺ:

روى الطبراني عن معاوية بن الحكم رضي الله عنه قال: لمَّا أجرى أخي علي بن الحكم فرسه، فدقَّ جدار الخندق ساقه، فأتينا به إلى رسول الله ﷺ على فرسه، فقال: «باسم الله» ومسح ساقه، فما نزل عنها حتى برأ[٣].

وأبطأ عن رسول الله ﷺ، وعن المسلمين في عملهم ذلك رجالٌ من المنافقين، وجعلوا يورُّون الضعيف من العمل، ويتسلَّلون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذْن، وجعل الرجلُ من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها، يذكر ذلك للنبي ﷺ، ويستأذنه في اللحوق بحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله، رغبةً في الخير، واحتساباً له، فأنزل الله تعالى في المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور: ٢٤/ ٦٢].

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٤/ ٥٢٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

وأنزل الله سبحانه في المنافقين: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٦٣].

وأقاموا في حفر الخندق ستة أيام، وقيل: أكثر من ذلك عشرين يوماً، أو أربعة وعشرين يوماً، أو شهراً.

استعداد المسلمين لحرب المشركين:

لما فرغ رسول الله ﷺ من عمل الخندق استخلف على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم، ونزل أمام جبل سلع، فجعله خلف ظهره، والخندق أمامه، وضُرِبت له قبةٌ بأصل الجبل جبل الأحزاب(١)، وعدد المسلمين ثلاثةُ آلاف، ولواء المهاجرين مع زيد بن حارثة، ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة.

وجُعِل النساء والذَّراري بين الآطام،، وشبَّكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، فهي كالحصن.

قدوم قريش:

وأقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة في أحابيشها ومَن تبعهم من بني كنانة، وأهل تهامة، وأقبلت غطفان، ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نَقَمى إلى جانب أُحد.

فسرَّحتْ قريش ركابَها في عضاه وادي العقيق، ولم تجدْ لخيلها هناك شيئاً إلا ما حملتْ من علفها من الذُّرة.

وسرَّحت غطفان إبلَها إلى الغابة في أثْلها، وطَرْفائها، وكان الناس قد حصدوا زرعهم قبل ذلك بشهر، وأدخلوا حصادهم وأتبانهم، وكادت خيلُ غطفان تهلك.

---

(١) لعله جبل الداية.

نقض بني قريظة العهد:

لما نزل المشركون فيما ذُكِر خرج عدوُّ الله حُييُّ بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القُرظي، صاحب عقد بني قريظة، وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه، وعاهده على ذلك. فلما سمع كعبٌ بِحُييّ أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه حُييٌّ: ويحك يا كعب! افتحْ، قال: ويحك يا حيي! إنك امرؤٌ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً، فلستُ بناقضٍ ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً، قال: ويحك! افتحْ لي أُكلِّمك، قال: والله! ما أنا بفاعل. قال: والله! إنْ أغلقتَ دوني إلا خوفاً على جشيشتك أن آكل معك منها، فأحفظ[1] الرجلَ، ففتح له، فقال: ويحك يا كعب! جئتُك بعزِّ الدهر، وبحرٍ طامٍ، جئتُك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد، وقد عاقدوني، وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.

قال له كعب: جئتني والله! بذلِّ الدهر، وبجهام قد أُهرق ماؤه، فهو يرعد، ويَبرُق، وليس فيه شيء، ويحك يا حُييُّ خلِّني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء، فلم يزلْ حُييُّ يفتله في الذُّروة والغارب حتى سمح له على أن أعطاه عهداً وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

ووعظهم عمرو بن سعدى، وخوّفهم سوء فعالهم، وذكَّرهم ميثاقَ

---

(١) أغضبه.

رسول الله ﷺ، وعهدَه، وقال لهم: إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوَّه، فأبوا.

وخرج إلى رسول الله ﷺ من قريظة بنو سعنة: أسد، وأسيد، وثعلبة، فكانوا معه، وأسلموا.

وأمر كعب بن أسد حيي بن أخطب أن يأخذَ لهم من قريش وغطفان رهائن تكون عندهم، فبلغ عمرَ بن الخطاب خبرُ نقض قريظة العهد، فأعلم رسول الله ﷺ بخبرهم، فبعث سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وهما سيِّدا قومهما، ومعهما عبد الله بنُ رواحة، وخوَّاتُ بن جبير، وأسيد بن حضير، فقال: انطلقوا حتى تنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقّاً فالحنوا إليَّ لحناً أعرفه، ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم قد نقضوا العهد، فناشدوهم اللهَ والعهدَ الذي كان بينهم أن يرجعوا إلى ما كانوا عليه قبل ذلك قبل أن يلتحم الأمر، ولا يطيعوا حُيَيَّ بن أخطب، فقال كعبٌ: لا نرده أبداً، قد قطعتُه كما قطعتُ هذا القِبال ـ لِقبال نعله ـ، وقال: مَن رسول الله (ﷺ)؟! لا عهد بيننا وبينه، فشاتمهم سعد بن عبادة، أو سعد بن معاذ، وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدّة، فقال له سعد بن معاذ، أو سعد بن عبادة: إن كان الأول سعد بن معاذ دعْ عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، وقال أسيد بن حُضير لكعب: أتسب سيِّدك يا عدوَّ الله! ما أنت له بكفء يابن اليهوديَّة! ولَتُوَلِّيَنَّ قريش إن شاء الله منهزمين، ونتركك في عقر دارك، فنسير إليك، فننزلك من جحرك هذا على حكْمنا.

ورجعوا إلى رسول الله ﷺ، فقال سعد بن عبادة: عضل والقارَّة، يعني: كغدر عضل والقارّة بأصحاب الرجيع، وسكت الباقون، ثم

جلسوا، فقال رسول الله ﷺ: «أبشروا يا معشر المؤمنين! بنصر الله تعالى، وعونه، إني لأرجو أن أطوفَ بالبيت العتيق، وآخذَ المفتاح، وليهلكنَّ كسرى وقيصر، ولتُنْفَقَنَّ أموالُهم في سبيل الله». يقول ذلك حين رأى ما بالمسلمين من الكرب، ثم تقنَّع رسول الله ﷺ بثوبه حين جاءه الخبرُ عن بني قريظة، فاضطجع، ومكث طويلاً، وانتهى الخبر إلى المسلمين بنقض بني قريظة العهد، فاشتدَّ الخوفُ، وعظُم البلاء، وخيف على الذَّراري والنساء، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ١٠].

ورسول الله ﷺ قُبالة عدوِّهم، لا يستطيعون الزَّوال عن مكانهم، يعتقبون خندَقهم يحرسونه، ونجم النِّفاق من بعض المنافقين، فقال معتِّب بن قشير: كان محمد يَعِدُنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر، وأنَّ أموالَهما تنفق في سبيل الله، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. وقال رجالٌ ممَّن معه: يا أهل يثرب! لا مُقامَ لكم فارجعوا. وهمَّت بنو قريظة بالإغارة على المدينة ليلاً، فبلغ ذلك المسلمين، فعظُم الخطب، واشتدَّ البلاء، ثم كفَّهم الله تعالى عن ذلك لما بلغهم أنَّ رسول الله ﷺ أرسل سلمة بن أسلم في مئتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمئة يحرسون المدينة، ويُظهِرون التكبير، فإذا أصبحوا أمنوا.

وكان المسلمون يتناوبون حراسةَ نبيِّهم، وكانوا في قُرٍّ شديد، وجوع، وكان ليلُهم نهاراً. وكان رسول الله ﷺ يحرس معهم. روى محمد بن عمر عن عائشة رضي الله عنهما قالت: كان رسول الله ﷺ يختلف إلى ثُلْمةٍ في الخندق، فيحرسها، حتى إذا آذاه البرد جاءني، فأدفأته في حضني، فإذا دفئ خرج إلى تلك الثُّلمة، ويقول: ما أخشى أن يؤتى الناس إلا منها، فبينما رسول الله ﷺ في حضني قد دفئ، وهو

يقول: «ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثُّلمةَ الليلة»، فسمع صوت السلاح فقال رسول الله ﷺ: «من هذا؟» فقال سعد بن أبي وقاص: سعدٌ يا رسول الله! فقال: «عليك هذه الثلمةَ فاحرسها». قالت: فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه.

وكان عبَّاد بن بشر والزبير بن العوَّام على حرس رسول الله ﷺ.

روى محمد بن عمر عن أمِّ سلمة رضي الله عنها قالت: كنتُ مع رسول الله ﷺ في الخندق، وكنَّا في قُرٍّ شديد، فإني لأنظر إليه ليلة قام، فصلَّى ما شاء الله أن يصلي في قبّته، ثم خرج فنظر ساعةً، فأسمعه يقول: «هذه خيل المشركين تطيفُ بالخندق» ثم نادى عبَّاد بن بشر، فقال عبَّاد: لبَّيك! قال: «أمعك أحد؟» قال: نعم، أنا في نفرٍ من أصحابي حولَ قُبَّتك. قال: «انطلق في أصحابك فأطِف بالخندق، فهذه خيلُ المشركين تطيف بكم، يطمعون أن يصيبوا منكم غِرَّة، اللهم! فادفعْ عنَّا شرَّهم، وانصرنا عليهم، واغلبهم، فلا يغلبُهم أحدٌ غيرك».

فخرج عبَّاد في أصحابه، فإذا هو بأبي سفيان بن حرب في خيل المشركين يطوفون بمضيقٍ من الخندق، وقد نَذِرَ بهم المسلمون، فرموهم بالحجارة والنبل، حتى أذْلقَهم المسلمون بالرمي، فانكشفوا منهزمين إلى منازلهم. قال عبَّاد: ورجعتُ إلى رسول الله ﷺ، فوجدته يصلي، فأخبرته. قالت أم سلمة: يرحم الله عبَّاد بن بشر، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله ﷺ لقبَّته يحرسُها أبداً. فلما أصبح المشركون، ورأوا الخندق قالوا: إنَّ هذه لمكيدةٌ، ما كانت العرب تصنعها، ولا تكيدها، قال بعضُهم: إنَّ معه رجلاً فارسياً، فهو الذي أشار عليه به، قالوا: فمن هناك إذاً؟ ونادوا المسلمين، وكان بينهم الرمي بالنبل والحجارة، والخندقُ حاجز بين الفريقين.

وكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب في

أصحابه يوماً، ويغدو خالد بن الوليد يوماً، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوماً، ويغدو ضرار بن الخطّاب الفهري يوماً، فلا يزالون يجيلون خيلهم، ويتفرقون مرة، ويجتمعون أخرى، ويناوشون أصحابَ رسول الله ﷺ، ويقدِّمون رماتهم.

إرادته ﷺ مصالحة غطفان:

لما بلغ رسول الله ﷺ نقضُ قريظة العهد، أرسل إلى عيينة بن حصن، والحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان، وأسلما بعد ذلك، فلما جاءا في عشرةٍ من قومهما. قال لهما رسول الله ﷺ: «أرأيتما إن جعلت لكما ثلث تمر المدينة أترجعان بمن معكما، وتُخَذِّلان بين الأعراب؟» فقالا: تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك، فأحضر رسول الله ﷺ الصحيفةَ والدواة، وأحضر عثمانَ بن عفان، فأعطاه الصحيفة، وهو يريد أن يكتب الصلحَ بينهم، وعبَّاد بن بشر قائم على رأس رسول الله ﷺ، مُقَنَّعٌ في الحديد، فأقبل أُسَيد بن حضير إلى رسول الله ﷺ ومعه الرمح، ولا يدري بما كان من الكلام، فلما جاء إلى رسول الله ﷺ، وعُيَيْنَةُ بن حصن مادٌّ رجليه بين يدي رسول الله ﷺ، وعلم ما يريدون، قال: يا عين الهِجرِس! اقبض رجليك، أتمدُّهما بين يدي رسول الله ﷺ؟! لولا رسول الله ﷺ لأنفذت خِصيتَيْك بالرمح. ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنْ كان أمراً من السماء فامضِ له، وإن كان غير ذلك فوالله! لا نعطيهم إلا السَّيف، متى طمعوا بهذا منا؟! فسكت رسول الله ﷺ، فدعا سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فاستشارهما في ذلك، وهو متكىء عليهما، والقوم جلوسٌ، فتكلم بكلام يُخْفِيه، وأخبرهما الخبر، فقالا: يا رسول الله! إن كان الأمر من السماء فامضِ له، وإن كان أمراً لم تؤمر به، ولك فيه هوىً، فامضِ له سمعاً وطاعة، وإن كان إنما هو الرأيُ، فما لهم عندنا إلا السيف، وأخذ سعد بن معاذ الكتاب.

فقال رسول الله ﷺ: «إني رأيتُ العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردتُ أن أكسرَ عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله! قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله تعالى، ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة واحدةً، إلا قِرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام، وهدانا له، وأعزَّنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله! لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ: «أنت وذلك» فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا.

قتل علي بن أبي طالب عمرو بن ود العامري:

أقام رسول الله ﷺ مرابطاً، والمشركون يحاصرونه بضعاً وعشرين ليلة قريباً من الشهر، ولم يكن بينهم قتال لأجل ما حال من الخندق إلا الرَّمي بالسِّهام، والحجارة.

ثم إنَّ رؤساء المشركين وسادتهم أجمعوا على أن يغدو لقتال المسلمين، فغدا أبو سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وخالد بن الوليد، وضرار بن الخطاب، وعمرو بن العاص، وعمرو بن ود العامري، ورؤساء غطفان وبني أسد، فجعلوا يطوفون بالخندق، يطلبون مضيقاً ينفذون منه إلى النبي ﷺ.

فتيمَّموا مكاناً ضيقاً قد أغفله المسلمون، فأقحموا فيه خيلهم، فعبر خمسة منهم، وأقام سائر المشركين وراءهم لم يعبروا، وكان عمرو بن ودٍّ من بينهم، قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة، ولم يشهد أحداً، فحرَّم الدهن حتى يثأر من محمد وأصحابه، وهو يومئذٍ كبير، وكان من شجعان المشركين، وأبطالهم المسمّين، فلما كان يومُ الخندق خرج ثائر الرأس، مُعْلِماً ليرى مكانه، فلما وقف داخل الخندق دعا إلى البراز،

فقام علي بن أبي طالب، فاستأذن رسول الله ﷺ، فأذن له، وأعطاه سيفَه، وعمَّمه، وقال: «اللهم! أعنه عليه» ثم دنا منه، فقال له: يا عمرو! إنك كنت تقول في الجاهلية: لا يدعوني أحدٌ إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتُها. قال: أجل، فقال عليٌّ: فإني أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتسلم لرب العالمين. قال: يابن أخي! أخِّر عني هذه، قال: وأخرى ترجع إلى بلادك، فإن يك محمد صادقاً كنت أسعدَ الناس به، وإن يك كاذباً كان الذي تريد قال: هذا ما لا تَحَدَّثُ به نساء قريش أبداً، وقد نذرتُ ما نذرتُ، وحرَّمتُ الدُّهن. قال: فالثالثة البراز. فضحك عمروٌ، وقال: إن هذه لخصلةٌ ما كنتُ أظنُّ أن أحداً من العرب يرومني عليها، فمن أنت؟ قال: أنا عليُّ بن أبي طالب. قال: يابن أخي! من أعمامك؟ من هو أسنُّ منك؟ فإني أكره أن أهريقَ دمك، فقال علي رضي الله عنه: لكني والله! لا أكره أن أهُريق دمك، فغضب عمرو، فنزل عن فرسه فعقرها، وسلَّ سيفه كأنه شعلةُ نار، ثم أقبل نحو عليٍّ مغضَباً، واستقبله عليُّ بدرقته، ودنا أحدُهما من الآخر، وثارت بينهما غُبرةٌ، فضربه عمرو فاتَّقى عليٌّ الضربةَ بالدّرقة، فقدَّها، وأثبتَ فيها السيف، وأصاب رأسه فشجَّه، ويقال: إن علياً لم يجرح قطُّ، وضربه عليٌّ على حبل عاتقه، فسقط، وثار العجاج، وسمع رسول الله ﷺ التكبير، فعرف أنَّ علياً قتله.

ثم أقبل علي رضي الله عنه نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل، وخرجت خيولهم منهزمة حتى اقتحمت الخندق، ورجع المشركون هاربين، وخرج في آثارهم الزبير وعمر، وحمل الزبير على نوفل بن عبد الله بالسيف حتى شقّه باثنين، وظفر بدرعه، ثم حمل على آخر فهرب.

وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفة عمرو بن ودّ بعشرة آلاف، فقال رسول الله ﷺ: «هو لكم، لا نأكل ثمن الموتى». ورُوي أنهم بعثوا أيضاً إلى الرسول ﷺ يطلبون جثة نوفل بن عبد الله

المخزومي، وعرضوا عليه الدية فقال: «إنه خبيث الدية، فلعنه الله ولعن ديته، فلا أرب لنا في ديته، ولسنا نمنعكم أن تدفنوه».

اتَّحد المشركون بعد مقتل عمروٍ على أن يغدوا جميعاً، ولا يتخلَّف منهم أحدٌ، فباتوا يعبِّئون أصحابهم، ثم وافَوا رسول الله ﷺ بالخندق قبل طلوع الشمس، وقد عبَّأ رسول الله ﷺ أصحابه، وجمعهم على القتال، ووعدهم النصر إن ثبتوا، وأحدق المشركون بالخندق من كل وجه، ووجَّهوا نحو خيمة رسول الله ﷺ كتيبةً غليظةً، فيها خالد بن الوليد، فقاتلهم يومه ذلك إلى هويٍّ من الليل، وما يقدر رسول الله ﷺ ولا أحدٌ من المسلمين أن يزولوا عن مواضعهم، ولا قدر رسول الله ﷺ ولا أصحابُه على صلاة ظهر ولا عصر ولا مغربٍ ولا عشاء، فجعل أصحابه يقولون: يا رسول الله! ما صلَّينا، فيقول ﷺ: «والله ما صلَّيتُ حتى كشفهم الله تعالى» فرجعوا متفرِّقين، ودعا ﷺ عليهم قائلاً: ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى»، ورجع كل فريق إلى منزله، وأقام أسيد بن حضير على الخندق في مئتين، فكرّت خيلُ المشركين وعليها خالد بن الوليد يطلبون غِرَّةً، فناوشهم ساعة، ورمى حبَّان بن قيس بن العَرِقة سعدَ بن معاذ رضي الله عنه بسهم، فقطع أكحله (عِرقٌ في اليد) فلما أصابه قال: خذها وأنا ابن العرقة، فقال له سعد، أو رسول الله ﷺ: عَرَّق الله وجهك في النار. وقال سعدٌ: اللهم! إن أبقيتَ من حرب قريشٍ شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قومَ أحبُّ إليَّ أن أجاهدهم من قومٍ آذَوا رسولك، وأخرجوه وكذَّبوه، اللهم! إن كنتَ وضعتَ الحرب بيننا وبينهم، فاجعلْها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقرَّ عيني من بني قريظة.

وقضى رسول الله ﷺ الصلوات التي فاتته، فصلى الظهر أولاً كما كان يصليها في وقتها، ثم أمر بلالاً فأقام، فصلى العصر كذلك، ثم أمره، فأقام فصلى المغرب كذلك، ثم أمره فأقام فصلى العشاء كذلك،

ثم قال: «ما على وجه الأرض قومٌ يذكرون الله تعالى في هذه الساعة غيركم».

غنيمة المسلمين:

طلب أبو سفيان من حُييّ بن أخطب علفاً للدواب، فكلَّم حُيَيٌّ كعب ابن أسد القرظي، فقال: مالُنا مالُك، فاصنع ما رأيت، مُرِ القوم يأتوا بحَمولة، فيحملوا ما أرادوا، فأرسل إليهم حُيَيّ: أن ابعثوا بحمولتكم تحمل العلف، فأرسلوا عشرين بعيراً، فحمَّلوها شعيراً، وتمراً، وتبناً، وخرجوا بها إلى قريش، حتى إذا كانوا قريباً من مسجد قُباء مرَّ بهم عشرون رجلاً من بني عمرو بن عوف في نصف النهار، يطلبون منازلهم بعدما دفنوا ميتاً لهم، فلما رأوا الحمولة قاتلوا أهلها، وكانوا أكثر منهم، فأسلموها للمسلمين، وانصرفوا يقودونها إلى رسول الله ﷺ، فتوسَّع بها المسلمون، ونحروا من الأبعرة ما نحروا.

واشتدَّ البلاءُ على المسلمين، وكانوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠/١٣] وأتى رسول الله ﷺ مسجد الأحزاب يوم الإثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء بين الصلاتين الظهر والعصر، فوضع رداءه، وقام فرفع يديه يدعو عليهم: «اللهم! مُنزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم! اهزمهم، وانصرنا عليهم».

ومن الدعاء الذي أرشد إليه رسول الله ﷺ أصحابه: «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا».

خدعة نعيم بن مسعود:

قال الصالحي: روى أبو نعيم عن عروة وابن شهاب: أن نُعَيْم بن مسعود كان صديقاً لبني قريظة، فلما سارت الأحزابُ إلى رسول الله ﷺ سار مع قومه (غطفان)، وهو على دينهم، فأقامت الأحزابُ ما أقامت،

حتى أجدب الجناب[1]، وهلك الخفُّ، والكراع، فقذف الله تعالى في قلبه الإسلام، وكتم قومَهُ إسلامه، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء فوجده يصلِّي، فلما رآه جلس، ثم قال: «ما جاء بك يا نُعيم؟» قال: جئتُ أصدّقك، وأشهد أنَّ ما جئتَ به حقٌّ، فأسلم، وأخبره أن قريشاً تحزَّبوا عليه، وأنهم بعثوا إلى قريظة أنه قد طال ثَواؤُنا، وأجدب ما حولنا، وقد جئنا لنقاتل محمداً وأصحابه، فنستريح منه، فأرسلت إليهم قريظة: نعم ما رأيتم فإذا شئتم فابعثوا بالرَّهن، ثم لا يحبسكم إلا أنفسكم، فقال رسول الله ﷺ لنعيم: «فإنهم (أي: بني قريظة) قد أرسلوا إليَّ يدعونني إلى الصلح، وأَرُدُّ بني النَّضير إلى ديارهم وأموالهم». فقال نعيم: يا رسول الله! فمرني بما شئت، والله! لا تأمرني بأمرٍ إلا مضيتُ له، قال: وقومي لا يعلمون بإسلامي، ولا غيرُهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فخذِّل عنا النَّاسَ ما استطعت، فإنَّ الحربَ خَدعة». قال: أفعل، لكن يا رسول الله! إني أقول، فَأْذَن لي فأقول، قال: «قل ما بدا لك، فأنت في حِلٍّ» قال نُعَيْم: فذهبتُ حتى جئتُ بني قريظة، فلما رأوني رحَّبوا بي، وأكرموني، وعرضوا عليَّ الطعام والشراب، فقلت: إني لم آتِ لطعام وشراب، إنما جئتُكم نَصِباً بأمركم، وتخوُّفاً عليكم؛ لأشير عليكم برأي، وقال: قد عرفتم ودِّي إياكم، وخاصَّةَ ما بيني وبينكم، فقالوا: قد عرفنا، ولست عندنا بمتَّهم، وأنت عندنا ما نحبُّ من الصدق والبِرِّ، قال: فاكتموا عنِّي، قالوا: نفعل. قال: إن أمر هذا الرجل بلاءٌ ـ يعني: رسول الله ﷺ ـ صنع ما رأيتم ببني قينقاع، وبني النضير، وأجلاهم عن بلادهم بعد قبض الأموال، وإن ابن أبي الحقيق قد سار فينا فاجتمعنا معه لننصركم، وأرى الأمر قد تطاول كما ترون، وإنكم والله! ما أنتم وقريش وغطفان

---

(١) أجدب الجناب: أجدب ما قرب من محلّة القوم.

من محمد بمنزلة واحدة، أما قريش وغطفان فإنهم قومٌ جاؤوا سيَّارة، حتى نزلوا حيث رأيتم، فإن وجدوا فرصةً انتهزوها، وإن كانت الحرب فأصابهم ما يكرهون انشمروا إلى بلادهم، وأنتم لا تقدرون على ذلك، البلد بلدكم، فيه أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم، وقد كبر عليهم جانب محمد، أجلبوا عليه بالأمس إلى الليل فقتل رأسهم عمرو بن عبد ودّ، وهربوا منه مجروحين، لا غِنى بهم عنكم لما يعرفون عندكم، فلا تقاتلوا مع قريش ولا غطفان حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم، تستوثقون به منهم، ألا يبرحوا حتى يناجزوا محمداً، قالوا: أشرتَ علينا بالرأي النّصح، ودعوا له، وشكروه، وقالوا: نحن فاعلون. قال: ولكن اكتموا عليَّ. قالوا: نفعل.

ثم أتى نعيم أبا سفيان في رجالٍ من قريش، فقال: يا أبا سفيان! جئتُك بنصيحةٍ فاكتمْ عليَّ. قال: أجل. قال: تعلم أن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد، فأرادوا إصلاحَه، ومراجَعته، فأرسلوا إليه وأنا عندهم: إنا سنأخذ من قريش وغطفان من أشرافهم سبعين رجلاً نسلمهم إليك، تضرب أعناقهم، وتردَّ جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم ـ يعنون: بني النضير ـ ونكون معك على قريش حتى نردَّهم عنك.

فإن بعثوا إليكم يسألونكم رُهُناً، فلا تدفعوا إليهم شيئاً، واحذروهم على أشرافكم، ولكن اكتموا عليَّ، ولا تذكروا من هذا حرفاً، قالوا: لا نذكره.

ثم أتى إلى غطفان فقال: يا معشر غطفان! قد عرفتُم أني رجلٌ منكم فاكتموا عليَّ، واعلموا أن بني قريظة بعثوا إلى محمد ـ وقال لهم مثلَ ما قال لأبي سفيان ـ فاحذروا أن تدفعوا إليهم أحداً من رجالكم، فصدَّقوه.

وأرسل يهود عزَّال بن سموأل إلى قريش يقول لهم: إن ثَواءكم قد طال، ولم تصنعوا شيئاً، إنكم لو وعدتمونا يوماً تزحفون فيه إلى محمد،

فتأتون من وجه، وتأتي غطفان من وجه، ونخرج نحن من وجه آخر، لم يُفْلِت محمد من بعضنا، ولكن لا نخرج معكم حتى ترسلوا إلينا بِرِهان من أشرافكم ليكونوا عندنا، فإننا نخافُ إن مسَّتكم الحرب، أو أصابكم ما تكرهون أن تشمِّروا إلى بلادكم، وتتركونا في عُقر دارنا، وقد نابذنا محمداً بالعداوة. فلمَّا جاء الرسولُ لم يرجع إليه أبو سفيان بشيء وقال: بعد أن ذهب: هذا ما قال نُعَيم.

وخرج نُعَيم إلى بني قريظة فقال: يا معشر بني قريظة! بينا أنا عند أبي سفيان إذ جاء رسولكم يطلب منه الرِّهان، لم يردَّ عليه شيئاً، فلما ولَّى قال: لو طلبوا مني عَناقاً ما رهنتُها، أنا أرهنُهم سَراة أصحابي، يدفعونهم إلى محمد يقتلهم. فارتؤوا رأيكم، ولا تقاتلوا مع أبي سفيان وأصحابه حتى تأخذوا الرّهن.

فلما كانت ليلةُ السبت أرسل أبو سفيان، ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمةَ بن أبي جهل، ونفراً من قريش، وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مُقام، قد هلك الخفُّ والحافر، فأعدُّوا للقتال حتى نناجز محمداً، ونَفْرُغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيه بعضُنا حدثاً فأصابه ما لم يَخْفَ عليكم، وإنا لسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى نناجز محمداً، فإنَّا نخشى إن ضرَّستكم الحرب، واشتدَّ عليكم القتالُ أن تنشمروا إلى بلادكم، وتتركونا، والرجل في بلادنا، فلا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعتْ إليهم الرسُل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: إن الذي ذكر نُعَيمٌ لَحَقٌّ، فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله! ما ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال، فاخرجوا، فقاتلوا.

فقالت بنو قريظة لما سمعُوا ذلك: إن الذي ذكر لكم نعيم لَحَق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلَّوا بينكم وبين الرجل في بلدكم.

وتكررت رسُل قريش وغطفان إلى بني قريظة، وهم يردُّون عليهم بما تقدَّم، فيئس هؤلاء من نصر هؤلاء، فاختلف أمرهم، وخذَّل الله تعالى بينهم على يد نعيم بن مسعود رضي الله عنه.

انهزام المشركين بالبرد، والريح، والملائكة:

قال ابن إسحاق: وبعث الله عليهم الريح (ريح الصَّبا) في ليلة شاتية باردة، فأكفأت قدورهم، وطرحت آنيتهم، وقلعت بيوتهم، وقطعت أطنابها (حبال البيوت) مع أصواتٍ مثل الصواعق، ولم تجاوز عسكرهم، وصارت الريح تلقي الرجال على أمتعتهم، وأرسل الله عليهم ملائكة زلزلتهم.

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٩] ولم تقاتل الملائكة، بل نفثت في رُوعهم الرعب، وقال ﷺ: «نُصِرت بالصّبا، وأهلكت عادٌ بالدَّبور».

وكانت تلك الليلة شديدةَ الظلمة، وجعل المنافقون يستأذنون، ويقولون: إن بيوتنا عورة، أي: من العدو، لأنها خارج المدينة، وحيطانها قصيرة، يخشى عليها السرقة، فأذن لنا نرجع إلى نسائنا، وأبنائنا، وذرارينا، فيأذن لهم ﷺ، وكان رجوعُهم فراراً، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ١٣] وأما المؤمنون الصادقون فمن رجع منهم إنما رجع لألم البرد والجوع الشديدين، أو الخوف الحقيقي على بيوتهم، فكشفوا حالَ بيوتهم، ثم رجعوا.

وقال ﷺ: «أيُّ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع، وأسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة؟» قال ذلك ثلاثاً، فما قام أحدٌ من شدة الجوع، والبرد.

فدعا حذيفة بن اليمان، قال حذيفة: لما دعاني رسول الله ﷺ لم أجد بُدّاً من القيام، فجئتُه ﷺ فقال: «تسمع كلامي منذ الليلة ولا تقوم؟!» فقلت: والذي بعثك بالحق! إنْ قدرتُ على ما بي من الجوع والخوف والبرد، فقال: «اذهب، حفظك الله من أمامك، ومن خلفك، وعن يمينك، وعن شمالك، حتى ترجع إلينا» قال: فقمتُ مستبشراً بدعائه، فما شقَّ علي شيء مما كان، وقال: « ياحذيفة! اذهبْ فادخل في القوم». قال حذيفة: فأذهب الله عني القرّ، أي: البرد، والفزع، وخرجت كأنما أمشي في حمَّام، فلما ولَّيتُ دعاني، فقال: «لا تُحْدِث شيئاً، لا ترمِ بسهم ولا حجر، ولا تضربنَّ بسيفٍ حتى تأتيني» فجئتُ إليهم، والريح، وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تُقِرُّ لهم قدراً، ولا ناراً، ولا بناءً، فدخلتُ في غِمارهم، فسمعتُ أبا سفيان يقول: يا معشر قريش! ليعرف كل امرىء جليسه، واحذروا الجواسيس والعيون، فأخذتُ بيد جليسٍ لي على يميني، وقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، وقبضتُ بيدي على من على يساري، وقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص، فعلت ذلك خشيةَ أن يفطن بي، فقال أبو سفيان: يا معشر قريش! والله إنكم لستم بدار مقام وقد هلك الكراع، والخُفُّ، وأخلفَتْنا بنو قريظة، وبلغَنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحلٌ، ووثب على جمله، فما حلَّ عقاله إلا وهو قائم، فقال له عكرمة بن أبي جهل: إنك رأسُ القوم وقائدهم، تذهب وتترك الناس؟! فاستحيا أبو سفيان، وأناخ جمله، وأخذ بزمامه، وجعل يقوده، ويقول: ارحلوا، فجعل الناسُ يرحلون وهو قائم، ثم قال لعمرو وخالد: أقيما في الخيل بإزاء محمد وأصحابه،

فإنَّا لا نأمن من أن نُطلَب، فأقاما في مئتي فارس، وسار جميعُ العسكر، وتركوا ما استثقلوا من متاعهم، فغنمه المسلمون.

قال حذيفة: ولولا عهدُ رسول الله ﷺ إليَّ حين بعثني ألا أُحدث شيئاً لقتلتُ أبا سفيان بسهم. وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فاشتدّوا راجعين إلى بلادهم.

قال حذيفة رضي الله عنه: ثم أتيتُ رسول الله ﷺ فوجدتُه قائماً يصلي، فأخبرته الخبر، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، وضحك حتى بدت ثناياه في سواد الليل، وعاودني البرد، وجعلتُ أقرقف، فأومأ إليَّ رسول الله ﷺ بيده، فدنوت منه فسدل عليَّ من فضل شملته، فنمتُ، ولم أزل نائماً حتى الصبح، أي: طلوع الفجر، فلما أصبحت قال لي رسول الله ﷺ: «قم يا نَوْمان» أي: يا كثير النَّوم.

وانصرف ﷺ من غزوة الخندق يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة، ومدة إقامته بالخندق محاصَراً إما خمسة عشر يوماً، وإما أربعةٌ وعشرون يوماً، وإما شهر.

وقال ﷺ بعد انصراف الأحزاب: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا. الآن نغزوهم، ولا يغزوننا، نحن نسيرُ إليهم».

وقد كان كما أخبر ﷺ، وفي ذلك علم من أعلام نبوته ﷺ.

وكان ﷺ إذا قفل من الغزو، أو الحج، أو العمرة يبدأ فيكبر ثلاث مرات، ثم يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة لا غير، وقتل من المشركين ثلاثة.

غزوة بني قريظة:

بنو قريظة: قوم من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس.

لما رجع ﷺ من الخندق هو وأصحابه، ووضعوا السلاح، وكان قد صلى الظهر، ودخل بيت عائشة رضي الله عنه، فغسل رأسه، واغتسل، ودعا بالمجمرة ليتبخر، أتاه جبريل عليه السلام معتجراً بعمامة سوداء من إستبرق رخاها بين كتفيه على بغلة شهباء، فقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟! قال: «نعم» قال جبريل: ما وضعت الملائكةُ السلاح، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامدٌ إليهم بمن معي من الملائكة، فمزلزل بهم الحصون. فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ في أصحابي جهداً، فلو أنظرتهم أياماً!» فقال جبريل: انهض إليهم. فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً، وهو بلال رضي الله عنه، أن ينادي في الناس: «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلِّينَّ العصر إلا في بني قريظة» وبعث منادياً يقول: « ياخيلَ الله! اركبي» أي: يا فرسان خيل الله، ثم سار إليهم، وبعث علياً رضي الله عنه على المقدمة، ودفع إليه لواءه، وكان اللواء على حاله لم يُحَلّ عند مرجعهم من الخندق، واستعمل على المدينة ابنَ أم مكتوم رضي الله عنه، ولبس ﷺ السلاحَ، والدرعَ، والمغفر (مثل القلنسوة، غير أنها أوسع، زرد ينسج من الدروع، يلقيه الرجل على رأسه، فيبلغ الدرع، ثم يلبس البيضة، أي: الخوذة فوقه) والبيضة، وأخذ قناته (رمحه) وتقلّد القوس، وركب الفرس، وسار والناس حوله قد لبسوا السلاح، وركبوا الخيل، وهم ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثون فرساً.

ومرَّ بنفرٍ من الأنصار، وقد لبسوا السلاح، فقال: «هل مرَّ بكم أحد؟» قالوا: نعم دحية الكلبي مرَّ على فرس أبيض، عليه اللأمة، وأمرنا بحمل السلاح، وقال لنا رسول الله ﷺ: «يطلع عليكم الآن» فلبسنا

سلاحنا، وصففنا، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك جبريل بُعث إلى بني قريظة ليزلزل حصونهم، ويقذفَ الرعبَ في قلوبهم».

فلما دنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه من أحد حصون بني قريظة، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار، وغرز اللواء عند أصل الحصن، سمع من بني قريظة مقالةً قبيحة في حقّه ﷺ، فسكت المسلمون، وقالوا: السيف بيننا وبينكم، فلما رأى علي رضي الله عنه رسول الله ﷺ مقبلاً، أمر أبا قتادة الأنصاري أن يلزم اللواء، ورجع إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله! لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: «لعلك سمعتَ منهم لي أذى» قال: نعم، قال: «لو رأوني لم يقولوا شيئاً» فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: «يا إخوان القردة! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟!» قالوا: يا أبا القاسم! ما كنتَ جهولاً.

وقال لهم أُسَيد بن حُضير: يا أعداء الله! لا تبرحوا من حصنكم حتى تموتوا جوعاً، إنما أنتم بمنزلة ثعلب في جحر، فقالوا: يابن الحضير! نحن مواليك، فقال: لا عهد بيني وبينكم.

ثم إنَّ جماعةً من الصحابة شغلهم ما لم يكن لهم منه بدٌّ عن المسير لبني قريظة، ليصلوا بها العصر، فأخَّروا صلاة العصر إلى أن جاؤوا بعد العشاء الآخرة امتثالاً لقوله ﷺ: «فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة» فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة، وبعضهم قال: نصلِّي، ما أراد رسول الله ﷺ منَّا أن ندع الصلاة، ونخرجها عن وقتها، وإنما أراد الحثَّ على الإسراع، فصلَّوا في أماكنهم، فما عابهم الله في كتابه، ولا عنفهم رسول الله ﷺ؛ لأن كلاً من الفريقين مأجورٌ بقصده؛ لأنهم مجتهدون.

وحاصر رسول الله ﷺ بني قريظة خمساً وعشرين ليلة، واشتدَّ الحصارُ عليهم، وقذف الله الرعب في قلوبهم، فلما أيقنوا أنَّ رسول الله ﷺ غيرُ منصرفٍ عنهم حتى يقاتلهم، قال كبيرُهم كعب بن أسد:

يا معشر يهود! قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارضٌ عليكم خِلالاً ثلاثاً، فخذوا أيّها شئتم، قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل، فوالله! لقد تبيَّن لكم أنه نبيٌّ مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم، وأموالكم، ونسائكم.

قالوا: لا نفارق حُكْم التوراة، ولا نستبدل به غيره.

قال كعب: فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهلمَّ فلنقتل أبناءنا، ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا نَفَلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك، ولم نترك وراءنا نسلاً يخشى عليه، وإن نظفر فلعمري لنجدنَّ النساء، والأبناء.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير العيش بعدهم؟!

قال: فإن أبيتم عليَّ هذه، فإن الليلة ليلة سبت، وأن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمَّنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيبُ من محمد وأصحابه غِرَّة (غفلة).

قالوا: نفسد سبتنا، ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا، وأصابه ما لم يخف عليك من المسخ.

وأرسلت يهود شأس بن قيس إلى رسول الله ﷺ أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير، من: أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة (السلاح)، فأبى رسول الله ﷺ أن يحقنَ دماءهم، ويسلم لهم النساء، والذريّةَ، فأرسلوا إليه ثانياً بأنهم لا حاجةَ لهم بشيء من الأموال، لا من الحلقة، ولا من غيرها، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حُكم رسول الله ﷺ، فعاد شأس إليهم بذلك.

أبو لبابة رضي الله عنه:

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أنت ابعث إلينا أبا لبابة، وهو

رفاعة بن عبد المنذر الأنصاري رضي الله عنه لنستشيره في أمرنا؛ لأن ماله، وولده، وعياله كانت في بني قريظة، وكانوا محالفين للأوس، وهو منهم، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وأسرع إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه من شدة المحاصَرة، وتشتيت مالِهم، فرقّ لهم، وقالوا: يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حُكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، أي: إنه الذبح.

قال أبو لبابة: فوالله! ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفتُ أني خنتُ رسول الله ﷺ، أي لأن في ذلك تنفيراً لهم عن الانقياد له ﷺ، ومِن ثمَّ أنزل الله في ذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٧ـ٢٨]. قال أبو لبابة. ثم نزلتُ من عندهم وإن عيني لتسيل من الدموع، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، فلم يلقَ رسول الله ﷺ، وارتبط في المسجد بعمود من عمده، ويعرف بأسطوانة أبي لبابة، وأسطوانة التوبة، وكان الوقت شديد الحر، وقال: والله! لا أذوقُ طعاماً ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب الله عليَّ مما صنعتُ، وعاهد الله ألا يطأ بني قريظة أبداً، ولا يُرى في بلدٍ خان الله ورسوله فيه أبداً.

فلمَّا بلغ رسول الله ﷺ خبرُه، وكان قد استبطأه قال: «أما لو جاءني لاستغفرتُ له، وأما إذ فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب الله عليه» ثم مكث أبو لبابةَ مربوطاً ست ليال لا يذوق طعاماً ولا شراباً، وتأتيه امرأتُه في كل وقت صلاةٍ، فَتَحلّه للصلاة، ثم تعود فتربطه بالجذع. ثم أنزل الله توبته على النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٢].

وكان نزول توبته ورسول الله ﷺ في بيت أم سلمة رضي الله عنها.

قالت أم سلمة: فسمعتُ رسول الله ﷺ من السَّحَر، وهو يضحك فرحاً بالتوبة، قالت: فقلت: يا رسول الله! مم تضحك؟ أضحك الله سنَّك؟ قال: «تِيْب على أبي لبابة» قالت: قلتُ: أفلا أبشِّره يا رسول الله؟ قال: «بلى، إن شئت» فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يُضرب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة! أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناسُ إليه ليطلقوه، فقال: لا والله! حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلّني، فجاءه رسول الله ﷺ وهو خارجٌ لصلاة الصبح، فحلَّه، فقال: يا رسول الله! إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبتُ فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي؟ فقال له ﷺ: «يجزئك الثلث أن تتصدَّق به».

نزول بني قريظة على حكم رسول الله ﷺ:

ثم إنَّ بني قريظة نزلوا على حُكْم رسول الله ﷺ فأمر بهم، فكُتِّفوا، وجُعلوا ناحية، وكانوا ستمئة، وفيهم حُيي بن أخطب زعيم بني النضير، وهو السبب في نَقْضهم العهد، وأُخرج النساء والذَّراري من الحصون وجُعلوا ناحية، وكانوا ألفاً، واستعمل عليهم عبد الله بن سلام، فتواثب الأوس، فقالوا: يا رسول الله! موالينا وحلفاؤنا، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد فعلت، يعنون: بني قينقاع حلفاء الخزرج، وقد نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وقد كلَّمه فيهم عبد الله بن أبي ابن سلول، فوهبهم له على أن يَجلوا، فظنَّت الأوس أن يهب لهم بني قريظة، كما وهب بني قينقاع للخزرج.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «أما ترضون يا معشر الأوس! أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟» قالوا: بلى، فقال: «ذلك إلى سعد بن معاذ».

وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه يومئذٍ في المسجد النبوي في خيمة رُفَيدة الأسلمية رضي الله عنها بأمر رسول الله ﷺ، حين أصابه السهم بالخندق، حتى يعوده من قُرْب، فأتاه قومه فحملوه على حمار،

ثم أقبلوا به على رسول الله ﷺ وهم يقولون له: يا أبا عمرو! أحسن في مواليك، فإنَّ رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فأحسِنْ فيهم، فقد رأيتَ من ابن أُبيٍّ ما صنع في حلفائه. وهو ساكت، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعدٍ ألا تأخذه في الله لومة لائم.

فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين، وهم حوله جلوس، قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيِّدكم» فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو! إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، وقال رسول الله ﷺ: «احكم فيهم يا سعد» فقال: الله ورسوله أحقُّ بالحكم، قال: «قد أمرك الله أن تحكم فيهم» فقال سعد لمن في الناحية التي ليس فيها رسول الله ﷺ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم بما حكمت، قالوا: نعم، قال: وعلى من هاهنا مثل ذلك، وأشار إلى الناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرضٌ عن رسول الله ﷺ إجلالاً له.

ثم قال سعد لبني قريظة: أترضون بحكمي؟ قالوا: نعم، فأخذ عليهم عهد الله وميثاقَه؟ أنَّ الحكم ما حكم به سعد، قال سعد: فإني أحكمُ فيهم أن تُقتَل الرجال، وتقسَم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء، وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار، وقال للأنصار: إني أحببتُ أن يستغنوا عنكم.

فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات، قد طرقني بذلك المَلَك سَحَراً» ثم أمر أن يُجمع ما في حصونهم من الحلقة، والسلاح، وغير ذلك، وخمَّس ذلك مع النخل والسبي، ثم قسم الباقي على الغانمين، ثم إنَّ رسول الله ﷺ أمر بالأسارى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد، والنساء والذريّة في دار بنت الحارث النجّارية، ثم غدا إلى سوق المدينة، فخندق فيها خنادق

(حفائر) وجلس ﷺ ومعه أصحابه، ثم أمر بقتل كلّ من نبت شعر عانته، أي: كلّ بالغ ولم يقتل من النساء إلا بنانة، وكانت قد ألقت برحى على أصحاب محمد؛ الذين يستظلون في فيء الحصن، فأدركت خلاّد بن سويد رضي الله عنه فشدخت رأسه فمات، فَقُتِلَتْ به.

وأقرّ الله عين سعد بقتل بني قريظة، فإنه سأل الله لما أصيب بالسهم في الخندق، وقال: اللهم! لا تمتني حتى تقرَّ عيني من بني قريظة، فاستجاب الله دعوته، وكان جرحُه قارب البُرء، فدعا الله تعالى وقال: اللهم إنك تعلم أن ليس أحدٌ أحبّ إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك، وأخرجوه من وطنه، اللهم! إني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان قد بقي من حرب قريش فأبقني له حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها، أي: الجراحة، واجعل موتي فيها، فانفجرت تلك الجراحة من ليلته تلك، فلم يَرُعْهم، أي: أهل المسجد، إلا الدم يسيل إليهم من خيمةٍ لرجل من بني غفار، وهو زوج رُفيدة الأسلمية، فقالوا: يا أهل الخيمة! ما هذا الدم الذي يأتينا من قِبَلكم؟ فإذا سعد يسيلُ جرحه دماً هديراً، فمات منها. وكان سعد في الأنصار بمنزلة الصديق في المهاجرين، رضي الله عنهم أجمعين.

وبعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري بسبايا بني قريظة إلى نجد، فابتاع لهم بها سلاحاً، وخيلاً، أي: جملة من السبايا، لما ورد في رواية: بعث رسول الله ﷺ سعد بن عبادة بسبايا يبيعهم في الشام، أي: بجملة منهنّ، فاشترى بهن سلاحاً، وخيلاً، قسمها على المسلمين، والله أعلم.

غزوة بني لَحيان:

كانت في غُرَّة شهر ربيع الأول سنة ستٍّ من الهجرة.

وسببها: أنه ﷺ وَجَدَ (حزن) على عاصم بن ثابت وأصحابه وجداً شديداً، وهم القرّاء[١] السبعون المقتولون ببئر معونة. فأظهر ﷺ أنه يريد الشام ليصيب من القوم غِرَّةً، واستعمل على المدينة ابنَ أم مكتوم، وخرج في مئتي رجل، ومعهم عشرون فرساً، فسلك على جبل غراب عن الطريق إلى الشام، ثم انحرف يساراً حتى استقام على الطريق إلى الجحفة، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غراب وادٍ بينه وبين عسفان خمسة أميال، وهي منازل بني لحيان، حيث كان مصاب أصحابه أهل الرجيع؛ الذين قتلوا، فترحَّم عليهم، ودعا لهم بالمغفرة، وسمعت بنو لحيان فهربوا في رؤوس الجبال خوفاً من المنصور بالرعب ﷺ، فلم يقدر على أحد منهم، فأقام يوماً أو يومين يبعث السرايا في كل ناحية من نواحيهم، ثم خرج حتى أتى عُسفان، فبعث أبا بكر رضي الله عنه في عشرة فوارس لتسمع بهم قريش فيذعرهم، فأتوا كُراعَ الغميم، ثم رجع ﷺ وأصحابه، ولم يلقوا كيداً.

وكانت غيبته ﷺ عن المدينة في هذه الغزوة أربع عشرة ليلة.

غزوة الغابة:

كانت في ربيع الأول سنة ستّ للهجرة، وفي البخاري: أنها كانت قبل خيبر بثلاثة أيام.

الغابة: موضع على بريد من المدينة على طريق الشام. البريد: أربعة فراسخ، والفرسخ: ثلاثة أميال.

وسببها: أن أبا ذرٍّ رضي الله عنه استأذن النبيّ ﷺ للقاحه (جمع: لقوح، وهي الناقة الحَلُوب) فقال ﷺ: «إني أخافُ عليك، ونحن لا نأمن عيينة بن حصن» فألحَّ عليه، فقال ﷺ: «لَكأني بك قد قُتل ابنك، وأُخذت امرأتُك، وجئت توكَّأُ على عصاك».

(١) القرّاء: الفقهاء.

قال أبو ذر رضي الله عنه بعد ذلك: عجباً لي، يقول لي ذلك وأنا أُلِحُّ عليه، فكان والله ما قال. فلما كان الليل أحدق بنا عيينة مع أصحابه، فأشرف لهم ابني فقتلوه، وأسروا امرأتي، ثم إنها نجتْ منهم بعد تمام الغزوة، ورجوع النبي ﷺ؛ لأنهم أوثقوها، وكانوا يريحون نَعمهم بين يدي بيوتهم، فانطلقت وركبتْ ناقةً للنبي ﷺ ليلاً على حين غفلتهم، فانطلقت، فطلبوها، فأعجزتهم، ونذرت لئن نجتْ لتنحرنَّها. فلما قدمت على النبي ﷺ أخبرته بذلك، وقالت: يا رسول الله! إني نذرتُ لله تعالى أن أنحرها إن نجاني الله عليها، قال: «بئسما جزيتيها أن حملك الله عليها، ونجَّاك أن تنحريها، إنه لا نذر لأحد في معصية، ولا لأحدٍ فيما لا يملك إنما هي ناقةٌ من إبلي، ارجعي إلى أهلك على بركة الله».

وحاصل الغزوة: أنهم لما أغاروا على اللقاح في يومهم ذلك جاء الصريخ، فنادى: الفزع، الفزع! ونودي: يا خيل الله! اركبي، وركب ﷺ في خمسمئة، وقيل: سبعمئة، واستعمل على المدينة ابنَ أم مكتوم وخلَّف سعد بن عبادة رضي الله عنه في ثلاثمئة يحرسون المدينة، وعقد لواءً للمقداد رضي الله عنه في رمحه، وقال: «امضِ حتى تلحقك الخيول، وإنا على أثرك» فأدرك أُخريات العدوّ، وتقدَّمهم أبو قتادة، فأدرك في طريقه مسعدة بن حكمة الفزاري، فقتله، وسجّاه بِبُرده، فلما وصل المسلمون إليه، وهو مسجًّى استرجعوا (قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون) ظناً منهم أن المسجّى هو أبو قتادة، فقال النبيُّ ﷺ: «ليس بأبي قتادة ولكنه قتيله، وضع عليه برده لتعرفوه» فتخلّوا عن قتيله، وسَلَبه، فأعطاه رسول الله ﷺ فرسَه، وسلاحه، ولقي عكاشة بن محصن رضي الله عنه في طريقه أبان بن عمرو وابنه عمراً على بعير واحد، فانتظمهما بالرمح، فقتلهما جميعاً، واستنقذ بعض اللِقاح، وقُتِل من المسلمين محرز بن نضلة البدري رضي الله عنه، وكان أوَّل فارس لحق

بالقوم، وأدرك سلمة بن الأكوع رضي الله عنه القوم صرخ: واصباحاه! ثم خرج يشتدّ في آثار القوم، فكان مثل السبع، وكان يسبق الخيل في جريه، فلم يزل يشتدُّ حتى لحق بالقوم، وهو على رجليه، فجعل يرميهم بالنبل، وكان رامياً، ويقول: خذها وأنا ابن الأكوع، اليوم يوم الرّضّع، وجعل يرتجز حتى استنقذ اللقاح وثلاثين بردة. وفي صحيح مسلم: ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل، وأرتجز، أقول:

أنـا ابـن الأكـوع ... واليوم يوم الرّضّع

(جمع راضع والمراد يوم هلاك اللئام) فألحق رجلاً منهم، فأصكّ سهماً في رحله حتى خلص نصلُ السهم إلى كتفه، قال: قلت خذها وأنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرّضّع.

قال: فوالله! ما زلتُ أرميهم، وأعقربهم (أعقر خيلهم). فإذا رجع إليَّ فارسٌ أتيت شجرة فجلستُ في أصلها، ثم رميته، فعقرتُ به، حتى إذا تضايق الجبل، فدخلوا في تضايقه علوتُ الجبل، فجعلت أردِّيهم بالحجارة، قال: فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر (أي: اللقاح) رسول الله ﷺ إلا خلَّفته وراء ظهري، وخلَّوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحاً يستخِفُّون، ولا يطرحون شيئاً إلا جعلتُ عليه آراماً من الحجارة (أعلاماً) يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابُه، حتى أتوا متضايقاً من ثنيَّة، فإذا هم قد أتاهم فلان بن بدر الفزاري، فجلسوا يتضَحّون (يتغدّون) وجلست على رأس قرن (جبل صغير منقطع) قال الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرحَ (الشدّة) والله! ما فارقنا منذ غلس يرمينا حتى انتزع كلَّ شيء في أيدينا، قال: فليقم إليه نفرٌ منكم أربعة، قال: فصعد إليَّ منهم أربعة في الجبل، قال: فلما أمكنوني من الكلام، قال: قلت: هل تعرفوني؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قال: قلت: أنا سلمة بن الأكوع،

والذي كرَّم وجهَ محمد ﷺ! لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني رجلٌ منكم فيدركني، قال أحدهم: أنا أظنُّ. قال: فرجعوا، فما برحت مكاني حتى رأيتُ فوارسَ رسول الله ﷺ يتخللون الشجر[١]... الحديث.

قال سلمة: لما لحق رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله! إن القوم، يعني: غطفان، وفزارة، عطاش لا يقدرون على الحرب، فلو بعثتني في مئة لاستنقذت ما في أيديهم من السَّرْح، وأخذتُ بأعناق القوم، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: «أتراك كنت فاعلاً؟» قلت: نعم، والذي أكرمك! فقال رسول الله ﷺ: «يابن الأكوع! ملكت فأسجِح» أي: قدرت عليهم فأحسن وارفق «إنهم الآن ليقرّون في قومهم».

وصلى رسول الله ﷺ بذي قرد (أي: نبع الماء) صلاة الخوف، وأقام به يوماً وليلة يتحسس الخبر، ورجع، وقد غاب خمس ليال، وأردف أسامة رضي الله عنه خلفه في رجوعه.

* * *

---

(١) مسلم (١٤٣٦/٣).

الفصل الرابع

من صلح الحديبية
إلى غزوة تبوك، وحجة الوداع

غزوة الحديبية:

الحديبية بتخفيف الياء وتشديدها: بئر يسمّى المكان باسمها، وتعرف الآن بالشميسي، وقيل: قرية أكثرها في الحرم على تسعة أميال من مكة.

سببها: أنَّ النبي ﷺ رأى في منامه أنه دخل البيت هو وأصحابه آمنين محلِّقين رؤوسهم، ومقصِّرين. فخرج ﷺ يوم الإثنين غرّة ذي القعدة سنة ستٍّ من الهجرة، يريد العمرة، ولا يريد قتالاً، واستنفر العربَ من البوادي ومَن حوله من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش أن يتعرَّضوا له بحرب، أو يَصُدُّوه عن البيت، فأبطأ عليه كثيرٌ من الأعراب، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ومَن لحق من العرب، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة ليأمن الناسُ حربه، وليعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت ومعظِّماً له، وأخرج معه زوجتَه أمَّ سلمة رضي الله عنها، واستعمل على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم رضي الله عنه؛ وجملة أصحابه الذين كانوا معه ألفٌ وأربعمئة، وقيل: ألف وخمسمئة. ولم يخرج ﷺ معه بسلاح إلا سلاحَ المسافر: السيوف في القُرُب.

فلما كان بذي الحُلَيفة (أبيار علي) قلَّد الهدي، وأحرم منها بعمرة، وبعث عَيناً من خزاعة (العين: الجاسوس) وسار النبيُّ ﷺ، ثم أتاه العين، فقال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلوك، وصادُّوك عن البيت، ومانعوك من الدخول إلى مكة.

فقال ﷺ. «أشيروا عليَّ أيها الناس! أترون أن نؤمَّ البيت، فمن صدَّنا عنه قاتلناه؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! خرجتَ عامداً لهذا البيت؛ لا تريد قَتلَ أحد، ولا حرباً، فتوجَّهْ له، فمن صدَّنا عنه قاتلناه، فقال: «امضوا على اسم الله»؛ فساروا حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بكراع الغميم (موضع قريب من مكة) في خيل لقريش، فيها مئتا فارس، فخذوا ذات اليمين بين ظهري الحَمْض (اسم موضع يخرج على مهبط الحديبية من أسفل مكة)» وهذه معجزة أخبر عنها، فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيلُ قريش غبارَ الجيش قد خالفوا عن طريقهم، فانطلق خالد يركض نذيراً لقريش، حتى إذا كان ﷺ بثنيّة المرار (الثنيَّة: الطريق العالي في الجبل) المشرفة على الحديبية بركت ناقتُه القصواء، فقالوا: خلأت القصواء، أي: حرنت من غير علّة، فقال النبيُّ ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابسُ الفيل عن مكة، والذي نفسي بيده! لا تدعني قريش اليوم إلى خطةٍ يسألون فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها». ثم زجر الناقة فوثبتْ، فعدل بهم حتى نزل بأقصى الحديبية، ثم قال للناس: «انزلوا» فقالوا: يا رسول الله! ما بالوادي ماء ننزل عليه، وكان فيه حفرةٌ فيها ماء قليل يأخذونه قليلاً قليلاً، فأخذوه حتى نزحوه، وشكوا إليه العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فنزل ناجيةُ ابن الأعجم رضي الله عنه فوضعه في البئر، فوالله! ما زال يجيش (يفور) حتى صدروا عنه رُواءً بعد ورودهم. وفي هذا معجزة ظاهرة، وفيه بركة سلاحه، وما ينسب إليه ﷺ.

فبينما هم كذلك إذ جاءهم بُديْل بن ورقاء الخزاعي في نفرٍ من قومه خُزاعة، وكان ذلك قبل إسلامه، فإنه أسلم عام الفتح رضي الله عنه، وكانت خزاعة عَيْبة نصح للنبي ﷺ، والعيبة: محل سرّه ﷺ. فقال بديل: غوَّرتَ عن المدينة (أبعدتَ) ولا سلاح معك! فقال: لم نجيء

لقتال، فتكلم أبو بكر رضي الله عنه، فقال لهم بديل: أنا لا آتيهم ولا قومي، ثم قال: إني تركتُ كعب بن لؤي وعامر بن لؤي (وخصَّهما بالذكر لرجوع أنساب قريش الذين بمكة أجمع إليهما) قد نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل (العوذ: الناقة ذات اللبن، والمطافيل: الأمهات التي معها أطفالها) يريد: أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها، ولا يرجعوا حتى يمنعوا البيت، أو كنَّى بذلك عن النساء معهن الأطفال لإرادة طول المقام إن دعا الأمر إليه، وليكون أعدى إلى عدم الفرار.

فقال رسول الله ﷺ مجيباً لبديل: «إنَّا لم نجىءْ لقتال أحد، ولكنَّا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب (أضعفت قوتهم، وأهزلتهم، وأضعفت أموالهم، وأضرَّت بهم) فإن شاؤوا ماددتهم (جعلتُ بيني وبينهم مدة نترك الحرب فيها) ويخلّوا بيني وبين الناس (من كفار العرب وغيرهم) فإن أظهر، فإن شاؤوا الدخول فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمّوا (استراحوا) من القتال، وإن هم أَبَوْا، فوالذي نفسي بيده! لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي» (صفحة العنق).

فقال بديل: سأبلغهم ما تقول، فأذن له. ثم انطلق بديل مع مَن معه مِن قومه حتى أتى قريشاً، فقال ناسٌ منهم: هذا بديل وأصحابه، وإنما يريدون أن يستخبروكم، فلا تسألوهم عن حرف واحد، فرأى بديل أنهم لا يستخبرونه، فقال: إنا جئناكم مِن عند هذا الرجل (يعني: النبي ﷺ) وسمعناه يقول قولاً فإن شئتم نعرضُه عليكم فعلنا، فقال ذو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدَّثهم بما قال النبي ﷺ، فرجعوا إلى قريش، فقالوا: إنكم تعجلون على محمد، إنه لم يأتِ لقتال. إنما جاء زائراً لهذا البيت، فقالوا: وإن كان جاء لا يريد قتالاً، بل جاء زائراً، فوالله! لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تتحدث عنَّا

العربُ بذلك أبداً، فقام عروة بن مسعود الثقفي، وقد أسلم بعد غزوة الطائف فقال لقريش: يا قوم! ألستم بالوالد؟ (أي: مثل الوالد في الشفقة على ولده) قالوا: بلى! قال: أولستُ بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا ما أنت عندنا بمتَّهم، قال: فإنَّ هذا (يعني: النبي ﷺ قد عرض عليكم خطة رُشْدٍ اقبلوها، ودعوني آتيه، قالوا: ائته.

فأتى عروة بن مسعود النبي ﷺ، فجعل يكلِّم النبي ﷺ بنحوِ ما قال بُديل بن ورقاء، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل السابق، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً. فقال له عروة: أي محمَّد! أخبرني إن استأصلت قومك هل سمعتَ بأحد من العرب اجتاح أصله (أهله) قبلك، وإن تكن الأخرى (أي الغلبة لقريش) فإني والله! أرى وجوهاً أوباشاً (أخلاطاً من الناس) خليقاً أن يفرّوا عنك، ويدعوك. فقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه: امصُصْ بظْرَ اللات (البظر: قطعة تبقى في فرج المرأة بعد الختان) أنحن ننكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هذا ابن أبي قحافة» فقال: أما والله! لولا يدٌ كانت لك عندي لكافأتك بها. ويد أبي بكر عليه إعانته إياه في حمل دية، فأعانه بعشر إبلٍ شوابّ، وكان غيره يُعينه بالواحد، والاثنين، والثلاث.

وجعل عروة بن مسعود الثقفي يكلِّم النبي ﷺ، فكلما تكلم بكلمة أخذ بلحيته ﷺ، وكانت تلك عادةَ العرب عند الملاطفة، يصنع النظير بالنظير، وعروة كان عظيم القريتين مكة والطائف. وكان المغيرة بن شعبة ابن مسعود الثقفي، وهو ابن أخي عروة قائماً على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف بقصد الحراسة، وعليه المغفر مستخفياً من عمه عروة، فكان كلَّما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف إجلالاً وتعظيماً للنبي ﷺ، وكان يقول له: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك، فإنه لا ينبغي لمشرك أن يَمَسَّه، فلما أكثر عليه غضب عروة، وقال: ويحك ما أفظّك! وأغلظك! وقال: ليت شعري من

هذا الذي آذاني من بين أصحابك؟ والله لا أحسب فيكم ألأم منه، ولا أشرَّ منزلة، فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال: «هذا ابنُ أخيك المغيرة بن شعبة» فقال عروة: وأنت بذلك يا غُدر، والله! ما غسلت عنك غدرتك بعكاظ إلا أمس، لقد أورثتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر. وغدرته: قتله ثلاثة عشر رجلاً، وداهم عروة في الجاهلية.

ثم إنَّ عروة بن مسعود جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه، فرأى منهم له محبةً عظيمةً، واحتراماً لم يره لملك من ملوك الأرض، فرجع عروة إلى قريش، فقال: أي قوم! والله! لقد وفدتُ على الملوك ووفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله! ما رأيتُ ملكاً قطُّ يعظِّمه أصحابُه ما يعظِّم أصحاب محمد محمداً، والله! ما يتنخَّم نخامة إلا وقعتْ في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهَه وجِلْده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتَهم عنده إجلالاً وتوقيراً، وما يُحِدُّون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطَة رُشْدٍ فاقبلوها، ولقد رأيتُ قوماً لا يسلمونه لشيءٍ أبداً، فَرَوا رأيكم. فلم يسمعِ القومُ ما قاله عروة بن مسعود، وما رغَّبهم فيه من الصلح، فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف.

ودعا رسول الله ﷺ خِراش بن أمية الخزاعي رضي الله عنه، فبعثه إلى قريش، وحمله ﷺ على بعير له، ليبلِّغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قَتْلَه، فمنعه الأحابيش، فخلّوا سبيله (الأحابيش: حلفاء قريش، اجتمعوا عند جبل حُبشي بأسفل مكة، قد تحالفوا عنده فنسبوا إليه) حتى أتى رسول الله ﷺ، وأخبره بما لقي.

ثم دعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه، فبعثه إلى أبي سفيان، وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه لم يأتِ إلا زائراً لهذا البيت ومعظِّماً لحرمته، فلقيه قبل أن يدخل مكة أبان بن سعيد

ابن العاص رضي الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك، فأجاره حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ، وجعله بين يديه، فجاء إلى أبي سفيان وعظماء قريش فبلَّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، وهم يردُّون عليه أنَّ محمداً لا يدخلها علينا عَنوةً أبداً.

فلما فرغ عثمان من تبليغ رسالة رسول الله ﷺ قالوا له: إن شئتَ أن تطوفَ بالبيت فطفْ، قال: ما كنتُ لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

واحتبست قريش عثمان رضي الله عنه عندها ثلاثة أيام، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قُتِل، فقال ﷺ عند بلوغه ذلك: «لا نبرح حتى نناجز القوم» (نقاتلهم).

بيعة الرضوان:

ودعا رسول الله ﷺ الناسَ إلى البيعة، فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس قائلون (نائمون عند القيلولة) إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: «أيها الناس! البيعة البيعة، نزل روحُ القدس، فاخرجوا على اسم الله» فسرنا إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت شجرةٍ، فبايعناه على الموت، ولم يتخلَّف منا أحد إلا الجد بن قيس، قال: لَكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته يستترُ بها من الناس.

وبايع ﷺ عن عثمان، فوضع يدَه على يده اليسرى وقال: «اللهم! هذه عن عثمان، فإنه في حاجتك وحاجة رسولك». وبعد أن جاء عثمان رضي الله عنه بايع بنفسه تحصيلاً لفضيلة البيعة. وكانت تحت شجرة من أشجار السَّمُر في الحديبية، وتسمى بيعة الرضوان لقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨/٤٨] وقال ﷺ: «لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت تلك الشجرة».

وكان محمد بن مسلمة رضي الله عنه على حرس رسول الله ﷺ، فبعثت قريش أربعين، وقيل: خمسين رجلاً عليهم مِكْرَزُ بن حفص

ليطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ رجاءَ أن يصيبوا منهم غِرّةً، فأخذهم محمد ابن مسلمة إلا مكرزاً، فأتى بهم رسول الله ﷺ، فحبسوا، وبلغ قريشاً حبسُ أصحابهم، فجاء جمعٌ منهم حتى رمَوا المسلمين بالنبل والحجارة، وقتل من المسلمين رجل، فأسر المسلمون منهم اثني عشر رجلاً.

ولما علمت قريش بهذه البيعة خافوا، وأشار أهلُ الرأي منهم بالصلح على أن يرجع، ويعود من السنة القابلة، فيقيم ثلاثاً معه سلاح الراكب: السيوفُ في القُرب.

بنود الصلح:

بعثت قريش سهيلَ بن عمرو العامري مرتين، ولما أقبل على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «أراد القومُ الصلح حين بعثوا هذا الرجل ثانياً» وطالت المراجعة بينهما، ثم تمَّ الأمرُ على الصلح على ترك القتال، وأن يوضع الحرب بينهم عشر سنين، وأن يأمنَ بعضُهم بعضاً، وأن يرجع عنهم عامهم هذا، ويأتي في العام القابل، ويخلون له مكة ثلاثة أيام، وألا يدخلوا إلا بالسيوف في قُربها، ولا يأتي المسلمين رجلٌ وإن كان على دينك إلا رددته إلينا.

فلما تمَّ الأمر، ولم يبق إلا كتابة الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر! أليس هو برسول الله ﷺ؟! قال: بلى، قال: أولسنا بمسلمين؟! قال: بلى. قال: فعلامَ نعطي الدَّنيَّة في ديننا؟! فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا عمر! الزَم غرزه (ركابه) وليس يعصي ربه، وهو ناصره. ثم أتى عُمر رسول الله ﷺ فقال له مثل ما قال لأبي بكر، فقال النبي ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالفَ أمره، ولن يضيعني».

كتابة الصلح:

وأمر النبي ﷺ علياً كرّم الله وجهه، فقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا (أي: الرحمن الرحيم) ولكن اكتب باسمك اللهم، وضجَّ المسلمون، فأسكتهم النبيُّ ﷺ، وقال: «اكتب باسمك اللهم» ثم قال ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيلَ بن عمرو» فقال سهيل بن عمرو: لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك، ولم نصدَّك عن البيت، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «امحُ رسول الله» فقال علي رضي الله عنه: ما أنا بالذي أمحوه، فقال: «أرنيه» فأراه إيّاه، فمحاه رسول الله ﷺ، وقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلَ بنَ عمرو» وقال: «أنا رسول الله وإن كذبتموني، وأنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب» فجعل عليٌّ رضي الله عنه يبكي، ويأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ: «اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مقهور». هذا من معجزاته ﷺ، فقد حدث مثلها لما نشب الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، ووقعت حرب صفين تمت المصالحة بعدها، ولم تتم الكتابة إلا بعد محو لفظ: أمير المؤمنين منها، وظهر صدق قول النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «إن لك مثلها تعطيها وأنت مقهور».

وضجَّ المسلمون، وارتفعت الأصوات، وجعلوا يقولون: لا نعطي هذه الدنية في ديننا، فجعل رسول الله ﷺ يخفِّضهم، ويومىء بيده إليهم: أن اسكتوا، ثم أمر علياً رضي الله عنه أن يكتب: «محمد بن عبد الله» فكتب.

ووافق رسول الله ﷺ على محو كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول الله، للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح، أطلع الله عليها نبيه، وحجبها عن سائر المسلمين، ولم يكن أحدٌ في القوم راضياً بجميع

ما يرضى به النبي ﷺ غيرَ أبي بكر رضي الله عنه القائل بعدها: ما كان فتحٌ أعظمَ من فتح الحديبية، ولكن قصر رأيهم عما كان بين رسول الله ﷺ وبين ربِّه، والعباد يَعْجَلون، والله تعالى لا يعجل لعجلة العباد، حتى تبلغ الأمور ما أراد، ولقد رأيتُ سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند المنحر يُقَرِّب لرسول الله ﷺ بُدْنَه، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده، ودعا الحلاقَ، فحلق رأسه، فأنا أنظرُ إلى سهيل بن عمرو يلتقطُ شعره ﷺ، ويجعل بعضه في عينيه، وأذكر امتناعَه أن يُقِرَّ يوم الحديبية ببسم الله الرحمن الرحيم، فحمدتُ الله الذي هداه للإسلام.

ثم كتب عليٌّ رضي الله عنه: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «على أن يخلّوا بيننا وبين البيت فنطوفَ به» فقال سهيل: والله لا نُخَلِّي بينك وبين البيت، وتتحدث العرب أنّا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب علي رضي الله عنه ذلك، فقال سهيل: وعلى ألا يأتيك منّا رجلٌ إلا رددتَه إلينا، وإن كان على دينك، ومن جاء قريشاً ممن تبعك لم يردُّوه إليك، فكره المؤمنون ذلك، وامتعضوا، وأنِفوا منه، فأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فقال المسلمون متعجبين: سبحان الله كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟!.

فقال عليه الصلاة والسلام: «من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم إلينا ـ أي: ورددناه ـ فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً»، وأنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل مكة علينا، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب: السيوفُ في القُرب، لا تدخلها بغيره، وأن الحرب تُوضع بينهم عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكفّ بعضُهم عن بعض، ومن أحبَّ أن يدخل في عَقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

فتواثبت خزاعة، وقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر، وقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

أبو جندل:

وبينا هم يكتبون الكتاب، إذ دخل العاص بن سهيل بن عمرو أبو جندل يَرْسف في قيوده، وكان قد أسلم بمكة رضي الله عنه، فحبسه أبوه، ومنعه من الهجرة، وأوثقه بالقيود، فحين سمع بأنَّ النبي ﷺ وأصحابه بالحديبية احتال حتى خرج من السجن، ومشى حتى جاء إلى رسول الله ﷺ، ورمى بنفسه بين أظهر المسلمين، ففرحوا به، وتلقّوه، فقام سهيل بن عمروٍ إلى ابنه أبي جندل حين رآه، فضربه ضرباً شديداً، حتى رقَّ عليه المسلمون، وبكوا، وتلبَّبه سهيل، وقال: هذا يا محمد! أول ما أقاضيك عليه أن تردَّه إليَّ، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقضِ الكتاب بعد (لم نفرغ من كتابته) فقال سهيل: والله! إذاً لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي» قال: ما أنا بمجيز ذلك، قال: «بلى فافعل» قال: ما أنا بفاعل.

ثم قال سهيل: يا محمد قد لجَّت القضية (وجبت) بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: «صدقت»، فجعل ينتره ويتلبَّبه ويجرُّه ليردَّه إلى قريش، فلما رأى أبو جندل أباه مصمِّماً على أخذه، قال: أي معشر المسلمين! أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟.

فزاد الناسَ ذلك على ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل! اصبرْ، واحتسب، فإنَّا لا نغدر، وقد تمَّ الصلحُ قبل أن تأتي، وقد تلطَّفتُ بأبيك فأبى، وإن الله جاعل لك، ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً» ثمَّ رحل أبو جندل رضي الله عنه إلى مكة في جوار مكرز ابن حفص، وحويطب بن عبد العزّى، فأدخلاه مكة، وكفّا عنه أباه.

ثم إنَّ قريشاً أرسلت عثمان بن عفان رضي الله عنه بعدما احتبسته.

التحلل من الإحصار:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الصلح والإشهاد، أمر الصحابة بالنحر، والحلق ثلاث مرات، فلم يقمْ منهم أحد، فدخل على أمِّ سلمة رضي الله عنه وهو شديدُ الغضب، فاضطجع، فقالت: ما شأنك؟ يا رسول الله! فذكر لها ما لقي من الناس، وقال لها: «هلك المسلمون، أمرتُهم أن ينحروا، ويحلقوا فلم يفعلوا» فقالت: يا رسول الله! لا تلمهم؛ فإنهم قد دخلهم أمرٌ عظيم مما أدخلتَ على نفسك من المشقّة في أمر الصلح، ورجوعهُم بغير فتح.

ثم أشارتْ إليه أن يخرجْ ولا يكلِّم أحداً منهم، وينحر بدنه، ويحلق رأسه، ففعل ذلك، فأخذ الحربة، وقصد هديه، وأهوى بالحربة إلى البدنة رافعاً صوته: «باسم الله، والله أكبر». ثم دخل قبَةً له، ودعا بخراش الخزاعي، فحلق رأسه، ورمى شعره على شجرة، فأخذه الناسُ وتحاصّوه، وأخذت أم عمارة رضي الله عنها طاقات منها، فكانت تغسلُه للمريض، وتسقيه، فيبرأ، ولما رآه الناسُ نحر، وحلق، قاموا، ونحروا، وحلقوا، وجعل بعضهم يحلقُ بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً للازدحام، وإرادة التعجيل اقتداءً به ﷺ، وكان نحرهم للهدايا بالحديبية، وهي في الحرم، أو بعضها في الحلِّ، وأكثرها في الحرم. وكانت إقامته ﷺ بالحديبية بضعة عشر يوماً.

ثم رجع ﷺ إلى المدينة، وفي نفوس أصحابه رضي الله عنهم شيءٌ من عدم الفتح الذي كانوا لا يشكُّون فيه، فأنزل الله سبحانه وتعالى سورة الفتح بين مكة والمدينة بكُراع الغميم.

وفي البخاري عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أُنزل عليَّ الليلة سورةٌ لَهِي أحبُّ إليَّ مما طلعتْ عليه الشمس، ثم قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ والمراد بالفتح في أظهر التفاسير: فتح الحديبية،

ووقوع الصلح، فلم يكن في الإسلام فتحٌ قبله أعظم منه، وإنما كان القتالُ حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضُهم بعضاً، والتقوا، وتفاوضوا في الحديث، لم يُكلَّم أحد ذو عقل في تلك المدة بالإسلام إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر، ويدل عليه أنه ﷺ خرج في الحديبية في ألفٍ وأربعمئة، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف، وكان فتح الحديبية مقدِّمة بين يدي الفتح الأعظم الذي دخل الناس عقبه في دين الله أفواجاً، فسميت الحديبية فتحاً لذلك؛ إذ مقدّمة الظهور: ظهور.

المؤمنات المهاجرات:

ولما قدم ﷺ المدينة هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها، وكانت أسلمت بمكة، وبايعت قبل أن يهاجر ﷺ، ثم خرجتْ في مدة الصلح مهاجرةً ماشيةً على قدميها من مكة إلى المدينة، وصحبت رجلاً من خزاعة حتى قدمت المدينة، وهي أختُ عثمان رضي الله عنه لأمه، ولما قدمت المدينة دخلتْ على أم سلمة رضي الله عنها، وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة، وتخوَّفت أن يردَّها رسول الله ﷺ عملاً بالشرط، فلما دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها أعلمته، فرحَّب بأم كلثوم، فخرج أخواها: عمارة، والوليد في ردِّها بالعهد، فقالا: يا محمد! أوفِ لنا بما عاهدتنا عليه، فقالت: يا رسول الله! أنا امرأةٌ، وحال النساء الضعف، أفتردني إلى الكفار يفتنونني عن ديني، ولا صبر لي؟! فنزل القرآن بأن النساء المؤمنات لا يرجعن، وإنَّ الشرط في الرجال فقط، وأن النِّساء يُمتَحَنَّ، قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ١٠] الآية.

فأبى ﷺ أن يرجعها إليهم، وكان الامتحان: أن تُستَحلف المرأة المهاجرة أنها ما هاجرت ناشزاً (مستعصية على زوجها، وكارهة له) ولا

هاجرت إلا لله ورسوله، فإذا حلفتْ لم تُرَدَّ، ويُرَدُّ صداقُها إلى زوجها؛ فلما رجع الوليد، وعمارة مكة أخبرا قريشاً، فرضوا بذلك. ولم يكن لأم كلثوم زوج بمكة، فلما قدمت المدينة تزوَّجها زيد بن حارثة رضي الله عنه. فكان ﷺ في مدة الصلح يرد الرجال، ولا يرد النساء.

وممن جاء من الرجال إلى النبي ﷺ: أبو بصير، كان مسلماً بمكة، فحبسوه، فهرب حتى وصل إلى المدينة، فكتبت قريش في ردِّه، وأرسلت رجلاً من بني عامر ومعه مولى يهديه الطريق، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بصير! إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت، ولا يصلح في ديننا الغدر، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً فانطلقْ إلى قومك» (فانطلق معهما) حتى إذا كان بذي الحليفة (أبيار علي) جلس إلى جدار ومعه صاحباه، فقال أبو بصير لأحد صاحبيه ومعه سيفه: أَصارمٌ سيفُك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم، انظر إليه إن شئت، فاستلَّه العامريُّ ثم هزَّه، وقال: لأضربنَّ بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل، فقال له أبو بصير: ناولنيه أنظر إليه، فناوله، فلما قبض عليه ضربه به حتى برد، ـ يعني: مات ـ ثم طلب المولى الذي كان معه يهديه الطريق، فوجده قد خرج سريعاً حتى آتى رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجد، والحصى يطير من تحت قدميه من شدة عدوه، وأبو بصير في أثره قد أعجزه، فقال ﷺ: «قد رأى هذا ذعراً» فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال له: «ويحك ما لك؟» قال: قتل صاحبكم صاحبي، وأفلت مني ولم أكذب، وإني لمقتول، واستغاث برسول الله ﷺ فأمَّنه، فإذا أبو بصير رضي الله عنه أناخ بعيرَ العامري بباب المسجد، ودخل متوشِّحاً السيف، ووثب على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! وفت ذمَّتك، وأدَّى الله عنك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه، فقال: «اذهب حيث شئت»، فقال: يا رسول الله! هذا سَلَبُ العامريّ (والسَّلَب: ما يأخذه أحد المتحاربين

في الحرب من الآخر مما يكون عليه ومعه من ثياب، وسلاح، ودابة) الذي قتلته: رحله وسيفه، فخمّسه (أي: خذ خُمسه) فقال رسول الله ﷺ: «إذا خمَّسته رأوني لم أوفِ لهم بالذي عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بسلب صاحبك» وعند ذلك ذهب أبو بصير إلى محل من طريق الشام تمرُّ به القوافل، واجتمع إليه جمعٌ من المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة، فكانوا يتسلَّلون إليه. وانفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو المردود إلى مكة في الحديبية، وخرج من مكة في سبعين راكباً أسلموا، فلحقوا بأبي بصير، وكرهوا أن يقدموا على رسول الله ﷺ خوفاً من ردِّهم إلى أهلهم، وانضم إليهم ناسٌ من غفار، وأسلم، وجهينة، وطوائف من العرب ممن أسلم حتى بلغوا ثلاثمئة مقاتل، فقطعوا مارَّة قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمرُّ بهم عيرٌ إلا أخذوها، حتى كتبت قريش له ﷺ تسأله بالأرحام إلا آواهم، ولا حاجة لهم بهم، فقدم كتابُ رسول الله ﷺ عليهم، وأبو بصير مشرفٌ على الموت لمرضٍ حصل له، فمات وكتاب رسول الله ﷺ في يده يقرؤه، فدفنه أبو جندل مكانه، وجعل عند قبره مسجداً، وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ مع ناس من أصحابه، ورجع باقيهم إلى أهلهم، وأمنت قريش على عيرهم، وتحقَّق قول النبي ﷺ: «سيجعل الله لأبي جندل وأصحابه فرجاً ومخرجاً».

وبان للأصحاب أنَّ طاعة رسول الله ﷺ خير مما أحبوه، وأن رأيه أفضل من رأيهم، وعلموا أن المصالحة كانت أولى لهم؛ لأنها كانت سبباً لكثرة المسلمين، وقال أبو بكر رضي الله عنه: ما كان فتح في الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم. . . الحديث، وقد مرَّ.

فتح خيبر:

خَيْبَر: مدينة ذات حصون ومزارع، ونخل، على طريق الشام، تبعد عن المدينة ستة وتسعين ميلاً، وخيبر: رجل من العماليق، وهو أخو يثرب الذي سُمِّيت المدينةُ باسمه.

لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من الحديبية أقام شهراً وبعض الشهر: ذا الحجة، وبعض المحرّم سنة سبع للهجرة، ثم خرج إلى خيبر، ومعه من شهد الحديبية، وجاء المخلَّفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة، فقال: «لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا» ثم أمر منادياً ينادي بذلك، فنادى به، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة.

وكان الله تعالى وعد نبيَّه وهو بالحديبية عند منصرفه منها في سورة الفتح بمغانم كثيرة، أي: مغانم خيبر، وخرج معه ﷺ من نسائه أم سلمة رضي الله عنها.

ولما أشرف رسول الله ﷺ على خيبر، وكان وقت الصبح، قال لأصحابه رضي الله عنهم: «قفوا» ثم قال لهم: «قولوا: اللهم! ربَّ السموات وما أظللن، وربَّ الأرضين وما أقللن، وربَّ الشياطين وما أضللن، وربَّ الرياح وما ذرين، فإنا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرِّها وشرِّ أهلها وشرِّ ما فيها، أقدموا باسم الله» وكان يقول هذه الكلمات لكل قرية دخلها.

ولما أبصر ﷺ عمالها، وقد خرجوا بمساحيهم، ومكاتلهم (القفف) قالوا: محمد والخميس [أي: الجيش العظيم معه، قيل له الخميس؛ لأنه خمسة أقسام: المقدمة، والساقة، والميمنة، والميسرة، والقلب] وولّوا هاربين إلى حصونهم، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! خربت خيبر» ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٧٧].

ونزل ﷺ قريباً من حصون النَّطاة، وكان يهود خيبر أدخلوا أموالهم، وعيالهم في حصون الكتيبة، وجمعوا المقاتلة في حصون النطاة، فجاءه الحباب بن المنذر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله! إنك نزلتَ منزلك هذا، فإن كان عن أمر أُمِرت به فلا نتكلم، وإن كان هو الرأي تكلَّمنا،

فقال رسول الله ﷺ: «هو الرأي» فقال: يا رسول الله! إن أهلَ النَّطاة لي بهم معرفة، ليس قومٌ أبعد مدى منهم، ولا أعدل رمية منهم، وهم مرتفعون علينا، وهو أسرعُ لانحطاط نبلهم، ولا نأمن من بياتهم (غدرهم) يدخلون في حمرة النخل (المجتمع بعضه على بعض) تحوَّل يا رسول الله! قال رسول الله ﷺ: «أشرتَ بالرأي، إذا أمسينا إن شاء الله تحوّلنا». ودعا رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة، فقال: «انظر لنا منزلاً بعيداً» فطاف محمد، وقال: يا رسول الله! وجدتُ لك منزلاً، فقال ﷺ: «على بركة الله» وتحوَّل لمَّا أمسى، وأمر الناس بالتحوُّل، وكان ذلك الموضع حائلاً بين أهل خيبر وغطفان، وابتنى هنالك مسجداً، صلَّى به طول مقامه بخيبر، وأمر بقطع نخيل أهل حصون النطاة، فوقع المسلمون في قطعها، حتى قطعوا أربعمئة نخلة، ثم نهاهم عن القطع، فما قطع من نخيل خيبر غيرها.

وقاتل ﷺ يومَه ذلك أشدَّ القتال، وعليه دِرعان، وبَيْضَةٌ، ومِغْفَر، وهو على فرس، وفي يده قناة وتُرس، وقاتل معه أصحابُه قتالاً شديداً، ودفع لواءه لرجل من المهاجرين ليفتح أحد الحصون، فرجع، ولم يصنع شيئاً، فدفعه إلى آخر من المهاجرين، فرجع، ولم يصنعْ شيئاً، وقاتلت يهود، وتقدمهم أحد أبطالهم، فكشف الأنصار، حتى انتهى إلى قريبٍ من رسول الله ﷺ، ثم ردّ، فاشتدَّ ذلك على رسول الله ﷺ، ومكث المسلمون سبعة أيام في حصار يهود دون أن يفعلوا شيئاً، فلما كانت الليلة السادسة استعمل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فطاف بأصحابه حول العسكر وفرقهم، فَأُتي بيهودي في جوف الليل، فأمر عمر بضرب عنقه، فقال اليهودي: اذهب بي إلى نبيّكم حتى أكلِّمه، فجيء به إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لليهودي: «ما وراءك»؟ فقال: تؤمِّنني يا أبا القاسم؟ قال: «نعم»، قال: خرجتُ من حصن النطاة من عند قوم يتسلَّلون من الحصن في هذه الليلة، قال: «فأين يذهبون»؟

قال: إلى حصن الشق يجعلون فيه ذراريهم، ويتهيؤون للقتال. وأخبره أن في أحد الحصون التابعة لحصن النطاة في بيت فيه تحت الأرض منجنيقاً، ودبابات، ودروعاً، وسيوفاً، فإذا دخلت الحصن غداً، وأنت تدخله، قال رسول الله ﷺ: «إن شاء الله» قال اليهودي: إن شاء الله أوقفتُك عليه؛ فإنه لا يعرفه غيري، وأخرى. قال: «وما هي؟» قال: ستخرج المنجنيق، وتنصبه على الشق، ويدخل الرجال تحت الدبابات، فيحفرون الحصن فتفتحه من يومك، وكذلك تفعل بحصون الكتيبة، ثم قال: يا أبا القاسم! احتقنْ دمي. قال: «أنت آمن» قال: ولي زوجةٌ فهبها لي؟ قال: «هي لك» ثم دعاه إلى الإسلام، فقال: أنظرني.

ثم قال ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله عز وجل على يديه» فبات الناسُ يدوكون ليلتهم أيُّهم يعطاها. فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يعطاها، فبعث ﷺ إلى عليٍّ رضي الله عنه، وكان أرمد، شديد الرمد، فتفل في عينيه، ثم قال: «خذ هذه الراية فامضِ بها حتى يفتح الله عليك» فخرج عليٌّ رضي الله عنه يهرول حتى ركزها تحت الحصن، فخرج إليه أهلُ الحصن، وكان أول من خرج إليه يهودي اسمه الحارث أخو مرحب، وكان معروفاً بالشجاعة، فوثب علي رضي الله عنه فقتله، وانهزم اليهود إلى الحصن، ثم خرج إليه مرحب لما علم بمقتل أخيه، فحمل على عليٍّ رضي الله عنه، وضربه، فطرح ترسه من يده، فتناول علي رضي الله عنه باباً كان عند الحصن فتترّس به عن نفسه، وضرب مرحباً فتترس، فوقع سيف علي على الترس فقدّه، وشق المغفر، وفلق هامته، فلم يزل في يده، وهو يقاتل حتى فتح الله عليه الحصن، ثم ألقاه من يده وراء ظهره، قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: لقد رأيتني في سبعة نجهد أن نقلب ذلك الباب فلم نقدر.

وهكذا فتح عليٌّ رضي الله عنه حصن ناعم، وهو أول حصنٍ من

حصون النطاة، ولم يزل القتالُ بين المسلمين واليهود، والمسلمون يفتحون حصونهم حصناً بعد حصن حتى أتمُّوها، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون، وقتل من المسلمين خمسة عشر رجلاً، وقيل: أربع وثلاثون، وأخذ ﷺ كنز آل أبي الحُقَيق الذي كان في مَسْك حمار، فلما كثر جعلوه في مَسْك (جلد) ثور، فلما كثر جعلوه في مَسْك جمل، وكانوا قد غيَّبوه في خَرِبة، فدلَّ الله رسوله ﷺ عليه، فأخبر بموضعه، وكان من مال بني النضير الذي حمله حُيَيُّ بن أخطب لما أُجلوا على المدينة. وغنم ﷺ من أحد حصون النطاة أكثرها طعاماً، وشعيراً، وتمراً، وسمناً، وزيتاً، وشحماً، وماشيةً، ومتاعاً، وفتحت الحصون كلها عنوة ما عدا حصن: الوطيح، والسلالم، فقد صالح أهلها النبي ﷺ على حقن دماء المقاتلة، وترك الذريَّة لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، فتركوا ما لهم من أرض، ومالٍ، وصفراء، وبيضاء، والكراع، والحلْقة (السلاح) والبزّ (الثياب) إلا ثوباً واحداً، ووجد المسلمون في الحصنين: الدروع، والسيوف، والرماح، والأقواس بجعابها.

واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من سبايا خيبر السيدة صفية بنت حُيَيٍّ، وهي من سبط هارون عليه السلام، ثم أعتقها، وتزوَّجها.

وفي خيبر أخبر ﷺ عن قزمان بأنه من أهل النار.

روى البخاري عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجلٌ لا يدع لهم شاذَّةً، ولا فاذّةً إلا اتَّبعها يضربها بسيفه، فقيل: ما أجزأ منا اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه من أهل النار» فقال رجلٌ من القوم: أنا صاحبه، قال: فخرج معه، كلَّما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجرح الرجلُ جُرحاً شديداً

فاستعجل الموت، فوضع سيفَه بالأرض وذُبابه (رأسه) بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجلُ إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله. قال: «وما ذاك؟» قال: الرجل الذي ذكرته آنفاً أنه من أهل النار، فأعظم الناسُ ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجتُ في طلبه، ثم جرح جرحاً شديداً، فاستعجل الموتَ، فجعل نصلَ سيفه في الأرض، وذُبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه، فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «إن الرجل يعملُ عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإنّ الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة»[١].

وفي خيبر: أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سمٌّ، أهدتها له زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلاَّم بن مشكم، وكانت سألت أيَّ عضو من الشاة أحبَّ إليه؟ فقيل: الذراع، فأكثرت فيها من السم، فلما تناول الذراع لاك منها مضغةً ولم يسغها، وأكل منها معه بشر بن البراء، فأساغ لقمته، ومات منها. وعند البيهقي أنه عليه الصلاة والسلام أكل، وقال لأصحابه: «أمسِكوا فإنها مسمومة» وقال لها: «ما حملك على ذلك؟» قالت: أردت إن كنت نبياً فيطلعك الله، وإن كنت كاذباً فأريح الناس منك. قال: فما عرض لها. وعند ابن سعد: أنه دفعها إلى أولياء بشر فقتلوها[٢].

وفي خيبر: حُرِّمت المتعة (متعة النساء)، وأكل لحوم الحمر الأهلية.

روى البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يومَ خيبر، وعن أكل الحمر الإنسية[٣].

---

(١) بخاري (٥/١٦٨).
(٢) إرشاد الساري (٦/ ٣٧٨).
(٣) بخاري (٥/ ١٧٢).

ودفع رسول الله ﷺ الأرضَ لأهل خيبر ليعملوا فيها بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع، وقال لهم: «إنَّا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم» ثم استمروا على ذلك إلى خلافة عمر رضي الله عنه، ووقعت منهم خيانة وغدرٌ ببعض المسلمين، فأجلاهم إلى الشام بعد أن استشار الصحابة رضي الله عنهم في ذلك.

غزوة وادي القرى «منصرفه من خيبر»:

وادي القرى: موضع بقرب المدينة، كان به جماعة من اليهود، فحاصرهم ﷺ أربعة أيام، ثم دعاهم إلى الإسلام، وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم، ودماءهم، وحسابهم على الله، فأبوا، وأبرزوا للمسلمين فرسانهم، فقتلهم المسلمون الواحد تلو الآخر، وكلما قُتِل فارسٌ منهم دعوا من بقي إلى الإسلام، وفتحها ﷺ عنوة، وغنَّمه اللهُ أموالهم، وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً، وقسم ما أصابه على أصحابه، وترك الأرض والنخل بأيدي يهود، وعاملهم عليها، وولاها ﷺ عمرو بن سعيد بن العاص.

وصالحه ﷺ أهل تيماء على الجزية لما بلغهم فتح وادي القرى، وصالحه أيضاً أهل فَدَك على أن لهم نصفها، وله ﷺ نصفها، فأقرّهم على ذلك، فكانت له ﷺ خاصّة؛ لأنه لم يوجف (لم يحمل) عليها بخيل ولا ركاب، ثم رجع ﷺ إلى المدينة منصوراً مؤيَّداً.

عمرة القضاء:

خرج ﷺ في هلال ذي القعدة سنة سبع معتمراً، وأمر أصحابه أن يعتمروا قضاءً لعمرتهم التي صدَّهم المشركون عنها بالحديبية، وأمر ألا يتخلَّف أحدٌ ممن شهد الحديبية، وخرج معهم غيرهم، فكانوا ألفين سوى النساء والصِّبيان، واستخلف على المدينة أبا رُهم كلثوم بن الحصين الغفاري، وساق معه ﷺ ستين بدنة، وحمل السلاح،

والدروع، والرماح، وقاد مئة فارسٍ، فعل ذلك احتياطاً، وتوثُّقاً، خوفاً من غدر أهل مكة، فلما وصل ذا الحليفة قدَّم الخيل، والسلاح، فلما وصلوا قريباً من مكة، إلى مرِّ الظهران وجدوا نفراً من قريش، فلما رأوا الخيل والسلاح فزعوا، وأتوا قريشاً في مكة فأخبروهم، ففزعوا، وأرسلوا مكرز بن حفص ليستطلع الخبر، فوجد النبي ﷺ في بطن يأجج، فقال له: والله ما عُرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك، وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاحِ المسافر؟! فقال: «إني لا أدخل عليهم بسلاح» فقال مكرز: هو الذي تُعرَف به من البرِّ والوفاء؟! ثم رجع بأصحابه إلى مكة، فقال: إن محمداً على الشرط الذي شرط لكم. وترك ﷺ السلاح في بطن يأجج: موضع على أميال من مكة، وخلَّف عليه أوس بن خولي الأنصاري رضي الله عنه في مئتي رجل، حتى قضى الكلُّ مناسكَ عمرتهم، رضي الله عنهم.

وخرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال، ولم يقدروا على رؤيته ﷺ هو وأصحابه يطوفون بالبيت، وقدَّم ﷺ الهدي أمامه بذي طَوى (حي الزاهر اليوم)، وخرج راكباً ناقته، والمسلمون متوشحون السيوف، مُحدِقون برسول الله ﷺ، فدخل من الثنيَّة التي تطلعه على الحجون، ولم يزلْ رسول الله ﷺ يلبِّي حتى استلم الركن (الحجر الأسود) مضطبعاً بثوبه، والمسلمون يطوفون معه، وقد اضطبعوا بثيابهم، وأمرهم ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون قوَّتهم، ثم سعى ﷺ بين الصفا والمروة، وبعد فراغه نحر هديَه عند المروة، وحلق هناك، ثم أمر مئتين من أصحابه أن يذهبوا إلى أصحابه ببطن يأجج يقيمون على السلاح، ويأتي الآخرون ليقضوا نُسُكهم ففعلوا.

وأقام ﷺ بمكة ثلاثاً كما شرطت قريش في الهدنة، ثم خرج ﷺ فتبعته ابنةُ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه تنادي: يا عم، يا عم! فتناولها عليٌّ رضي الله عنه وقال لفاطمة رضي الله عنها وهي في

هودجها: دونك ابنة عمك فخرج بها، ثم اختصم فيها عليٌّ وجعفر وزيد ابن حارثة بعد أن قدموا المدينة، فكان لكلٍّ فيها شبهة، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم» وتزوَّج ﷺ ميمونة رضي الله عنها عند رجوعه وهو حلال بِسَرِف.

وقد اختلف العلماءُ في تسمية هذه العمرة عمرةَ القضاء، فقال مالك، والشافعي، والجمهور: لأنه قاضى قريشاً سنة الحديبية، فالمراد بالقضاء الفصل الذي وقع عليه الحكم؛ لا لأنها قضاء عن العمرة التي صُدَّ عنها؛ لأنها لم تكن فسدت حتى يجب قضاؤها، بل كانت عمرةً تامَّةً.

وقال أبو حنيفة، وأحمد في رواية عنه: إن مَن صُدَّ عن البيت فعليه القضاء، فتسميتها قضاء على ظاهره.

سريّة مؤتة:

لم يخرج النبيُّ ﷺ فيها، وذكرتها في الغزوات لما فيها من معجزات النبي ﷺ، وللآداب التي يجب الائتساءُ بها.

سببها: قَتْل رسولِ رسول الله ﷺ الحارثِ بن عمير الأزدي؛ الذي أرسله بكتاب إلى أمير بصرى الحارث بن أبي شمر الغساني من قبل هرقل، على يد شرحبيل بن عمرو الغساني في مؤتة من محافظة البلقاء، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسولٌ غيره.

أمَّر رسول الله ﷺ مولاه زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف، وقال: «فإن قُتِل زيد فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن قُتِل فعبد الله بن رواحة، فإن قُتِل فليرتضِ المسلمون رجلاً من بينهم يجعلونه عليهم أميراً». وعقد لهم ﷺ لواءً أبيض، ودفعه إلى زيد، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث ابن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا، وإلا فاستعينوا عليهم بالله، وقاتلوهم. وخرج ﷺ مُشيِّعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف، وودَّعهم وقال:

«أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً. اغزوا باسم الله في سبيل الله مَن كفر بالله، لا تغدِروا، ولا تغُلُّوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأةً، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً».

فلما فصلوا من المدينة سمع العدوُّ بمسيرهم، وقام شرحبيل بن عمرو الغساني، فجمع أكثر من مئة ألف، وقدَّم الطلائعَ أمامه، فلما نزل المسلمون وادي القرى بعث شرحبيل أخاه سدوس في خمسين من الكفار، فاقتتلوا مع المسلمين، وقتل سدوس، وانكشف أصحابه، ونزل المسلمون معان، وبلغهم كثرة العدوِّ، وأن هرقل نزل بأرض البلقاء في مئة ألفٍ من مشركي الروم مع ما انضمَّ إليهم من جموع شرحبيل؛ فقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فإما أن يَمُدَّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمر فنمضي له. فشجَّعهم عبد الله بن رواحة، وقال: يا قوم! والله! إن التي تكرهون لَلَّتي خرجتم إياها تطلبون الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد، ولا قوة، ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة. فقال الناس: قد والله! صدق ابنُ رواحة، فمضوا إلى مؤتة، ووافاهم المشركون يزيدون على مئتي ألف والسلاح، والخيل، والديباج، والحرير، والذهب إظهاراً للقوة، والشدَّة بكثرة أموالهم، وآلات حروبهم، وفي هذا دليلٌ على فرط شجاعة الصحابة رضي الله عنهم، وقوة قلوبهم، وتوكُّلهم على ربِّهم، وعدم مبالاتهم بأنفسهم؛ لأنهم باعوها لله تعالى، ولِما وقر في قلوبهم واطمأنت عليه نفوسُهم من الثقة بقول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٤٠/ ٥١] وقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٧٣] وقوله عز شأنه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٧].

والتقى المسلمون والمشركون، فقاتل الأمراء الثلاثة، فأخذ اللواء زيد بن حارثة رضي الله عنه فقاتل على رجليه، وقاتل المسلمون على صفوفهم حتى قُتِل طعناً بالرماح، ثم أخذ اللواءَ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فقاتل به، وهو على فرسه، فألجمه القتالُ، فنزل عن فرس له شقراء، فعقرها، وقاتل حتى قُتِل، وعمره ثلاث وثلاثون سنة، وكان أسنَّ من عليٍّ بعشر سنين، وعَقْره رضي الله عنه فرسه خوفاً أن يأخذه الكفار، فيقاتلوا عليه المسلمين، وليقاتل فلا يفرّ، ولما أخذ اللواء قاتل قتالاً شديداً، فقُطِعت يمينه، فأخذه بيساره، فقطعت يسارُه فاحتضنه، وقاتل حتى قُتِل رضي الله عنه؛ ووُجِد فيه بضع وتسعون جرحاً ليس فيها شيء في ظهره، بل كلها في حال إقباله لمزيد شجاعته رضي الله عنه؛ ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، ثم تقدَّم به، وهو على فرسه، يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، ثم قال:

يا نفس إلا تُقتلي تموتي ... هذا حِمامُ الموت قد صليتِ

وما تمنيتِ فقد أعطيتِ ... إن تفعلي فعلهما هديتِ

يريد: صاحبيه زيداً وجعفراً رضي الله عنهما، ثم نزل عن فرسه، فأتاه ابنُ عمٍّ له بِعَرْقٍ من لحم، فقال: شُدَّ بهذا صُلْبك؛ فإنك قد لقيت أيامكَ هذه ما لقيت، فأخذه من يده، ثم انتهس منه نهسةً، ثم سمع الحَطْمَة في الناس، فقال: وأنت في الدنيا؟! ثم ألقاه من يده، وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتِل رضي الله عنه. ثم أخذ اللواء ثابت بن أقرم العجلاني رضي الله عنه حليف الأنصار، وكان من أهل بدر رضي الله عنهم، فقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم! قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلحوا على خالد بن الوليد رضي الله عنه، وسلَّموه اللواء، فأخذه، فقاتل قتالاً شديداً، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأصاب غنيمة عظيمة، وانقطع في يد خالد يومئذ تسعةُ أسياف حتى

ما بقي في يده إلا صفيحة يمانية، وانهزم المشركون أسوأ هزيمة، ما رؤي مثلها قطُّ بحنكة خالدٍ رضي الله عنه، حيث رتَّب الجيش، فجعل مقدِّمته ساقة (مؤخرة) وميمنتَه ميسرةً، فأنكر العدو حالهم، وقالوا: جاءهم مدد، فرعبوا، وانكشفوا منهزمين. وفي الصحيح: «حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله، ففتح الله عليهم، وانكشف الناس، فكانت الهزيمة».

ولا يخالف هذا ما جاء: أن طائفة من الصحابة فرّوا إلى المدينة بعد مقتل الأمراء الثلاثة، وصار أهلُ المدينة يقولون لهم: أنتم الفرَّارون، ورسول الله ﷺ يقول: «بل هم الكرَّارون» وفي لفظ: «العكَّارون»، لأنَّ فرارهم كان من الانحياز إلى فئة، وأيضاً: زاد العدوّ على ضِعفِهم، بل زاد على عشرة أضعافهم؛ ولذا كان ﷺ يقول لهم: «أنا فئتكم» يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ١٦].

ومدة الاقتتال سبعة أيام، وقُتِل من جيش المسلمين اثنا عشر رجلاً، وأما قتلى المشركين فلا يُحْصَون، ونعى رسول الله ﷺ زيداً، وجعفراً، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الرايةَ زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب» وعيناه تذرفان «حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[١].

قالت أسماء بنت عميس رضي الله عنها زوجُ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنها: دخل عليَّ رسول الله ﷺ يوم أُصيب جعفر وأصحابه، فقال: «ائتني ببني جعفر» فأتيتهُ بهم، فشمَّهم، وذرفت عيناه، وبكى حتى نقطت لحيته الشريفة، فقلت: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم، أُصيبوا هذا

---

(١) بخاري (٥/ ١٨٢).

اليوم». قالت: فقمت أصيحُ، واجتمع عليَّ النساء، وجعل رسول الله ﷺ يقول لي: «يا أسماء لا تقولي هُجْراً، ولا تضربي خدَّاً».

وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: «لا تغفلوا عن آل جعفرٍ أن تصنعوا لهم طعاماً؛ فإنهم قد شُغِلوا بأمر صاحبهم».

وحبس رسول الله ﷺ أولاد جعفر ثلاثة أيام يطعمون معه ﷺ، ويدورون معه ﷺ كلما صار في بيت إحدى نسائه، ثم رجعوا إلى بيتهم.

وكان رسول الله ﷺ أمر مولاته سلمى أن تصنع طعاماً، فعمدت إلى شعير فطحنته، ونسفته، ثم عجنته، وأَدَمَتْهُ بزيت، وجعلت عليه فلفلاً، وقدّمته لآل جعفر. وهو أصلُ طعام التعزية.

غزوة فتح مكة:

سببها: نَقْض قريش العهد الذي وقع في صلح الحديبية؛ فإنه كان قد وقع الشرط: أنَّ من أحبَّ أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعَهْده فعل، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فعل، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم. وخزاعة حلفاء جد النبي ﷺ عبد المطَّلب حين تنازع مع عمه نوفل في السقاية التي كانت في يده، فأخذها منه نوفل، فاستنهض عبد المطلب قومه، فلم ينهض معه منهم أحدٌ، وقالوا: لا ندخل بينك وبين عمك. ثم كتب إلى أخواله بني النجار في يثرب، فهبَّ إليه منهم سبعون، وقالوا لنوفل: وربِّ هذه البنيّة! لتردَّنَّ على ابن أختنا ما أخذت، وإلا ملأنا منك السيف، فردّه. ثم حالف نوفل بني أخيه عبد شمس، وحالف عبد المطَّلب خزاعة.

ثم كان بين خزاعة وبني بكر حروب وقتلى في الجاهلية، وتشاغلوا عنها لما ظهر الإسلام، ثم كان الصلح، وكانت الهدنة. ثم إن شخصاً من بني بكر هجا رسول الله ﷺ، فسمعه غلام من خزاعة، فضربه،

فشجَّه، فثار الشرُّ بين الحيَّيْنِ مع ما كان بينهم من العداوة، وطلب بنو بكر من قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة، فأمدُّوهم بذلك، فبيَّتوا خزاعة، ووقع القتالُ بينهم، وكان جملة من قتل من خزاعة عشرين أو ثلاثةً وعشرين.

فلما ناصرت قريش بني بكر على خزاعة نقضت قريش ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق، ثم إنهم ندموا على ما صنعوا، واتفقوا على إنكار الأمر، وأنهم لم يعينوا بني بكر، وأطلع الله نبيَّه ﷺ على ذلك يوم وقوعه، حتى قال لعائشة رضي الله عنها: «لقد حدث يا عائشة! في خزاعة أمر». فقالت: أترى قريشاً تجترىء على نقض العهد الذي بينك وبينهم، وقد أفناهم السيف؟ فقال: «ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى» قالت: يا رسول الله! خير. قال: «خير».

ولما انقضى قتالُ بني بكر وخزاعة، خرج عمرو بن سالم الخزاعي، ومعه أربعون راكباً من خزاعة، فقدموا على رسول الله ﷺ يخبرونه بالذي أصابهم، ويستنصرونه، فقال له رسول الله ﷺ: «نُصِرتَ يا عمرو بنَ سالم!».

وسأل ﷺ عمرو بن سالم: «فيمن تُهمَتُكم؟» قال: في بني بكر. قال: «كُلّها؟» قال: لا، ولكن في بني نفاثة، وهم بطنٌ من بني بكر.

ثم قال ﷺ لعمرو بن سالم وأصحابه: «ارجعوا، وتفرَّقوا في الأودية» وقصد بذلك ﷺ إخفاءَ مجيئهم للنبي ﷺ.

وتوجَّه أبو سفيان إلى المدينة مبادراً قبل أن يبلغَ المسلمين الخبر، ولم يعلمْ بمسيرة خزاعة قبله، وقبل قدومه قال ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم: «كأنكم بأبي سفيان قد جاء يقول: جدِّد العهد، وزِدْ في المدّة، وهو راجعٌ بسخطة». فلما انتهى أبو سفيان إلى المدينة، دخل على بنته أم حبيبة، أمِّ المؤمنين، زوج النبي ﷺ ورضي عنها، فأراد أن يجلسَ

على فراش رسول الله ﷺ، فطوته عنه، فقال: يا بُنيّة! ما أدري؟ أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبتِ به عني؟ قالت: بل، هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجلٌ مشركٌ نجس، ولم أحبّ أن تجلسَ على فراش رسول الله ﷺ، قال: والله! لقد أصابك يا بنيَّةُ بعدي شر، فقالت: بل هداني الله للإسلام، فأنت يا أبتِ سيد قريش، وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام، وأنت تعبد حجراً لا يسمع، ولا يبصر؟ فقام من عندها، فأتى رسول الله ﷺ يسأله أن يجدِّد العهد، ويزيد في المدَّة، فأبى عليه، وقال: يا محمد! إني كنتُ غائباً في صلح الحديبية، فاشدد العهد، وزِدْنا في المدة، فقال ﷺ: «فلذلك جئت؟» قال: نعم، فقال: «هل كان من حدث؟» فقال: معاذ الله! نحن على عهدنا وصلحنا لا نغيِّر ولا نبدِّل، فقال ﷺ: «فنحن على ذلك» فأعاد أبو سفيان القول، فلم يردَّ عليه شيئاً، فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فكلَّمه أن يكلِّم له رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل، فكلم عمر فقال: أنا أشفع لكم! والله! لو لم أجد إلا الذّرّ لجاهدتكم به. ثم أتى عليّاً، وفاطمة، وعثمان، وسعد ابن عبادة، وأشراف قريش، والأنصار، فكلمهم، وكلهم يقول: جواري في جوار رسول الله ﷺ، ما يجير أحد عليه، وطال مكثه في المدينة، واتهمته قريش أشدَّ التهمة، وقالوا: قد صبأ، واتبع محمداً سرًّا، وكتم إسلامه، ثم رجع، ولما دخل على هند امرأته ليلاً، قالت: ما صنعت؟ فأخبرها الخبر، فضربت برجلها على صدره، وقالت: قُبِّحتَ من رسول قوم! وقالت قريش له: ما جئتنا بحرب فنحذر، ولا صلحٍ فنأمن.

وتجهَّز رسول الله ﷺ، وقال: «اللهم! خُذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها». وتجهَّز الناسُ، وأمر عليه الصلاة والسلام جماعةً أن تقيم على الطرق الموصلة إلى المدينة وقال لهم: «لا تَدَعوا أحداً يمرُّ بكم تنكرونه إلا رددتموه» فعمَّى على أهل مكة، لا يأتيهم خبر.

كتاب حاطب:

كتب حاطب بن أبي بلتعة البدري حليف بني أسد رضي الله عنه كتاباً وأرسله إلى مكة يخبرهم بمسير النبي ﷺ، وأرسله مع امرأة استأجرها بعشرة دنانير، وقال لها: أخفيه ما استطعت، ولا تمرِّي على الطريق، فإنَّ عليه حرساً.

فأطلع اللهُ نبيَّه ﷺ على ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود رضي الله عنهم: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (موضع على بريد من المدينة) فإن بها ظعينة، معها كتابٌ من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين، فخذوه منها». قال: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظَّعينة؛ فقلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فالتمسناه، فلم نر كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ، لتخرجِنَّ الكتاب، أو لنلقينَّ عنك الثياب، فلما رأت الجدَّ حلَّت قرونها، فأخرجته من عِقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى سهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، أما بعد: يا معشر قريش! فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش عظيم، يسير كالسَّيل، فوالله! لو جاءكم وحده لنصره الله، وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم، والسلام.

فدعا النبيُّ ﷺ حاطباً فقال: «أتعرف هذا الكتاب؟» قال: نعم، قال: «ما حملك على هذا؟» قال حاطب: يا رسول الله لا تعجلْ عليَّ، أما والله! إني لمؤمنٌ بالله ورسوله، ما غيَّرتُ، ولا بدَّلتُ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكني كنت امرأً مُلْصَقاً في قريش، يعني: حليفاً لهم، وكان لي بين أظهرهم ولدٌ وأهل فصانعتهم عليه، وكان من معك من المهاجرين ممَّن له أهلٌ، أو مال بمكة لهم قراباتٌ يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببتُ إذ فاتني النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً، يحمون بها قرابتي.

فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم فيما أخبركم» فقال له عمر رضي الله عنه: قاتلك الله! ترى رسول الله ﷺ يأخذ بالأنقاب، وتكتب إلى قريش؟! يا رسول الله! دَعْني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ اللهَ اطَّلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم» فدمعت عينا عمر رضي الله عنه وقال: الله ورسوله أعلم.

وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/١] الآية.

وقول النبي ﷺ: «لعل الله اطلع على أهل بدر...» الخ، ليس فيه إباحة المعاصي لهم، وإنما هو خطابُ إكرام وتشريف، تضمَّن أنهم رضي الله عنهم حصلتْ لهم حالةٌ غفرت بها ذنوبهم السَّالفة، وتأهلوا لأن يغفر لهم ما سيحصل من الذنوب لو فُرض وقوعُه منهم.

وقد أظهر اللهُ صِدْقَ رسوله ﷺ في كل من أخبر عنه بشيء من ذلك، فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا، يَعلم ذلك من أحوالهم مَن اطلع على سيرهم رضي الله عنهم.

ولمّا عزم ﷺ على غزو أهل مكة، بعث إلى من حوله من العرب، وطلب حضورهم من قبائل أسلم، وغفار، وأشجع، وسُليم، وغيرهم، وبعث رُسُلاً في كل ناحية، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، وكان ذلك في رمضان سنة ثمان للهجرة، فخرج عليه الصلاة والسلام من المدينة لعشر ليال خلون من رمضان في عشرة آلاف مقاتل، ولما بلغ ﷺ الكَديد، ماء بين قُديد، وعُسفان، أفطر؛ لأنه بلغه أن الناس شقَّ عليهم الصيام، فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر، وكان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ قد خرج بأهله، وعياله مهاجراً، فلقي رسول الله ﷺ بالجحفة، وكان إسلامُه قديماً، وكان يكتمه

بأمر النَّبي ﷺ، وكان ممن لقيه ﷺ في الطريق (الأبواء) أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه ﷺ، وأخوه من الرضاع من حليمة السعدية، وكان معه ولده جعفر، وعبد الله بن أبي أمية المخزومي ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، وهو أخو أم سلمة زوج النبي ﷺ لأبيها، وكانا من أشد الناس إذايةً لرسول الله ﷺ، فأعرض عنهما ﷺ لمّا لقياه. فالتمسا الدخولَ عليه فكلَّمته أم سلمة رضي الله عنها فيهما، فقالت: يا رسول الله! ابن عَمّك، وابن عمتك، وصهرك، فقال: «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال» فقالت له أم سلمة: لا يكن ابنُ عمك وابن عمتك أشقى الناس بك. فلما خرج الخبرُ إليهما بذلك، قال أبو سفيان: والله! ليأذنن لي، أو لآخذنّ بيد ابني هذا، يعني: ولده جعفراً، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ رقَّ لهما، ثم أذن لهما، فدخلا عليه، وأسلما، ويقال: إنَّ ابنَ عمِّه أبا سفيان لم يرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ مذ أسلم حياءً منه، ومات في زمان عمر رضي الله عنه.

وكذلك كان ابنُ عمته، وصهره لا يستطيع أن يرفع طرفه إليه حياءً منه، واستشهد في غزوة الطائف.

وعقد رسول الله ﷺ الألوية، والرايات بقديد، ودفعها للقبائل، ثم لما نزل ﷺ مرَّ الظهران، أمر أصحابه، فأوقدوا عشرة آلاف نار، لتراها قريش، أو تسمع بها، فترعب من كثرتها، واستجاب الله لرسوله ﷺ، فأخذ العيون والأخبار عن أهل مكة، ولم يبلغهم مسيرُه، وهم مغتمُّون، محزونون، متحيِّرون، خائفون.

وكان من قضاء الله وقدره أن خرج أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبُدَيل بنُ ورقاء يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً،

أو يسمعون به، فلما سمعوا صهيل الخيل راعهم ذلك، ورأوا كثرة النيران فقال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قطُّ، ولا عسكراً، هذه كنيران عرفة، ولما دخل أبو سفيان ومن معه عسكر المسلمين، أخذهم حرسُ رسول الله ﷺ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عليهم تلك الليلة، فجاؤوا بهم، فلما أخذوا بِخُطُم أبعرتهم، قال أبو سفيان: من أنتم؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا لعمر: جئناك بنفرٍ أخذناهم من أهل مكة، فقال عمر رضي الله عنه وهو يضحك إليهم: والله! لو جئتموني بأبي سفيان ما زدتم، قالوا: والله! أتيناك بأبي سفيان، فقال: احبسوه.

قال العباس حين نزل النبي ﷺ مَرَّ الظهران: رقّت نفسي لأهل مكة، وقلت: والله! لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عَنْوَةً قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنَّه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، فجلستُ على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجتُ عليها حتى جئتُ الأراك لعلِّي أجد من يأتي إلى مكة يخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه، إذ سمع العباس صوت أبي سفيان، فأخذه، وجاء به، فأمسكه الحرس.

قال العباس: ثم خرج عمر رضي الله عنه يشتدُّ نحو رسول الله ﷺ، فركضت البغلة، فسبقته، واقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر في أثري، فقال: يا رسول الله! هذا أبو سفيان عدو الله، قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد، فدعني أضربْ عنقه، قال العباس: قلتُ: يا رسول الله! إني قد أجرتُه، فقال رسول الله ﷺ: «اذهب يا عباس به إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به» فلما أصبح أبو سفيان، ورأى الناس بادروا إلى الوضوء، قال: ما للناس أُمِروا فيَّ بشيء؟ قالوا: لا، ولكنهم قاموا إلى الصلاة، فأمره العباس فتوضأ، وانطلق به، فلما كبَّر ﷺ كبر الناس، ثم ركع فركعوا، ثم رفع فرفعوا، ثم سجد فسجدوا، فقال: ما رأيت كاليوم طاعة قوم جمعهم من ها هنا

وها هنا، ولا فارس الأكارم، ولا الرومَ ذاتَ القرون بأطوع منهم له يا أبا الفضل! أصبح ابن أخيك والله! عظيمَ الملك، فقال العباس: إنه ليس بملك، ولكنها النبوَّة، فقال: أو ذاك. فلما رآه ﷺ بعد فراغه من الصلاة قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟!» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك! لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لأغنى عني شيئاً، ثم قال ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟!» فقال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك! أما هذه ففي النفس منها شيء. فخاف عليه العباسُ أن يبادر أحدٌ بقتله، فقال له: ويحك! أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عُنُقُك، فأسلم، وشهد شهادة الحق.

ثم قال أبو سفيان، يا رسول الله! ادع الناس بالأمان؟ أرأيت إن اعتزلت قريش فكفَّت أيديها أهم آمنون؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم، من كف يده، وأغلق داره فهو آمن».

ثم أراد العباس رضي الله عنه تثبيتَ إسلام أبي سفيان، فقال: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجلٌ يحب السماع (الشرف) فاجعلْ له شيئاً، فقال ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن». قال: وما تسع داري؟! قال: «ومن دخل المسجد فهو آمن» قال: وما يسع المسجد؟! قال: «ومن أغلق بابه فهو آمن» قال أبو سفيان: هذه واسعة، وأمر ﷺ مناديَه أن ينادي بذلك كلِّه، إلا من استثناهم النبي ﷺ، وأمر بقتلهم.

ولما أراد ﷺ السيرَ من مرِّ الظهران قال للعباس رضي الله عنه: «لا آمن أن يرجع أبا سفيان فيكفر» فاحبسه عند خطم الجبل حتى يرى جنودَ الله». فجعلت القبائل تمرُّ كتيبةً كتيبة، وأبو سفيان ينظر إليهم، ويسأل عنهم، ويقول: ما لي ولبني فلان! حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، إذ في

كلِّ بطن منها لواء، وهم في الحديد، لا يُرى منهم إلا الحدق، فيهم ألفا دارع، وفيهم رسول الله ﷺ، ومعه جملةٌ من كبار المهاجرين والأنصار، فقال أبو سفيان: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة رضي الله عنه، ومعه راية الأنصار، فلما حاذى سعد أبا سفيان قال: يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة. وسمع مقالة سعد ابن عبادة عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله! ما نأمن أن تكون لسعدٍ صولةٌ في قريش، فقال لعلي رضي الله عنه: «أدركه فخذ الراية منه». ثم أمره أن يسلِّمها لابنه قيس بن سعد، وقال رسول الله ﷺ لأبي سفيان: «اليوم يوم المرحمة، اليوم يعزُّ الله قريشاً» أي: بالإسلام، والدين. ثم بعد مرور جنود الله كلها بأبي سفيان قال له العباس: النجاء إلى قومك! فجاء إليهم يصيحُ بالأمان: هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، أسلموا تسلموا، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنَّا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فقامت إليه هند زوجته، فأخذتْ بشاربه، وقالت كلاماً معناه: اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه، قُبِّح من طليعة قوم. ولما قرب ﷺ من دخول مكة قال له أسامة بن زيد: يا رسول الله! أين تنزل غداً؟ وفي رواية: أتنزل في دارك؟ فقاله له النبي ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل من منزل؟[1] منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله مكة الخيف، خيف بني كنانة».

وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون، ودخل ﷺ من أعلى مكة على رحله مُردفاً خلفه في هذا الموكب العظيم خادمه، وابن خادمه رضي الله عنهما أسامة بن زيد يوم الجمعة، وعليه عمامة سوداء، واضعاً رأسه الشريف على راحلته تواضعاً لله تعالى حين رأى ما رأى من فتح الله، وكثرة المسلمين، وهو يقول: اللهم! إن العيش عيش الآخرة.

---

(١) بخاري (٥/ ١٨٧).

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في زمرة من قبائل قضاعة، وسُليم، وأسلم، وغفار، وغيرهم، وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وأن يركز رايته عند أدنى البيوت إلى الثنية، وأمر عليه الصلاة والسلام المسلمين أن يكفُّوا أيديَهم، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، فاعترض سبيلَ خالد بعضُ من استنصرت بهم قريش من بني بكر وهذيل، ومنعوه الدخول، وشهروا السلاح، ورموه بالنبل، فقاتلهم، فانهزموا أقبح انهزام.

واستثنى رسول الله ﷺ أناساً من الدخول في الأمان، وأهدر دمهم، وأمر بقتلهم، وهم خمسة عشر ما بين رجل وامرأة: عبد الله بن أبي سرح، وعبد الله بن خطل،ومغنيتان كانتا عنده تغنيان بهجاء النبي ﷺ والمسلمين، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نُقَيد، ومقيس بن صَبابة، وهبّار بن الأسود، وكعب بن زهير، والحارث بن هشام، وزهير ابن أبي أمية، وسارة مولاة لبني المطلب، وصفوان بن أمية، وهند بنت عتبة، ووحشي قاتل حمزة. فأما ابن أبي سرح فصلح حاله، وصار من أولياء الله الصالحين المجاهدين الفاتحين.

وأما عبد الله بن خطل، فأسلم، ثم ارتد، وقتل، وكان شاعراً، وكانت له قينتان (مغنيتان) تغنيانه بهجاء رسول الله ﷺ الذي يصنعه، فقتل يوم الفتح، وقُتِلت إحدى قينتيه، واستؤمن رسول الله ﷺ للأخرى فأمَّنها فأسلمت، وأسلم عكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام، وحسن إسلامهما، وكذا زهير بن أبي أمية.

وأما الحويرث بن نقيد فكان ممن يهجو رسول الله ﷺ، ويكثر أذاه، ونخس هو وهبار بن الأسود الجمل الذي كانت تركب عليه ابنتا رسول الله ﷺ فاطمة وأم كلثوم فقتل عليٌّ الحويرث، ونخس هبار جمل السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فسقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ولم تزل مريضةً حتى ماتت، فأمر رسول الله ﷺ

بقتله، فجاء تائباً مسلماً، وقبل النبي ﷺ ذلك منه، وعفا عنه. وأما مقيس بن صُبابة فكان أسلم، ثم أتى على أنصاري كان قد قَتَل أخاه هشامَ بن صبابة خطأً في غزوة ذي قرد فقتله، ثم ارتد على الإسلام بعد أن أخذ ديته، ورجع إلى قريش، فقتله غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه.

وأما كعب بن زهير فلأنه هجا رسول الله ﷺ وصار يعيِّر أخاه بجيراً بإسلامه، ولما بلغ كعباً أنه مقتول، ضاقت عليه الأرض، ثم إنه جاء إلى رسول الله ﷺ يستأمنه تائباً، فقبل توبته، وحسن إسلامه.

وأما سارة فكانت مغنية بمكة تهجو النبي ﷺ، وهي حاملة كتاب حاطب إلى أهل مكة، وقد اختفت عند فتح مكة، ثم أخذ لها أمانٌ من رسول الله ﷺ، فجاءت إليه، وأسلمت على يديه، وحَسُن إسلامها.

وأما صفوان بن أمية فأخذ له أمان من سيدنا رسول الله ﷺ، فأمَّنه، وأمهله في الإسلام أربعة أشهر حتى أسلم طائعاً مختاراً قبل انقضاء الأربعة.

وأما هند بنت عتبة فلما فعلت بحمزة سيد الشهداء، ثم إنها أسلمت طائعة مختارة يوم الفتح.

وأما وحشيّ قاتل حمزة فإنه هرب إلى الطائف يوم الفتح، ثم لما أسلم أهل الطائف، ضاقت عليه الأرض فقيل له: ما يقتل أحداً يدخل في دينه، فظهر إلى المدينة، وقام عند رأسه ﷺ يتشهد بشهادة الإسلام، فقال له: «غيِّب وجهك عني» وكفَّر عن خطيئته بقتله مسيلمة الكذاب بحربته التي قتل بها حمزة سيد الشهداء رضي الله عنه.

وممن اختفى يوم الفتح عتبة، ومعتب ابنا أبي لهب، فقال النبي ﷺ لعمه العباس: «أين ابنا أخيك؟! لا أراهما، ائتني بهما» فأتاه بهما، فدعاهما إلى الإسلام فأسلما فسرَّ بإسلامهما، ودعا لهما.

ومن اختفى أيضاً سهيل بن عمرو، وكان ابنه عبد الله مسلماً، فجاء إلى النبي ﷺ ليأخذ له أماناً، فقال ﷺ: «هو آمن بأمان الله» فأسلم بالجعرانة، وصار من فضلاء الصحابة.

ودخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمئة وستون صنماً، لكل حي من أحياء العرب صنم، قد شدُّوا أقدامها بالرصاص، فجاء ﷺ ومعه قضيب، فجعل يهوي به إلى كلِّ صنم منها فيخرُّ لوجهه، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً».

ومكة ترجُّ بالتكبير، وطاف رسول الله ﷺ بالبيت سبعاً يستلم الحجر الأسود كل شوط بمحجنه، وكان ذلك يوم الإثنين لعشر بقين من رمضان.

ثم انتهى ﷺ إلى المقام، فصلى ركعتين، ثم انصرف إلى زمزم، وقال: «لولا أن تُغلَبَ بنو عبد المطلب لنزعت منها دلواً» فنزع له العباس دلواً، فشرب منه، وتوضأ، والمسلمون يبتدرون وضوءه يَصُبُّونه على وجوههم، والمشركون ينظرون، ويعجبون، ويقولون: ما رأينا ملكاً قطّ أبلغ من هذا، ولا سمعنا به.

ثم جلس رسول الله ﷺ في ناحية المسجد، وأبو بكر رضي الله عنه قائم على رأسه بالسيف. وأمر ﷺ عمر بن الخطاب أن يأتي الكعبة، فيمحو كل صورة فيها، فلم يدخلها حتى محيت الصور، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في أيديهما الأزلام، فقال ﷺ: «قاتل الله قوماً يصوِّرون ما لا يخلقون» وأخرجوا صورة عيسى عليه السلام وأمّه، ونادى منادي رسول الله ﷺ بمكة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره» فكسروا الأصنام التي كانت في بيوتهم، ثم بعث السرايا إلى كسر الأصنام التي حول مكة.

ودعا رسول الله ﷺ عثمان بن طلحة، وقال له: «ائتني بالمفتاح» وكان مع أمه، فلما جاءها ترددت أولًا، ثم دفعته إليه ودفعه عثمان إلى رسول الله ﷺ، فدخل الكعبة هو وأسامة، وبلال، وعثمان، فلما خرج وقف على باب الكعبة، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» ثم خطب خطبة طويلة، وذكر فيها جملة من الأحكام، منها: «لا يقتل مسلم بكافر، ولا يتوارث أهل ملَّتين مختلفتين، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، والبينة على المدَّعي، واليمين على من أنكر، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح، ولا يصام يوم الأضحى ويوم الفطر».

ثم قال: «يا معشر قريش! إنَّ الله أذهب عنكم نخوةَ الجاهلية، وتعظُّمَها بالآباء، والناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣] ثم قال: يا معشر قريش! ماذا تقولون؟ وماذا تظنون أني فاعل فيكم؟!» قالوا: خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت، وأول من قال ذلك سهيل بن عمرو، فقال ﷺ: «أقول كما قال أخي يوسف: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ١٢/٩٢] اذهبوا فأنتم الطلقاء» أي: الذين أطلقوا فلم يسترقّوا، ولم يؤسروا. فخرجوا كأنما نشروا من القبور، فدخلوا في الإسلام.

وقال عليه الصلاة والسلام في تلك الخطبة: «أيها الناس! إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يحلُّ لامرىءٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، أو يعضد بها شجرة، فإن أحدٌ ترخَّص فيها لقتال رسول الله ﷺ فقولوا له:

إن الله قد أذن لرسوله ﷺ ولم يأذن لكم، وإنما أحلَّت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها الآن كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهدُ الغائبَ».

ولما خرج ﷺ، وخطب، جلس في المسجد، ومفتاح الكعبة في يده، وتطاول علي والعباس لأخذ المفتاح، فدعا رسول الله ﷺ عثمان ابن طلحة، فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان! اليوم يوم برٍّ ووفاء» وأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾ [النساء: ٤/ ٥٨].

وأقام ﷺ بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً، وقيل: ثمانية عشر يوماً يقصر الصلاة[١] في مدة إقامته بها؛ لأنه كان يترقَّب المسير إلى حرب هوازن لسماعه بتجهزهم لمحاربته، وولَّى مكة عتاب بن أَسيد، وكان عمره إحدى وعشرين سنة، وجعل معه معاذ بن جبل رضي الله عنه يعلِّم الناس الفرائض والسنن، وجعل رزق عتَّاب كل يوم درهماً.

ما وقع يوم فتح مكة من الغرائب:

أمر النبيُّ ﷺ بلالاً أن يؤذِّن ظهر يوم الفتح على ظهر الكعبة ليغيظ بذلك المشركين، وكان أبو سفيان، وعتَّاب بن أسيد، والحارث بن هشام، وغيرهم جلوساً بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون يسمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه. وقال الحارث بن هشام: أما والله! لو أعلم أنه حقٌّ لاتبعته إن يكن الله يكره هذا فسيغيِّره، وفي رواية قال: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذِّناً، وقال الحكم بن أبي العاص: والله! إن هذا لحدث عظيم، عبد بني جمح يصيحُ على بنيَّة أبي طلحة، وقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلَّمت لأخبرتْ عني هذه الحصباء.

---

(١) بخاري (٥/ ١٩١).

فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال لهم: «قد علمت الذي قلتم» ثم ذكر لهم ذلك فقال: «أما أنت يا فلان فقلت كذا، وأما أنت يا فلان فقلت كذا، وأما أنت يا فلان فقلت كذا» فقال أبو سفيان: أما أنا يا رسول الله فما قلتُ شيئاً، فضحك رسول الله ﷺ. فقال الحارث بن هشام، وعتاب: نشهدُ أنك رسول الله، والله! ما اطَّلع على هذا أحدٌ كان معنا، فنقول أخبرك.

فضالة وحديث نفسه:

حدَّث فضالة بن عمير بن الملوَّح نفسه بقتل النبي ﷺ، وهو يطوفُ بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه رسول الله ﷺ قال: «أفضالة؟» قال: نعم، فضالةُ يا رسول الله! قال: «ماذا كنتَ تحدِّث به نفسك» قال: لا شيء، كنتُ أذكر الله، فضحك النبي ﷺ، ثم قال: «استغفِر الله» ثم وضع يده الشريفة على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالةُ رضي الله عنه يقول: والله! ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحبّ لي منه.

إسلام أبي قحافة:

أسلم أبو قحافة، والد أبي بكر الصديق يوم الفتح، جاء به أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، وقد كُفَّ بصرُه، وكانت أمُّه أسلمت قديماً بمكة، وأسلم أبناؤه، وأسلمت بناته. ولم يكن أحدٌ من الصحابة أسلم هو، ووالداه، وأخته، وجميع أولاده، وبناته غير أبي بكر رضي الله عنهم.

فأولاده ثلاثة: عبد الله، وعبد الرحمن، ومحمد الذي ولد عام حجة الوداع، وعبد الله توفي في أول خلافة أبيه، وبناته ثلاثة: أسماء، وهي أكبرهن، وهي شقيقة عبد الله، وعائشة وهي شقيقة عبد الرحمن، وأم كلثوم مات أبو بكر رضي الله عنه وهي في بطن أمها، وأخبر بأنها أنثى قبل وفاته، وهي في بطن أمها، حيث قال لعائشة: إنما هما أخواك وأختاك، ولم تكن تعلم أن لها أختاً غير أسماء، فسألته عن ذلك، فأشار إلى الحمل المذكور وقال: أُراها أنثى، وكان ذلك من كرامته رضي الله

عنه ولا يُعرف في الصحابة أربعة متناسلون أسلموا، وصحبوا النبي ﷺ، وكل واحد أبو الذي بعده إلا في بيت أبي بكر أبو قحافة، وابنه أبو بكر، وابنه عبد الرحمن، وابنه محمد.

إزالة صنم خزاعة:

روى الحاكم عن علي رضي الله عنه، قال: انطلَق بي ﷺ حتى أتى بي الكعبة، فقال: «اجلس» فجلست إلى جنب الكعبة، فصعد على منكبي، ثم قال: «انهض» فنهضت، فلما رأى ضعفي تحته قال: «اجلس» فجلست، ثم قال: «يا علي! اصعد على منكبي» ففعلت، فلما نهض بي خيِّل لي أني لو شئت نلتُ أفق السماء، فصعدتُ فوق الكعبة، وتنحَّى ﷺ فقال: «ألق صنمهم الأكبر، وعالجه» قال: لم أزل أعالجه حتى استمكنت منه، فألقيتُه.

غزوة هوازن (أوطاس، حنين):

حنين: اسم موضع بين مكة والطائف، وأوطاس موضع كانت به الوقعة، وهوازن قبيلة كبيرة من العرب، فيها عدة بطون ينسبون إلى هوازن؛ الذي ينتهي نسبه إلى قيس بن عيلان بن إلياس بن مضر.

سببها: أنه ﷺ لما فتح مكة مشت أشرافُ هوازن وثقيف بعضها إلى بعض، وتشاوروا على قتاله ﷺ خوفاً من أن يسير إليهم، ويقاتلهم.

واجتمع أمرهم على مالك بن عوف النصري، وعمره ثلاثون عاماً، فاجتمع إليه من القبائل جموعٌ كثيرة، منهم بنو سعد بن بكر، وثقيف، وانضم إليهم من سائر العرب، وكان مجموعهم كلهم ثلاثين ألفاً، وفيهم رجل شجاع مجرِّب، قد عمي، وشاخ، وهو دريد بن الصمة، وجعلوه مستشاراً لمالك بن عوف. فأمرهم الأخيرُ أن يسوقوا معهم مواشيهم، وأموالهم، ونساءهم، وأبناءهم كي يثبتوا عند الحرب، ولا يفرُّوا، فلما نزلوا بأوطاس قال دريد بن الصمة: ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق

الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء، وخوار البقر؟! قالوا: ساق مالك ابن عوف مع الناس أموالهم، ونساءهم، وأبناءهم. قال: أين هو؟ فحضر بين يديه، فقال له: إنك تقاتلُ رجلاً كريماً قد أوطأ العرب، وخافته العجم، وأجلى يهود إما قتلاً وإما إخراجاً عن ذلٍّ وصَغار. فقال له مالك: لا نخالفك في أمر تراه، فقال: يا مالك! أصبحتَ رئيس قومك وإن هذا يوم كان له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء، وخوار البقر؟! قال: سقتُ مع الناس أبناءهم، ونساءهم، وأموالهم، قال له: ولم؟ قال: أردتُ أن أجعل خلف كلِّ رجل أهلَه، ومالَه، يقاتل عنهم. فزجره دريد كما تزجر الدابة، وصوَّت بلسانه في فيه، ثم قال: رويعي ضأن، ما له وللحرب؟! ثم أشار عليه بردِّ الذرية والأموال، فلم يقبل مالك ذلك منه، وقال له: إنك قد كبرتَ، وضعف رأيُك. ووافقته على ذلك هوازن، وتركوا رأي دريد بن الصمة.

وأمر مالك بالخيل فجعلت صفوفاً، وجعل المشاة خلفهم، ثم جعل النساء فوق الإبل وراء المقاتلة صفوفاً، ثم جعل الإبل، والبقر، والغنم وراء ذلك كيلا يفروا، ويقاتلوا عن مالهم، ونسائهم، وذراريهم، ثم قال للناس: إذا رأيتموني شددت عليهم شدُّوا عليهم شدَّة رجلٍ واحد.

ولما بلغ النبي ﷺ اجتماعهم، وتحزُّبهم أجمع على الخروج إليهم، وكان خروجه من مكة يوم السبت لِستٍّ خلون من شوال، وكان معه ﷺ اثنا عشر ألفاً، منهم عشرة آلاف الذين جاؤوا معه من المدينة لفتح مكة، وألفان من الذين أسلموا في فتح مكة الذين منَّ عليهم، وأطلقهم يوم الفتح، واستعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية أدراعاً، وسلاحاً، واستعار من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح، ثم خرج ﷺ، وخرج الناس معه وأهل مكة ركباناً ومشاة، حتى النساء خرجن يمشين على غير وهن رجاءً للغنائم.

فلما قرب ﷺ من محل العدوِّ رتَّب أصحابه، وصفَّهم، ووضع الألوية، والرايات مع المهاجرين، والأنصار، وجعل لكلِّ بطن رايةً يحملها واحدٌ منهم، ثم رتَّب قبائل العرب التي كانت معه، وفرَّق عليهم الألوية، والرايات، ولبس ﷺ درعين، والبيضة، والمغفر، وركب بغلته البيضاء، وذلك دليل على أن من تمام التوكل: استعمال الأسباب التي نصبها الله لمسبباتها قدراً وشرعاً، ومن تمام العبودية استعمال الأسباب مع مسبباتها مع اعتقاد أن التأثير لله وحده لا شريك، ولولا أن الله ستر قضاءه وقدره بظواهر الأسباب لما انقسم الناس إلى مؤمن وكافر. وأرسل إليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي رضي الله عنه عيناً له، وأمره أن يدخل فيهم، ويسمع منهم ما أجمعوا عليه، فدخل فيهم، ومكث يوماً أو يومين، وسمع ما يقولون، ثم أتى النبيَّ ﷺ، وأخبره أنه وصل إلى خباء مالك بن عوف، وعنده رؤساء هوازن، فسمعه يقول لأصحابه: إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرّة، وإنما كان يلقى أغماراً (جمع غُمَر، وهو التَّبَع الذي لا يقدِّم في المَهامّ) لا علم لهم بالحرب، فيظهر عليهم، فإذا كان السَّحَر فصفُّوا مواشيكم، ونساءكم، وأبناءكم من ورائكم، ثم صفوا، ثم تكون الحملة منكم، واكسروا أغماد سيوفكم، فتلقونه بعشرين ألف سيف، واحملوا حملة رجلٍ واحد، واعلموا أن الغلبَة لمن حمل أوّلاً. فقال عليه الصلاة والسلام: «تلك غنيمة المسلمين إن شاء الله» فقال رجل من المسلمين: لن نغلب اليوم عن قلَّة، فشقَّ ذلك على رسول الله ﷺ.

وكان دريدُ بن الصمة أشار على مالك بن عوف النصري أمير جيش هوازن، فقال له: اجعل كميناً يكون لك عوناً، إن حمل القومُ عليك جاءهم الكمين من خلفهم، وكررتَ عليهم أنت بمن معك، وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد.

وحين كان رسول الله ﷺ بحنين، وانحدر في الوادي، وذلك عند غبش الصبح، خرج عليهم القوم الكمين المتفرقون في شعاب الوادي ومضايقه، فحملوا على المسلمين، وكانوا رماةً، فاستقبلوهم بالنبل كأنهم جرادٌ منتشر، لا يكاد يسقطُ لهم سهم، فانكشفت خيلُ بني سُلَيم موليةً، وكانت مع النبي ﷺ وأصحابه، فتبعهم أهلُ مكة والناس فانهزموا، وقيل: إن الطلقاء أول من انهزم، وتبعهم الناس، ما خلا رسول الله ﷺ، ومعه نفرٌ قليل منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والعباس، وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعتبة ومعتِّب ابنا أبي لهب، وأيمن ابن أم أيمن.

روى البخاري عن البراء بن عازب، وجاءه رجل فقال: يا أبا عُمارة! أتوليت يوم حنين؟ فقال: أمَّا أنا فأشهد على النبي ﷺ أنه لم يُوَلِّ، ولكن عجل سَرَعان القوم فرشقتهم هوازن، وأبو سفيان بن الحارث آخذٌ برأس بغلته البيضاء يقول:

أنا النبي لا كَذِب ... أنا ابن عبد المطّلب[1]

وأخذ ﷺ كفّاً من تراب، فرماه في وجوه الأعداء، وقال: «شاهت (قَبُحت) الوجوه» فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ الله عينيه من تلك القبضة.

ولما رأى ﷺ ما رأى من الهزيمة صار يقول: «إليَّ أيها الناس» فلم يلو عليه أحدٌ، فقال عليه الصلاة والسلام لعمه العبَّاس رضي الله عنه: «اصرخ: يا معشر الأنصار! يا أصحاب السَّمُرَة!» (الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان) وكان العباسُ رفيعَ الصوت، وروي أنه ﷺ نادى بنفسه أيضاً بعد نداء العبَّاس، فالتفت عن يمينه، فقال: «يا معشر

---

(١) بخاري (٥/ ١٩٤).

الأنصار». فقالوا: لبيك يا رسول الله! أبشر، نحن معك، ثم التفت عن يساره، فقال: «يا معشر الأنصار!» فقالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك، وصار الرجلُ منهم إذا لم يطاوعه بعيرُه على الرجوع انحدر عنه، وتركه، ورجع وسيفه وترسه معه، يؤمُّ الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، وعطفت الأنصار على رسول الله ﷺ عطفة الإبل على أولادها، وجاء المهاجرون والأنصار بسيوفهم في أيمانهم كأنها الشهب، فأمرهم النبي ﷺ أن يَصدُقوا الحملة، فاقتتلوا مع الكفار قتالاً شديداً، فولّى المشركون الأدبارَ، والمسلمون يقتلون، ويأسرون فيهم. وكان في ركوبه ﷺ البغلة في هذا الموطن موطن الحرب، والطعن، والضرب تحقيق نبوَّته لما خصَّه اللهُ به من مزيد الشجاعة، وتمام القوة؛ لأن البغال عادة من مراكب الطمأنينة، والأمن، لا تصلح لمواطن الحرب، ولا يصلح لها إلا الخيل لأنها مخلوقة للكرِّ والفرِّ، لكن رسول الله ﷺ مستوٍ عنده الحرب والسلم، فقلبه قوي، ونفسه شجاعة، وثقته بالله، وتوكُّله عليه، وقد أجمعت الصحابةُ رضي الله عنهم أنه ﷺ ما انهزم في موطن قطُّ. قال القاضي عياض: من قال إنه انهزم يُستتاب، فإن تاب، وإلا قُتِل.

ولما انهزم المسلمون في الجولة الأولى، وولّوا مدبرين، تكلَّم رجالٌ من أهل مكة لما في نفوسهم من الضّغن، والحقد، وذلك قبل أن يتمكن الإسلامُ في قلوبهم، وقالوا: غَلَبَتْ والله! هوازن، وقالوا: بطل سحر محمد، وقال بعضُ من أمهل، ولم يؤمن بعد كصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل قولاً حسناً، أما صفوان فقال لمن قال له: بطل سحر محمد: اسكت فضَّ اللهُ فاك، فوالله! لأن يَرُبَّني رجلٌ من قريش أحبُّ إليَّ من أن يَرُبَّني رجلٌ من هوازن.

وأما عكرمة بن أبي جهل فقال لمن قال له: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله! لا يجبرونها أبداً، ليس هذا لك ولا بيدك الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء، إن ديل عليه اليوم فإن له العاقبة غداً.

ووصل خبرُ الهزيمة إلى مكة، وسُرَّ بذلك قومٌ لم يتمكن الإسلام في قلوبهم، وأظهروا الشماتة، وثبّت الله عتَّاب بن أسيد أمير مكة وجماعة، فلم يتغيروا عما هم عليه، وقال عتَّاب: إن قُتِل محمد فإن دين الله قائم، والذي يعبده محمد حي لا يموت، فما أمسوا حتى جاءهم الخبر بنصره ﷺ فَسُرَّ من آمن، وكبت الله من كان يسرُّه خلاف ذلك.

وأمعن المسلمون في القتال حتى انتهوا إلى قتل الذرِّيّة، فنهاهم رسول الله ﷺ عن قتل الذرية. وأمدَّ الله تعالى المسلمين بالملائكة، ورؤي الملائكة على خيلٍ بلق، عليهم عمائم صفر، أرخوها بين أكتافهم، وجملة من قُتِل من المسلمين في هذه الوقعة أربعة فقط، وقُتِل من المشركين وقت الحرب أكثر من سبعين، وقيل في الانهزام: أكثر من ثلاثمئة، وأسر منهم خلق كثير، ومن النساء ستة آلاف نفس، وغنم المسلمون من الإبل أربعة وعشرين ألف بعير، ومن الغنم أكثر من أربعين ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقيّة، ولما وقعت هزيمةُ هوازن أسلم كثيرٌ من كفار مكة وغيرهم لما رأوا من نَصْر رسول الله ﷺ.

غزة أوطاس:

بعث النبي ﷺ أبا عامر الأشعري خلفَ الفارِّين من هوازن، ومعه جمعٌ من أصحاب النبي ﷺ، فالتقوا بأوطاس، وهو وادٍ في ديار هوازن، وكان المنهزمون انقسموا ثلاث فرق: فرقة منهم لحقت بالطائف، وفرقة بنخلة، وفرقة بأوطاس، فانتهى إليهم أبو عامر، فقُتِل دريد بن الصمة، وهَزَم اللهُ أصحابه، وناوشوا أبا عامر، وقَتَل منهم أبو عامر مبارزة تسعة إخوة بعد أن يدعو كلَّ واحد منهم إلى الإسلام، ثم رمي أبو عامر، واستشهد، وقال أبو عامر لابن أخيه أبي موسى: أقرىء النبيَّ السلام، وقل له: استغفر لي، واستخلف أبا موسى على الناس، فقاتل القومَ حتى هزمهم، وفتح الله على يديه، وظفر المسلمون بالغنائم والسَّبايا.

غزوة الطائف:

حين خرج رسول الله ﷺ من حنين، وحبس الغنائم بالجعرانة، سار إلى الطائف في شوال سنة ثمانٍ، وجعل خالد بن الوليد على مقدّمته في ألفٍ من أصحابه، وكانت ثقيف لما انهزموا دخلوا حِصْنَهم بالطائف، وأغلقوه عليهم بعد أن أدخلوا فيه ما يصلحهم من القوت لسنة، وتهيؤوا للقتال، وكان معهم مالك بن عوف، وجمع من أشراف قومه، ومرَّ ﷺ في طريقه بحصن لمالك بن عوف فأمر به فَهُدِم، ومرَّ بحائط لرجل من ثقيف قد تمنَّع فيه، فأرسل إليه النبيُّ ﷺ إما أن تخرج وإما أن نحرِّق عليك حائطك، فأبى أن يخرجَ منه فأمر رسول الله ﷺ بإحراقه. ولما وصل خالد رضي الله عنه إلى الطائف نزل بمن معه من المسلمين قريباً من الحصن، وعسكر هناك، فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً حتى أصيب كثيرٌ من المسلمين بجراحات، وقُتِل من المسلمين اثنا عشر رجلاً.

ولما وصل ﷺ إلى الطائف نزل قريباً من الحصن، وحاصرهم ثمانية عشر يوماً، ونصب عليهم المنجنيق، وحاول المسلمون فتح الحصن، ففطن لهم ثقيف، فرموهم بالنبال، وأمر عليه الصلاة والسلام بقطع أعنابهم، وتحريقها، فقطعه المسلمون قطعاً ذريعاً، فسألوه أن يدعها لله، وللرحم، فتركها لهم.

ونادى منادي رسول الله ﷺ: «أيما عبد نزل من الحصن، وخرج لنا فهو حرٌّ» فخرج منهم بضعة عشر، فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كلَّ رجل منهم إلى رجلٍ من المسلمين يمونه، فشقَّ ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة. ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف، كما أوضح ذلك في جوابه لخولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: ما يمنعك يا رسول الله! أن تنهض إلى أهل الطائف؟ قال: «لم يؤذن لنا حتى الآن

فيهم، وما أظن أن نفتحها الآن». واستشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي في الذهاب، أو المقام. فقال له: ثعلب في جحر، إن أقمت أخذتَه، وإن تركته لم يضرك.

ثم أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأذَّن في الناس بالرحيل، فضجَّ الناسُ من ذلك، وقالوا: نرحل ولم يُفتح علينا. فقال رسول الله ﷺ: «فاغدوا على القتال» فغدوا، فأصابت المسلمين جراحات، فقال ﷺ: «إنا قافلون إن شاء الله» فسُرُّوا بذلك، وأذعنوا، وقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» فلما ارتحلوا قال: «قولوا: آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون» وقيل له: يا رسول الله! ادع على ثقيف أهل الطائف، فقال: «اللهم! اهدِ ثقيفاً، وائتِ بهم مسلمين».

وعند انحداره إلى الجعرانة لقيه سراقة بن مالك، وهو واضعٌ الكتاب الذي كتبه له ﷺ عند الهجرة بين أصبعيه، وينادي: أنا سراقة وهذا كتابي، فقال ﷺ: «هذا يوم وفاء ومودّة، أدنوه» فأدنوه منه، فأسلم رضي الله عنه.

ولما وصل ﷺ الجعرانة أمر بإحصاء السبي والغنائم، فكان كما تقدم. وكان قد انتظر قدومَ هوازن قبل أن يقسم الغنائم بضع عشرة ليلة، فلما لم يحضروا قسم الغنائم، ثم قدم عليه هوازن مسلمين، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم، وسبيهم.

وقال في الإصابة: لما جاء وفد هوازن بإسلام من وراءهم من قومهم، فكان رأس القوم والمتكلم: أبو صرد زهير بن صُرَد، فقال: يا رسول الله! إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لايخفى عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك، إنما في الحظائر عمَّاتك، وخالاتك، وحواضنك اللاتي كنَّ يكفلنك، إن أبعدهن قريب منك، حضنّك في

حجرهن، وأرضعنك بثديِّهن، وتوركنك على أوراكهن، وأنت خيرُ المكفولين، ثم أنشده أبياتاً يستعطفه بها، منها قوله:

امنن علينا رسولَ الله في كرم ... فـإنـك المـرءُ نـرجـوه ونـنتظـر
امننْ على نسوةٍ قد كنت تَرضَعُها ... إذ فوك يملؤه من مخضها الدَّرر
إنـا نـؤمـل عفـواً منـك تلبسـه ... هـذي البـريـة إن تعفـو وتنتصـر
فألبس العفوَ من قد كنت ترضعه ... مـن أمهـاتـك إنَّ العفـوَ مشتهـر

فقال لهم رسول الله ﷺ: «معي من ترون، وأحبُّ الحديث إليَّ أصدقه، وقد كنتُ استأنيتُ بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون وقد قسمتُ، فاختاروا إما السَّبي، وإما المال» فاختاروا السبي، فكلَّم رسول الله ﷺ المسلمين في ردِّ سبيهم عليهم، فردُّوه كلُّهم إلا عيينة بن حصن فإنه أبى أن يردَّ عجوزاً كبيرة إلا بستٍّ قلائص. والعجوز أم زهير بن صرد.

وتأمّل دعوة النبي ﷺ أصحابه إلى ردِّ السَّبي. في رواية البخاري قال ﷺ: «أما بعد فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وإني قد رأيتُ أن أردَّ إليهم سبيهم، فمن أحبَّ منكم أن يطيِّب ذلك فليفعل، ومن أحبَّ منكم أن يكون على حظِّه حتى نعطيه إياه من أول ما يُفيء الله علينا فليفعل» فقال الناس: قد طيَّبنا ذلك يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم» فرجع الناس، فكلَّمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيّبوا، وأذنوا[١].

وروى ابنُ كثير عن ابن إسحاق: أن رسول الله ﷺ قال يوم هوازن: «إن قدرتم على نجاد رجل من بني سعد بن بكر فلا يفلتنَّكم» وكان قد أحدث حدثاً، فلما ظفِر به المسلمون ساقوه وأهله، وساقوا معه الشيماء

---

(١) بخاري (٥/ ١٩٥).

بنت الحارث بن عبد العزّى أخت رسول الله ﷺ من الرَّضاعة. قال: فعنَّفوا عليها في السوق، فقالت للمسلمين: تعلمون والله! إني لأختُ صاحبكم من الرَّضاعة، فلم يصدِّقوها، حتى أتوا بها رسول الله ﷺ، قالت: يا رسول الله! إني أختُك من الرضاعة، قال: «وما علامة ذلك؟» قالت: عضّة عضضتنيها في ظهري، وأنا متورِّكتُك، قال: فعرف رسول الله ﷺ العلامةَ، فبسط لها رداءه، فأجلسها عليه، وخيَّرها، وقال: «إن أحببتِ فعندي محبّبة مكرمة، وإن أحببتِ أن أمتِّعك، وترجعي إلى قومك فعلت» قالت: بل تمتعني، وتردّني إلى قومي، فمتَّعها رسول الله ﷺ وردها إلى قومها[1] (أي: أعطاها نعماً، وشاءً، وغلاماً، وجارية).

وسأل رسول الله ﷺ وفدَ هوازن عن رئيسهم مالك بن عوف النضري، فقالوا: هو من ثقيف بالطائف، فقال: «أخبروه إن أتاني مسلماً رددتُ عليه أهله، وماله، وأعطيته مئةً من الإبل» فلما أخبروا مالكاً بذلك ركب مستخفياً، فأدرك النبيَّ ﷺ بالجعرانة، فردَّ عليه أهله، وماله، وأعطاه مئة من الإبل، كما وعد ﷺ، وأسلم، وحسن إسلامه رضي الله عنه. وكان ﷺ حبس أهلَ مالك عند عمته عاتكة حتى جاء مالك فسلَّم إليه أهله، ولم يجر السهمان في أهله.

قسمة غنائم حنين:

لما رجع ﷺ إلى الجعرانة قسم الغنائم، وبدأ بالمؤلفة قلوبهم، وهم ناسٌ من قريش أسلموا بعد يوم الفتح إسلاماً ضعيفاً، وأراد ﷺ أن يتمكَّن الإيمانُ في قلوبهم، وكان فيهم من لم يسلم بعد، ثم أسلم، فلما جمعت الغنائم، وأحصيت، جاء أبو سفيان، فلما رأى كثرة المال قال: يا محمد! أصبحتَ أكثر قريش، فتبسَّم ﷺ، ثم أعطاه مئة من الإبل، وأربعين أوقية من فضة، فقال: يا رسول الله! ابني يزيد، فأعطى لابنه

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٣٦٢).

يزيد مئة من الإبل وأربعين أوقية من فضة، فقال: يا رسول الله! ابني معاوية، فأعطاه مئة من الإبل وأربعين أوقية من فضة. وجاء حكيم بن حزام، فسأل النبي ﷺ فأعطاه مئة من الإبل، ثم سأله فأعطاه مئة، ثم سأله فأعطاه مئة، ثم قال له: «يا حكيم! هذا المال خضرٌ حلوٌ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُباركْ له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى» فأخذ حكيم المئة الأولى، وترك ما عداها، وقال: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق! لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا. والذين أعطاهم رسول الله ﷺ أكثر من مئة من الإبل أكثر من ثلاثين رجلاً، كلهم من قريش، وأعطى صفوان بن أمية، وكان قد خرج مع من خرج على شركه، فأعطاه النبيُّ ﷺ مئة، ثم مئة، ثم مئة، ثم وادياً مملوءاً إبلاً وغنماً حتى أسلم رضي الله عنه، وأعطى ثلاثةً من أهل نجد مئة، مئة، مئة، وأعطى بعضهم خمسين، خمسين، وكلهم من زعماء أقوامهم.

وأمر ﷺ زيد بن ثابت، وكان من أعظم كُتَّابه ﷺ بإحضار الناس والغنائم، ثم قسمها عليهم، فكانت سهامُهم لكل رجل أربعة من الإبل وأربعين شاة، فمن كان فارساً أخذ اثني عشر من الإبل، ومئة وعشرين شاة، وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم للزائد.

حكمة رسول الله ﷺ:

ولم يعطِ الأنصار ولا كبار المهاجرين شيئاً، فقال رجلٌ من المنافقين: هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله تعالى، فأُخبر ﷺ بذلك، فغضب، وقال: «إذا لم أعدل فمن يعدل؟! رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر». فقال عمر بن الخطاب، وخالد ابن الوليد رضي الله عنهما: ائذن لنا نضرب عُنُقه يا رسول الله! فقال: «دعوه، فإنه سيكون له شيعة يتعمَّقون في الدين حتى يخرجوا كما يخرج السهم من الرميَّة، لا يتحدث الناس أني أقتلُ أصحابي».

فعامل النبيُّ ﷺ ذلك الرجل بظاهر حاله، تألُّفاً للناس ليدخلوا في الإسلام.

وقال ناسٌ من الأنصار ليسوا منافقين: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً، ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟! والله! إن هذا لعجب، إذا كانت شديدة فنحن ندعى لها، وتُعطى الغنائم لغيرنا، وددنا أن نعلم ممن كان هذا، فإن كان من الله تعالى صبرنا، وإن كان من النبي ﷺ استعتبناه.

فبلغ الخبرُ النبي ﷺ، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبة من أدم، ولم يدع معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قام ﷺ فقال: «ما حديثٌ بلغني عنكم؟!» قال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يا رسول الله! فلم يقولوا شيئاً، وأما ناسٌ منا حديثة أسنانهم، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ: يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال: «يا معشر الأنصار! ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألَّفكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم الله بي» كلَّما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ؛ قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسولَ الله؟! لو شئتم لقلتم فصدقتم، وصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فواسيناك، وخائفاً فأمَّنّاك» قالوا: بل المنّ علينا لله ورسوله. قال: «فإني أُعطي رجالاً حديثي عهد بكفرٍ أتألَّفهم، أما ترضون أن يذهب الناسُ بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم، فوالله! لما تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به، لولا الهجرةُ لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سلك الناسُ وادياً وشعباً لسلكتُ وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار، والناس دِثار، إنكم ستلقون بعدي أثرةً، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»[١].

---

(١) بخاري (٥/ ٢٠٠).

فكان من حكمة النبي ﷺ قسمة الغنائم على المؤلفة قلوبهم لاستجلابها، واستجلاب قلوب أتباعهم؛ الذين كانوا يرضون إذا رضي رؤساؤهم، فيكون سبباً لإسلامهم، ولتقوية قلوب من دخل في الإسلام منهم، فيتبعهم من دونهم، فكان فيه مصلحة عظيمة رغم احتياج الجيوش إلى المال الذي يعينهم على ما هم عليه.

ولما قيل له ﷺ: أعطيت عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وتركتَ جُعَيل بن سراقة؟ قال: «أما والذي نفس محمد بيده! لَجُعَيْلٌ خيرٌ من طلوع الأرض كلها مثل عيينة والأقرع، ولكني أتألفهما، ووكلت جعيل بن سراقة لإسلامه، وإني لأعطي الرجل وغيره أحبُّ إلي منه مخافة أن يكبَّه اللهُ في النار على وجهه».

وتعلَّقت الأعرابُ به يسألونه أن يعطيهم من الغنيمة، يقولون: يا رسول الله! اقسمْ علينا فيئنا، حتى اضطروه إلى سَمُرةٍ، فخطفت رداءه، فوقف ﷺ فقال: «أعطوني ردائي، فلو كان عندي عدد هذه العضاه (الشجر) نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذوباً» ثم قام إلى جنب بعير، وأخذ وبرة من سنامه، فدفعها، ثم قال للناس: «والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم».

ثم بعد تمام قسمة الغنائم اعتمر من الجعرانة في ذي القعدة لخمس خلون منه، ودخل مكة، وطاف، وسعى، وحلق، ورجع إلى الجعرانة، ثم توجَّه إلى المدينة تاركاً عتَّاب بن أسيد أميراً على مكة، ومعه معاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما يعلِّمان الناس القرآن، والفقه في الدين، وكان قدومه المدينة لثلاثٍ بقين منه، وجبر الله أهل مكة بغزوة حنين، وفرحوا بما نالوا من النصر والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم بالفتح، وأنجز الله بها الوعد لرسول الله ﷺ، فإنه

وعده إذا فتح مكة أن يدخل الناسُ في دين الله أفواجاً، وتدين له العربُ بأسرها.

واقتضت حكمةُ الله تعالى أن يذيقَ المسلمين في هذه الغزوة أولاً مرارة الهزيمة مع كثرة عددهم وعُدَدِهم، وقوة شوكتهم؛ ليخفض بذلك رؤوساً رفعت بفتح مكة، والنصر على أهلها، فابتلاهم الله بقصَّة حنين منعاً لهم عن الترفُّع، وتنبيهاً على أن المطلوب منهم التواضع، وإظهار الشكر، كما فعل ﷺ حين دخل مكة، فإنه دخل مُنحنياً على ناقته متواضعاً، خاضعاً لربِّه، وليُبيِّن الله سُبحانه لمن قال: لن نُغلب اليوم عن قلة، أن النصر إنما هو من عند الله، وأن من ينصره الله فلا غالبَ له، ومن يخذله فلا ناصر له، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي تولَّى النصر لنبيّه ﷺ، وهو الذي أنزل سكينته عليه وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها كما قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٩/ ٢٥-٢٦].

غزوة تبوك:

تبوك: مكان معروف، هو نصف الطريق بين المدينة ودمشق، وهي غزوة العسرة، كانت في رجب سنة تسع من الهجرة، وهي آخر مغازيه ﷺ، وكان الوقتُ حين خروجه ﷺ حرّاً شديداً وقحطاً؛ ولذلك لم يُوَرِّ عنها كعادته في سائر الغزوات، بل جلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوتهم بالوجه الذي يريد. والتورية: ذكر لفظ يحتمل معنيين أحدهما أقرب من الآخر، فيتوهم السامع إرادة القريب، والمتكلم يريد البعيد. وسُمِّيت غزوة العسرة، أي: الشدَّة، والضِّيق.

وسببُها: أنه ﷺ بلغه من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى

المدينة: أن الروم تجمعت بالشام مع هرقل، وهو قيصر ملك الروم، ومعه قبائل العرب: لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، وغيرهم، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء، وكانوا قد أنموا إلى هرقل أن هذا المدعي للنبوة هلك، وأصابتهم سنون، فهلكت أموالهم، فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن، فبعث قباذاً معه أربعون ألفاً، فلما بلغه ﷺ ذلك ندب الناس إلى الخروج، وأعلمهم بالمكان الذي يريد، ولم يكن للناس قوة في الذهاب لتلك الأرض لفقد المراكب ونفقتها، وحثَّ رسول الله ﷺ أصحابه على النفقة والتجهيز، وسمع عثمان بذلك، فتبرع بمئتي بعير بأقتابها، وأحلاسها، وبمئتي أوقية، وجاء الناسُ بصدقات كثيرة، وجاء أبو بكر الصديق بماله كله أربعة آلاف درهم، فقال ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً؟» فقال: أبقيتُ لهم الله ورسوله، وجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله، فسأله: «هل أبقيت لهم شيئاً؟» قال: نعم، نصف مالي، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمئتي أوقية، وتصدَّق عاصم بن عدي بسبعين وسقاً من تمر، حوالي اثنا عشر ألفاً وستمئة كيلو غراماً تمراً. وجهَّز عثمان رضي الله عنه ثلث الجيش، ولم ينفق أحدٌ في جيش العسرة مثل ما أنفق عثمان. وجاء عثمان إلى رسول الله ﷺ بدنانير كثيرة ألف إلى عشرة آلاف، فجعل ﷺ يقول بيده، ويقلبها ظهراً لبطن، ويقول: «غفر الله لك يا عثمان! ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالي عثمان بعدها» وهذه بشارةٌ عظيمة بأن الله غفر له الذنوب، أي: سترها عنه، فمنعه منها ببركة دعائه له، ونفقته في سبيل الله.

وأرسل ﷺ إلى أهل مكة، وقبائل العرب يستنفرهم، وجاء البكاؤون يستحملونه، أي: يطلبون منه ما يركبون عليه، فقال: ما أجد ما أحملكم عليه، ومنهم أبو موسى الأشعري وقومه رضي الله عنهم، فرجع حزيناً إلى قومه، ثم جاء النبيَّ ﷺ ذودٌ من الإبل، فبعث إليه، وأعطاه إياها، والذود (خمس من الإبل). واستخلف ﷺ على المدينة عليَّ بن أبي

طالب رضي الله عنه، وخلفه أيضاً على أهله وعياله، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً له، وتخففاً، فأخذ عليٌّ سلاحَه، ثم أتى رسول الله ﷺ، وهو نازلٌ بالجرف، فقال: يا نبي الله! زعم المنافقون أنك إنما خلَّفتني لأنك استثقلت مني، فقال: «كذبوا، ولكن خلَّفتك لما تركت ورائي، فارجعْ في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا عليُّ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي» فرجع إلى المدينة.

وهارون عليه السلام كان خليفةً في حياة موسى عليه السلام حين ذهب إلى الميقات، فدلَّ ذلك على تخصيص خلافة علي رضي الله عنه بحياة النبي ﷺ فقط، وحين رجع النبي ﷺ من تبوك إلى المدينة انتهى استخلافه رضي الله عنه، تماماً كما انتهى استخلافُ هارون عليه السلام حين رجع موسى من المناجاة.

ولما سُئِل عليّ رضي الله عنه: هل أوصى لك النبي ﷺ بالخلافة؟ قال: لا، ولو أوصى لي بها لقاتلتُ عليها حتى لو لم يبق معي إلا سيفي وردائي. ولو أوصى له بها لما بايع أبا بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم، ومن زعم أن المبايعة من علي رضي الله عنه كانت تقيَّةً، فقد أسند إلى عليٍّ كرم الله وجهه الجبن، والذُّلَّ، وحاشاه من ذلك.

ولما ارتحل ﷺ عن ثنية الوداع عقد الألوية والرايات، ودفعها إلى من كتب الله له حَمْلها في تلك الغزوة، وسار بالناس وهم ثلاثون ألفاً، وتخلَّف جماعةٌ من المنافقين، منهم: عبد الله بن أُبي ابن سلول وأتباعه، بعد أن كان خرج بقومه، وعسكر بهم أسفل من ثنية الوداع، وقال: يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال، والحرّ، والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به، يحسب محمد أنَّ قتال بني الأصفر معه اللعب، لكأني أنظر إلى أصحابه مقرَّنين في الحبال. يقول ذلك إرجافاً برسول الله ﷺ وبأصحابه.

وأوحى الله تعالى إلى نبيه بقولهم، ففاجأهم به، فقالوا: إنما كنا نخوضُ ونلعب، وقال بعضُ المنافقين: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله فيهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٨١] وجاء المعذَّرون من الأعراب، وهم الضعفاء، والمقلُّون ليؤذن لهم في التخلُّف، فأذن لهم، وكانوا اثنين وثمانين رجلاً، وقعد آخرون بغير عذر، وإظهار علَّةٍ جراءةً على الله ورسوله، وقد عناهم اللهُ تعالى بقوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٠] وتخلَّف جمعٌ من المسلمين منهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع من غير عذر، وكان ممَّن تخلَّف أبو خيثمة الأنصاري، ثم لحق برسول الله ﷺ. وسأعرض قصّته في المعجزات التي وقعت في هذه الغزوة في نهايتها إن شاء الله تعالى.

ولما مرَّ ﷺ بالحجر ديار ثمود سجَّى ثوبه على رأسه، واستحثَّ راحلته، وقال: «لا تدخلوا بيوتَ الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم» وإنما غطَّى رأسه؛ لأن الغطاء يتبعه الفكر، والاعتبار. ونهى ﷺ الناسَ أن يشربوا من مائها شيئاً، وأن يتوضؤوا به للصلاة، وأن يعجن منه عجين، وأن يُحاس به حيس.

ثم ارتحل ﷺ بالناس، ولم يزل سائراً بهم حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، وكان رسول الله ﷺ يستخلفُ على عسكره أبا بكر الصديق رضي الله عنه يصلي بالناس.

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: لما كُنَّا بين الحجر وتبوك ذهب رسول الله ﷺ لحاجته بعد الفجر، وتبعته بماء، فأبطأ حتى أسفر الناس بصلاة الفجر، ولم يأتهم رسول الله ﷺ، فقدَّموا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فصلَّى بهم، فانتهى رسول الله ﷺ بعد أن توضأ، ومسح خفّيه، إلى عبد الرحمن بن عوف، وقد صلى ركعة، فصلى رسول الله ﷺ مع عبد الرحمن ركعة، ثم قام، وأتى بالركعة الثانية،

وقال لهم بعد فراغه: «أحسنتم» ثم قال: «لم يتوفَّ نبي حتى يؤمَّه رجلٌ صالح من أمته» وقد ائتم ﷺ بأبي بكر، وابن عوف فحسب، ولما وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك كان هرقل بحمص، ولم يكن يهمّ بالذي بلغ رسول الله ﷺ من جمعه، ولا حدَّثته نفسُه بذلك.

روى البيهقي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ لما أصبح بتبوك حمد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أيها الناس! أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سُنَّة محمد، وأشرف الحديث ذِكْر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عوازمها، وشر الأمور مُحْدَثاتُها، وأحسن الهدي هدي الأنبياء، وأشرف الموت قَتْل الشهداء، وأعمى العمى الضَّلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتُّبع، وشرُّ العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة حين يحضر الموت، وشر النَّدامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا دُبْراً، ومنهم من لا يذكر الله إلا هُجراً، ومن أعظم الخطايا: اللسان الكذَّاب، وخير الغِنى غِنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل، وخير ما وقر في القلوب اليقين، والارتياب من الكفر، والنياحة من أعمال الجاهلية، والغلول من جُثاء جهنم، والسُّكُرْكة من النار، والشِّعر من إبليس، والخمر جماع الإثم، والنساء حبائل الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، وشر المكاسب كسب الرِّبا، وشرّ المأكل مال اليتيم، والسعيد من وُعِظ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه، وإنما يصير أحدُكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمر إلى الآخرة، وملاكُ العمل خواتمه، وشر الرؤيا رؤيا الكذب، وكلّ ما هو آتٍ قريب، وسباب المؤمن فسوق، وقتال المؤمن كفر، وأكل لحمه من معصية الله عز وجل، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يتألَّ على

الله يكذبه، ومن يغفر يُغفَر له، ومن يعف يعفُ الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبرْ على الرَّزيَّة يعوِّضه الله، ومن يتَّبع السمعة يسمِّع الله به، ومن يصبر يضعِّف الله له، ومن يعص الله يعذِّبه الله. اللهم! اغفرْ لي ولأمتي، اللهم! اغفر لي ولأمَّتي» قالها ثلاثاً ثم قال: «أستغفر الله لي ولكم». نقله الحافظ ابن كثير عن البيهقي، وقال: هذا حديث غريب، وفي إسناده ضعف.

واستعمل رسول الله ﷺ على حرسه بتبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عبَّادَ بن بشر رضي الله عنه، وأرسل خالد بن الوليد رضي الله عنه في أربعمئة فارس إلى أُكَيدر بن عبد الملك، وكان ملكاً عظيماً من قبل هرقل بدومة الجندل، وقال: «إنك ستجده ليلاً يصيد البقر» فانتهى إليه خالد، وقد خرج من حصنه في ليلة مقمرة إلى بقر يطاردها، وأسر خالد الأكيدر، وقتل أخاه، ثم أجاره، وصالحه على أن يفتح له الحصن ففعل، وأخذ ما صالحه عليه، وقدم به على رسول الله ﷺ، فحقن دمه، وصالحه على الجزية.

وأتى النبي ﷺ وهو في تبوك صاحب أيلة ومعه أهل جرباء، وأهل أذرُح، وصالحه رسول الله ﷺ على الجزية بعد أن عرض عليه الإسلام، فلم يسلم، وكتب له ولأهل جرباء، وأذرح، كتب أمان، وأقام ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة، ولم يلق كيداً.

وفرَّ الناس من أهل الكتاب ومن غيرهم رُعْباً منه ﷺ عند سماعهم بمسيره، فاغتاظ أهلُ الكتاب، وعزَّ المسلمون، وذلَّ المنافقون، وافتضحوا ببركة هذه الغزوة.

واستشار عليه الصلاة والسلام أصحابَه في مجاوزة تبوك، فقال عمر ابن الخطاب: يا رسول الله! إن كنت أُمِرْتَ بالسير فَسِرْ، فقال رسول الله ﷺ: «لو أُمِرْتُ بالسير لم أستشركم فيه» فقالوا: يا رسول الله! إن للروم

جموعاً كثيرة، وليس بها أحدٌ من أهل الإسلام، وقد دنونا، وقد أفزعهم دنوُّك، فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى، ويحدث الله أمراً.

المعجزات التي حدثت في طريقهم إلى تبوك:

أبو خيثمة رضي الله عنه:

روى الطبراني عن أبي خيثمة: أنه لما سار رسول الله ﷺ أياماً، دخل أبو خيثمة على أهله في يومٍ حارٍّ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه (بستانه) وقد رشَّت كلٌّ منهما عريشها، وبرَّدت له فيه ماءً، وهيَّأتْ له فيه طعاماً، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه، وما صنعتا له، فقال: سُبحان الله! رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر في الضَّح والرِّيح والحرِّ، يحملُ سلاحَه على عنقه، وأبو خيثمة في ظلٍّ باردٍ، وطعام مهيَّأ، وامرأة حسنة، في ماله مقيم؟!! ما هذا بالنَّصف، ثم قال: والله! لا أدخلُ عريشَ واحدةٍ منكما حتى ألحقَ برسول الله ﷺ. فهيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم قدَّم ناضحَه، فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وأدرك أبا خيثمة في الطريق عمير بن وهب الجمحي يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمرو: إنَّ لي ذنباً فلا عليك أن تَخلَّفَ عني حتى آتي رسول الله ﷺ، ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ قال الناسُ: هذا راكبٌ على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كُنْ أبا خيثمة» فقال رجل: هو والله! يا رسول الله! أبو خيثمة، فقال رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة» ـ وهي كلمة تهديد ووعيد ـ ثم أخبر رسول الله ﷺ خبره.

أبو ذرّ رضي الله عنه:

روى ابنُ إسحاق عن ابن مسعود أنه: لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل يتخلَّف عنه الرجل، فيقول الناس: يا رسول الله! تخلف فلان، فيقول: «دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير

ذلك فقد أراحكم الله منه». حتى قيل: يا رسول الله! تخلَّف أبو ذر، وأبطأ به بعيره، فقال رسول الله ﷺ فيه مقالته السابقة.

يقول أبو ذر: أبطأتُ على رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أجل بعيري، وكان نِضْواً (ذهب لحمه، وهزل) أعجف (ضعيف) فقلت: أعلفه أياماً، ثم ألحق برسول الله ﷺ، فعلفتُه أياماً، ثم خرجت، فلما كنتُ بذي المروة (مكان على ثمانية بُرُدٍ من المدينة، وكان بها عيون، وزروع، وبساتين) حبسني، فانتظرت يوماً، فلم أر به حركة، فأخذتُ متاعي فحملتُه، فطلعتُ على رسول الله ﷺ نصف النهار، وقد أخذ مني العطش، فنظر ناظرٌ من المسلمين، فقال: يا رسول الله! إنَّ هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: «كُنْ أبا ذَرٍّ». فلما تأمله القومُ قالوا: يا رسول الله! هو والله! أبو ذرٍّ، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذرٍّ يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده».

ما وقع من الآيات في الحجر:

لما مرَّ رسول الله ﷺ بالحجر، ونهى أصحابه عن دخول مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا وهم باكون، ونهاهم عن شرب مائها، وأخبرهم بأنها ستهبُّ عليهم ريح شديدة في تلك الليلة، وقال لهم: «إنها ستهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقومنَّ أحد، ومن كان له بعيرٌ فليوثق عقاله، ولا يخرجن أحدٌ منكم إلا ومعه صاحبٌ له» ففعل الناسُ ما أمرهم به رسول الله ﷺ إلا رجلين من بني ساعدة، خرج أحدهما لحاجته، والآخر في طلب بعيره، فأما الذي خرج لحاجته فخنق في موضعه، وأما الذي خرج في طلب بعيره فاحتملته الريحُ حتى طرحته بجبلي طيىء (أجا، وسلمى) فأُخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: «ألم أنهكم عن أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه» ثم دعا للذي أصيب في موضعه فشفي، وأما الآخر فإن طيّئاً أهدته لرسول الله ﷺ حين رجع إلى المدينة.

استسقاء رسول الله ﷺ، واستغاثته:

حين نزل المسلمون ديار ثمود والحجر أمرهم ألا يحملوا من مائها شيئاً، ثم ارتحل، ثم نزل منزلاً آخر وليس معهم ماء، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقام فصلَّى ركعتين، ثم دعا، فأرسل الله سبحانه وتعالى سحابةً، فأمطرت عليهم حتى استقوا منها، فقال رجل من الأنصار لآخر من قومه يتَّهم بالنفاق: ويحك! قد ترى ما دعا رسول الله ﷺ، فأمطر الله علينا السماء، فقال: إنما مطرنا بنوء كذا وكذا. فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/٨٢].

وروى الإمام أحمد، وابن خزيمة، والحاكم عن عمر رضي الله عنه قال: خرجنا إلى تبوك في يوم قيظٍ شديد، فنزلنا منزلاً، وأصابنا فيه عطشٌ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل يذهب يلتمسُ الرجل فلا يرجع حتى يظن أنَّ رقبته ستقطع، حتى إن كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله! إن الله عز وجل قد عوَّدك في الدعاء خيراً، فادعُ إلى الله تعالى لنا، قال: «أتحبُّ ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فأظلَّت، ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر.

ضلال الناقة:

قال ابنُ إسحاق رحمه الله تعالى: ثم إنَّ رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق متوجِّهاً إلى تبوك، فأصبح في منزل، فضلَّت ناقةُ رسول الله ﷺ، فخرج أصحابُه في طلبها، وعند رسول الله ﷺ عمارة بن حزم العقبي البدري، وكان في رحل عمارة زيد بن اللُّصَيت أحد بني قينقاع، كان يهودياً، فأسلم فنافق وكان فيه خبثُ اليهود وغشُّهم، وكان مظاهراً لأهل النفاق، فقال زيد وهو في رحل عمارة، وعمارة عند رسول الله ﷺ: محمد يزعم أنه نبيٌّ، وهو يخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟.

فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: «إن منافقاً قال: هذا محمد يزعم أنه نبي ويخبركم بأمر السماء، ولا يدري أين ناقته، وإني والله! لا أعلم إلا ما علمني الله تعالى، وقد دلَّني الله عز وجل عليها، وهي في الوادي في شِعب كذا وكذا ـ لشعبٍ أشار لهم إليه ـ حبستها شجرة بزمامها، فانطلِقوا حتى تأتوني بها» فذهبوا، فجاؤوا بها.

فرجع عمارةُ إلى رحله فقال: والله! العجبُ لشيء حدّثناه رسول الله ﷺ آنفاً عن مقالة قائل أخبره الله تعالى عنه، قال: كذا وكذا للذي قال زيد، فقال رجلٌ ممن كان في رحل عمارة، وهو عمرو بن حزم، أخو عمارة، ولم يكن حضر مجلس رسول الله ﷺ: زيد والله! قائل هذه المقالة قبل أن تطلع علينا. فأقبل عمارةُ على زيد يجأ (يطعن) في عنقه، ويقول: يا عباد الله! إن في رحلي لداهية، وما أشعر، اخرج يا عدوَّ الله من رحلي فلا تصحبني.

عين تبوك:

روى مسلم عن معاذ بن جبل: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يَضْحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتى آتي» فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشِّراك تَبِضّ بشيء من ماء، قال: فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مَسَسْتُما من مائها شيئاً؟» قالا: نعم، فسبَّهما النبي ﷺ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول: قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، قال وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرتِ العين بماء منهمر حتى استقى الناس، ثم قال: «يوشك يا معاذ! إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد مُلِىء جناناً»[(١)].

---

(١) مسلم (٤/ ١٧٨٤).

رجوعه ﷺ:

ثم انصرف ﷺ قافلاً إلى المدينة، وبنى في طريقه عشرين مسجداً، وكان في بعض الطريق ماءٌ قليلٌ جداً، فقال رسول الله ﷺ: «من سبقنا إلى ذلك الماء، فلا يستقينَّ منه شيئاً حتى نأتيه». فسبق إليه نفرٌ من المنافقين، فاستقوا الماءَ الذي فيه، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه، فلم يجدْ فيه شيئاً فقال: «من سبقنا إلى هذا الماء؟» فقيل له: فلان وفلان. فقال: «أولم أنههم أن يستقوا منه شيئاً حتى آتيه؟!» ثم لعنهم، ودعا عليهم، ثم نزل في موضع الماء، ومسحه بيديه، ودعا بما شاء أن يدعو به، فجرى الماء، وصار له حسٌّ كحسّ الصواعق، فشرب الناس، واستقوا حاجتهم منه، فقال رسول الله ﷺ: «لئن بقيتم، أو: بقي منكم أحد لتسمعن بهذا الوادي وقد أخصب ما بين يديه وما خلفه».

عزم المنافقين على إيذاء رسول الله ﷺ:

كانت هناك عقبةٌ بين تبوك والمدينة، فأجمع المنافقون الذين كانوا بصحبة النبي ﷺ إلى تبوك أن يدفعوا برسول الله ﷺ عن راحلته إذا هو أخذ في العقبة، ويرموه في الوادي. فأطلع الله رسوله ﷺ بذلك، فلما وصل الجيشُ العقبةَ نادى منادي رسول الله: أنه ﷺ يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد، واسلكوا بطنَ الوادي، فإنه أسهل لكم، وأوسع، فلما سمع المنافقون النداء أسرعوا، وتلثَّموا، وسلكوا العقبة، وحذيفةُ آخذٌ بزمام ناقة رسول الله ﷺ، وعمَّار يسوقها، يتناوبان، فبينا رسول الله ﷺ يسيرُ في العقبة إذ سمع حسَّ القوم قد غشوه، فنفرت ناقةُ رسول الله ﷺ حتى سقط بعضُ متاعه، فغضب رسول الله ﷺ، وأمر حذيفة أن يردَّهم، فجعل حذيفةُ يضربُ وجوهَ رواحلهم، ويقول: إليكم إليكم يا أعداء الله! فإذا هو بقوم ملثمين، فانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادي، واختلطوا بالناس، فقال له رسول الله ﷺ: «هل علمت ما كان من شأنهم، وما أرادوه؟» قال: لا، قال: «إنهم مكروا، وأرادوا أن يسيروا

معي في العقبة، فيزحموني، ويطرحوني منها إلى الوادي، وإنَّ اللهَ أخبرني بهم وبمكرهم، وسأخبركما بهم فاكتماهم» ثم انتهى الخبرُ إلى الصحابة، فقال أحدهم: إن أحببتَ يا رسول الله! فبيِّن أسماءهم، والذي بعثك بالحق! لا أبرحُ حتى آتيك برؤوسهم، فقال: إني أكره أن يقول الناسُ إن محمداً قاتل بقوم، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم» فقال: يا رسول الله! هؤلاء ليسوا بأصحاب، فقال رسول الله ﷺ: «أليسوا يظهرون الشهادة؟» ثم جمعهم، وأخبرهم بما قالوه، وما أجمعوا عليه، فحلفوا بالله ما قالوا، ولا أرادوا الذي ذكر، فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ [التوبة: ٩/ ٧٤] الآية.

وقال ﷺ للمسلمين عند انصرافهم من تبوك: «إنَّ بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» قالوا: يا رسولَ الله! وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حبسهم العذر».

وأرجف المنافقون الذين تخلَّفوا بالمدينة بأخبار السوء، يقولون: إنَّ محمداً وأصحابه جهدوا في سفرهم، وهلكوا، فلما بلغتهم سلامةُ النبي ﷺ، وبان كذبهم، ساءهم ذلك، وأنزل الله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٥٠].

ولما قرب ﷺ من المدينة خرج الناس لتلقِّيه ﷺ وخرج معهم النساء، والصِّبيان، والولائد، وصعدت المخدَّرات على الأسطحة يقلن:

طلع البدر علينا ... من ثنيَّات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

ولما أشرف ﷺ على المدينة قال: «هذه طابة، وهذا أُحُدٌ جبل يحبُّنا ونحبُّه».

ثم تلقَّاه عامةُ الذين تخلَّفوا، فقال رسول الله ﷺ: «لا تكلِّموا رجلاً منهم» فأعرض عنهم رسول الله ﷺ والمسلمون، حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه.

وقد كان تخلَّف من المنافقين بضعة وثمانون رجلاً، وتخلَّف أيضاً كعب بن مالك رضي الله عنه، وكان من الخزرج، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية رضي الله عنهما، وكانا من الأوس، ولم يكن الثلاثةُ من أهل النفاق، فأما المنافقون فجعلوا يحلفون، ويعتذرون، فقبل رسول الله ﷺ ظاهرهم، وعلانيتهم، واستغفر لهم ووكل سريرتَهم إلى الله تعالى، وأما الثلاثةُ فأرجأهم، وأخَّر أمرهم، ينتظر أمر الله فيهم، وأنزل الله فيهم: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/١٠٦]. نزلت هذه الآية في أوَّل أمرهم، ونزل في آخر أمرهم عند قبول توبتهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ٩/١١٨] الآية.

روى البخاري عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: سمعتُ كعب بن مالك يحدِّث حين تخلَّف عن غزوة تبوك، قال كعب رضي الله عنه: لم أتخلَّفْ عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أنِّي تخلَّفتُ في غزوة بدر، ولم يعاتبْ أحداً تخلَّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريدُ عيرَ قريش، حتى جمع اللهُ بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعاد.

ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهدَ بدر، وإن كانت بدرُ أذكرَ في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن قطُّ أقوى، ولا أيسر حين تخلَّفتُ عنه

في تلك الغزاة. والله! ما اجتمعت عندي قبلَه راحلتان قطُّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريدُ غزوةً إلا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً، وعدوّاً كثيراً، فجلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهَّبُوا أُهبةَ غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتابٌ حافظٌ ـ يريد: الدِّيوان ـ قال كعب: فما رجلٌ يريدٌ أن يتغيَّب إلا ظنَّ أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحيُ الله.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معهم، فأرجعُ ولم أقضِ شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه، فلم يزلْ يتمادى بي حتى اشتدَّ بالناس الجِدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهَّز بعده بيوم، أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوتُ بعد أن فصلوا لأتجهَّز، فرجعتُ، ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوتُ، ورجعتُ، ولم أقض شيئاً، فلم يَزَل بي حتى أسرعوا، وتفارط (تقدَّم) الغزو، وهممتُ أن أرحلَ فأدركَهم، وليتني فعلت، فلم يقدّر لي ذلك، فكنتُ إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفتُ فيهم، أحزنني أنِّي لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النِّفاق، أو رجلاً ممَّن عذر الله من الضُّعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجلٌ من بني سَلِمة: يا رسول الله! حبسه بُرداه، ونظره في عِطفه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجَّه قافلاً حضرني همِّي، وطفقتُ أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ واستعنتُ على ذلك بكلِّ ذي رأي من أهلي؛ فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ

قادماً زاح عني الباطل، وعرفتُ أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعتُ صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفرٍ بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاء المخلَّفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئتُه فلما سلَّمْتُ عليه تبسَّم تبسُّمَ المغضَب، ثم قال: «تعال» فجئتُ أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعتَ ظهرك» (اشتريت جملاً) فقلت: بلى، إني والله! لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله! لقد علمتُ لئن حدثتُك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكنَّ اللهُ أن يسخِطَك عليَّ، ولئن حدَّثتك حديثَ صدق تجد عليَّ فيه، إني لأرجو فيه عفوَ الله، لا والله! ما كان لي من عذر، واللهِ ما كنتُ قطُّ أقوى، ولا أيسر مني حين تخلَّفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقمْ حتى يقضي الله فيك» فقمت، وثار رجالٌ من بني سَلِمة، فاتبعوني، فقالوا لي: والله! ما علمناك كنت أذنبتَ ذنباً قبل هذا، ولقد عَجَزت ألا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلِّفون، قد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله ﷺ لك. فوالله! ما زالوا يؤنِّبونني حتى أردتُ أن أرجع فأكذِّبَ نفسي. ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارةُ ابن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفيّ، فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيتُ حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين مَن تخلف عنه. فاجتَنَبَنا الناسُ، وتغيّروا لنا، حتى تنكَّرتْ في نفسي الأرضُ، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا،

وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم، وأجلدهم، فكنتُ أخرجُ فأشهدُ الصلاةَ مع المسلمين، وأطوفُ في الأسواق، ولا يكلِّمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ، فأسلمُ عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا، ثم أصلِّي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسوَّرتُ جدار حائط أبي قتادة، وهو ابنُ عمي، وأحبُّ الناس إليَّ، فسلَّمتُ عليه، فوالله! ما ردَّ عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة! أَنشُدُك بالله هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله؟ فسكت، فعدتُ له، فنشدته، فسكت، فعدت له، فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتولَّيتُ حتى تسوَّرتُ الجدار، قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطيٌّ من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناسُ يشيرون إليَّ، حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك اللهُ بدار هوانٍ ولا مضيعة، فالحقْ بنا نواسك. فقلت لمَّا قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيمَّمتُ بها التَّنُّورَ فسجرتُه بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزلَ امرأتك، فقلت: أطلِّقها، أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها، ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك، فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضيَ الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأةُ هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! إن هلال بن أمية شيخٌ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك» قالت: إنه والله! ما به حركةٌ إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ ما كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال

لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله! لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجلٌ شابٌّ! فلبثتُ بعد ذلك عشر ليال، حتى كملتْ لنا خمسون ليلة من حينَ نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليتُ الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالسٌ على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرضُ بما رحبت، سمعتُ صوتَ صارخٍ أوفى على جبل سَلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر. قال: فخررتُ ساجداً، وعرفتُ أن قد جاء فرجٌ، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناسُ يبشِّروننا، وذهب قبل صاحبيَّ مُبشِّرون، وركض إليَّ رجلٌ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوتُ أسرعَ من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوتَه يبشِّرني، نزعت له ثوبيَّ فكسوتُه إياهما ببشراه، والله! ما أملكُ غيرهما يومئذ، واستعرتُ ثوبين فلبستهُما، وانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني بالتوبة، يقولون: لِتَهنِكَ توبة الله عليك. قال كعب: حتى دخلتُ المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ حوله الناس، فقام إليَّ طلحةُ بن عبيد الله يهرولُ حتى صافحني، وهنَّاني، والله! ما قام إليَّ رجلٌ من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلمَّا سلَّمتُ على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرقُ وجهه من السرور: «أبشرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك» قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا ، بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وَجْهُه حتى كأنه قطعةُ قمر، وكنا نعرفُ ذلك منه، فلما جلستُ بين يديه قلت: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسول الله ﷺ؟ قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خيرٌ

لك». قلت: فإني أمسكُ سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله! إنَّ الله إنما نجَّاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدِّث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلمُ أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسنَ مما أبلاني، ما تعمَّدتُ منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل اللهُ على رسوله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٧] فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قطُّ بعد أن هداني للإسلام أعظمَ في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ ألا أكون كذبته، فأهلِكَ كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحيَ شرَّ ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ الآية إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٥-٩٦].

قال كعب: وكنَّا تخلَّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ٩/ ١١٨] وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا عن الغزو، إنما هو تخليفُه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه، فقبل منه.

حجة الوداع:

حجة الوداع سنة عشر من الهجرة.

كان خروجه ﷺ لحجة الوداع من المدينة يوم السبت بين الظهر والعصر لخمسٍ بقين من ذي القعدة، واستعمل على المدينة أبا دُجانة السَّاعدي، وكان نساؤه كلُّهن معه، وقد طاف عليهن كلّهن ليلة خروجه، واغتسل، ثم اغتسل ثانياً لإحرامه غير غسل الجماع، وكان دخولُه مكة صبح رابعة من ذي الحجّة يوم الأحد، وخرج معه ﷺ تسعون ألفاً، ويقال: مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ويقال أكثر من ذلك، وهذه عدَّةُ من خرج معه، وأما الذين حَجُّوا معه فأكثر من ذلك كالمقيمين بمكة

والذين أتوا من اليمن مع عليٍّ، وأبي موسى رضي الله عنهما، والكلام على حجة الوداع طويل مذكور في كتب السنة.

وفد نصارى نجران:

وفد على رسول الله ﷺ بعد الهجرة نصارى نجران، فدخلوا عليه المسجد وأدَّوا فيه عبادتهم، وطقوسهم، وتركهم عليه الصلاة والسلام، ولم يمنعهم تألُّفاً لقلوبهم، ورجاء لإسلامهم، لا إقراراً لهم على الباطل.

ولما فرغوا من صلاتهم عرض ﷺ عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فامتنعوا، وقالوا: قد كُنَّا مسلمين قبلك. فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم، يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير، وزعمكم أنَّ لله ولداً».

وناظره ثلاثةٌ من قساوستهم، فقال له الأول: المسيح ابن الله لأنه لا أب له، وقال الثاني: المسيح هو الله لأنه أحيا الموتى، وأخبر عن الغيوب، وأبرأ من الأدواء كلها، وخلق من الطين طيراً، وقال له أفضلهم: فعلامَ تشتمه وتزعم أنه عبد؟.

فقال عليه الصلاة والسلام: «هو عبد الله، وكلمته ألقاها إلى مريم».

فغضبوا، وقالوا: إنما يرضينا أن تقول: هو إله، وقالوا: إن كنت صادقاً فأرنا عبداً لله يحيي الموتى، ويشفي الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين طيراً! فسكت عنهم، فنزل الوحيُ بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٥/ ١٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٩] وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦١].

ثم قال لهم: «إن الله أمرني إن لم تنقادوا للإسلام أباهلكم» (ندعو، ونجتهد في الدعاء باللعنة على الكاذب).

فقالوا له: يا أبا القاسم! نرجع فننظر في أمرنا، فخلا بعضُهم ببعض، فقال بعضُهم: والله! قد علمتم أن الرجلَ نبيٌّ مرسل، وما لاعن قومٌ نبياً قطُّ إلا استؤصِلوا (أُخِذُوا عن آخرهم) وإن أبيتم إلا دينكم فوادعوه، وصالحوه، وارجعوا إلى بلادكم.

ثم إنهم صالحوا النبيَّ ﷺ على الجزية على ألف حُلَّةٍ في صفر، وألفٍ في رجب، ومع كلِّ حلةٍ أوقية من الفضة، وكتب لهم كتاباً، وقالوا: أرسلْ معنا أميناً، فأرسل معهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.

وسيأتي المزيد عن هذا الوفد في الجزء الثاني (ص ٦٠٩).

* * * *



فهرس الموضوعات